

الألف
كتاب
١٥٨

هـ. ج. ٠ ولسز

المقامات النيسابورية

ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد

الكتاب



الهيئة العامة
للمكتبات

مُعَالِمُ تَارِيخِ الْإِنْسَانِيَةِ

الألف كتاب الثاني

الإشراف العام
و بمديره
رئيس مجلس إدارة

رئيس التحرير
المشرف العام

مدير التحرير
أحمد صليحة

الإشراف الفني
محمّد قطب

الإخراج الفني
محسنة عطية

هـ.ج. ولز

مَعَالِمُ تَارِيخِ الْإِنْسَانِيَةِ

ترجمة

عبد العزيز توفيق جباري

المجلد الثالث

في المسيحية والإسلام والمصور الوسطى
ومعصر النهضة

الطبعة الرابعة



الهيئة العامة للطباعة والنشر

١٩٩٤

هذه ترجمة لكتاب

The Outline of History

Being a Plain History of Life and Mankind

By

H. G. WELLS.

Revised and brought up to the end of the Second World War by Raymond Postgate.

١ - راجع الطبعة الأولى المرحوم الأستاذ محمد مأمون نجما والأستاذ

الدكتور عبد الحميد يونس ، وراجع المترجم الطبعة الثانية .

٢ - وعاود المترجم مراجعة هذه الطبعة الثالثة ونقحها على أحدث

الطبعات الانجليزية للكتاب ١٩٦٣ التي أشرف عليها الأستاذ راييموند پوستجات

الكتاب والصحفي الانجليزي المعروف .

محتويات الكتاب

٤٤٤

محتويات الكتاب	٤٤٤
نهر من الصود والخرائط	٤٤٤
كلمة الترجيم	٤٤٤
كلمة الترجيم للطبعة الثانية	٤٤٤
تصدير الطبعة الثالثة	٤٤٤

الكتاب السادس المسيحية والإسلام

الفصل الثامن والعشرون : قيام المسيحية وسقوط الإمبراطورية الغربية ...

١ - اليهودية إيمان الحقبة المسيحية	٤٤٤
٢ - تعاليم يسوع (عيسى) قناتسرى	٤٤٤
٣ - الديانات العامة الجديدة	٤٤٤
٤ - صلب يسوع قناتسرى	٤٤٤
٥ - مبادئه أسسها إلى تعاليم يسوع	٤٤٤
٦ - كفاحات المسيحية والمسيحية	٤٤٤
٧ - قسطنطين الكبير	٤٤٤
٨ - تأسيس المسيحية الرسمية	٤٤٤
٩ - خريطة أوروبا في ٥٥٠ م	٤٤٤
١٠ - خلاص العلوم على يد المسيحية	٤٤٤
١١ - فلان جيردلي	٤٤٤

الفصل التاسع والعشرون : تاريخ آسيا أثناء انحلال الإمبراطوريتين الغربية والبيزنطية

١ - جستان الكبير	٤٤٤
٢ - الإمبراطورية الساسانية في فارس	٤٤٤
٣ - التوسل سوري في عهد الساسانيين	٤٤٤
٤ - أول رسالة من الإسلام	٤٤٤
٥ - زرادشت ومالي	٤٤٤
٦ - للشعوب الغربية في آسيا الوسطى وملاو الهند	٤٤٤
٧ - أسرتا هان وتانج بالصين	٤٤٤
٨ - أهل الصين القديمة	٤٤٤
٩ - فلان الصين القديمة	٤٤٤
١٠ - سلطنة إيران كلعانج	٤٤٤

الفصل الثلاثون : محمد ﷺ والإسلام

- ١ - بلاد كرب قبل محمد (ص) ٧٨١
- ٢ - حياة محمد (ص) حتى الهجرة ٧٨٥
- ٣ - محمد (ص) يصبح نبياً معلوماً ٧٩١
- ٤ - تعاليم الإسلام ٨٠١
- ٥ - الخلفاء الأربعة ٨٠٦
- ٦ - أيام مظنة بني أمية ٨١١
- ٧ - انحلال دولة الإسلام في ظل المهديين ٨٢٧
- ٨ - الفتنة العربية ٨٢٧
- ٩ - الفتن الكبرى ٨٣٢

الفصل الحادى والثلاثون : عالم المسيحية والحروب الصليبية

- ١ - عالم الشرق في أواخر فتراته ٨٣٥
- ٢ - نظام الإقطاع ٨٣٨
- ٣ - ملكة المير والنجوين الفرنجية ٨٤٢
- ٤ - تدمير أبراج القديسين ٨٤٦
- ٥ - كرمقان يصبح إمبراطوراً على الغرب ٨٥٢
- ٦ - شخصية فرناند ٨٥٨
- ٧ - الفتن والتمرد في إسبانيا ٨٦١
- ٨ - القرويين والألمان يتم انضمامهم ٨٦٤
- ٩ - القرويون والغربيون والمجريون والأتراك المسيحيون ٨٦٩
- ١٠ - كيف استعادت القسطنطينية بروما ٨٧٧
- ١١ - الحروب الصليبية ٨٨٢
- ١٢ - الحروب الصليبية اعتباراً مسيحية ٨٩٢
- ١٣ - الإمبراطور فردريك الثاني ٨٩٧
- ١٤ - حروب البابوية وتجاهلاتها ٩٠١
- ١٥ - قائمة أسماء البابوات النظام ٩١٥
- ١٦ - نهاية القرنين القوطيين ٩١٩
- ١٧ - مومنتي المصور الوسطى ٩٢٤

الكتاب السابع

الإمبراطوريات المغولية صاحبة الطرق البرية والإمبراطوريات الجديدة صاحبة الطرق البحرية

صفحة

الفصل الثاني والثلاثون: حثكيز خان وخلفاؤه وإمبراطوريتهم العظيمة (عصر الطرق البرية)

- ١ - آسيا منذ نهاية القرن الثاني عشر ١٢٢
- ٢ - قيام المغول وانتصارهم ١٢٦
- ٣ - رحلات ماركو بولو ١٢٧
- ٤ - الأتراك التبايرن والتشغتايكية ١٢٨
- ٥ - الخلافة وفتح المغول للمسيحية ١٢٩
- ٦ - أسرتا يوان ومنش في الصين ١٣٠
- ٧ - للمغول يركتونك إلى الفرج القبلية ١٣١
- ٨ - إمبراطورية قنجهك وقصر موسكويا (لروسيا) ١٣٢
- ٩ - تيمورلنك ١٣٣
- ١٠ - إمبراطورية المغل للمغولية ١٣٤
- ١١ - القصر (القرن) ١٣٥

الفصل الثالث والثلاثون: نهضة للمدنية الغربية، والطرق البحرية، تحمل مكان الطرق البرية

- ١ - المسيحية والتعليم الغربي ١٣٦
- ٢ - أوروبا تفرح في التنكيز لنفسها ١٣٧
- ٣ - الصليبيون الكبار ويوزوغ لبر الصليبية ١٣٨
- ٤ - كيف حرر القوق من الإسلام ١٣٩
- ٥ - بروتستانتية الألمان وبروتستانتية الصليبية ١٤٠
- ٦ - عالم يستيقظ من سباته ١٤١
- ٧ - الحق الجديد لمن الأوربية ١٤٢
- ٨ - النهضة الأدبية ١٤٣
- ٩ - النهضة الفنية ١٤٤
- ١٠ - أمريكا تدعو للتاريخ ١٤٥
- ١١ - ولي ما كينغ في العالم ١٤٦
- ١٢ - جمهورية سويسرا ١٤٧
- ١٣ - (١) حجة الإمبراطور شارل الخامس ١٤٨

(بد) بروشانت إنا وطمه الأمير في ذلك	١٠٥٥
(ب) القبار السبل القمى المقصاد	١٠٥٦
تصويب الأسطـ	١٠٥٧
فهرست أجدى لكاتب	١٠٥٩
فهرست بالترجم	١٠٦٥

فهرس الصور والخرائط

رقم

١٢٥ - خريطة منطقة إجليل والولايات المحيطة بها	٩٨٧
١٢٦ - خريطة أوروبا سوالى ٥٥٠ م	٧٢٦
١٢٧ - صورة بالقلمية فلسطين وإسلامه	٧٢٨
١٢٨ - خريطة الإمبراطورية الفرقة وإمبراطورية الساسانيون	٧٢٩
١٢٩ - خريطة المدن في آسيا الوسطى وسوريا وإلاد بين القرنين (في القرن الأول للمسيح)	٧٣٠
١٣٠ - صورة لمطلة إقليمية	٧٣١
١٣١ - خريطة الإمبراطورية الفسوية ومقارنتها معاستها بالإمبراطورية الرومانية	٧٣٢
١٣٢ - القرنين طريق يواش تشوانج من الصين إلى الهند ٦٢٩ - ٦٤٥	٧٣٣
١٣٣ - بلاد العرب والبلاد المتاخمة لها	٧٣٤
١٣٤ - بدايات الدولة الإسلامية	٨١٧
١٣٥ - نشأة الدولة الإسلامية في ٢٥ حلاً	٨١٨
١٣٦ - الإمبراطورية الإسلامية عام ٧٥٠ م	٨١٩
١٣٧ - أوروبا سوالى سنة ٥٠٠ م	٨٢٠
١٣٨ - حدود ملككات الفرنجة في عهد شارل مارتل	٨٢١
١٣٩ - الخلقرة سنة ٦٤٥ ميلادية	٨٢٢
١٤٠ - الخلقرة عند محاكمة ويلسور سنة ٨٧٨	٨٢٣
١٤١ - أوروبا عند وفاة شارلمان سنة ٨١٤ م	٨٢٤
١٤٢ - صورة رسم يارز من قبر شارلمان في ليكس لافيل وهو يكوس كنيسة لبادرام	٨٢٥
١٤٣ - خريطة فرنسا في نهاية القرن العاشر	٨٢٦
١٤٤ - إمبراطورية أوتو الكبير	٨٢٧
١٤٥ - ظهور الصليبية	٨٢٨
١٤٦ - الحرب الصليبية الأولى	٨٢٩
١٤٧ - صورة قبر صليبي القديس	٨٣٠
١٤٨ - كنيسة القديس مارك بالبنائية	٨٣١
١٤٩ - القسطنطين الثالث	٩٠٧
١٥٠ - خريطة أوروبا وآسيا سوالى ١٢٥٠ م	٩٢٥

مكة المترجم

قال الرومان بعد الآخرين من صولة الرومان ، ومالت نفس فيصر ، وولت الأيام
الضئيلة والأيام ذؤوك

وانفضت خمس عشرة مئة من السين تلفت فيها البشرية من العيوس
ما تلفت ، وتغاست من العذاب والالام أوقافاً .

خمس عشرة مئة سنة أو يزيد مررت هؤلاء مجللاً حتى لإعجال التاريخ شليليد
الرحية في تخليص ذاكرته من شوائبها ، لما حطت من نظم ، وشقت من جموع ،
ولما قوضت من عتق ولما اجتوحت في الوحدة العالمية العلة التي كانت التي توحيد
التي أعادته الدنيا من الرومان والتي لا تبرح هدفنا الأعلى التي نجد بدلونا إليه .

خمس عشرة مئة من السين توقف فيها موكب الحضارة ، وأخذ الناس يطعمون
طريقهم فلا يجدونه ، وكأنهم هم يطعمون القدم فلا يستطيعون إليه وصولاً ، ويجنحون
إلى إصلاح الحاضر والحاضر خراب وأقاص ، ويتطلعون إلى المستقبل فلا يجدون فيه
بارقة تحيي قلوبهم . وكان الناس في قديم العصور في محبة فألت بهم الحال إلى
نظام ، وها هم أولاء في حال لا هي بالمحبة ولا هي بالمفنية ، حال من الانتكاس
للعوس الموحش .

خمس عشرة مئة من السين أو يزيد أظقت فيها من العلم المعروف سسنة
محلوكة ، فقد فيها الإنسان كل أمل في هذا الوجود ، وارتد إلى الكون قاترون الغاب
الذي نواحه الظفر والخاب ، والذي يفتال فيه القوى الضعيف ، وترجع فيه القوة
كل حتى .

ظلام حالك ولغوض شاملة ، وتلفت لكل شيء إلى جريثاته بل ذراته الأولى .
وقود القنائر يسألون أنفسهم أهكنا نهاية البشرية ؟ أهكنا نعظم كل الأعمال التي
عقدها الناس حل مستقبل مشرق سعيد ؟

ليل جوص حبيب رهن حتى تقطعت نياط الآمال وطاك ما جثم حتى بلغت
التفوس الحناجر ، لما يستطيع أحد أن يفتق بما شغب من دم وحزن .

ولولا أن يد القدر لمعدت إلى تلك الحقبة الطويلة المدينة من الليل الأكبر ،
فلومضت فيها ثلاث ومضات خلقت الأبهار بادئ الرأي ، ثم استردت الأمور
بعض وجها ، وأخذت تلمس بدمع طريقها نحو نور ابتأ شعاعاً في دقة الخيط ،
وما زال يقوى وينبسط حتى أصبح في القرن العشرين قبلاً منهجاً من باهر الفتيان
وماطع الإثراق ، - لولا هذا تقضى حل المدينة في خابرها وحاضرها ، ولأدبل
من الإنسانية إلى أهد الأبدن .

فلما ألومضة الأولى التي شق نورها خياض تلك الظلمة القاحلة ، فلذاك الوليد
الذي انبثقت به أمه مكتناً نصيباً ، والذي كان كلمة من الله شادت بها لولادته
القلبية ، أن تميد إلى النفوس شيئاً من الأمل ، وأن تلقى في روح الإنسانية
ألا تنقطع من رحمة الله . وإذا هو يُعْتَمُّ القوى الرحمة بالضعيف ويدعو إلى الصافي
في خلعة الغير تقانياً يُدْعَل الإنسان في ملكوت السماوات وهو ، بعد في هذه
الأرض ، ويجرحه من عرض الدنيا ويروج مفرقه بحب من يحبون به إذ يمنهم
كل ما تملكه يده من مال وقوة ونشب .

وكانت ألومضة التي أوداها ذلك النبي الرحيم خاتمة وضاعة أطاحت صواب
الإنسانية فلمت يديها توارى العينين قيل أن ينطفئ البرق ضياءهما . وما هي إلا هبة
حتى كان سائر الظلام قد أسدل من جده كثيفاً قاحاً منها

وهوئ البشرية مرة ثانية صريعة أو تكاد

ثم دار الزمان دورته ، وآذ لعتاية أن تلمح الدنيا برحة من ليلها ، تميد إليها
شيئاً من النقة والطمانينة . وجاءت الضمات القلبية في البوادي العربية على يد
تلك اليمع النعال ، الذي آواه وبه وأخفى . إذ يقول له الملك : « اقرأ » وما هو
بقارىء ، ولا يبرح به حتى يقرأ على الناس كتاباً مطهراً ، يدعوهم فيه إلى حياة
الأحد الصمد ، وإلى إنشاء شامل ومحاولة بين القرشي والحبيشي . وأمرهم بالتسامح
والعدل والإحسان ويحضمهم على الصلح الشريف في هذه الدنيا والقرود للأخرة بالصالح

والنقى . لقد أشرق ضياء الظاهر الصادق ، وهبت لصفرة البوادي والبلد عليه الناس رجلا وعلى كل ضامر ، ومهدت البشرية جنية بالإيمان والشارقة والتضحية في سهل الحق والغير .

ثم ظلت على الإنسانية شفتونها ، فظلت إيمانها بالحق ، وحرمت الصلح بالمثل وتماثلت عن كل تضحية .

وانطوى السار ككرة أخرى مرخياً وباجراً ، ودان عن الناس سيات عمى طال في الشرق حتى لتحبسه تماس الأبد .

ثم خفق سراج الفخرف في القرون الوسطى بالومضة الثالثة التي ، أرسلت شرارة بارقة اتصلت بهشم الجيوات الأولى ، ووجدت من المسيحية والإسلام فترا لا ينضب له معين ، فأوقدت ناراً بدأت بإحياء الطوم خليفة نمرى ولا ترى ، واتته بنهضة القرون الوسطى مشوبة حارة ، حتى ترامت إلى ما ترى حراك من مشاعل وهاجة ونيران نباسة الضياء مظرة السطوع . . .

تلك هي الومضات الثلاث التي يؤرخ لها سفرنا هذا إذ ينظر إلى المسيحية ويشيرها الناصري الكريم ، وإلى الإسلام ورسوله المصطفى للمائى الأمين ، وإلى تلك النبوض الذي دفع بدولاب المعرفة والحياة في القرون الوسطى دفعة توجب أذارته إلى ما يحيط بك من حال الشجون في القرن العشرين .

ولن أزيد للقارئ بياناً بالبلبل الطروب الذي يصره في المؤلف هذه الومضات الثلاث بوصفين صوى عظمى في تاريخ الإنسانية ووكاثر تركيز عليها في دولتها نحو الأمام ولا بالتحقيقات الفلسفية العميقة التي يفتب بها عليها ولا بالانقرات الثلاثة الدقيقة والتوجيحات التي مهما يكن رأى بعض الناس لها لأنها صادرة من قلب عظمى مؤمن بما يصر إليه .

ومحب للقارئ أن يقبل صفحات الكتاب يستمع وينتقى .

كلمة المترجم للطبعة الثانية

أحمد الله كثيراً إذ أقدم لقراء العربية هذه الطبعة الجديدة . وقد بذلت في تصحيح هذه الطبعة ومراجعتها على أحدث الطباعات الإنجليزية للكتاب نفس ما بذلت من جهد في مجلتيه الأول والثاني . وأضفت إليه كتاباً في سالفه الشروح والفهارس الأيبانية . وبسبب حارته لتكون في متناول كل فهم رغبة مني في إيلاخ جملة المؤلف للخدمة وعلمه الغزير وبصائرہ الفضلة إلى كل ذي عقل مستطاع يطلب التور .

ع . ش . ج

سمر الجديدة في ١٢ مايو ١٩٩١

تصدير الطيعة الثالثة

كان من الطبيعي أن تنفذ طبعا الكتاب الأولى والثانية . ولا ضرر فائدة
ما سوى من ثقافة عميقة والفلسفة تحليلية ونظرة علمية حليقة ودعوة متعلمة
للى خبر البشرية تكاد تنضم للرسالات العليا التي قام بها أفاضال الرجال ،
لقد أصبح من الأركان العقلية التي لا يستغنى عنها متحف في هذا العصر .

وقد تصادف ، وأنا أطبع الطبعة الثانية من المجلد الرابع ، أن وقعت في
يدى طبعة إنجليزية حديثة جداً تنقسمها المستر راجنرثد ويستجيت فصبطه عليها ،
ولعل ذلك أيضاً بالمجلدين الأول والثاني من الطبعة الثالثة . وكذلك تقع
عليها هذه الطبعة من مجلدنا الثالث هذا .

وقد راجعت ترجمته مراجعة دقيقة . وأعدت النظر في الأحكام فجلت مطابقة لما ورد بالكتاب المقدس وغيره من اللطائف والمراجع وبذا أكنسه إلى القراء راجياً أن يقضوا به باعتباره موسوعة شخصية من العلم والثقافة والتاريخ آمين أن يقبل عليها شبابنا لإطلاعهم وإثرائهم

عزت و جلالہ

مصر الجديدة في أول يناير ١٩٧٢

الكتاب الثاني المسيحية والإسلام

الفصل الثامن والعشرون

قيام المسيحية وسقوط الامبراطورية القبرية

- ١ - اليهودية إبان الحقبة المسيحية .
- ٢ - تعاليم يسوع (مسيح) القناري .
- ٣ - التلاميذ العامة الجديدة .
- ٤ - ميلاد أقيمت إلى تعاليم يسوع .
- ٥ - فلسطين الأكبر .
- ٦ - غريزة أوروبا في ١٩٠٠ م .
- ٧ - تعاليم يسوع (مسيح) القناري .
- ٨ - كليات المسيحية والمطباتها .
- ٩ - تأسيس المسيحية الرسمية .
- ١٠ - عناصر العلوم عن يد المسيحية .
- ١١ - الفيلسوف .

١ - اليهودية (٥) إبان الحقبة المسيحية

لن ننهي لنا فهم خصائص المسيحية التي عليها الآن أن تلعب دوراً كبيراً في تاريخنا ، والتي فتحت آفاق الناس على نواح جديدة للبشر بإمكان قيام علم موحد ، حتى ترجع البصر بضع ثرون ونحملك من الأحداث التي جرت في فلسطين وسوريا ، وما قطر ان اللادك نشأت فيها المسيحية . ولقد أسفنا اليك من قبل أم الحقائق المتعلقة بأصل الشعب اليهودي وتعاليمه ، وتحدثنا عن يهود اللانك (Diaspora) وما طمرت عليه اليهودية من حيث جوهرها من ثقلت وتشرذم حتى وهي في مهد بلانتها ، وعن التطور التدريجي لفكرة إله أحد عادل يحكم في الأرض ويرتبط بوعد خاص قطعه على نفسه : أن يحفظ الشعب اليهودي ويرفضه مكاناً حياً . والفكرة اليهودية كانت وما تزال مزيجاً عجبياً من رحابة أفن لاهوتية ووطنية عنصرية حادة خبيقة . وكان

(١) أوام أو بلاد يهودية أو اليهودية هي ترجمة لفظة (Juden) الألمانية . كما ورد في الجبل الثاني من العهد . ولديها للموسم القوية للمرة باسم يهودا . (الترجم)

اليهود يترقبون مختصاً معباً : مسيحاً يخلص البشرية بطريقة محبة إليهم ، تتلوى على استرجاع ما كان لنظود وسليمان من مجد أسطوري ، ووضع العالم آخر الأمر تحت أقدام اليهودية الخبيرة والحازمة أيضاً . حتى إذا انعطت القوى السياسية للشعوب السامية ، وإذا أفل نجم قراطاج من بعد صور وهوتا في ضباب الظلمات ، وأصبحت أسبانيا ولاية رومانية ، فقد تفرح ذلك الحلم وشاع . وليس ثمة شك أن التليقين للتاترين في أسبانيا وإفريقية وفي كل أرجاء البحر المتوسط ، وهم قوم يتكلمون لغة شليلة القربى بالبرانية ، ويعيشون محرومين من حقوقهم السياسية الأصلية المحقة ، - قد نحاول إلى أتباع لدين اليهودية . ذلك أنه مرث في التاريخ اليهودي أذوار قوية من القوة والسالة الأتصار إلى اليهودية كما تقلت عليه أذوار أخرى من شامل العيرة والاهتزال . إذ حدث يوماً أن اليهود قهرروا الإدمامين (idumeans) ولجبروهم لجمعين أن يصبحوا يهوداً^(١) . وهناك قبائل عربية كانت على دين اليهودية في زمان محمد (صلم) ، وثة حسب تركي في جنوب الروسيا كان في معظمه يهودياً في القرن التاسع . والواقع أن اليهودية هي للذل الأعلى السياسي اتحاد تشكيلة لكثير من الشعوب المحطمة وهي في غالب أمرها سامة الأصل . ولا مراء أن ما لليود من التكاليد المالية والتجارية إنما يعود إلى القوة الفزيقية منهم وإلى دعول الآراميين ملة اليهود في بابل . على أن هذه الانتلاعات والانماجات وألوان الخلل ، التي كانت تقوم تقريباً بكل مدينة من مدن الإمبراطورية الرومانية ، بل تتجاوز حدودها إلى مسافة بعيدة شرعاً ، قد ترتب عليها أن المجتمعات لليودية كانت تثير وزدهر وتزرى وتتصل بعضها ببعض بفضل الثروة وبواسطة هيئة دينية وتعليمية . ولم يحدث في يوم من الأيام أن للشطر الرئيسي من الشعب اليهودي كان يقطن لليودية ، كما أنه لم يفتح إلى العلم من ذلك لقطر أبداً .

ومن الواضح أن هذه المجموعة المتصلة الخلفات من المجتمعات اليهودية كانت تتم بتسهيلات وفرض عظمية جداً من التاحيتين المالية والسياسية . فكانوا يستطيعون أن يجمعوا الموارد والقوى في أيديهم ، وكانوا يستطيعون أن يستثيروا وأن يهدوا وما يلبخوا من الكثرة ولا الحضارة مبلغ الإغرض الذين كانوا حتى آنذاك أوسع منهم انتشاراً ،

ولكن كان لم تراث قديم استاز يهلك أقوى مما كان لدى الإغريق . فكان الإغريق عدوا للإفريقي ، أما اليهودى فكان اليهودى أغاناً وتعصباً . فعيناً حل يهودى ، وجد رجلاً لم عقل مثل عقله . وتقاليده مثل تقاليده . فكان فى وسعه أن يجد المأوى والطعام والقروض المالية والمعون القانوى . من أجل هذا التماسك اضطر الولاة أن يحسبوا هؤلاء القوم حساباً فى كل مكان إما بوصفهم مصدر عون لم أو مهلاً لقروض أو مبعثاً للمتعصب . وهكذا حدث أن اليهود ظفروا بحصتين بكيانهم كشعب ، على حين أصبحت « الخليفة » توراً عاماً بغير الجنس البشرى كافة .



(شكل ١٢٠) مملكة الجليل والولايات المحيطة بها
(Anskvalla) و « حروب اليهود » فلافيوس يوسيفوس - (وهو كاتب مطب بل

ولنا يستطيعون أن يشرحوا هذا
على سبيل التوضيح تاريخ ذلك القسم
الأصغر من الشعب اليهودى الذى عاش
فى بلاد اليهودية (Judea) نفسها .
عاد هؤلاء اليهود إلى مركزهم القديم
المحفوظ بالخطر ، عادوا يلتصقون
السلام مرة ثانية فى وسط طريق
كبير مطروق إن أصبح هذا التعبير .
لقد كانوا فى الزمان القديم يزورون
سوريا وآشور إلى الشمال ومصر إلى
الجنوب . وها هم الآن بين السلوقيين
شمالاً والبطالة جنوباً ، فلما اندمجت
رياح السلوقيين ، هوت على رأسهم
قوة الرومان . ونتيجة لهذا كله كان
استقلال « بلاد اليهودية » على الدوام
أمراً مفيداً غير مستقر . ولابد لقارئ
أن يرجع إلى كتابي « الأخبار العتيقة »

خوزعة وطنية جامعة تبعت في الرأس الجنون) - إذا هو شاء أن يعرف من تحلب عليهم من الحكام ومن الملوك الكهنة الأعليين ، والمكنايين والميروديين ومن شاكلهم . كانت غالبية هؤلاء الحكام من الطوار الشرق المتداد ، مكرين ، خادون وملطحي الأيدي بالعلماء . وقد أخذت منهم أورشليم ثلاث مرات ودمر لهم المعبد مرتين - ولم يبق هذا القطر الصغير من أن تمتد إليه يد الهولاثام لإمعونة يهود القشت الأثوري نقوداً ، حتى كان عام ٧٠م وفيه فتح المدينة تيتوس الابن الثاني للإمبراطور فيبازيان وبطيقته ، ودمرها هي والمعبد على السواء بعد حصار يضرع في السيف والمردة والهول حصار صور وقرطاجة . وقد فعل تيتوس ذلك علولاً أن يقتضى على الشعب اليهودى القضاء للبرم إلا أنه في الواقع زاد الشعب اليهودى قوة بضميره القطة الوحيدة الحساسة المهيضة فيه .

مرت بين السودة من الأسر وبين تدبير أورشليم فزون نعمة انقضت في حروب واضطرابات أهلية داخلية ، ولكن ظل اليهود أثناءها عضطين بصفات سبعة : طاعة - فاليهودى لم يشأ يؤمن يوحانية الإله إيماناً راسخاً ، وعولا يقبل أى إله آخر إلا الإله الواحد الحق . وإنه ليقف في روما كما يقف في أورشليم رفضاً في رجولة عبادة أى قيصرب . كما أنه استسك جهد طاقته بمواقفه مع ربه . فلم يكن يسمع بلحول أية تماثيل منحوتة لى أورشليم ، بل إن الأعلام الرومانية نفسها بما عليها من نسور اضطرت أن تبقى خارج المدينة ،

وإنك لتستطيع أن تتعقب عند اليهود اتجاهين فكريين متباعدين أثناء تلك المئات الخمس من السنين . فأت وأجد لى العين ، إن جاز لنا مثل هذا التعبير ، فة اليهود العليا المتشددة ، وهم القريسيون الذين يستسكون بقبيلة السلف أبلغ استسك ويحافظون تماماً حتى على أدق تفاصيل الشريعة ؛ وهم شديدو الوطنية قويو الفزعة الانتزالية . وحدث ذات مرة أن سقطت أورشليم في يد الملك السلوق أنطيوخوس الرابع ، لأن استساكلهم بقيدتهم أبى عليهم أن ينافسوا عنها يوم السبت حين يحرم عليهم العمل . وكذلك ترب على امتناع اليهود فيما بعد من بذل أى جهد يوم السبت

تطهير أدوات الحصار التي ألقاها يرمي السلم على أورشليم ، أنه استطاع أن يستولى عليها .

ولكن كان يوجد لقاء هؤلاء اليهود المتشددين ، يهود أخرونسمو الأتقي ، هم يهود اليسار ، الذين كانوا يؤمنون بالمذاهب الخلفية ، ويمكن أن يضم إليهم الصدوقيون (Sadducees) — الذين لم يكونوا يعتقدون في الخلود . وكان هؤلاء اليهود الآخرون وهم اليهود الواسع الأتقي ، عيلون جميعاً — وإن بدرجات ، عداوة — إلى الامتزاج والاندماج في الإغريق والشعوب الهلنستية المحيطة بهم . وكانوا على أتم الأهلية أن يقبلوا في ملتهم أتباعاً جديداً ، وبذلك يتسامحون ويؤيرون الرب ووعده مع البشرية كلها . بيد أن ما كسبه من الساحة وسعة الأتقي خسروه في ناحية الاستقامة وحسن السمعة . فهم في بلاد اليهودية يعتبرون المظالمين المتكالبين على الأمور الدينية . ولقد ذكرنا من قبل كيف أن يهود مصر الهلنستين قتلوا لغتهم العبرية واضطروا إلى نقل توراتهم إلى الإغريقية .

وظهر في بلاد اليهودية ، في أيام طبريوس قيصر ، معلم عظيم قدّر له أن يحرر الإمبراطور العميق لبر الله ووحانيته التي لا تقبل تحدياً ولا جدلاً ، والزامات الإنسان المنوية بحوا الله ، وهي التي كانت دعامة لقوة العقيدة اليهودية السلطانية ، — يحررها من ذلك التشدد الضيق الاحتزالي الجشع ، الذي كان يخالطها في اللعن اليهودي على أبلغ صورة خارقة كان ذلك المعلم هو يسوع (عيسى) الناصري ، الذي هو نواة المسيحية أكثر منه مؤسسها .

٢ — تعاليم يسوع (عيسى) الناصري

إن الجمهور الذي سيقدم إليه هذا الكتاب أول ما يقدم ، سيكون معظمه من المسيحيين ، وربما يكون فيه بعض قراء متأثرين من اليهود ، والاولون على أقل تقدير ، يظنون يسوع الناصري شيئاً أعظم كثيراً من مجرد معلم من البشر كما يظنون ظهوره في العالم لاحقاً طبيعياً في التاريخ بل شيئاً إعجازياً خارقاً ، بغرض توفير ما للصحة من ناموس ثابت للتطور يهدف إلى « وهي مشترك وإرادة مشتركة » وبحوله عن طريقه

— الأمر الذي ما يرحنا حتى الآن تقف ألوه في هذا الكتاب . بيد أن هذه المحطات على ذبوعها في أوروبا وأمريكا ، ليست مع ذلك معضدات الناس كافة ولا للغالبية العظمى من الجنس البشري ، ونحن إنما نكتب هذه المعالم ، في تلوين الحياة ، بجانبين بأنفسنا مستطاعا كل ما من شأنه أن يثير منازعة أو جدلا . كما أننا نحاول أن نفترض ونحن نكتب أن من سيقراء هذا الكتاب من المعتنك أو المسلمين أو اليوقيين يعدلون في عديم من يقرأونه من الأمريكيين والأوربيين الغربيين . لذلك نستمسك بالحقائق الظاهرة استمساكاً دقيقاً ونجانب — دون أية منازعة أو إنكار — كل الشروح اللاهوتية التي فرضت عليها قرضاً .

وستجربك بما اعتقده الناس في يسوع الناصري ، أما هوفمانا فننظر إليه كما بدا ، أي بوصفه بشراً على نحو ما يفعل المصور تعلماً حيث يلتزم حين يصوره لإظهاره في صورة البشر . وسنعالج الوثائق التي تكون أعماله وتعاليمه على أنها وثائق بشرية عادية . فلماذا سلط أنبياء الألووية من خلال ثلاثتنا لها ، فلي نعينه ولن نحجب . وهذا هو ما علمناه آنفاً في حالة يوحنا ، وهو ما سنهجه قريباً مع محمد (صلى الله عليه وسلم) . فليست مهمتنا أن نكتب عن يسوع من الناحية اللاهوتية بل من وجهة التاريخ . وليست عنايتنا موجهة إلى أهمية حياته الروحية واللاهوتية ، بل إلى تأثيراتها على حياة الناس السياسية واليومية .

ويكاد يكون المصدر الوحيد للمعلومات عن شخصية يسوع (عليه السلام) معصوراً في الأناجيل الأربعة (Gospels) ، وكلها كانت بالتأكيد موجودة بعد ولادته بضع عشرات من السنين ، ومن الإشارات إلى حياته رسائل (Epistles) الدعاة للمسيحيين الأوائل ، ويطلق الكتبة أن الأناجيل الثلاثة الأولى ، متى ومرقس ولوقا ، مستمدة من بعض وثائق أقدم بها ، ولكن إنجيل لوقا يصنف بطابع أخص وأبرز ، كما أنه يصطبغ بصبغة لاهوتية ذات طابع علمي قوي . ويحيل النقد إلى اعتبار إنجيل القديس مرقس أصبح ما كتب من شخص يسوع وأعماله وأقواله وأجربها بالغة . بيد أن الأناجيل الأربعة مجتمعة في إعطائنا صورة لشخصية واضحة الخلود تماماً . وهي تحصل من الإحتكاك ببعضها فمن ذلك الإحتكاك الذي تحصله إلينا البيانات الأولى المتواترة عن يوحنا .

وبالرغم مما أعيد إلى القصة من إضافات معجزة وأمر لا تصلق ، فإن المرء لا يسعه إلا أن يقول : إن هنا إنساناً حقاً . إذ ليس من الممكن أن يكون هذا القسم من القصة من تسج الجهال والاعتراخ .

ولكن كما أن شخصية جوتاما بوذا قد شوهت وانطلمست وراء تلك الصور الجاهلة المزيمة التي عليها وزن القومية المتطرفة المذمومة ، فكذلك يشعر المرء أن شخص يسوع التحيل المكشوف قد أضر به كثيراً ذلك الجوهر الرومي وتلك الروح التقليدية اللذان فرضهما على صورته في القرن المسيحي الحديث تجميل خاطئ من رسام قات . كان يسوع مسلماً ذا خصاصة ، يتجول في « بلاد اليهودية » المرة الثلاثة الشمس ، ويمشي على عبات عرضية من الطعام ، ومع ذلك فإنه يصور على اللوام نظيفاً يمشط الشعر مرجله صقيل الإهاب ، تقي الثياب مستقيم النمو ، ومن حوله مكون لا يرم كائناً هو منزلق في الموله . وهذا وحده قد جعله وهماً لا يؤمن به الكثير من الناس ، الذين لا يستطيعون أن يميزوا بين لباب القصة وبين زخرف إضافات التصيين والتجلية غير الموقفة التي يضيفها بعض المثبتين بنهاء .

ومن الجائز أن الأجزاء الأولى من الأناجيل استقرادات وإضافات مع نفس هذا الطراز . فإن المعجزات المتصلة بموله يسوع : ذلك التجم العظيم الذي جلب الحكاه من الشرق ليهبوا الله حاكفين عند مهده باليهود ، ومذبحه الأقطال المذكور في بيت لحم بأمر هيرودس نتيجة لهذه الظواهر والتلو ، والمهرب إلى مصر ، إنما هي أمور يظنها كلها كثير من القضاة من أمثال تلك المواد المضافة . وهي في خير أسوأها حوادث لا ضرورة لها للتصايم ، وهي تسلبها الشيء الكثير مما لها من قوة وسلطان عندما تجرد من مثل تلك الإضافات وكذلك الشأن في مسألة النسب المتناقضة التي أوردناها من ولوقا ، والتي يحولان فيها إرجاع النسب المباشر لأبيه يوسف إلى الملك داود ، كائناً كان شرفاً ليسوع أو لأى إنسان آخر أن يكون رجل كهذا أحد أسلافه . وإدخال هذه الأساطير أشد إيماناً في الثغرة وسفارة الحقول لأن يسوع كما تقول القصة لم يكن ابناً ليوسف بناتاً . إذ قد حلت فيه أمه بطريقة إعجازية .

فلذا نحن جردنا هذه القصة من هذه الإضافات المسيرة ، وجعلنا أنفسنا ليزاد كائن مكتمل الإنسانية موفور الجسد مرفق العاطفة والحساسية ، عرضة للتنقيب

السرعة ، يعلم الناس مبادئ جديدة بسيطة عميقة : هي أبوة الرب العامة المحبة ومحبة
 مملكة السماء . وخشي من لبيان أنه كان شخصاً - إن جاز لنا أن نطلق عليه هذا اللفظ
 القادى - ذا جاذبية شخصية بالغة القوة . فكان يجذب إليه الأتباع ويعلمهم بالمحب
 والشجاعة . وكان الضعفاء والمرضى من الناس يتشجعون بحصرته وبرأون مما هم ،
 ومع ذلك فإنه كان على الأرجح ذا بنية ضعيفة ، استنتاجاً منا من السرعة التي مات بها
 من آلام الصلب . وهناك خبر متواتر يقول بأنه أنفى عليه صتما كلف بأن يحمل صليبه
 إلى مكان التضيق كما جرى بذلك المرف . وكان يناهز الثلاثين من عمره عندما شرع لأول
 مرة يعلم الناس . وقتل بموجب البلاد ثلاثة أهوام ينشر مبادئه ، ثم هبط أورشليم ، وأهم
 بأنه يحل أن يضم مملكة صبية في بلاد اليهودية ، وحكم بهذه الأمة ، وصلب مع
 اثنين من الموصي . وقبل أن يموت حلان بزمان طويل كانت آلامه قد انتهت .

ومن الحقائق الثابتة أن ما تحو به الأنجيل من مجموعة الأخبار والتأكيكات اللاهوتية
 التي تولد للمبادئ المسيحية الطقوسية لا يقوم إلا على سند معلود جداً . إذ لا يوجد في
 هذه الكتب كما قد يرى القارئ نفسه ، ما يدعم ويؤيد كثيراً من تلك المبادئ التي
 يرى معلمو المسيحية على اختلاف تعلمهم أنها ضرورية بوجه عام لخلاص . فإن منها
 من الأنجيل غالباً ما يكون سنداً غير مباشر ومستنداً على الإشارة . ولا بد إذن من
 تصيد تلك السند تصيداً وإقامة المحبة عليه بالبحث والمجادلة . وفيها صدا بعض
 فقرات تدور حولها المنازعات ، يصير عليك أن تجد كلمة نسبها فضلاً إلى يسوع فستر
 فيها مبادئ الكفارة والقداد أو حاض فيها أمثاله على تقديم القرايين أو تناول سر مقلس^(١)
 (Sacrament) (وهي أسماء وظيمة رجال الكهوت) . وسرى من فودما كيف مزي
 الشقاق حول مسألة التالوت فيها بعد ، العالم المسيحي بأسره . وليس هناك من دليل
 واضح على أن حوارين المسيح اعتنقوا ذلك المبدأ . كذلك لا يبرز هو دعواه
 أنه المسيح ، ولا يضمنى على اشتراكه مع الله في الربوبية أى ثوب بارز ربما أحسن
 أنه لم يكن ليقونه أن يصفه لو أنه كان براه أمراً في الدويعة الأولى من الأهمية .
 ومن أشد ما يحير الب قول (إنجيل متى ، الإصحاح ١٦ - ٢٠) : « سينظ

(١) على أن السيد المسيح عليه السلام : « أعط سزا وشكر وأسلام قالوا هذا هو جسد
 الذي يذبح منكم ، اصعدوا هذا للكرسي » (لوقا ٢٢ : ١٩) . (الترجم)

أوصى تلاميذه أن لا يقولوا لأحد إنه يسوع المسيح ؛ لأن الصير أن يفهم الإنسان السر في هذا المقع (٢٢) ، إذا فرضنا أنه كان يعد هذه الحقيقة من ضروريات الخلاص .

ثم إن مراجعة نفس السبت اليهودي ، وهو الذي استبدوا به الأحد ليثرائي (٢٣) ، ظاهرة هامة جداً كثير من التحلل المسيحية ، على أن يسوع لم يرفع السبت متعلداً وذلك إنه خلق لأجل الإنسان ، ولم يخلق الإنسان لأجل السبت . وهو لم يصفه بكلمة واحدة من عبادة أمه مريم في صورة ليزيس ملكة السماء . كما أن الكثير مما هو من أعصى عصا الصليب المسيحية في العبادة والطقوس التي من إخضاعاً تاماً . ولقد بلغ من جرأة الكتاب المشككين أن أنكروا إمكان أن يسمى يسوع مسيحياً على الإطلاق . ويجب حل كل قوى أن يلبأ إلى مرشدته الذين ليس فيهم من هذه الفترات الخارقة في تعاليمه . ونحن هاهنا مضمون بأن تذكر تلك الفترات لما تولد منها من صعوبات ومنازعات ، كما أننا مضطرون أيضاً ألا نتوسع فيها .

وما يسترعى الانتظار أيضاً ، تلك الأهمية الخاطلة التي يضفيها يسوع على الفكرة تعاليمية التي أنعمها وملكة السماء ؛ وعدم أهميتها النفسية لإجراءات وتعاليم غالب الكنائس المسيحية .

إن هذا المبدأ ، مبدأ مملكة السماء ، الذي كان رأس تعاليم يسوع ، والذي يلعب دوراً ضخماً جداً في العقائد المسيحية ، إنما هو ولازمه من أشد المبادئ الثورية ، التي قدورها - أبعد الدهركه - أن تحرك الفكر الإنساني وتغيره . فلا غرو وإن أن علم ذلك الزمان طامه أن ينوك منزلها الكامل - وتراجع يائساً مرتاعاً ناكساً عن أية حوجة من فهم لتضحياتها الخاطلة لعادات المجلس البشري وتكملة الدراسة . ولا حجب أن المسيحية الحديث والتلاميذ الجدد المترددون يتقاربون من فورهم إلى الفكريات المألوفة القديمة : فكريات المعبد والليكل والآلة الشرسة ، ومرحيات الأسوضاء والكنائس المكرس والبركات السحرية . ولم تثبت رعاية القوم لهذه الأمور ، أن انتكست بهم ثانية إلى الحياة القديمة للآلة الخبيثة ، حياة الأسفاد والأرياح والمطافة والامتلاك . ذلك أن مبدأ مملكة السماء ، كما يلوح أن يسوع كان يشره ، لم يكن ليقل من طلب سرى لا هريدة فيه يتحدى لإحداث تغيير وتطهير كاملين على حياة جفنا المناضل ، أي أحداث

(١) كان المبع ملكة ، لأن البحر يسمي المسيح . كما تقول الدوائر المسيحية الخاطلة كان طوطم إلى يقدان الصلب ، والصلب وسيلة الخلاص . (الترجم)

(٢) الفكر المقع ٢٥ ط ٢٥ ص ١٤٥ و ١٣٢ . (المترجم)

تطهير شامل مطلق في جوانية الناس ويراثيم^(١) . وحل القارى أن يرجع إلى الأناجيل
مقتضاً كل ما تبقى من هذه الصلصة الخالصة . فلما هنا بمنين إلا بالتركة القوية التي
أحدثها في الفكرات الوطنية القائمة .

كان اليهود على اقتناع تام بأن الله ، الرب الأرحم العالم بأسره - وببر وهدي ،
يبدأنهم زعموه كذلك رباً متجسراً ، آثم مع أبيهم أبراهام (إبراهيم) صفة هم قوامها ،
وهي لا جرم صفة طيبة جداً لم - هي أن يرفعهم آخر الأمر إلى مكانة الصدارة
في الأرض . ولقد ما كان ارتياحهم وغضبهم عندما شهدوا يسوع يكسح لثامه
كل ما يعززون به من ضمانات ، إذ يعلم الناس أن الله ليس من المسامين . وأن ليس
هناك شعب غبار ، ولا أخطاه في ملكوت السموات . وأن الله هو الأب المحب لكل
الإنبياء ، وأنه لا يستطيع الخصام البصر بالرعيات عدم استطاعة الشمس ذلك
سواء بسواء . وأن الناس جميعاً زعموه كلهم خاطئ^(٢) آثم وكلهم أهله محبون لذلك
الأب القنوس . وإن يسوع في ضربه للناس مثلك السامري الطيب ، قد ازدري
ذلك الميل الطبيعي الذي منحصر له فموسماً جيداً ، والذي نزع به إلى تمجيد شعبنا نحن
ولكى الخط من شأن ما لدى النحل الأخرى والأجناس الأخرى من هدى وير . وأنه
في المثل الذي ضربه عن الهالك قد اطرأ تلك الصخرة للعبيدة التي يهدي بها اليهود
بأن لم صرباً من حق الرحمن الأول على الله جل جلاله . فالحق - كما علم السيد المسيح -
يخدم على السواء كل أولئك الذين يتلقاهم في الملكوت . فليس هناك تمييز في معاملته
إذ ليس لمصلحة وطيبته من حدود . وهو فضلاً عن ذلك يطالب الناس جميعاً ببدل أقصى
ما في استطاعتهم - كما يشهد المثل الذي ضربه عن ، الورقة المدفونة ، وكما تنزهه
حادثة فلنفس الأرملة . وليس هناك أية امتيازات ولا خصم في الأسعار ولا مفاذير
في ملكة السماء .

بيد أن يسوع لم يتصرف فقط على ازدراء وطنية اليهود القبلية الحادة وحدها : لأنهم كانوا
أيضاً شعباً ذا ولاء عالي شديد ، وذلك بينما كان يسوع يبتنى أن يكسح طوقان بطرف
من حب الله كل المواطنين العالية المتشددة الخالصة بالقيود الضيقة . فلم يكن بد لملك
السماء بأسرها من أن تكون عائلة أتباعه . وبمحدثنا الإنجيل أنه : وفيما هو يكلم الجموع
إنما أمه وإخوته قد وقفوا خارجاً طالبين أن يكلموه : فقال له واحد : هوذا أمك

(١) يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أسمع جوارحه يسلم الله برائتك » . (الترجم)

وإخوتك والظنون غارِباً طالِبين أن يَكلموك . فأجاب وقال للقاتل له : من هي أُمي
ومن هم إخوتي ؟ ثم مد يده نحو تلاميذه وقال : ها أُمي وإخوتي ! ! لأن من يصنع
مشيئة أبي الذي في السموات هو أُمي وإخوتي وأُمي ، (إنجيل متى الإصحاح الثاني عشر
٢٦ - ٥٠) .

ولم يقتصر يسوع على كَيْل الضربات الوطنية ولروابط الولاء للعائل باسم أبوة الله
العامة وأخوة الجنس للبشرى أجمع ، بل إن من الواضح أن تعاليمه كانت تستذكر كل
ما ركب عليه النظام الاقتصادي من تدرجات ومراتب وكل ثروة خاصة وكل منفعة
شخصية . فالتاس جميعاً ينتمون إلى الملكوت ، وكل ممتلكاتهم تنتمي إلى الملكوت ،
والحياة الصالحة البرة لكل الناس ، الحياة البرة الوحيدة ، إنما هي في خدمة لإرادة الله
بكل ما لدينا من حلة وبكل ما نملك من كيان . ولعلنا نشهر بالثروة الخاصة مرة
بعد مرة كما قم منخربات الأفراد وعلى الاحياطات في حياتهم الخاصة .

« وفيما هو خارج إلى الطريق ركض وسجد وسجد له ، وسأله أيها المعلم الصالح ،
ماذا أعمل لأثرت الحياة الأبدية . فقال له يسوع لماذا تلتحنى صليحاً ؟ ليس أحد صالح
إلا واحد وهو الله . أنت تعرف الوصايا ، لا تزني ، لا تقتل ، لا تسرق ، لا تشهد
بالبزور ، لا تسلب ، أكرم أبائك وأهلك . فأجاب وقال له يا معلم هذه كلها حفظتها
منذ صغرتي . فنظر إليه يسوع وأحبه وقال له يهوزك شيء واحد ، إنذهب بيع كل
مالك وأعط الفقراء ، فيكون لك كنز في السماء وتمال أيقني حاملاً للصليب . فأتهم
على القول ومضى حزيباً لأنه كان ذا أموال كثيرة

« فنظر يسوع حوله وقال تلاميذه ما أعسر دخول فري المال إلى ملكوت الله !
فصحب التلاميذ من كلامه . فأجاب يسوع أيضاً وقال لهم يا بني ، ما أعسر دخول
المتكلمين على الأموال إلى ملكوت الله . مرور رجل من قبة ليرة أيسر من أن يدخل
خفي إلى ملكوت الله ، (إنجيل مرقس . الإصحاح العاشر ١٧ - ٢٥) .

وغضبا من ذلك لأن يسوع في نبوءته الهائلة عن هذا الملكوت الذي يجمع الناس
كلهم ويجمعهم فرحاً واحداً في الله ، كان يضيئ صليحاً بما في الحياة الرمية من بر
وصلاح يقوم على المساومة .

وهناك أيضاً جزء كبير من أقواله المسجلة موجه ضد الرعاية الدقيقة لتقواعد التقوى وحيلة التقى . واجتمع إليه القريسيون وقوم من الكتبة قادمين من أورشليم . ولما رأوا بعضاً من تلاميذه يأكلون خبزاً بأيديهم ، لأن القريسيين وكل اليهود إن لم يسلوا أيديهم باعتناء لا يأكلون متسكين بتقليد الفيوخ . ومن السوق إن لم يسلوا لا يأكلون . وأشياء أخرى كثيرة تسلموها لتلك بها من غسل الكؤوس وأباريق وآنية نحاس وأمرأة . ثم سأله القريسيون والكتبة لماذا لا يسلك تلاميذك حسب تقليد الفيوخ بل يأكلون خبزاً بأيديهم غير موصولة . فلجاب وقال لهم حسناً ثانياً إسميائاً حينكم أتم المرابي كما هو مكتوب . هذا الشعب يكرمني بشفتيه ، أما قلبي فبعد عنى بعيداً . وباطلاً يبعدونى وهم يعلمون تعاليم من وصايا الناس . لأنكم تركتم وصية الله وتتمسكون بتقليد الناس . غسل الأباريق والكؤوس وأموراً أخرى كثيرة مثل هذه تفعلون . ثم قال لهم حسناً رفضتم وصية الله لتحفظوا تقليدكم ، (إنجيل مرقس . الإصحاح السابع ١ - ٢٩) .

كذلك أيضاً ، نستطيع أن نلاحظ مشرات المواضيع التي ازدرد لها تلك الفضيلة الأثيرة لدى المتسكين بالشكليات ، وأهني بها رعاية السبت .

لم يكن ما أمكنه يسوع مجرد ثورة أخلاقية واجتماعية . فإن من الواضح من مشرات اللائيل ، أن تعاليمه كان لها طابع سياسى من أبسط الأنواع وحفا إله قال إن ملكته ليست من هذا العالم ولكنها موجودة في قلوب الخلق ، وليست فوق مرش ، ولكن بضارع هذا في الرضوح أنه حياً أقومت ملكته وبأيا كان الملقى الذى تقوم به في قلوب الخلق ، فإن العالم الخارجى يتجدد ويحدث له انقلاب ثورى بنفس ذلك الذى بالاضبط .

ومهما يكن ما فأت سامعية من أشياء أخرى من أقواله بسبب معهوم وعمايتهم ، فإن من الواضح أنهم لم يخف عليهم اهترامه لإحداث انقلاب ثورى في العالم . وبعض الأسئلة التي كانت تحمل إلى يسوع والأجوبة التي أملا بها ، نمكتنا من أن نحس نوع واتجاه الكثير من تعاليمه غير المسجلة . فإن نزعه الصريحة في مهاجمة لسياسة تتجلى في حادثة كعادته للعملة .

« ثم أرسلوا إليه قوماً من الفريسيين والمهروديسين لكي يصطادوه بكلمة . فلما جاءوا قالوا له : يا معلم ، نعلم أنك صادق ولا تبالي بأحد ، لأنك لا تنظر للوجوه الناس ، بل بالحق نعم طريق الله . أيجوز أن نعطي جزية لقبصر أم لا ؟ نعطي أم لا نعطي ؟ فلم يجابهم وقال لهم : لماذا تجربوني ؟ ليتوني بدينار لأنظره . فأثابوا به . فقال لهم : لمن هله الصورة والكتابة ؟ فقالوا له لقبصر . فأجاب يسوع وقال لهم : إعطوا ما لقلبصر . لقبصر وما لله فله » (إنجيل مرقس . الإصحاح الثاني عشر ٢٢ - ٢٧) . وهي قصة لو نظرنا إليها على ضوء ما نلوه ما علمه ، لم ينبئ لقبصر إلا الشيء القليل من نفوس الناس أو مما يمتلكون .

وإن الجول الذي يتكشف خصوصه ومعارضه وظروفها كنه وأعادته ، لتظهر بأجل بيان أنه كان يوحس لعين معاصريه في صورة من يقترح حراحة - بل من قد اقترح فضلا حراحة - تغيير الحياة الإنسانية برمتها وصهرها وتوسيع جناتها . ولكن حتى تلاهيله أنفسهم لم يدركوا المعنى العميق الشامل الذي يطوي عليه ذلك الاقتراح . إذ كان لا يزال يمشي على عقولهم الحلم اليهودي القديم بملك أي مسيح يقضي على سلطان أسرة هرودس المهلئين والسيد الأعلى الروماني ، ويسترجع أعباد ملوك الأسطورية ولعمري لقد أضلوا مادة تمايمه ، على ما كان بها من وضوح وقصد إلى النابغة ؛ وواضح أنهم زعموا أنها لم تكن إلا طريقة الخفية القلقة للبنة في المعامرة التي ترغبه آخر الأمر للعرش أو لشلم . فزعموه مجرد ملك جديد في سلسلة الملوك التي لا نهاية لها ، ولكن من طراز شبه مسخرى يتلقى بصريجات شبه سحرية من فضيلة مستحيلة .

« وقدم إليه يهتوب ويوحنا إينا زبدي قائلين : يا معلم نريد أن تفعل لنا كل ما طلبنا . فقال لهم : ماذا تريدان أن أفعل لكما ؟ فقالا له : أعطنا أن يجلس واحد من يمينك والآخر من يسارك في مجيئك . فقال لهم يسوع لسنا تعلمان ما نطلبان . أنتصليمان أن نشرب الكأس التي أشربها أنا وأن تصطبغا بالصصة التي أصطبغ بها أنا ؟ فقالا له نستطيع ، فقال لهم يسوع : أما الكأس التي أشربها أنا فتشربانها بالصصة التي أصطبغ بها أما تصطبغان . وأما الجلوس من يميني وعن يساري فليس في أن أعطيه

لأهلين أعيدهم لهم . ولما سمعوا العشرة اجتمعوا ينتظرون من أجل يعقوب ويوحنا .
فلما سمع يسوع وقال لهم أنهم يظنون أن الذين يُعَسَّبُونَ رؤساء الأمم يخدمونهم وأن
عظامهم يسلطون عليهم . فلا يكون هكذا فيكم . بل من أراد أن يصير فيكم عظيماً
لنكم خادماً ومن أراد أن يصير فيكم أولاً يكون للجميع عبداً . لأن ابن الإنسان أيضاً
لم يأت ليُخدم بل ليُخدم . وليبدل نفسه فدية عن كثيرين . (إنجيل مرقس .
الإصحاح العاشر ٣٥ - ٤٤) .

كان هذا أسوأ جزاء لأولئك الذين كانوا يبحثون عن جزاء مناسب لخدمتهم
ومتابعهم التي يلاقونها في اتباعهم إياه . فلم يستطيعوا أن يصدقوا هذا المبدأ الشديد
القاتل بملكته قوامها الخدمة كانت في حد ذاتها هي جزاءها العظيم الأوفى .
ومع ذلك لأنهم حتى بعد وفاته على الصليب ، استطاعت عقولهم أن تقبل بعد
انقشاع ضلوعهم الأول ، الانكفاء إلى الاعتقاد بأنه كان مع ذلك يزرع منازع السلام
للقديم علم الأجيال والامتيازات . وأنه موفٍ بدمه حياً من لونه بإحدى عجيبات
المعجزات ، ويعود ويقم عرشه بالأية العظيمة والساحرة الفياضة في أورشليم . لقد
ظنوا أن حياته خطة محكمة وأن نماته أجيولة مدبرة .

كان أعظم من أن يصل إليه فهم تلاميذه . وهل يصعب الفاري - بالنظر إلى
ما قاله صراحاً - أن يشرك كل الأغنياء ولوسرين برعب من أشياء ضريبة ، وأن يحسوا
بأن عالمهم بعيد ويلو من حولهم بسبب تعاليه ؟ ولعل الكهنة والحكام والأغنياء فحور
أكثر وأحسن مما فهمه أتباعه . ذلك بأنه كان يستخرج دفين مدخراتهم الصغيرة الخاصة التي
كونوها من الخدعة في مجتمعهم ويكشفها للأنظار في ضوء حياة دينية عامة . كان
أشبه شيء بصياد أخلاق رهيب يحفر عن الإنسانية ويخرجها من بحرها الدفء الذي
هاشت فيه حتى ذلك الحين . وتمت أنوار السراج الوهاج لملكته منه ، لم يكن يجوز
وجود أية ممتلكات ولا امتيازات ولا استكبار ولا أفضلية (أسبقية) . ولعصر الحق
ما كان فيها من حافز ولا جزاء إلا للعبة . أغفر المسيح إذ أن انهزمته القوم وحيث
عبرهم تصابيحوا كلهم عليه ؟ بل إن تلاميذه أنفسهم تصابيحوا به عندما رفض أن

يعني أيهم من ساطع الضياء . ألن العجيب إذن أن يدرك الكهنة أنهم لم يكن بين هذا الرجل وبين أنفسهم خيار إلا أن يموت هو أو تهلك الكهنة ؟ أحجيب إذن أن اليهود الرومانيين ، وقد واجههم وأخذهم شيء ، يملو على أنفاسهم ويهدكل أنظمتهم ، يلوذون بالضمك الضاري ، ويترجون هامة بالشوك ويضجون عليه ثوباً أرجوانياً ليتخذوا منه قميصاً سحريراً ؟ ذلك أن أعلم إياه أنه الجد ، كان مناه النحول في غمار حياة عجيبة وحياة ، وترك مألوف العادات وصبط هائج للثرائر والدوايح ، وعذولة دوك سعادة لا يصنعها عقل .

ألن العجيب أنه حتى هذا اليوم ، ما يفتأ هذا الجليل أكبر مما تنفع له قلوبنا الصغيرة ؟

٣ - الديانات العامة الجلييلة

ومع هذا لما يجب ملاحظته أنه بينما كانت تعاليم يسوع الحقيقية تضم كثيراً من الأديمة التي لا يستطيع أن يقبلها غنى أو كاهن أو تاجر أو موظف إمبراطوري أو أي ملهى حادى يحترم إلا ولم تطرق حياته انقلاب هائل يقبلها رأساً على عقب ، فلم يكن منها شيء لا يندرك لقبه بقبول حسن رجل ممن يقيمون تعاليم حوثاما ساكنيا الحقة ، إذ ليس شيء يحول بين بوذى يلدنى وبين أن يكون نصرانيا ، وكذلك ما من شيء يمنع أحد التلاميذ المباشرين ليسوع من اعتناق تعاليم جوثاما بوذا المسجلة .

ولذلك الآن حله المقطعة المختصة من كتابات رجل صيني هو « مو » (١) ، الذي كان يعيش في زمان ما في القرن الرابع ق . م ، وقت ما كانت تعاليم كفو شوبوس ولاهوتزه منتشرة في الصين ، قبل هبوط البوذية إلى تلك البلاد ، فتأمل نفسها وانظر كم هي نصرانية الروح .

• إن الاختناقات المتبادلة بين دولة ودولة ، والاختناقات المتبادلة بين عائلة وأخرى ، والسرقات المتبادلة بين الإنسان وأنجب الإنسان ، والنقل الملك إلى الرقيق والوزير إلى الولاة ،

(١) من « مو » انظر المترجم كتاب « التاريخ وكيف يسرده » الهيئة المصرية العامة للطباعة والنشر . (المترجم)

والحاجة إلى الحنان والواجب البنوي بين الولد وولده - علمه وأمثال علمه أمور ضاربة
بالأمر الطورية . وكل هذا راجع إلى انتهاء الحب المتبادل . فلما أمكن فقط أن تصم بين
الناس تلك القسبة الواحدة ، فلن يصبح للأفراد - وقد أحب أحدهم الآخر - أي
حيدين القتال ، ولن يحاول رؤساء الممالك أن يقاتلوا أي شيء خصبا ، ولن
يرتكب الرجال أية مكرمة ، ولا تصف الحكام والوزراء بالسياسة والولاء ، ولا يصبح
الآباء رعاة والأبناء بررة ، ولا يصر الأخوة منسجمين وأمسى التراضى بينهم هينا .
ولو أن الناس عامة أحب بعضهم بعضا ، لا اتقضى قلوبهم على ضعيفهم ، ولا نبت
كبرهم قلوبهم ، ولا أمان غيهم قلوبهم ، ولا أظهر شرطهم قسوة مع وضيعهم
ولا غش غيهم^(١) بسطهم^(٢) .

لا شك أن في هذا مشابهة عجيبة لتعاليم يسوع الناصري ، وإن حسب في قالب
سياسي . وهكذا اقترنت أفكاره دوقه من ملكوت السماء .

وهذا للتطبيق الجوهري هو أهم ممة تاريخية تجمع بين آسياب هاتين الديانتين
للعالميتين . فإن بداياتهما كانت مخالفة تمام المخالفة لتصل الكامن والمفصح والمجد ، وهي
تلك النحل المثانة لبداية ألفة مخلوقة العالم معروفة الحدود وللأخوة في مراحل تطور
الإنسانية الأولى بين ١٥٠٠ ق . م و ٦٠٠ ق . م دورا احتياكيا لكل السلم عاما كل الأهمية .
أما هذه الديانات العالمية الجديدة ، من ٦٠٠ ق . م فصاعدا ، فهي بالضرورة
ديانات القلب والعالم العلوي الشامل . وهي التي عرفت أمانها كل تلك الأرباب
المتزعة المخلوقة التي خلعت حاجة الإنسانية ، منذ أن تلاحت المجموعات الإنسانية
بعضها في بعض بمبادئ الخوف والرجاء . وسرى من فوقنا عندما نصل إلى الإسلام
أفهم حدث للمرة الثالثة ، أن ظهر ثانية نفس المبدأ الأساسي الجديد ، مبدأ الحاجة إلى
إخلاص عام من جميع الناس لإرادة واحدة . حل أن مخلصا انتظى يحارب بالمسيحية
من تجريب : فكان حاسما باننا في إصراره على أنه هو نفسه ليس إلا يشرأ كغيره
من الناس ، وبذا وقى تمايله شر كثير من الفساد والتضعيف .

ومن حينئذ تعددت عن ديانات الإنسانية العظيمة علمه ، التي نشأت فيما بين عرو

(١) الحب : بكسر الحاء ، هو الغشاش الخادج . (المترجم)

(٢) تقلاص : يوت (The Ancient History of China) للعمل الثامن

للمرء لابل ونصالح الإمبراطورية الرومانية ، - إذ نتحدث عنها بوصفها عقائد متنافسة . على أن مرد ذلك التنافس هو تقاضها وما تكسب فيها من إصابات وما زاد حليها من نحو طفيل ، واختلافها في اللغات وطريقة التعبير . وما ينبغي أن نشخص بأبصارنا إلى غلة واحدة منها حل الأخرى . أو قيام أي بدلي جديد يحل محلها جميعاً ، بل إلى الصديق الصراح في كل منها ، بعد إذ يصهر تماماً ويخرج نقياً من كل الشوائب والأدران ويضوئ من جميعاً هو نص الصديق الواضح المبين : - وأخى بذلك أن تطرب للناس ومعها حياة الناس وأنظمتهم جميعاً ، يجب أن تخضع لإرادة عامة واحدة تحكمها وتصرفها جميعاً . ويقول نالك الأسقف إنج في إحدى مقالاته الصريحة بالبرج : « إن القديس بولس قد فهم ما لم يدركه معظم المسيحيين ، وأخى بذلك أن « بشارة المسيح » ليست « إحدى » الديانات ولكنها الدين نفسه في أشد معانيه عمقاً وحقاً » . ومع أن الحماسة دلت الناس إلى كتابة الشيء الكثير من التصارب بين العلم والدين ، فالحق أن ذلك التصارب شيء لا وجود له . فكل ما تصرح به كل هذه البيانات العالمية بطريق الوحي والاستبصار ، إنما هو شيء يكشف فيه التاريخ مع زدياد وضوحه ، ويتبين فيه العلم مع اتساع أفقه - حقيقة مقبولة يمكن إثباتها : هي أن الناس جميعاً يكونون أسرة واحدة عامة ، وأنهم يرجعون إلى أصل واحد مشترك . وأن حياتهم الفردية واهتمامهم وأجتماعهم ، تندخل ساءً وتخرج ساءً ولا تفرج في امتزاج حتى تنل من جديد آخر الأمر في معبر إنساني واحد مشترك هي هذا الكوكب الصغير السابح بين النجوم . والاعظم المتضاني ليستطيع اليوم أن يقف إلى جانب القواظ ويؤكد لنا أنه ليس هناك سلام القلب مقبول ولا توازن ولا أمان للروح ، ما لم يجد الإنسان حياته بفقد إلهه ، وما لم يلوب خلائقه وعواطفه الضيقة المحبوبة وينظمها . ولا ينبغي أن جنسنا ونجاونا الدينية الشخصية يسبران جبا إلى جنب في محاذ وثيق يحل منه للمشاهد العصري كأنما ما شيء واحد تقوياً فكلامهما يتحدث عن كائن كان في بادئ أمره مشكاً تعجب العبادة حيته ويكفحه جو من مطلق الخبرة والارتباك . وهو يتحسن طريقه في بدء سائر أغوصاء وخلاص يجمعهما خلف منظم مناسب ، ولعلكم ترون معي أن هذه هي معطى التاريخ في أبسط (٢ - سالم)

صورها ، وسواء كان للمرء هدف ديني ، أم كان ينكر كل هدف ديني إنكاراً
بائناً ، فإن خطوط المثلث تظل كما هي .

٤ - صلب يسوع الناصري

في ٣٠ م حين كان طيبريوس الثاني إمبراطوراً على روما ، ويلاطس البشري
والياً على بلاد اليهودية ، وقبل عيد الفصح بقليل ، هبط يسوع الناصري إلى أورشليم
والراجع أنه هبطها عند ذلك لأول مرة في حياته . إذ كان حتى ذلك الحين يسطر
الناس أكثر ما يظلمهم في الجليل ، ويظلمهم في كثير من الأحوال بمدينة كفر ناحوم
وما حولها . يظلمهم هناك في عهد اليهود .

كان دحرله مدينة أورشليم نصراً سلباً . إذ اجتمع حوله في الجليل عدد عظيم من
الأتباع ، وكان يظلمون بعض الأتباعين أن يعلم الناس من زورق في بحيرة الجليل ،
بسبب ترأس الجمهور على القاطن - وتسامع الناس به وصبته شهرته إلى العاصمة .
فخرجت جماعات كثيرة لتحيته . وواضح بين أنهم لم يقهروا منحي تعالجه ، وأنهم
كانوا يشركون من حولهم في اقتناعهم العام ، بأنه سيقبل النظام القائم بضرب من
سحر البر والصلاح . وقد دخل المدينة راحياً جمعاً استلموه له تلاميذه ، والجمهور
برفقته رافضاً صوته بالهليل والتكبير هاتفاً بكلمة (أوستنا ! Hosanna) وهي لفظة
كثير من القرح .

ذهب إلى الهيكل . وكانت أذنيه الخارجية خاصة بتناقص الصياغ والمخانات
أولئك الذين يصرون اليوم لكي يجرده زوار المبدع الانقياد ! ! ! وانبعث هو وأتباعه
يطردون هؤلاء التجريين على حساب الدين وقلوبهم متاعبهم . وتكاد هذه أن
تكون فعلته الإيجابية الوحيدة .

ثم استمر يعلم الناس في أورشليم أسبوعاً يحيط به جمهور من الأتباع جعلوا احتفال
الساعات له أمراً صبراً . ثم جئت المذبة الرسمية أمرها عند ذلك المنتقم الرابع . ذلك
أن يوحنا (Judas) أحد تلاميذه ملا الجرح واليأس عليه لا شدة في استيلاء مطعه على
أورشليم من قلة غناه وجلوس ، فلتقدم إلى الكهنة اليهود ليقدم إليهم نصيحته ومعونه في

القبض على يسوع . فكونوا على تلك اللحظة بثلاثين قطعة من الفضة . وكان لكثير الكهنة واليهود عامة أسباب كثيرة تدعوهم للجزع من ذلك الصبيان الرابع الذي كان يملأ الشوارع بالجواهر المضيئة ، فمن الجائر مثلا أن يسيء الرومان فهم الأمر ، أو أن يتهموه فرصة لإيقاع الأذى بالشعب اليهودي كافة . ومن ثم كان للمجرم الأكبر قيافا (Calaphas) - في بالغ قلته على إظهار ولائه للحاكم الروماني الأعلى - على رأس من قاموا بالإجراءات التي اتخذت ضد ذلك المسيح (Messiah) الأحرار ، وكان الكهنة وضوعاء اورشليم المتمسكون بمقيدتهم السلبية أكبر المهين ليسوع -

ونحننا الأناجيل في جلال ليس عليه من مزيد كيف قبض عليه في ضيقة جيساني (Gethsemane) ، وكيف حوكم وأدين على يد يلاطس البنطي المولى الروماني ، وكيف نكل به الجنود الرومان وسفروا منه ، وصلبوه على ثقل المسمى جبل جليثة (Golgotha) .

بل تلك انهارت الثورة انهارا تاما ونحل حته تلايمه على بكرة أبيهم ، ولما اتهم بطرس بأنه واحد منهم قال «إني لا أعرف الرجل» . إذ لم تكن هذه هي النهاية التي كانوا يرجونها من تفويضهم العظيم لل اورشليم . ولم يشهد في ساحاته الأخيرة وهو على الصليب يعاني مرارة الألم المبرح والظلم الشديد ، سوى وضع حجر من القساء والأصدقاء الأدينين . حتى إذا غارب هذا يوم الصلب نهاية ، استجمع ذلك الزعيم الذي نحل حته الناس جميعا كل قوله بادلا آخر جهود لديه وصاح بصوته جهوريا «إلى ا لماذا تركتى ؟» ثم أسلم الروح عطفاً هذه العبارة ترجعها المصور ، لتسجبة أهدية للمؤمنين .

ولم يكن بد من أن يحاول بعض المؤمنين أن يحوّلوا عن عنف الذعر الرهيب المتولد عن هذه المسألة ، بإذاعتهم أقاصيص مضمخة عن حدوث اضطرابات في الطيبة تشابه تلك التي اختلقت لتوكيد اعتداه جوتاما إلى الصراط السوى ، فلأنهم يخبرونا أن ظلمة قد خشيئت الأرض . . . وإذا حجاب الحبكل قد انشق لل الدين من فوق لل أسفل . وإذا كانت هذه الأمور حدثت حقا ، فهي لم تحدث أقل فائبر في أذهان الناس في اورشليم في ذلك الزمان . ومن الصبر علينا في هذه الأيام أن نتصدق أن نظم الطبيعة قد سمحت لنفسها بالانفاس في مثل هاته الصليقات الجوفاء على الأحداث . ولكن الشيء الأشد

هو لا من هذا بكثير أن يمرض المرء وجود عالم لا بهم فيما يظهر بهسلة الصلبان
للأمة القائمة تحت شفق المساء لثاني ، ولا يأبه بتلك الجماعة الصغيرة من النظارة
للمرتبة المسحوقين . وأرضي الظلام على قتل سلوة . وشرحت المدينة الجميلة
في القيام باستعداداتها لميد الفصح ، وما من أحد سوى ذلك النفر القليل من
المهرونين العائدين إلى منازلهم يعني بأمر يسوع للتأخرى هل هو لا يزال يطال
سكرات الموت أو هو قد قضى وانتهى بالفعل . . .

أما المحاربون فقد غمرت أرواحهم إلى حين غاشية من الظلمات الدامسة . ثم
ما لبثوا أن دب بينهم تهاوس ثم أقاصيص متناقصة أو تكاد . . . بأن جسم يسوع ليس
في القبر الذي وضع فيه ، وأن واحدا منهم ثم كثر قد رآه حيا . وسرعان ما أعلنوا
يزنون أنفسهم بالاعتقاد بأنه قد بعث من بين أهل القبور ، وأنه أظهر نفسه للكثيرين ،
ثم صعد على مرأى من الناس إلى السماء . وحى « بشهود أكثر بلهجة التأكيد القاطع
أنهم رأوه يصعد بجسمه ظاهرا للبان . لقد خضب يطوى طباق السموات الزرقاء -
إلى الرب . وسرعان ما أقوا في روح أنفسهم أنه لا بد عائد من فوره ، في قوة ومجد
ليحكم البشرية كافة . وقالوا إنه يعود إليهم بعد برهة وجيزة ، على أنهم - وهم
يتعمون بإحياه جسمهم القديم البراق بمجد دنيوي يمتحن ذواتهم غاب عنهم ذلك
النصيب الأعظم ، النصيب المائل الجبار الذي حولهم إياه يسوع من ملكوت الله

٥ - مبادئ أضيفت إلى تعاليم يسوع

إن قصة البدايات الأولى للمسيحية إنما هي قصة التكاثر بين التعاليم الحقة والروح
الحق يسوع للتأخرى وبين التحديدات التي فرضها : والإطنابات والزيادات التي أضفها ،
والمسائل التي أساء فهمها ، أولئك الرجال البسطاء الذين أحبه وماروا في إثره من
الجليل ، والذين علوا يومئذ حاة رسالته وحملها إلى البشرية . وتقدم إلينا الأناجيل
وأعمال الرسل سجلا مرقما غير متوازن ، ولكن لا مجال للشك في أنه في عمله سجل
تام الأمانة في تصوير تلك الأيام الأولى .

والتأخريون الأول وهو الاسم الذي كان يطلق على أتباع يسوع ، يتخطون منذ البداية

في مخزوات الحيرة العظيمة في بناتزهم أوران : تعاليمه من ناحية وما استحدثه للتلاميذ من ناحية أخرى من صنوف الشروح والتفسير . وقد أقاموا من بعده زماناً عاقلين يسلط في قهر النفس القام ، فاجعلوا يصاحبهم مشاعاً بينهم ، ولم يخلوا واطلة تربطهم إلا الحب . ومع ذلك لأنهم أسروا عقبتهم على الأكاسيص التي كانت تدور حول قهات وصحوده السحري الخلاب ، وحول حوته للوعدة . وقل منهم من كان يلهم أن التبرؤ من النفس ويلبها هو جزؤها بهبه ، وأنه هو نفسه بملكة الساء ، وكانوا يمدون ذلك التبرؤ قرباناً يخرطهم جزاء من القوة والسيادة ، عندما تحدث النفوذ اللاتية عما قليل . وقد أصبحوا جميعاً يرون أن يسوع هو المسيح الموعود ، ذلك المسيح الذي طالما انتظره الشعب اليهودي . واكتشفوا في ألوال الأتيه تلبوات بالصلب - ويشده لأجمل متى بصله عامة في تأكيد هسله التنبؤات . وأنصت هذه الآمال المبادئة الصراية ، وشدت أزرها بفضل الحياة الخطوة النضية التي كان يجهاها كثير من المؤمنين ، فأنصت تتشر انتشاراً بالغ السرعة في أرجاء بلاد اليهودية وسوريا .

وظهر الوقت تعلم آخر عظيم ، بعده كثير من الفئات السريين المؤسسين للحقن المسيحية - وهو شامول الطوسومي أو بولس . ويظهر أن شامول هو اسمه اليهودي وأن بولس هو اسمه الروماني . كان مواطناً رومانياً ، ورجلاً ثوق طناً أوسع كثيراً وحظية أضيح كثيراً مما يبدو أن قد ثوق يسوع . والراجع أنه كان يهودي المولد ، وإن كان بعض الكتاب اليهود ينكرون ذلك . ولازماء في أنه تعلم حل أسئلة من اليهود . بيد أنه كان متحرراً في لاهوتيات الإسكندرية المنيية^(١) وكانت له الإغريقية . وقرر بعض علماء الأدب الكلاسيكي القديم أن له الإغريقية غير مرفسية ، فهو لم يستخدم لغة أيتنا ، بل إغريقية الإسكندرية ، بيد أنه لصلها بقوة وملاقه . وينصها الروسور طبرت موراى بأنها «بالقة الجودة» . وهو متأثر بطرائق التعبير الفلسفي المنطوس المنيية وبأساليب الرواين (Stoicism) . حل أن تمكته من القلة الرائية فريضة عظيم مدعش . كان صاحب نظرية دينية ومطماً

(١) يفرق المؤرخون بين العصر المنيي السابق على الإسكندرية والميني الذي يليه في تاريخ الإمبراطورية
بعد وفاة الإسكندر إلى ظهور ثيودوس قيسر . (لترجم)

يعلم الناس قبل أن يسمع يسوع الناصري بزمان طويل ، وهو في رواية العهد الجديد
يبدو باديء ذي بدء في إجاب الناقد المرير ، والخصم الشديد والمضطهد الناشط
للتناصريين (الناصري) جميعاً .

ولم يوفق كاتب هذه السطور إلى العثور على أي بحث في آراء بولس الدنيئة قبل
أن يصبح من أتباع يسوع . ولا بد أنها كانت أساساً لأرائه الجديدة وإن لم ترد من
قاعدة انطلاق لها ، كما أن أسلوب تعبيرها وطريقها أصبحت بالتحقق على مبادئه الجديدة
لوقتاً خاصاً . وإنا نكاد نضبط في نفس المظلمات حول تعاليم نحملايل ، التي يقولون
إنه هو المعلم اليهودي الذي كان بولس يجلس عند قدميه . كذلك لنا نرى ما هي
التعاليم غير اليهودية التي درسها . ومن المرجح جداً أنه تأثر بالمثالية . إذ هو يستعمل
عبارة عجيبة التنبه بالمعاني المثالية . وضح لكل من يقرأ ، وسائله ، للتوبة ،
جنباً إلى جنب مع الإنجيل ، أن ذهنه كان مشبعاً بكرة لا يتوقف بلرزة قوية فيها
نقل عن يسوع من أقوال وتعليم ، ألا وهي فكرة الشخص الضحية الذي يقدم قرباناً
له كفارة عن الخطيئة . فما يثر به يسوع كان ميلاداً جديداً للروح الإنسانية ، أما
ما علمه بولس فهو الليانة القدسة ، ديانة الكاهن والمذبح وسفك الدماء طلباً
لاسترضاء الإله . كان يسوع في نظره حمل عهد الفصح ، تلك الضحية البشرية
المأثورة المبرأة من كل حيب وحقس التي تتعبد في إسرار وديانات الشعوب البيضاء
والسائكة (١) . أمد بولس الناصريين بقوة جارفة لأنه جاممهم بتفسيره هذا للفتح عاماً لكلورة
الصليب . وكان تفسيره ذلك نوراً ساطعاً ملط حل دياجير الحيرة المطلقة التي دانت
على حقول الناس .

ولم ير بولس يسوع قط . ولا بد أنه استقى معرفته بيسوع وتعاليمه سماها من
التلاميذ الأصليين . ومن أجل أنه أحرك الشيء الكثير من روح يسوع وعبدته
الخاص بالميلاد الجديد ، بيد أنه أدخل هذه الفكرة في صرح نظام لاموني ، نظام يشتم
بشدائد البراعة والنفاء ، لا تبرح فنته إلى اليوم تنهوى المقول ، فكراً ، بصفة رئيسية .
ومن الواضح أن عقيدة الناصريين التي وجدناها على صورة مبدأ الحفز والإثارة وأسلوب
الحيش ، قد تحولت على يديه إلى مذعبه (إيمان) . ذلك بأنه وجد الناصريين ولهم روح
(١) يشير المؤلف هنا إلى الشعوب البيضاء السائكة الذين والشعر والسائكة أمروا حول البحر
المتوسط (انظر الفصل ٤ ، ص ١٧٧ ، ط ٢) (المترجم)

ورجاء ، وتركهم مسجونين لديهم بداية عقيدة .

بيد أننا يجب أن نرجع القارئ إلى أعمال الرسل ١ و ٢ رسائل بولس ١ ،
ليحصل على مياك واضح عن رسالة بولس وتلاميذه . كان رجلاً حائلاً الطاقة والشاطا ،
وقد علم الناس في اورشليم وأنطاكية وأثينا وكورنثوس وإفيسوس وروما .

ويحتمل أيضاً أنه انحدر إلى أثينا . وليست طريقة وفاته بحروقة حل وجه
التحقيق ، ولكن يقال إنه قتل في روما إبان حكم نيرون . لقد شب حريق عظيم
أقوى حل قسم كبير من روما ، فاهتم الطائفة الجديدة بأنها تهيبت في ذلك الحريق .
ولاشك أن انتشار المسيحية السريع ملين لبولس أكثر من لأي رجل آخر عفره .
فلم تكن تحضى حل صلب المسيح عشرون سنة ، حتى استرعت هذه الديانة نظر
الولاة الرومان في ولايات عديدة . ولئن حصلت من يد القديس بولس حل
لاهوتها ، لقد تلك عضطة بالكثير مما لتعاليم يسوع من السمة الثورية والبداية . وقد
أصبحت أكثر تماها توما ماع الملكية الخاصة ، وأصبح في وسعها أن تحل
نصارى أغنياء دون الإصرار على جعل لرواتهم مشا ، واغفر القديس بولس
نظام الرق عند ما قال : « أبها السيد أطيعوا في كل شيء سادكم » (١) ، ومع ذلك
فقد صممت كالصخر لا تلين لآراء بعض النظم الجمهورية في الظلم الروماني . فلما
لم تجز البتة ربوية قصير . فلم يقبل المسيحيون قط أن سجدوا للإمبراطور ، حتى
ولا بولاية صاعقة عند المسيح ، رغم ما في ذلك من تعرض حياتهم للخطر . ولما
للمستكر حفلات المبالدين (٢) . وهكذا فإن المسيحية غير مسلحة بشيء لا تقوى
حائلة من المقاومة السلية ، بدت منذ مسيلها في ثوب ثورة صريحة ، تكيل لخصومات
الأسس الجمهورية لنظام الإمبراطوري السياسي لأن لم يكن الاقتصادي . وأول ما تجده في
الأحب (: الكتابات) غير المسيحي من الشواهد حل وجود المسيحية ، يبدو عند ما أخذ
الموظفون المرتبكون يكتب بعضهم لبعض ويتبادلون الآراء في المشكلة الثرية الماثلة بين

(١) كانت دمج يسوع ، فروج الحاجة السية في المسيحية ، والله تعالى في الإنجيل ، يحضر
تدارسا تاما مع كل من الملكية الخاصة والرق ، إلا أن انهاء المسيحيين ، لم يعين إطلاقا بطل هذا العهد .
وكثيرا في الدائب أسبل إلى التعديل منهم إلى الإناء . (القرائن)

(٢) المجال Gladiators ، شخص ومطامة عبد أو سحر ، يقاتل حتى الموت (في الخط
Arena) أو اللها المية ، لإعاجع الجماهير بروما القديمة (للترسيم)

أنهم ، مشكلة ذبوح عطوى ذلك العبيان الصادر من قوم لا شريخى منهم لما
 هذا فلك من شئون الدنيا .

ويشئ النمرض الشام شطراً كبيراً من تاريخ المسيحيين في القرنين الأولين من
 الخطبة المسيحية . فبح أنهم انتشروا في كل أرجاء العظم ، فإننا لا نعرف إلا القليل
 صادر من فكراتهم أو مقنوسهم وطرائقهم أثناء ذلك الزمان . ولم تكن لهم حتى
 حينئذ عقائد مسطرة ، إذ لا شك أنه كانت هناك اختلافات عميقة كبيرة في معتقداتهم
 ولظهور غير المتكيفة إبان ذلك العصر . ولكن مهما يبلغ ما بينهم من غوارق عميقة ،
 فلو أنهم كانوا في كل مكان يحصلون للنسبة الكبير من روح يسوع . ومع أنهم
 كانوا حينئذ حليوا أثراً ضدهم هناك مريراً ودعابة مضادة قوية ، فإن نفس أنهم
 للوجهة إليهم تشهد بما هم عليه من غير وصلاص عام .

وفي أثناء ذلك الأمد غير المحدد كان يحدث فيما يبدو للرجس من ضرب بعينه
 من التبركازيا (أى التوحيد والطائفة بين الألفه المختلفة) بين النحلة المسيحية
 والطائفة المترالية التي تكاد تضارعا في سمة انتشارها بين سواد الشعب ، ونحلة
 سبراييس إريس حروس^(١) . ويبدو أن المسيحيين اقتبسوا من الأولى يوم الأحد
 يومهم الأكبر للعباد بطلا من يوم السبت اليهودي ، كما استعاروا فكرة
 الإكليل من استعمال الشموع في المخلات الدينية ، وأسطورة ألاء العبادة بواسطة
 الرخاء (أى النفس) ، كما اقتبسوا أيضاً فيما يرجع ، تلك التكررات أو العبارات
 التي لا تزال تحتاز بها إلى يومنا هذا بعض الشئ والتي تتكلم عن الاختصال في دم
 المسيح وعن كون المسيح تضحية بالنفس . ذلك أنه نزام علينا أن نذكر أن الموت
 صلباً ، لا يكاد يهتدى من الدم أكثر مما يرققه الشئ ، لتصوير يسوع في صورة
 المريق منه من أجل البشرية ، إنما هو في الحقيقة من أخذ العبارات بهذا عن بدقة ،
 ونحن وإن تذكرنا أنه لقي الصلب والتكليف وأنه أليس تابعا من الأشواك ، وأن
 جبهه قد طعن بحربة ، فإننا لا تزال أبعد ما نكون عن فهمه بفيض حيا . بيد أن المترالية ،

(١) سبراييس كان حركياً من أنوكراس وأليس (المخرج ٢ ص ٢٨٤ من المزمع) . (الترجمة)

وكانت تذكر حول بعض النفايا التي من عليها اليوم القبان ، تتخيل موارو هو يمشي
 بمجل مقدس خبير . ويوضح أن جميع المقاصير القديمة للثرائية تزدان بصورة أئرا
 وهو يلبيج ذلك المجل ، الذي ينفذ منه ثوباً عظيماً من جرح لي جنبه ، ومن ذلك
 الدم ثلثت حيلة جديدة . وكان للمريد المتعب الميراثي يستحم بالفعل في دم مجل
 التضحية ، ويملك ويولد من جديد . وكان عند انخراطه في النحلة لأول مرة
 يدخل تحت مقالة يلوح المجل عليها ، فيسبل عليه دمه . ويخجل إليها أنا نعالج حاجتنا
 استمراراً لسفك الدماء لبلداني التضحية عند وقت البلل ، وهي لها يحتمل الفكرة
 النبيلة الأولى لأفهم منقيات المعابد .

على أن ما أسهمت به مجلة الإسكندرية في الفكر للمسيحي والطقوس المسيحية كان
 أعظم قرراً لو يكاد . إذ كان طبعاً أن يجد المسيحيون في شخصية حورس ، (الذي
 كان ابناً لسيرايس وهو سيرايس في نفس الوقت) ، شيئاً مرشداً لم فيما يملكون من
 جهود حيفة لانهم ما علقه لم القديس يولس من أضافا . وقد كان الانتقال من علما
 إلى المطابقة بين شخصية مريم ولويس . ثم السموها مرتبة شبه لعلية - بالرغم
 مما سبق أن التمسكه من أقوال يسوع عن أمه وأخوته - خطوة طويعة جداً كذلك .
 وكان طبعاً كذلك للمسيحية أن تنقص وهي لا تكاد تمي ، الطرائق العملية للديانات
 الشاملة في ذلك الزمان . فأنخذ قسوستها طريقة الروثوس الحظيرة والقرى الخامس بالكهنة
 لمصريين ، لأن ذلك كان يبدو للطريقة المثلى تميز القسس . وتنامت البدع واحدة في
 إثر الأخرى . وكانت نتيجة ذلك أن دانت الصايم القنوية الأصلية بطريقة تكاد تكون
 غير محسوسة تحت تلك الإضافات للألوة . ولقد حاولنا من قبل أن نصور حودة
 جوتاما بوذا إلى التبت ، وأنحالاه لمادة تظا له في غلما (Glasa) . ولو أن أحد الناصريين
 (النصارى) المتخصصين من حرف وائيج معلمه الأثمت الضاوى من السفر في وجه
 الشمس فلافح بالقيس ، أعيد فجأة إلى هذا العلم ثم زار مثلاً لعلماً في كنيسة
 القديس بطرس بروما ، لستنا بحاجة إلى تصوير ما يحل به من دهشة كبرى بمائة
 حطماً يسلم أن تلك التحشكاتة (القريان) الموجودة على الطلح إن هي
 - إلا معلمه للصلوب .

والذين في مجتمع عالمي ليس أشباه عديدة وإنما هو شيء واحد ، ومن ثم لم يكن مناص لكل العقائد الدينية الحية في عالم ذلك الزمان ، وكل ما اتصل بالمسيحية من فلسفة وفكر ديني ، من أن تتحاسب وتتبادل العبارات والفكرات والعقوس . وكانت كمال للتأصيلين الأول قد طابقت بين ذاتية يسوع وبين المسيح . ولكن ذكاء پولس للفرق أحاط بسيرته بالأهمية المسيحية . وكان يسوع دعا الناس رجالاً ونساء إلى أداء واجب جبار : هو إنكار الذات وليلاد الجديد في مملكة الحية . وكانت أهون السبل على ضعيف الإيمان المستجيد في دباته أن يفر بعيداً عن هذا المبدأ البسيط الصريح ، ذلك الاقتراح الشديد الصلابة ، - إلى الفوس في مسائل ذهنية بحثة نحواسها نظريات وعراسم مضطلة لا تمس جوهر نفسه بأي حال . فإسهل أن يتضح الإنسان ذاته بالم من أن يظهر نفسه من الحقد والمثالية ، وأن يأكل الخبز ويشرب النبيذ مدعياً أنه قد امتص الألوهية ، وأن يفضل تقديم الشموع على تقديم القلب ، وأن يطق الرأس ويستقي النفس الأمانة بالسوء المستخرة في فاعله ١١ كان العالم خاصاً بمثال هذه الفلسفة التهرية والمادة اللاهوتية في القرون الاستهلالية الأولى للمسيحية . وليس يعنيها ما أن تتوسع في تفصيل الظواهر المميزة للأفلاطونية الحديثة (Neoplatonism) (١) والأدريّة (Origenian) والفيلونيه (Philonian) (٢) وما إليها من تعاليم كانت كثيرة في العالم الإسكندواني . بيد أن الواقع أنه كان كله عالمًا واحدًا ، ذلك العالم الذي جمع بين هؤلاء وبين المسيحيين الأول . وتشهد كتابات رجال من أمثال أوريجين (Origen) والفلوطين (Plotinus) وأوغسطين

(١) الأفلاطونية الحديثة - مزيج من الفلسفة اليونانية والأفلاطونية ، وهي فلسفة الفلوطين ، التي عاش بالإسكندرية في القرن الثالث (الترجم)

(٢) الأدريّة أو الأفلاطونية حركة دينية نشأت في المسيحية ثلاثية برلمانا بعض الناس زنادقة ولكنها حاولت لتكديف مزيج من اللاهوت المسيحي والفلسفة الإغريقية وعناصر مأخوذة من الفيلسوف السريّة يعلم فيفسر للتوسط . ويرى الأفلاطون أن لم طما يلتصبا بالله الداخلي كقناعة . وهو للفرقة التي يستعملون أن يسلموا بها إلى الاستنارة والملاود . (الترجم)

(٣) فيلونيه : نسبة إلى فيلون وهو فيلسوف إغريقي من أصل يهودي ولد بالإسكندرية قرابة ٢٠ ق . ما فلسفته تتخذ بين الأفلاطون والكتاب المقدس ولها بصيرة الأثر في اللاهوت المسيحية . (الترجم)

(Augustine) - بحركة الأخذ والنطاء التي لم يكن منها مفر في ذلك الزمان .

وقد سمى يسوع نفسه ابن الله وابن الإنسان أيضاً ؛ بيد أنه لم يركز إلا أقل الاهتمام بشخصه : من هو ؟ لو ما هو ؟ ، وإن اشته تركيزه كثيراً على التعاليم المتعلقة بالملكوت .
 وحدث ما صرح بولس وأنبياؤه الآخرون بأنه أكثر من إنسان وأنه إله ، فلهم - أنصاراً أم أصابراً - قد قصوا حيداً هائلاً من الجدل . فهل كان يسوع رباً ؟ أم أن الرب عطش ؟ هل هو الرب سوله أو هو متفصل عن الرب ؟ وليس من مهمة المؤرخ أن يجيب عن مثل هذه الأسئلة ؛ بيد أنه مضطر أن يلاحظ وأن يلحظ كم هي أمثلة لم يكن منها بد ، يسبب ذلك السلطان الخائل الذي كان لها على كل ما تلا ذلك من حياة للبشرية في بلاد المغرب . حتى إذا ولى القرن الرابع من الحقبة المسيحية وجدت المبعذات المسيحية بأمرها في حالة من الجباغ والسخط بسبب الجدل اللغوي الخداع حول طبيعة الله - بحيث أهملت بنوثة كبيرة التعاليم الأكثر بياطة ، تعاليم الإحسان والأخوة والخلة التي طبعها يسوع في العقول مرلواً وتكرراً .

وأمم الآراء التي ينبغي أن يلحظها المؤرخ هي آراء الآريوسية (Arians) والسابلية (Sabellians) والثالوية (Trinitarians) . وكانت الآريوسية تتبع آريوس الذي كان يعلم أن المسيح كان أقل من إله ، وكان السابلية يطمعون أنه حالة أو أقنوم للإله - فالإله هو الخالق والمخلص والمواسي ، كما يكون الرجل الواحد أباً وولياً وضيعاً ؛ أما الثالوية الذين كان إثناسيوس زعيمهم الأكبر فقالوا إن الأب والابن والروح القدس ، أقانيم ثلاثة مميزة ، بيد أنها إله واحد . وإذا ترجع القارئ إلى صيغة إثناسيوس يطلب عندها التعبير الدقيق عن السر الأخير ، ويطلب فيها النتائج للزوجة التي ستحل به إن فاته فهمها أو الإيمان بها ١١ - ويجب عليه أن يرجع إلى جيرون^(١) إن شاء بياناً عن هذه الخصومات ملوثة السخوية ولهمكم . على أن الكتاب الخال

(١) السابلية هم أتباع سابيلوس (تقريباً ٢٠٠ م) فلهذا كان يرون أن الله لا يتعدد إلا حل شخص واحد وأن اللاهوت لم يكن إلا ثالوثاً من الهوية والإلهاد . (المترجم)

(٢) أسدود المؤسسة المصرية لطباعة و النشر (في ١٩٦٦ - ١٩٧٠) ترجمة عربية لجيرون بيشراف الأستاذ أحمد نجيب عالم . فليرجع فيها القارئ . (المترجم)

لا يسهل إلا أن يطلبها دون أدفدوجة ولا سخرية ، وهو يرى من وجهه أن يعترف
 أنها تبدو له كأنها هي غليان منبر تهتم مراجعته في العقل البشري وفيض من الكوارث
 القوية وآنها لا تتفق تماماً مع تعاليم يسوع البسيطة الصريحة المخطوطة لنا في الأناجيل .
 ولم يجد اعتناق المذهب التقليدي السليم (الأرثوذكسي) شرطاً لازماً للحصول على
 الوثيقة المسيحية حسب ، بل لمزاول التجارة بين المسيحيين والحصول على المسونة
 المسيحية كذلك . فإن الخسك بتسعة صغيرة من نقاط المبادئ الدينية أو الزجر عنها
 قد يكون مضاء لرد رجل أو إخلاصه . ومن السبر أن يقرأ الإنسان الكتابات الباقية
 من ذلك الزمان ، دون أن يشعر شعوراً قوياً بتحكم الانحياز الاحتلالي
 (Dogmatism) ويستنداد الأحقاد والنفاسات والتضيقات بالرجال الذين مزقوا
 المسيحية إرباً من أجل هذه التفصيلات اللاهوتية الدقيقة . وعظم الهادئين القائلين
 -- إذ أن أهم ما تقي من الوثائق هو وثائق القالوية -- يهتمون عصورهم (ويعنى ما يهتمونهم
 في القالب) بأن لم دوافع دنيئة أخرى غبية . بيد أنهم يفعلون ذلك بطريقة تضيق
 روحهم الوضعية في جلاء تام . مثلك ذلك أنهم يهتمون أديوس مثلاً بأنه يستحق الإلحاد
 (المرفقة) ، لأنه لم يعين لمغفناً على الإسكندرية . وكانت القنن والممرانات
 (من حيلولة الكمية) والتي تلام على التوام هذه الخصومات ، ثم جاء دور
 الاضطهاد الرسمي آخر الأمر . إذ اضططعت هذه الفروق الدقيقة حول طبيعة تكوين
 الإله ، بالهامة والمنازعات القالوية . وكان الرجال الذين يتنازعون حول أساطهم ،
 والمزوجات الثلاث يرغبين في مضايقة أزواجهن ، يحتفلون في هذا الموضوع الربيع آراء
 متضادة . وكان معظم البراية غزاة الإمبراطورية الرومانية من الأريوسيين ، والراجح
 أن مرد ذلك هو أن عقولهم البسيطة لم تكن لتفهم القضية « القالوية » .

ومن أسير الأمور على التشكك أن يهزأ من هذه المنازعات . ولكن حتى لو كنا
 نرى أن هذه المنازعات التي ترى حل وجه الثقة إلى تعيين مقدس ارتباط الله بنفسه ، فيها
 من القورور والبحرأة فضلاً من النظافة من الناحية الفنية ما فيها ، فإننا نحل ذلك مضطرون إلى
 الاعتراف بأن تلك التفصيلات الدقيقة الخالفة لكل مقول . تفصيلات الاعتقادات
 (Dogmas) المستحيلة ، كثيراً ما كانت تكمن وراءها عاطفة صادقة تهذب نحو الحق ،

ولإن أسماء تقوم تصور ذلك الحق وفهمه . وكان لكل من إيمانين شهداء صادق الشهادة .
والهبة التي تجلت في هذه المناسبات وإن تكن حادثة وضعية في غالب الأحيان ، إلا أنها
جعلت الشيع المسيحية على كل حال نشطة جداً في نسحق الشعبة والتعظيم . ومع ذلك
ليبقى ألا يندمنا تلويح الجماعة المسيحية في القرنين الرابع والخامس من حيث هو أن
معظمه سجل هذه المناسبات الستة ؛ إذ الواقع أن روح يسوع كانت تعيش فعلاً
وتنمى بلرواح كثيرة بين المسيحيين . ونفوق ذلك فإن نصوص الأناجيل ، وإن جرى
على الرجاء الثلاث بها أثناء تلك الحقبة ، إلا أنها لم يقص عليها تماماً ، وظل يسوع
التأخرى في جلال عظمته لوضاحة التي لا تجارى ، يعلم الناس من خلال نصوصها .
كذلك لم يمنع هذا الشقاق القصص المسيحية من الاحتفاظ بجهة موحدة ضد حفلات
الحيالين وضد العبادة المشيئة عبادة الأولاد والقيصر الرب .

٦ - كفاحات المسيحية واضطهاداتها

كان طبعاً أن تعد المسيحية حركة عصيان للثولة وهتك لمرامها ، ما تحدثت
رومية قيصر والنظم التي تتميز بها الإمبراطورية ، والواقع أنها كانت تعد كذلك في
نظر معظم الأباطرة قبل قسطنطين الأكبر . لغت هذه جميعاً ، انتهى آخر الأمر
إلى تلك محاولات منظمة للقضاء عليها . وكان ديكيوس (Decius) أول إمبراطور
أرسل بها اضطهاداً رسمياً ، كما أن عهد دقلديانوس (٢٥٣ وما بعدها من السنين)
هو حقبة الشهداء العظيمة . والواقع أن اضطهادات دقلديانوس هي النزاع التناهي
بين فكرة الإمبراطور الرب القديمة وبين الحقبة العظيمة القائمة بالفعل ضد القوة والتي
كانت تذكر رويجه . وكان دقلديانوس أحاد تنظيم شؤون الملك والمملكة على أسس
معتادة من الحكم المطلق ، والتي كثر ما بقي من آثار النظم الجمهورية ، وهو أول
إمبراطور يحيط نفسه إحاطة عامة بكل ما يسلوك الشرقيين من مظاهر بائسة على الرعية .
لما اضطره منطق مدعيه أن يحاول القضاء التام على ذلك النظام الذي كان يذكرها
إنكاراً صريحاً . وكان الاختيار المهد للاضطهاد ، أن يطلب إلى المسيحي أن يتوب
إلى الإمبراطور قرباناً .

ومع أن دقلديانوس الذي لم يرح نافرًا من سفك الدماء ، قد خفف من غلوائه
 جاليريوس الذي اقترح أن كل من رفض تقديم القربان يجب أن يحرق من فوره حيا ،
 إلا أن الضغوط التي وقعت على المسيحيين المعتادين ، يمكن أن تمتد من التكال الصارم
 في الأثر البالغ . فصنعت مراسيم تقضي بأن كتابهم في أنحاء الإمبراطورية يجب أن
 تبلى من أساسها ؛ ثم أنزل بقوة الإعدام كل من يجرؤ على عقد أية اجتماعات سرية
 بقصد العبادة الدينية . واتخذ الفلاسفة في ذلك الأوان لأنفسهم وظيفة زرية ، هي
 توجيه الحماسة للعبادة للثورة في ذلك الاضطهاد ؛ فأقبلوا يدرسون طبيعة الديانة
 المسيحية وعبرتها دراسة كد وتوفر ، ولما كانوا لا يجهلون أن من المقروص أن المبادئ
 النظرية للعقيدة تحتجها كتابات الأنبياء والإنجيليين والرسلى ، فأرجع الظن أنهم هم
 الذين اقترحوا إصدار الأمر بأن يسلم الأساقفة والمساوسة كل كتبهم المقدمة إلى الحكام ،
 الذين صدرت لهم الأوامر بأن يحرقوها في هيئة علنية رهيبة ، وإلا نلهم شر الجزاء .
 وقد تضمن نفس المرسوم مصادرة أملاك الكنيسة على الفور ؛ وكانت الأجزاء المختلفة
 التي تتكون منها ، إما أن تباع لمن يلقح فيها أغلى ثمن أو تصم إلى الأملاك الإمبراطورية
 أو توهب للحداد أو الميقات أو تمنح تلبية لطلب الطامعين من رجال البلاط . وبعد اتخاذ مثل
 هذه التدابير الفعالة لإلغاء العبادة ، ولتفضاء على رغبة المسيحية ، وروى من الضروري
 تعريض أولئك الأفراد المنحرفين الذين يواصلون رفض عقيدة الطبيعة ، عقيدة روما
 وعقيدة أسلافهم ؛ لما لا يكاد يطاق من الفتنة والشقاق . وكان الأفراد المستثرون من
 أبناء البيوتات يصلون غير أكفاه لحيازة الرتب أو تولى المناصب ؛ فأما الأوقاف
 فيحرمون حرماناً أبدياً من التطلع إلى الحرية ؛ كما أن الجماعة المسيحية بأجمعها حرمت
 حابة القانون . فقد غرول القضية الحق في أن ينظروا وأن يقضوا في كل قضية ترفع
 أمامهم ضد أي مسيحي ؛ بيد أنه لم يكن مسموحاً للمسيحيين أن يشتكوا من جور
 يصيبهم ؛ وهكذا كانت هذه الطائفة المنصبة هدفا لكل ظلم وعتة ؛ على حين يحال
 بينهم وبين الانتصاف بالسلطة العامة . ولم يكاد هذا المرسوم يعرض على الملأ في أبرز
 للمواضع فيقوميديا ، حتى امتلأت إليه بنا مسيحي بالخزي والصعوب بالقدح القتيبة
 والسباب تعبراً عن القتل والاحتلال مثل هؤلاء الحكام القسوة الطغاة . وكانت جرعة

طبقاً لأغف القوانين ومطاة ، توضع بمنزلة الحياة العظمى وتجاوز بالإعدام وإن
صبح أنه كان رجلاً ذا مرتبة وحلم ، فإن تلك الظروف ما كانت إلا لتزيد في جرمه :
وإذا هو يحرق أو قتل يشوى على نار بطيئة . وإذا يجلدونه وقد اعتلأوا حاسة للانتقام
للإهانة الشخصية التي لحقت بالأباطرة ، يفتشون في إنزال العذاب ألواناً بالمسكين دون
أن يستطيعوا لعبه فهوراً ، وأن يفبروا من ابتسامة للبيات والفرابة التي ظل عضناً
بها على عجاذه وهو في آلام ترعه الأخير . ٢٥ .

ومكثت المختصات الصفحة الأولى من الاضطهاد العظيم يموت ذلك الشهيد المجهول .
ولكن ما وصلنا من معلومات عن مدى غلظة الاضطهاد وشدة إنعابه هو — كما يلاحظ
جيون — موضع الشك الكبير . وهو يقلد مجموع الضحايا الكل بما يقارب الأخير ،
ويعتبر هذا بالنسبة المؤكدة من عدد جماهير المسيحيين الخاضعة الذين استشهدوا على
أيدي زملائهم في السنين أثناء فترة الإصلاح الديني . ومن المعلوم أن جيون شديد التحامل
على المسيحية ، وهو هائلاً يندوكاً بما يزعج لك اليهود من شأن تجلده للمسيحين
وما عاثوه من الآلام . ولا مراء أن كثيراً من المقاطعات أبدت نفوراً عظيماً في
تنفيذ المرسوم . بيد أن السلطات بلغت جهداً كبيراً في تصيد نسخ الكتب القديمة ،
كما حدث أيضاً في أماكن كثيرة هدم معظم الكنائس المسيحية . وحلب وأدم كبير ،
كما ملكت المسجون بالمساخرة والقساوة للمسيحيين . ولزام علينا أن نتذكر أن المصنع
المسيحي كان يؤلفه عنصراً ضخماً جداً بين السكان ، وأن نسبة كبيرة من الموظفين
المكافئين بتفويض المرسوم كانوا هم أنفسهم يدينون بالعقيدة المحرمة . وكان جاليريوس
صاحب الأمر في الولايات الشرقية من أشد أنصار الاضطهاد قوة شكيمة وشدة ،
بيد أنه أدرك أن الأمر وهو على فراش الموت (٣١١) أن لا تالفة ترجى من
اعتدائه على هذا المصنع الضخم ، فأصدر مرسوماً بالتسامح ، يبرمج جيون خلاصته
على الوجه التالي :

« كان من بين الأمور الجوهرية التي أهتمت لمنفعة الإمبراطورية والحفاظ عليها ،
اعتزامنا أن نصلي ونقيم من جديد كل شيء وفقاً للقوانين القديمة ونظام الرومان العظام ،
وقد رغبتنا رغبة خاصة في أن نهدى إلى سواء سبيل العقل والطبيعة أولئك المسيحيين

(١) انظر جيون في "Decline & Fall of the Roman Empire" الفصل السادس عشر .

والفرانز أحد تلميذ عالم وترجمه عبد الله دودة وأخيراً : أصدرت المؤسسة المصرية

للطباعة والنشر طبعة مصرية لطبعة عنصرية من جيون أصدرها الاطباء : م . د . (الترميم)

المضطهعين الذين تركوا الحياة والطقوس التي استلها آباؤهم ، واضطهروا في جرة
وغرور شريعة الأكلمين ، واضطهروا قوانين وآراء هوية وفقاً لما تحليه عليهم
أهواؤهم ، وجمعوا من حولهم مجتمعاً غلطاً من مختلف ولايات إمبراطوريتنا . واذ
أن للرئيس التي أصدرناها لنسج عبادة الآفة ، قد عرضت كثيراً من المسيحيين
للأخطار والهن ، فقل الكثيرون منهم حضه ، وتركوا الأكرتون عن لا يزالون
يسرون حل ضلالهم الأحن محرومين من أي ممارسة عمومية للثقة ، فلما نجل إلى أن
نعمل هؤلاء النساء بأثر رجعتنا للعادة . لذلك فمن نسمح لم بأن يعبروا بحرية
عن آرائهم الخاصة وأن يجمعوا في اجتماعاتهم للثقة دون خوف أو مضايقة ، حل
شريطة داعة هي أن يخالطوا حل الاحرام الثلاث القوانين والحكومة القائمة . ومنوضح
في أمر آخر مقاصداً لقضاء والحكام ، ونأمل أن يطرح نلسنا لمسيحيين بأن يملأوا
صلواتهم الرب التي يملكون ، من أجل سلامتنا وديانتنا ومن أجل سلامتهم وديانتهم
ومن أجل سلامة اليهودية وديانتها .

وفي بضع سنين كان قسطنطين الأكبر في حست الملك ، يحكم في مهننا الأمر
بالاشتراك مع آخر (٣١٢) ثم يحكم مفرداً بالسلطان (٣٢٤) ، فانت على يديه
أنهى عن المسيحية . ولئن كانت المسيحية قوة عصبية مدرة حيال روما الوثنية ،
فلقد كانت قوة موحدة ومنظمة في داخل مجلتنا وجمعياتها هي . وألوك قسطنطين
بمقره هذه الحقيقة . فإن روح يسوع بالرغم من الخلافات النظرية التي سادت
للمسيحيين جعلت منهم جماعة متحالفة كبيرة في كل أرجاء الإمبراطورية بل في خارج
حدودها . وأخذت العقيدة في الانتشار من وراء الحدود من البرابرة ، كما استندت
إلى فارس وآسيا الوسطى . وكانت مصلو الأمل الوحيد الذي نلتقى الذي استطاع
قسطنطين أن يدركه وحده الآراء الضيقة والأثرة التي كان يوماً عليه أن يحكم من
فوقها . فهي ، وهي وحدها ، كانت صاحبة الوسائل للوحد لتكوين
الإرادة ، المنظمة ، تلك الإرادة التي كانت الإمبراطورية يسيب حاجتها إليها
لتتأثر أفعاله لتأثر قطعة بالية من القباي ، وفي (٣١٢) قسطنطين أن
يحبب دفاعاً عن روما وعن مركزه ضد مكسيثيوس (Maximian) فوضع طراداً (١)

(١) طراد : كلمة ترمز إلى شخص أو جماعة ما تتكلم عن أحرف الاسم الأول معلومة حل
فهر مطايعه . (الترجم)

اسم المسيحية حل تروس جهته وراياته ، وادعى أن رب المسيحين لائق ذليلاً عنه في نصره البين في معركة جسر ميلفيان (Milvian) خارج روما بالضبط . وهذا العمل فتازل من كل اعداء له بالرواية التي أدخلها طرور الإسكندر الأكبر لأول مرة إلى العالم الغربي . وبمرافقة المسيحين ومعونتهم نصب نفسه ملكاً ، له من الحكم المطلق نصيب أعظم مما أتيح للفلاديموس نفسه . ولم تقض بضع سنوات حتى أصبحت المسيحية للديانة الرسمية للإمبراطورية ، وفي (٣١٣ م) مُحمدُ قسطنطين سيجماً وهو على فراش موته .

٧ - قسطنطين الكبير

إن شخص قسطنطين الكبير جوهرى في التاريخ ومعدل في جوهره حل أغل تقدير شخص الإسكندر الأكبر أو فلوسوس قيصر . ولنا نعرف إلا أقل القليل من شخصيته أو حياته الخاصة ، إذ لم تبق لنا المقادير في زمانه مؤرخاً مثل بلوتارخ^(١) أو سوتريوس^(٢) يبقى لنا على تفاصيل زاهية القلون تشمل اتصالاً وثيقاً بحياته الخاصة . أجل لدينا الآن مطاعن مما كتب أعداؤه ، كما أن لدينا في مقابل ذلك من القليل عليه ما هو ظاهر النطق والهاج . بيد أن واحداً من هؤلاء الكتاب لم يسطنا صورة له حية زاهية الألوان ، فإنه ليس بالقصة إليهم الاويزاً لطافتهم ، أو راية حزبية لهم . ولد كرخصه زوسيموس (Zosimus) أنه كسرجون الأول ، كان غير شرمي للمولاد ، إذ كان أبوه قاتلاً شهيراً ، حل حين كانت أمه هيلانة ابنة صاحب خان في نيش ببلاد الصرب . حل أن جيبون يرى مع ذلك أنه ثمة زواج شرعي . ومهما يكن الأمر فإنه كان زولها وضيقاً ، وقد طغت عبقرية قسطنطين الشخصية على تفاصيل خطيرة تكفه . فإنه كان من الأيمن أو يكاد ، وكان يعرف القليل الذي لا يكاد يذكر من الإغريقية . ويبدو أنه نفى حقاً ابنة الأكبر كريسبوس ، وأمر به قلعهم بتعرض من فلوسا امرأته التي ، كذلك تحمل إليها السجلات أنه اتفق فيها بعد براءة كريسبوس ، وأمر بفلوسا قلعتم ، بأن أغل عليها ماء حملها حتى ماتت . حل قول إحدى الروايات : « وبأن أثبتت القضاوى (في رواية أخرى) علوية الجسم

(١) بلوتارخ : (ج ١٥ - ١٢٠) كاتب تراجم ديوان حنقري اللطيفة بروما . وصحة حادثة لها حل ديوان . وكتابه : التراجم العنصرية . فيه موازنة بين كل اثنين من كيون الإغريق والرومان . (المترجم)

(٢) سوتريوس : مؤرخ لاتيني (المعصر بالقرن الثاني الميلادي) وسطينا كتابه : حياة قضاة مصر . معلومات الشخصية كثيرة عنهم . (المترجم)

على جبل موحش ، على حين توجد كللك وثائق مقنعة جداً تدل على أنها مأخوذة من
يمنه . فإن كانت أصلت فعلاً ، فإن ذلك لا يثبت في الحقيقة الثالثة بأن أولادها
الثلاثة ومعهم اثنان من أبناء إخوتها ، أصبحوا ورثة قسطنطين ، بالتعيين ، وواضح
أنه لا يمكن الحصول على شيء يعتمد عليه في هذه المعتقدات الخاصة ، وعلى القارئ
المطلع أن يطلب لتأويل هذه ، الحقيقة ، القائمة على مادة باللغة النكرة عند جيرون
التي دمجها بجهالة فائقة (الفصل ١٨) .

ومعروف أن جيرون كاتب دوسبول مضادة للصينية ، فهو من ثم خصم
معاد قسطنطين ، بيد أنه يعترف أنه كان محتلاً حقيقياً . وهو يتهم بالإسراف بسبب
مباتيه العامة الضخمة ، كذلك يتهم بالفرور والخلاعة ! لأنه ليس وقد تقلعت به
للسن شعراً مستعاراً (ولا يعني أن جيرون نفسه كان يلبس شعرة المستعار ويربطه
برباط لثود مناسب) وتبعاً ملكيا وثيباً فائزاً . على أن جميع الأباطرة المتأخرين
بعد ذلك يتنصرون ليسوا التيجان والتياب الفائزة .

ومع ذلك فإن تلك شخصية قسطنطين الكبير أشبه شيء بالأطيان ، ولئن
لم تتكشف تفاصيل حياته الخاصة إلا من مأساة يشاعها الإبهام ، فإننا مع ذلك نستطيع
أن نتخيل كثيراً عما كان يحول في ذهنه . ولا بد أنه كان فذاً بشراً بالرحمة الأليمة
وهو في حاجة متى حياته . كان أكثر استعداداً من أي إمبراطور سابق - أعني أنه كان
أقل استشارة ومساعدة بغيره ، إذ لم يبق لديه أحد من أهل الثقة ذوي الروح
الدينية الممتدة (١) ، ولم يكن هناك مجلس شيوخ (سناتو) ، ولا أي مجلس أيا كان
يشتركه وضع المخطط وتطويرها . كإلى أي مدى أدرك ذلك الرجل ضعف إمبراطوريته
ولم أي حد كان يرى الكارثة الشاملة التي كانت عند ذاك وشيكة الحدوث ؟ ذلك
ما لا نستطيع أن نتمد فيه إلا على الحدس والتخمين . ومهما يكن الأمر فإنه
جعل عاصمته الحقيقية مدينة نيقوميديا بولاية وثيقاً . وقد ماتت ولسطنبولية عبر لفسفور
ما تزال تبقى ، وتلوح أنه - شأن دقلديانوس - قد أدرك انقضاء (٢) ظهور معلم ممتلكاته
وشكلها العام .

(١) يعتمد المؤلف بولاً كل شخص يثق بالشؤون العامة وعدمه بالجهل . (المرحوم)

(٢) انقسم القصر بين الكسرة . (المرحوم)

وركز اهتمامه على الشؤون الخارجية ، وعلى الأخص إلى شؤون بلاد المجر وجنوب
الروسيا والبحر الأسود . وقد أعاد تنظيم أداة الحكم في الإمبراطورية ، وأعطاهما
حصوراً جديداً وسعى أن يكون أسرة مالكة . وكان مجداً لا يهدأ له بال ، فحاول
أن يبالغ القروض الاجتماعية بمساعدته نظام الطوائف على التطور . وهو في هذا بزم
خطئ سلفه العظيم قسطنطينوس . فحاول أن يجعل من القلايين وحفاز الرعايا طائفة ،
وأن يحظر عليهم الانتماء لما في حوزتهم من أرض ، وهو في الحقيقة قد سعى أن
يجعلهم موالى لأرض (Serfs) . ذلك بأن الولد من الأرقاء الهالك قد نصب ميتة .
إذ أن الإمبراطورية لم تعد بعد قوة غازية بل قوة معرضة للغزو ، فالتفت بطمس
العلاج في نظام موالى الأرض ، وانقضت جهوده الخلاقية فرض ضرائب تقيية لم يسبق
لها مثيل . ونشر كل هذه الأمور إلى عقل قوى يشعر بالرحمة الموحشة . وتسل قوة
ابتكاره الأصلية في فهمه البين الحاجة إلى بعض القوى العلاجية المرحنة التي لا يد
منها تماسك ببناء الإمبراطورية .

ويبدو أنه لم يدرك الانطلاقات النفقة القائمة بين دجال القلاهور إلا بعد أن تحول
بوجهه صوب المسيحية . فأنشئ جهداً متليفاً للتوفيق بين هذه القروى لكي يتسنى له
أن يثبت في المجتمع تعاليم تنصف بالتسامح والانسجام ، وبناء على مشورته فقد جمع
عام للكنيسة (٣٢٥) في نيقيا ، وهي مدينة تقع قرب نيقوميديا في مملكة
القسطنطينية . ويقدم إلينا يوسيبوس (Eusebius)^(١) بياناً عجيباً عن هذا الإجماع
الغريب ، الذي كان يرأسه الإمبراطور وإن لم يكن بعد مسيحياً معيلاً . لم يكن أول
جلسة عقده من أجل الكنيسة ، لأنه سبق له أن رأس في (٣١٤) مجلساً في
آرل (Arles) . جلس الإمبراطور في بهرة مجلس نيقيا على عرش من ذهب ، وإذا
أنه كان رقيق الزاد من الإغريقية ، وجب علينا أن نفرض أنه اكتفى بملاحظة ملامح
وصحة ولذائعات المتناظرين وسجاج نقات أصواتهم . وكان المجلس عاصفاً . ولما
قام أريوس (Arius) المسن ليتكلم ، لطمه على وجهه شخص هو نيقولاس الميري
(Nicholas of Myra) ، ثم هروا الكترون بعد ذلك إلى الخارج ، وقد وضعا
أصابعهم في آذانهم في رعب ففصل من هرطقات الرجل للشيخ . وإن المرء ليلذ له أن

(١) يوسيبوس (ح ٢٦٥ - ٣٤٥) هو أبو التاريخ الكنسي . ويحده أنه ولد بلسطين . حين
أسفله للصخرة ح ٢١٢ ولعب دوراً هاماً في مجمع نيقيا . (الترجم) .

يصور الإمبراطور العظيم ، وهو في أشد القلق على روح إمبراطورته ، كما أنه كذلك
وطيد الزم على إنهاء تلك الاقتسامات ، منحياً بموجبه بإسالم لأضاح تلك الضحية .

وتمضى هذا المجمع من ديان العقيدة النقية ، وهو بيان (الاولى) ، حقيق ،
ولاصر الإمبراطور هذه العقيدة و الثالوية . ولكن لا حدث فيها بعد أن أنطانيوس
اضط في الحملة على الأريوسيين ، أمر به فنن من الإسكندرية ، ولما رغب كنيسته
الإسكندرية في سرمان تريوس ، أجبرها على أن تميد إلى حظيرتها .

٨ - تأسيس المسيحية الرسمية

إن عام (٣٢٥ م) يعد من أئيب التواريخ لكناها هذا . إذ هو تاريخ أول مجمع
عام و مسكوني (Oecumenical) ، يكامل هيك العلم المسيحي بأسره ؛ (لما ذلك المجمع
اللى عقد في آنز و ذكرناه آنفاً فكان اجتمعاً لنصف القرنى فقط) . وهو ينهل
دعوى الكنيسة المسيحية والدير المسيحي بصفة قاطعة إلى مسرح الشؤون الإنسانية ،
على النحو المقهور من ذلك الدين في العلم اليوم عامة . وهو يعد التعريف القلق
للعالم المسيحية بواسطة ائرا العقيدة النقية (Nicene Creed) .

ومن الضروري أن نستقت نظر القارى إلى القروق الصبغة من مسيحية نيقا
هذه الصبغة لظهور دين تعاليم يسوع الناصرى . فإن للمسيحين جيهاً يظنون أن
الاولى تطوى على الثانية و تحويها احواء لاما ، على أن هذه مسألة تخرج من مجالنا .
فن الواضح تماماً أن تعاليم يسوع الناصرى تعاليم نبوية من الطراز الجديد الذى ابتأ
بظهور الانبياء العبرالين - وهى لم تكن كهنتية ، ولم يكن لها معهد مقدس حياً عليها
ولا هيكل . ولم يكن لها شعار ولا مقدوس . وكان قربانها قلباً كبيراً عاشعاً .
وكانت الهية الوسيطة لها هيئة من الوحاش ، وكان رأس ما لديها من عمل هو الموعظة .
يعد أن مسيحية القرن الرابع الكاملة التكوين ، وإن احتفظت بتعاليم يسوع في الأناجيل
كنواة لها - كانت في صلبها « ديانة كهنتية » ، من طراز مألوف للناس من قبل منذ
آلاف من السنين ، وكان المذبح مركز طقوسها المنطق ، والعمل الجوهري في العبادة لها

هو القربان بفريه نيس متكرس القديس . ولما حيث تطور بسرعة مكونة من الشهامة والقسومة والأساقفة .

ولئن انتشرت المسيحية بأروحية خارجية تشابه عمل ميرابيس أو آتون أو نيل مرتك مشابه غير طوعية ، فلا بد لنا من تذكر أنه حتى كهانها نفسها كانت لها مظاهر جديدة بأحيائها . فإنها لم يكن لديها في أى مكان أى صورة مجسدة شبه قلمية قرب . ولم يكن هناك معبد رئيسى يحوى الرب ، وذلك لأن الرب موجود في كل مكان ولم يكن هناك قلمس أقداس . وكانت مناجيها للنهض في كل مكان موجهة كلها إلى القالوث العام الذى لا يرى . والمسيحية حتى في أئدم مظاهرها كانت تحوى شيئاً جديداً .

وثمة أمر هام جداً علينا أن نلاحظه ونسجله وهو الدور الذى لعبه الإمبراطور في تثبيت المسيحية . فلم يقصر الأمر على أن قسطنطين الكبير هو الذى دعا لاجتماع مجمع نيقية ، بل إن كل المجالس العظمى ، ومنها اثنان بالقسطنطينية (٣٨١ ، ٥٥٣) وواحد بإفيسوس (Ephesus) (٤٣١) وخطفون (Chalcedon) (٤٥١) ، جميعها كلها يد الإمبراطور . والجلى الذى لا خطاء فيه أن قدرا كبيرا من تاريخ المسيحية في ذلك العصر يشق من روح قسطنطين الكبير بقدر ما يشق من روح يسوع إن لم يزد . وكان قسطنطين كما سبق أن نوهنا مستهيا (لوتوراطيا) مطلقاً . ذلك بأن أشهر أكثر الروح الجمهورية الرومانية قد انحضت في أيام أوريليان ودقلديانوس . وكان يحاول بالتدريج حياته له معارفه ، أن يبعد - قيل أن يفتت الأوان - تكوين الإمبراطورية المضمضة ، وكان يعمل من غير مستلزم أو فاضح ، أو أى رأى هام أو أى شعور بالحاجة إلى مثل هذا النوع من وسائل اللون والقبض . فإن فكرة من كل خصومة وانقسام ، والقضاء على كل فكر بواسطة فرض عقيدة اعتناقية Dogmatic واحدة حل المؤمنين جميعاً ، إنما هي فكرة استبدادية لوتوراطيا بالشكل معاني الكلمة ، وإنما لفكرة الرجل الفرد الذى يصل بغير معين والله يقهر أنه لكى يستطيع أن يعمل يبنى أن يكون غير مقيد بأية معارضة أو نقد . ومن ثم يصبح تاريخ الكنيسة بتأثيره ، ملصة من التقلبات للتيقن التى كان لابد من حلونها نتيجة لمباحثته الناس بدعوته القسبة إلى الإجماع على رأى . وحين تاريخ الإنسانية

التفت الكنيسة الميل إلى الاستبداد وعدم الخضوع للمسئولية ، وإنشاء هيئة تقوم على المركزية وتمييز على غيرها الإمبراطورية وإلى جوانها .

وجاء بعد ذلك سقبة عظيم ثان هو ثيودوسيوس الأول (Theodosius I) أو ثيودوسيوس الكبير (٣٧٩ - ٣٩٥) فسام من ثوره في فرض طابع استبدادى صريح على المسيحية الكاثوليكية . لحرم على من لم تصح عقيدتهم من المسيحيين عقد الاجتماعات ، وسلم كل الكنائس للثالوثيين ، وقضى على معابد الوثنية في كل أرجاء الإمبراطورية ، وفي ٣٩٠ أمر بقتل صيرايوس العظيم بالإسكندرية فسلم . إذ لم يكن يسمح بعد ذلك بوجود أية منافسة ولا أية منافسة لوحدة الكنيسة المتجانسة .

ولسنا يستطيعين أن نخبرك هنا بما حانه الكنيسة من المتاعب الداخلية الخائلة ولا من عدم حصنها الزناقة مثل أتباع أريوس وأتباع يولس^(١) والأديريين (الألفسطينيين) والثالوثيين . ولو أنها كانت أقل استبداداً وأكثر تسامحاً مع الأفكار المتنوعة ، فلربما أصبحت هيئة أقوى بكثير مما وصلت إليه . ولكنها على كل هذه الاضطرابات ، ظلت زماناً تحفظ بالفعل بفكرة لوحدة الإنسانية فيها من التعاطف ورحابة الأفق سالم تصل إليه الإنسانية قبل ذلك قط . ولما وافى القرن الخامس إذا المسيحية أعزلت بالفعل لتبوء أمزلة أحظم وأقوى وأشد دعواً مما وصلت إليه أية إمبراطورية في الماضي ، لأنها لم تكن مجرد شيء مفروض على الناس فرضاً بل هي قطعة من نسيج حقولهم . وقد تجلوز اتساعها أقصى حدود الإمبراطورية بكثير ، حتى شملت أرمينية وفارس والحبشة وإثيوبيا وألمانيا وحتى تغلغت في الهند والتركستان . وهي وإن تألفت من مجاميع متنثرة انتشاراً متباعداً ، فإن الناس كانوا يفكرون فيها بوصفها جماعة واحدة للمسيح وشعباً واحداً ، واستطاعت هذه الوحدة الخائلة أن نجد للتعبير عن نفسها سبلا عديدة . فإن تبادل الاتصال بين المجتمعات المسيحية المتنوعة كان قائماً على قدم

(١) أتباع يولس (Pantilejans) : فرقة من الزنادقة نشأت بروسيا وشرقي في القرن السابع قبلها خليط من الألفسطينية والمالورية . واشتهر اسمهم من القديس يولس الذي كانوا يولون وكنائسهم تسمى طليما . (الترجم)

وساق . وكان المسيحيون الذين هم على سفر ، على يقين دائماً من استقبال حار ورحاب كريم من إخوانهم في المدن . وكثر تبادل الرسل والرسائل بين كنيسة وأخرى . وكان الليثرون ودعاة الإنجيل يفضلون على الدوام من مكان إلى مكان . وكانت الوثائق المتنوعة الأصناف ، بما فيها الأناجيل والرسائل الرسولية ، منتشرة انتشاراً واسعاً . وهكذا وجد الشعور بالوحدة طرائق متنوعة للتعبير عن نفسه . حتى لكان تطور أجزاء معالجة الشقة من المسيحية يطابق على درجات متفاوتة ، طرازاً مشتركاً بينهما (١) .

وقد احتفظت المسيحية على الأكل بالتقاليد الشكلية لهذه الوحدة العامة الروح حتى عام ١٠٥٤ ، عندما انفصلت كل من الكنيسة الغربية للاتينية اللسان ، والكنيسة الرئيسية الأصلية الإغريقية اللغة وهي الكنيسة الأرثوذكسية ، انفصلتا إحداهما عن الأخرى لسبب صوري هو إضافة كلمتين على العقيدة ، فإن الله القدوس كانت أعلنت ، أن روح القدس منبثق من الأب ، وأرادت اللاتينية أن تضيف لفظة (Filioque) (أي ومن الابن أيضاً) بل وأضافها فضلاً ، وبذلك خرجوا اليونان من مجتمعهم اللبني لأنهم أبوا أن يتبعوا ملتهم . هل أن مسيحي شرق سوريا وفارس وآسيا والهند كانوا قد انفصلوا بأنفسهم من قبل في زمن مبكر يرجع إلى القرن الخامس متطوعين بمثل هذه الدواعي ، - إذ كانت هناك كتائب في مرو وهيرات ومقرقة . ف هؤلاء المسيحيون الآسيويون الشديدين الطراقة يعرفون في التاريخ باسم الكنيسة النسطورية ، وقد امتد سلطانهم إلى جميع بلاد الصين . كذلك فصلت الكنيسة للصيرية والحبيشية نفسيهما في زمن مبكر جداً لمثل هذه المقاطعات لاسيما إلى ضميرها . ومهما يكن الأمر ، فالواقع أنه قبل هذا الانفصال الرسمي بين شطري الكنيسة الرئيسية للناطقين باللاتينية والإغريقية يزمن كبير ، كان هناك اتصال فعلي جده في أصناف انقسام الإمبراطورية . ذلك بأن أحدهما تباعدت منذ البداية . فعلى حجة كانت الإمبراطورية الشرقية الإغريقية اللغة متأسكة للبيان ، وعلى حبس ظل الإمبراطورية في القسطنطينية مقلداً على الكنيسة ، فإن النصف اللاتيني من الإمبراطورية قد أهمل

كما سبق أن قلنا ، وترك الكنيسة الغربية حرة من كل قيد إمبراطوري .

وفضلاً عن ذلك فإنه بينما كانت السلطة الكنسية (الإكليريكية) في إمبراطورية القسطنطينية موزعة بين الأساقفة الكبار أو البطارقة في القسطنطينية وأنطاكية والإسكندرية والقدس ، فإن السلطة في الغرب تركزت في بطريرك أو بابا روما . وكان الجميع يصرغون على اللغوام بأن أسقف روما هو الأول بين البطارقة ، ولأنه كل هذه الأمور على تحرير ادعائه بصورة غريبة بأن له الحق في ممارسة سلطات شبيهة بسلطات الإمبراطور . حتى إذا سقطت الإمبراطورية الغربية سقطت البابوية ، اتخذ البابا لقب الحبر الأعظم (Pontifex Maximus) الذي كان الأباطرة يحتفظونه لأنفسهم ، وبذا أصبح كاهن القرايين الأعلى في قديم التقاليد الرومانية ، فأما في بلاد الغرب فقد اعترف الناس له احتراماً كاملاً بالسيادة العليا على المسيحيين مثلك ، فأما في داخل ممتلكات الإمبراطور للشرق ودائرة اختصاص البطارقة الأربعة الآخرين ، فقد كان من الضروري منذ البداية توسي منهي الخلاف حيث الناس على تفعل تلك السيادة .

وكان القول بحول الكنيسة الحكم النفيوي منشراً بالفعل في القرن الرابع الميلادي . فإن القليس أو غسطين وهو من أهل مدينة هيو^(١) بشمال إفريقيا ، كتب بين ٣٥٤ ، ٣٦٠ مبراً عن تطور أفكار السليسية للكنيسة في كتابه « مدينة الرب » . وكتاب « مدينة الرب » يتخلل بفكر قارنه ميافرة إلى إمكان تحويل العالم إلى « ملكة سما » لاهوتية منظمة . والمدينة كما يصورها أو غسطين إنما هي مجتمع وحي من المؤمنين للقدور لم الإيمان منذ الأزل ، بيد أن الانتفال من ذلك إلى التطبيق السياسي الفكرة لم يكن بالخطوة الواحدة . إذ كان ينبغي للكنيسة أن تصبح حاكمة العالم التي تسود الشعوب جميعاً ، والقوة التي تردها الثابتة الرأية وتحكم من فوق حصبة عظيمة من القول الأرضية . وتطورت هاته الأفكار فيما أعقب ذلك من أعوام فأصبحت نظرية سياسية رسمية محددة . وبينما الشعوب البربرية تستقر وتتحول إلى المسيحية ، شرع البابا يدعي أن له السيادة العليا على ملوكهم . ولم تغض بضع قرون حتى أصبح البابا من

(١) في المجموعة العربية المبردة أنه ولد مدينة تسمى النوميديا . ولويسيا إقليم تلم في شمال غرب إيطاليا يطال بالشرق الجزائر الحديثة . (المترجم)

الناحية النظرية ، وإلى حد معين من الناحية العملية - الكاهن الأعلى والرقب والقاضي والملك التقصى للعالم المسيحي . وامتد سلطانه غرباً إلى ما وراء أقصى مدى بلغته الإمبراطورية القديمة : إلى أيرلندة والسويد والنرويج وشمل كل بلاد ألمانيا . واتقفت ألف عام أو تزيد ، وأوروبا تسود فيها هذه الفكرة لثقافة يوحنا المسيحية ، وهي التي تصور العالم المسيحي في صورة ضرب من حلف من الدول ، يجتمع أعضاؤه حتى في أيام الحرب عن إثبات كثير من الأمور المتطرفة بدافع فكرة من الأخوة المشتركة والولاء المشترك للكنيسة . ومن أفسد أن تاريخ أوروبا منذ القرن الخامس لما بدء حتى القرن الخامس عشر ظل في الأغلب تاريخاً يسجل فشل هذه الفكرة البطيئة ، فكرة قيام حكومة عالمية مقلدة ، - عن تحقيق نفسها عملياً

٩- خريطة أوروبا في ٥٠٠ م.

أدلبنا إليك في الفصل السابق بيان عن أهم التغيرات التي قامت بها الشعوب الخيرية . وقد بإمكاننا الآن أن نقوم بمحاولة لإحدى التحويلات بمرحلة وجيزة لأقسام أوروبا السياسية عند تمام القرن الخامس . في ذلك الحين ، لم يبق للإمبراطورية الغربية وهي الإمبراطورية الرومانية الأصلية ، أثر بوصفها قسماً سياسياً متميزاً مضملاً . فإنها من الناحية السياسية أصبحت حطماً بالياً وحل محلها في حقول الناس بأجزاء كثيرة من أوروبا الشرقية الحديثة التي أصبحت هي « الإمبراطورية » في عرفهم . وكان الإمبراطور في القسطنطينية لا يزال هو الإمبراطور - من الناحية النظرية على الأقل .

أما في بريطانيا فكان الأيجل (الإنجليز) والسكسون والحوث - وهم أجيال من النورثون البرابرة الناطقون بالمسيحية قد غزوا نصف إنجلترا الشرق . وكان البريطون (Britons) لا يزالون صامدين في غربي الجزيرة ، بيد أنهم كانوا يرحلون على التفرق إلى انكلت وويلز وويلز وكونوال . على أن الأنجلوسكسون كانوا فيما يبدو من أشد البرابرة كثرة قساوة وتأثيراً فعلاً ليمز حولم ، فحينما سادوا حلت لغتهم محل اللغة الأكلتية أو اللاتينية اللتين كان البريطانيون يستعملون إحداها - ولست ندرى

على وجه التحقن أيتما كانوا يستعملون . ولم يكن هؤلاء الإنجليز مذكورين
تقريباً بعد .



(شكل ١٢١) خريطة أوروبا حول سنة ١٢١٠ م .

أما معظم بلاد الغال (فرنسا) وهولندا وأرض الراين فكانت تحت حكم
مملكة الفرنجة المسيحية المتوسطة القوة والأكثر تمدناً . بيد أن وادي الرون كان
تأهباً لمملكة منفصلة هي مملكة البرجنديين . على حين كانت أسبانيا وشطر من
جنوب فرنسا تحت حكم القوط الغربيين ولكن السويش كانوا يملكون الركن الشمال
الغربي من شبه الجزيرة .

وقد سبق أن كتبنا عن مملكة الرومان في إفريقيا ، أما إيطاليا ، وكانت لا تزال
رومانية السكان والمعادن ، فلها وقعت في قبضة القوط الشرقيين . لم يبق هناك
إمبراطور بروما ، بل كان يحول الحكم هناك لبودريك الأول بوصفه أول ملوك
القوط . وكان حكمه يمتد عبر جبال الألب إلى باثونيا ويصلح جنوباً في الأدرياتي
إلى دالماتيا وبلاد الصرب .

على حين كان أباطرة القسطنطينية يحكون إلى الشرق من مملكة القوط حكماً ثانياً مستقراً . وما برح الياندر حتى ذلك الوقت قبيلة مغولية من الرحّل وراكبة الخيول في منطقة القوقاز . أما الفرنجيون الآريون فقد انحسروا حديثاً نحو الجنوب إلى شواطئ البحر الأسود ، إلى المواطن الأصلية لقوط الفريين ، ولم يكن الفرنجيون ذوو الأرومة التركية القطنية ، وصلوا بعد إلى أوروبا . وكان القومبارد نزلين حتى ذلك الوقت في شمال اللاتوبيا .

وبمناز القرن السادس ينفرد من القوة ضياء الإمبراطورية الشرقية أثناء حكم الإمبراطور جستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥) . لاسترجعت الإمبراطورية مملكة الوندال عام ٥٣٤ م ، وطردت القوط من إيطاليا ٥٥٣ م . وما أسرع ما انحدر القومبارديون إلى إيطاليا على أثر موت جستنيان (٥٦٥) ، فاستقروا في لومبارديا ، على أنهم تركوا واغنا وروما وجنوب إيطاليا وشمال إريضة تحت حكم الإمبراطورية الشرقية .

ذلك هو الوضع السياسي العالم الذي تطورت فيه فكرة علم المسيحية *Christendom* . ولكن إن الحياة اليومية لذلك الزمان كانت تطلب في مستوى شخصي جداً - لا جرم - من قنواصي الجهادية واللعنية والحظية . وكثيراً ما يقال إن أوروبا قد انحسرت إلى البربرية في القرنين السادس والسابع ، بيد أن هذا لا يعبر عن حقيقة الحال . والأصح كثيراً أن يقال إن مملكة الإمبراطورية الرومانية قد دخلت في دور التحلل على مظهره . والبربرية نظام اجتماعي ذو طراز أول ، ولكنه منظم داخل نظامه ، بيد أن أوروبا من دون تحزقها السياسي كانت في حالة فوضى اجتماعية . ولم تكن معنوياتها كمعنويات إحدى قرى الموحشين (Kins) بجنوب إفريقيا بل معنويات حتى قعر إحدى المدن . ففي القرية الموحشة ، يعرف الموحش أنه ينتمي إلى مجتمع ، ويعيش ويصرف وفقاً لهذا ، فأما في حي الفقراء ، فإن الفرد لا يعرف ولا يعترف بأى كائن أكبر منه ولا يصرف مرتبطاً إلى ذلك الكائن .

ولم تستطع المسيحية إلا بغاية البطء والضعف أن تتمد ذلك الإحساس المفقود وأخفى به الإحساس بالتمسك . وأن تلم الناس أن ينفذوا حول فكرة : عالم المسيحية .

لقد أصبح لبناء الاجتماعى والاقتصادى للإمبراطورية الرومانية حكاماً وشلاخه . لأن حضارتها حضارة لوله وسلطان سياسى يقوم على ما نرى فيه كتلة البشرية الكبرى من قيود واسترقاق . أجل إنها تجلت فى مشهد من التخلعة الظاهرية والكماليات المترفه ، ولكن كان يكمن وراء ذلك المظهر الخارجى النبل كل ألوان التساوة والقياد والركود ، فكان لابد لها من أن تتسلم ، وكان لابد من إدراكها قبل أن يستطيع أن يكتفها ما هو خير منها .

ولقد سبق أن استرعينا الأنظار إلى موتها اللحنى . إذ أنها لم تنتج فى ثلاثة عقود حلاً ولا أدباً له أية قيمة . والواقع أن الاستطلاعات لفصلية غير المفترضة والدواعى الثنية للصالحية لن تجد مجالاً يفتح للعالم فلسفة متزنة وحلاً واقعياً وفناً منظماً ، إلا حيث يوجد رجال لينوا من الرأى والقوة بحيث يُفرون على الإغراق فى اللذات . وليسوا لقراء مكشوفين بحيث لا يتنون بشئ . وراء الحاجة اليومية . حتى أن بلوتوقراطية (Plutocracy) روما : (حكومة الأثرياء المترفين) قد جعلت مثل هذا الشئ أمراً مستحيلاً . فعندما لا يجد الرجال والقائد أن لهم حذاً يلزمونه ولا ضابطاً يكبحهم ، فإن حوادث التاريخ تدل بأجلى بيان أنهم جميعاً بلا استقلاله حرة لأن يصبحوا وحوشاً عتاة فى إسطاع النفس بالذات ، فإن أضناهم المصير وأنهم الشقاء ، بلجأوا إلى الأحرار الفاجسة أو إلى الفتن الموجهة أو فرحوا إلى الدين وما فيه من عتشف وترمت .

على أنه يحيل إلى أننا ربما جاتنا المصدق حين نقول إن العالم أصبح حقياً تصافى هذه الصور المظلمة ، التى وصلنا إليها الآن ، ويكون أقرب إلى المصدق كثيراً أن نقول إن ذلك المصالح العنيف السوق الحشن الذى ركبت عليه الإمبريالية الرومانية ، تلك العالم من اللبسين والظلمين وأرباب الأملاك والمالين ، قد هوى عن عظم البؤس الذى كانت أوضاعه تتلاطم حولهم من قبل . ولا يفتى أن معلوماتنا التاريخية عن تلك الأزمان تراه ناقصة إلى أبعد حد ، فقل أن وجد مكان يستطيع فيه الناس أن يكتبوا ، ولما كان هناك تشجيع على الكتابة لإطلائاً ، ولم يكن هناك ضمان يكفل لأى إنسان سلامة كتاباته لئلا يؤخذ لحال غرامتها . بيد أننا نعرف عن ذلك العصر قدراً يفتح لنا أن نقول إنه لم يكن مجرد عصر لصوحبة وحروب ، بل عصر عبادة وديان . إذ لم تظهر فى العالم حتى

ذلك الحين أية هجة حمية ذات أثر فعال . ولا بد أن هجرات ذلك الزمان كانت تقضى على كل إجراء صهي يتخذ . فإن تخريب آبنيا لشمال إيطاليا لم يوقته إلا انتشار الحمى في ٥٢ . كما حدث وباء عظيم من الطاعون للمسى قرب نهاية حكم جستنيان (٥٦٥) ، كان له أثر كبير في إضعاف دفاع إيطاليا أمام الوبيلارد . وفي ٤١٣ مات عشرة آلاف إنسان في يوم واحد بالقسطنطينية (ويقول جيون : إن هذا العدد كان يموت كل يوم ٤) . وكانت مراكب الطاعون تغلى وتهدر في روما عام ٥٩٠ . وكان القرن السابع مغطى قرناً مكروباً بالطاعون . ويسجل بيد (Bede) الإنجليزي ، وهو أحد الكتاب القليلين في زمانه ، أربعة حدثت في إنجلترا في ٦٦٤ ، ٦٧٢ ، ٦٧٨ ، ٦٨٣ ، أى ما لا يقل عن أربعة في عشرين سنة . وقرن جيون للوباء البحتاني بالمذهب العظيم الذي ظهر عام ٥٣١ ، ويحادي به العالم أثناء حكم تلك الساحل من الزلازل المتتابعة الخطيرة . فيقول : هوجرت كثير من مدن الشرق خالوة على عروشها ، وذبل المحصول والغب على الأرض في كثير من أصقاع إيطاليا . وهو يدمى حدوث : نقص ظاهر في النوع الإنساني لم يمرض قط في بعض من أجل أقطار الدنيا . . وقد بدأ الكثيرين في تلك الأيام السوء أن كل العلوم وكل ما يحصل الحياة مستحقة مقبولة قد أوشك على الزوال .

ومن الغال حلتنا أن نعرف إلى أي حد كانت العامة أتمس حالي في خلال هذه القلوة وحدم الأمطنان منها تحت نظام الإمبراطورية الطاعن . أجل إنه ربما انحطت الظروف بين مكان وآخر ، فهنا حكم أشراو عتيق وهناك حرية معتلة ، وقد تلقى جماعة في هذه المنة ووفرة خيرات في التي لها . فلقن كثير النصوص ، وإن بعضي للشرائب والدائن قد انحسوا . وإن ملوكاً من أمثال ملوك الفرنجة والقوط لم يكونوا في الواقع إلا أطيافاً وحكاماً لا سلطان لهم على معظم من يسون برعاياهم . كانت حياة كل ناحية تروخ في مستوى خفيض ، ليس به إلا القليل من التجارة والأسفار . وقد يسيطر بعض للتفكرين من الأشخاص على مساحات كبرت أو صغرت من الريف ، مدعياً على قعر من الحق والمعلقة ينظرون زيادة وتقصلاً ، لقب لورد أو كونت أو دوق مستقى من تقاليد الإمبراطورية المتأخرة أو من الملك . ويقوم هؤلاء

(١) بيد (ح ٦٧٢ - ٧٣٠) لائحة ومؤرخ الإنجليزي ، سمى به فوتمر . كتب أملاً طلبة ولاهنة وتاريخية كثيرة . (التوجيه)

النبلاء المهلبين يجمع لوفى من الاتباع وبناء معقل حصينة لأنفسهم . وكثيراً ما كانوا يتخذون لأنفسهم مبانى قدبة يقيمونها وفق حاجتهم . مثال ذلك أن الكولوزيوم (Colosseum) بروما وهو المخطط الذى طامنا شهد حفلات المبالدين ، حول إلى قلعة ، وكذلك حول المسرح المدرج في آرل . وكذلك أيضاً حولت مقبرة هادريان الضيقة بروما .

وكان يحدث في المدن والبلدان المهلمة التى صارت عند ذلك غير حصينة ، أن هيئات صغيرة من مهرة الصناع كانت تتصافرو وتخدم بصناعاتها حاجات القرى الزراعية المحيطة بها ، مع وضع أنفسهم في حماية بعض النبلاء الجاهلين .

١٠ - خلاص العلوم على يد المسيحية

حلت هيئات الرهبنة : (كثيرة) المسيحية التى أعلنت تنشأ في العالم الغربي إبان القرنين السادس والسابع ، تعبيراً بالغ الأهمية في عملية إعادة التبلور الاجتماعي الذى حدث في هذين القرنين بعد ما جرى في الرابع والخامس من التحطم والانحلال .

كانت الأديرة موجودة في العالم قبل ظهور المسيحية . وفي الفترة التى آلم فيها الشقاء الاجتماعي باليهود قبل زمان يسوع القنبرى ، كانت طائفة من قساك الإسميين^(١) تعيش منزلة في مجتمعات وقد وهبت نفسها لحياة تشفية من الوحدة والظهور وإنكار الذات . كذلك أنشأت الوثنية لنفسها مجتمعات من رجال احتزلوا غمرة اليهود السامة والشجاعة في العالم ، ليعيشوا عيش التشف والتأمل . والواقع أن قصة بوذا ، كما سردناها لك ، أبانت أن مثل هذه الفكرات لا بد أنها كانت منتشرة في لندن قبل أيلمه يزمن بعيد ، وأنه عاد لهنها ورده ظهره أكثر الأمر . ونشأت في زمن مبكر جداً من تاريخ المسيحية حركة مشابهة لهذه ، تنكب ما يفسد حياة الناس اليومية من مناهضة وحية وشائكة . وفي مصر على وجه الخصوص ، خرجت حشود كبيرة من الرجال والقاء إلى الصحراء ، وهناك عاشوا عيشة موزلة تامة تواسيها الصلوات والتأملات ، وظلوا يعيشون في فقر مدقع في الكهوف أو تحت الصخور على الصداقات التى تلقاها

(١) الإسميون : جماعة إلهة دينية بين اليهود الاقدمين كانت تعيش حياة عطف البدائية والملكية بينما شرع . (المترجم)

إلهم الصدقة من أولئك الذين يتأثرون بقداشهم ، وربما لم يكن مثل هذا النوع من حياة الأنفس كبير وزن لدى اللورخ - فلها لعمري نفس منسجبة عن التوزيع يحكم طبيعتها ذاتها - لولا ذلك الاتجاه الذي أخذته النور تلك الزعة البيرية (Monasticalist) بين الأوربيين الأكثر نشاطاً والأميل إلى الناحية العملية .

ويعد القديس بندكت الذي عاش بين سنتي ٤٨٠ ، ٥٤٤ من أهم الشخصيات في قصة تطور البيرية في أوروبا . ولد في مدينة اسپوليتو (Spoleto) بإيطاليا . وكان شاباً كريم الأصل جم الكفاية . وقد ألقت عليه أحوال ذلك الزمان ظلالاً ، فبالإضافة إلى الحياة البيرية كما مال يوحنا ، وأطلق لنفسه ثمانية العنان في مبدأ الأمر - فهناك على جبلية حديق ميلان من روما تقع سوبياكو (Subiaco) ، وعند نهاية خاتق في نهر الأنكيو (Anio) تحت أجمة من الأعشاب والشجيرات ، كان يقوم قصر مهجور أقامه الإمبراطور نيرون ، يطل على بحيرة صناعية حُصرت في أيام الرخاء المتصرم ذاك بحجز مياه النهر . وهناك اتخذ بندكت - وكان أهم ما في حوزته ليس من الشعر - مقامه ككهف في صخرة عالية متجهة جنوباً تطل على النهر ، وهي في مركز يصعب الوصول إليه ، إلى حد أن أحد المعجبين به كان يضطر أن يبل إليه طعمه بجمل . وهناك أقام ثلاث سنوات. ذاعت فيها شهرته : مطلقاً ذاعت شهرة يوحنا في ظروف مشابهة قبل ذلك بالكثير .

وكان حدث في حالة يوحنا ، فإن قصة بندكت أضيف إليها بفضل تلاميذه له سلفاء بسيط العقل ، طائفة من صغيف الحكايات القائمة على المعسرات والكرامات . على أننا لا نلث حتى نجده وقد اصصرف من تعذيب النفس ، وأخذ يدير مجموعة من التي حشر ديراً ، كانت ملاذ عدد كبير من الناس . ويحلب الشباب إليه ليتطعموا على يديه العلم ، وهنا تغير وجه حياته كلية .

وانتقل من سوبياكو جنوباً إلى مونتي كاسينو ، وهو جبل في منتصف المسافة بين روما ونابلي ، موحش جبل ، يقوم في وسط حائرة كبيرة من المرتفعات الرائنة . ومن الشائع أن نلاحظ أن القديس وجد هنا في القرن السادس الميلادي ، معبداً لأبولو وأجعة^(١) مقلعة ، كما وجد أن المنطقة الريفية الجاورة ما تزال تتبدد في تلك

المجد . لما لم يكن يد من أن يبدأ عمله ، بالتبشير للدين المسيح ، فاستطاع في شيء من العمر أن يفتح الوثنيين البغاء أن يهدموا معبدهم وأن يقطروا أبحاثهم . وما لبث المؤسسة المنشأة على موني كاسينو أن بلغت حد الشهرة والقوة في حياة مؤسسها . وإذا لتستطيع أن تعرف شيئا من روح بندكت الحقيقية وإن انحطت بمحرمات وطرقات سخيطة صاغها خيال رهبان مولعين بالعجائب : من أبالسة تصاح الفرق ، وتلايد يحترق على الماء وأفعال موني يوصون إلى الحياة . غير أن الأقايس التي تخطه ينهي عن الطرف في قع النفس وإفلاها ، إنما هي أقايس لها مغزى ودلالة خاصة . فإنه أرسل رسالة لراهب منزل اخترج درجة جديدة من الورع يرتبطه سلسلة إلى صخرة في طور ضيق يبط فيها من حماسة ويدعوه فيها أن يخفف من خطواته ، قال بندكت : « كثر أخلاقك ، لأن خادم الله الخفيف ، لا يميل إلى الصخور بالحديد ، وإنما يرتبطه المسيح إلى المدي والبر » .

والجزء الثانية التي يخطرها بندكت بعد مقاومته لتعليب النفس والعزلة ، إصراره على ضرورة البعد في العمل ، وتسطع في ثانيا الأساطير دلائل واضحة تفهد بالشغب التي أفسده تلايمه ومريلوه البلاء ، الذين وجنوا أنفسهم مضطرين إلى الكبح الشديد ببلان أن يعيشوا جيش التعشف والبطالة محتلين على عظمة إخوانهم من أبناء الطبقة الدنيا . والنسب الثالث العجيب حول بندكت هو عقوده اليسى . فإنه تعصب نفسه لإصلاح ذات بين القوط والاطليان ، ومن المعروف أن توتيللا (Totila) ، ملك إيطاليا القوطي ، حضرائه يطلب مشورته ، وأنه تأثر به تأثرا عظيما . ولما استرجع توتيللا نايل من الإغريق ، صان القوط النساء من كل إهانة وعاملوا حتى الجلود المسودين بالإنسانية . وذلك بينا حدث عندما استولى بيلساريوس كاهن جستنيان على نفس المكان قبل ذلك بعشر سنوات ، أنه احتفل بنصره بإقامة مليحة عامة .

والواقع أن هيئة الرعية التي أوجدتها بندكت ، كانت بداية عظيمة جدا في العالم الغربي ، ومن بين أتباعه البارزين البابا جريجوري الكبير (٥٤٠ - ٦٠٤ م) ، وهو أول راهب أصبح بابا (٥٩٠ م) ، وهو من أشد الباباوات اقتضارا ورحمة ونشاطا ، حيث أرسل بطايات تبشيرية تكلفت جهودها بالتوفيق إلى من لم يستقوا للدين المسيحي وعلى

الأخص إلى الأنجلوسكسون . وحكم في روما كأنه ملك مستقل ، ينظم الجيوش ويصدق للعاهدات . وإلى نفوذه يرجع الفضل في فرض قواعد الملعب البندكتي وأصوله على كل الرهبان اللائكية تقريباً .

ويرتبط كاسيو دورس (٤٩٠ - ٥٨٥) بهذين الاسمين ارتباطاً وثيقاً من حيث تطور الرهبنة (النيرية) من مجرد تعذيب للنفس الأتاني لدى التناك الأول ، إلى القيام بدورها في خدمة الحضارة . وواضح أنه كان أسن بكثير من البابا جريجوري ، ويصغر بندكت بعشر سنوات ، وكان شأن هذين - ينحى إلى أسرة نبيلة من لطارقة ، أسرة سورية استقرت في إيطاليا . قضى مدة كبيرة من حياته موظفاً في خدمة ملوك القوط ، ولما حدث بين سنتي ٥١٥ ، ٥٥٣ ، أن مهد خلع هؤلاء الملوك والوفاء العظيم ، الطريق لحكم اللومبارد البريري الجديد ، راح يلتبس الملاذ في حياة الرهبانية ، فأنشأ ديراً على أرض مزارعه الخاصة ، وجعل الرهبان الذين جمعهم يشغلون على نفس النسق البندكتي تماماً ، وإن كنا لا ندرى هل كان رهبانه يتبعون بالفعل القواعد والأصول البندكتية التي كانت تصاغ قرابة نفس ذلك الزمان في مونتى كاسينو . ولكن لا يطرق شك حول تأثيره على تطور هذا النظام العظيم القائم على العمل والتطعم والدراسة . ومن الجلي أنه قد راعه ما ران على التطعم من أعمال حام واحتمال ضياع كل العلوم والأدب القديم من يد العلم . لذا وجه إخوانه منذ البداية إلى ضرورة حفظ هذه الأشياء وإعادتها إلى نصابها . فجمع المخطوطات القديمة وأمر بها ففسخت . وقام بعنق الزاويك والساعات المائية وما شابهها من أجهزة ؛ وهو ليس خليل أخير للعلم التجريبي حقق منتهى في تلك الفللمات المتكاثفة . وألف كتاباً في تاريخ ملوك القوط ، ومن أوضح الدلالات على شعوره بحاجة زمانه ، إصداره سلسلة من الكتب المدروسة عن الفنون الحرة (١) وكتاباً في الأجرومية أعنى قواعد اللغة . ولراجع أن سلطاناً ، يكاد يرجع سلطان القديس بندكت من حيث جعل الرهبانية أداة قوية لإعادة النظام الاجتماعي في العالم الغربي إلى نصايه .

(١) الفنون الحرة (Liberal Arts) : هي تروح متعة من الفكر والعلوم الإنسانية تد ومقابل لا بد منها لتجئة الفكرية على النحو والمفكر وقربانيتها . (المترجم)

وكان انتشار أديرة النظام أو السكك البنديكي في القرنين السابع والثامن خطياً جديداً .
 فلما نجدها في كل مكان مركزاً للتور بعيد مستوى التلميح إلى نصابه ويحافظ
 عليه ويرفع لواءه ، ويقوم صرياً من التعليم الأولى ، وينشر فنونا معيلة ويكثر من
 عدد الكتب ويحضرها ويصونها ، ويضع أمام أعين العالم صورة ومثالا لمود فكري
 اجتماعي . ومنعت قرون ثمانية لبث فيها نظام الأديرة الأوروبية مكوناً من رفع
 وحبوط للاقتتار في عالم لولا الأديرة فيه لعمت الفوضى يرمته . وبما يرتبط
 بأديرة البنديكين ارتباطاً وثيقاً ، تلك المدارس التي نمت للتور فأصبحت جامعات
 تقرون قوسى . وكانت مدارس العالم قرومى قد زالت زوالاً تاماً في طوفان
 الايجار الاجتماعي العام . ولقد جاء لوان كان جدد قليل جدا من التفسيرين في بوطالبا
 ويلاه القال يستطيع أن يقرأ الاناجيل أو كتب الصلوات . فكان التعليم لم يرجع إلى
 نصابه في العالم إلا تدريجياً . بيد أنه عند ما ورد إلى نصابه ، لم يعد بوصفه عملاً
 إجبارياً يلزم بأدائه جدد عالم ، بل بوصفه الفخمة الدينية لطبقة خاصة من الرجال
 الذين حبسوا أنفسهم عليه .

وحقت في شرق الإمبراطورية كذلك أن تقطع حل التعليم ، بيد أن السبب
 هناك لم يكن الاضطراب الاجتماعي قلوما كان عدم التقاسم الديني ، كما أن
 الانقطاع لم يكن بأية حال تاما كما حدث في الغرب . فاقفل جسقتان ما بأثينا من مدارس
 منكشة ومنحلة فدنيا وشرد وجعلها (٥٢٩) . بيد أنه فعل ذلك في معظم الأمور
 لكي يقضي على كل مناس للخدمة الجديدة التي كان يقسمها في التسطططينية والتي
 كانت تحت الرقابة الإمبراطورية المباشرة أكثر من المدارس الأخرى .

ولما لم تكن العلوم اللاتينية الجديدة في الجامعات الغربية الناشئة كتب درسية
 ولا أدب خاص بها ، فلما اضطرت بالرغم من تحزبها اللاهوتي القوي لغرض ذلك ،
 أن تعتمد اعتماداً كبيراً على الأدب اللاتيني (الكلاسيكي) القديم وعلى الترجمات
 اللاتينية للأدب الإغريقي . وبذلك اضطرت أن تحافظ على قدر من ذلك الأدب
 الفاخر ينظم كثيراً ما كانت تود أن تحفظ به

١١ - الفن البيزنطى

منذ أن نقلت حضارة الإمبراطورية إلى الشرق أى إلى بيزنطة ، يظهر فى العلم طراز جديد من الفن المهارى وروح قية جديدة ، هو الطراز البيزنطى . وبلغ ذلك الفن درجة عالية من الصلابة إبان حكم الإمبراطور جستنيك (٥٢٧ - ٥٦٥) وسنحتلك حته فى الفصل الثال . ثم انحط لآنية وعاد فارتفع إلى أوج جديد فى القرن الحادى عشر . وهولا يرجع إلى يومنا هذا تراثاً فنياً حياً فى شرق أوروبا . وهو يبرعما جاءت به المسيحية الرسمية البيزنطية من قيود ودواع . وقد أفرغت فيه كل التقاليد الكلاسيكية السمات الشرقية ، وبخاصة بعض الزخات المصرية والقارسية . وتعمل فيه المصانة على السرعة والرشاقة .

ومن بين ما تخصص به زخرفته من خصائص استحوذها على المرممين من الصلابة . وقد ذهب كل ما كان يحويه التصوير والنحت الإفرقي والرومانى من مرونة ، وظهورى مكانها فسيفاء (Monotony) تحمل أشكالاً مسطحة مبنية التصوير مصيبة فى مواجهة ثامة . ولا تكاد تجد لبنة رسماً جانبياً (Profile) ولا لبنة آخر التصوير . وكأنما أصبح ذلك الجسم الطيى الذى كان يقدمه الإفرقي ، موضع الملائمة وثباتاً ينفى شره . ومن ثم بلغ ذلك الفن وقاراً حثياً ورسماً . خيلو صور الرب الخالق والمولود والطفل والقديسين العظم ، الفسفة المصنوعة من الفسيفاء ، محنة فى التفكير ، وهى تطل على المشاهد من هلاء القباب العلوية التى هى موضوعة فيها . وتعمل نفس تلك الصلابة الواجبة فى التصوير وتجليه الكتب بالصور ، وانحط فن النحت من الناحية الأخرى ، واستبدلت الأشكال البنية (أى التمثيل) بنواك شبكية (Lattice) زاهية الألوان خلت حليات محفورة . وكانت لشمال اللاعب

(١) وهو ما يسمى بالمسح أو البيلزك . (المترجم)

(٢) القصير (Foreshortening) : تمثيل المثلث بحيث تنصرف فى الظاهر المثلثات الخلق .

(المترجم)

والنفقة والميتاء تعمل يائقان لم يسبق له مثيل - وغالباً ما كانت مصنوعات النسيج المستجلب من الشرق ذات رسوم فارسية لا ليس فيها - ولم تلبث التأثيرات الإسلامية حتى ظهرت على المسرح قاضية على كل شكل يمثل الأجسام قضاء أتم وأكمل .

وكذلك أصبحت الموسيقى ضحلة ولها شأنها . وكانت موسيقى القرون المسيحية الأولى أقرب إلى التمثيل والمحاكاة منها إلى الإيقاع والانسجام ، وهي تنهل من منابع ومادة أكثر منها « هليقية » - فأما للموسيقى الدينية فحظوة حظراً تاماً - فقد قال القديس جيروم : إن الفتاة المسيحية يجب ألا تعرف ما هو البر أو التاي ، « فأما ترتيل المزامير وعزفها على الآلات ، فشيء نقله المسيحيون من الصلوات اليهودية ، وقصر قصراً يتراوح زيادة ونقصاناً على البلورات (الكورس) المنظمة - وكان الترتيل التجاوب (Antiphonal) شائعاً - وكان جماعة المصلين ينشدون التراتيل بطريقة الحال في نفسة موسيقية موحدة الصوت والطبقة وذلك لأن التوزيع الثنائي (Part Singing) لم يكن قد اخترع بعد . وكان إلهاد التراتيل متضاماً خطياً ينسج من العواطف المكبوتة . فظهر قبل وفير من التراتيل في القرنين اليونانية واللاتينية . ويقال إن بعضها لا يزال باقياً في تراتيل موجودة إلى وقتنا هذا . وقد وضع القديس جريجوري (جريجوري الكبير) ، ذلك النظم العظيم للكنيسة ، الذي لدينا عنه مزيد من القول حول ذلك به في فصل قال ، أسس موسيقى القديس للكنيسة في القرن السادس .

الفصل التاسع والعشرون

تاريخ آسيا أثناء انحلال الامبراطوريتين الغربية والبيزنطية

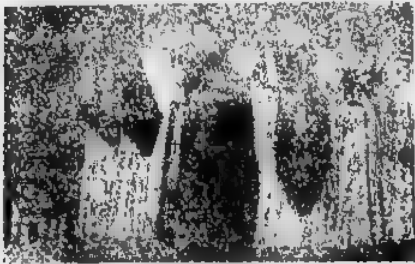
- ١ - جستنيان الكبير .
- ٢ - انحطاط البيزنطيين في عهد الساسانيين .
- ٣ - أول رسالة من الإسلام .
- ٤ - القديس القسطنطين في آسيا الوسطى وبلاد الهند .
- ٥ - ليو الثالث واثان .
- ٦ - أملاك القسطنطينية .
- ٧ - أملاك القسطنطينية .
- ٨ - رسائل يوحنا تشناريج .
- ٩ - قسطنطين الكبير .
- ١٠ - رسائل يوحنا تشناريج .

٩ - جستنيان الكبير

وكررنا التفتتا في الفصلين السابقين بسفة وثنية على ما حدث في فترة قصيرة نسبياً قوامها أربعة قرون من انهيار النظام السياسي والاجتماعي في القسم الغربي من الإمبراطورية الرومانية المظلمة : إمبراطورية قيصروترانجان ، ولم نفتأ أن ننظر ذلك الانهيار والإنقضاء في بلوغه الذروة ، ولا مره أن أي فرد ذكي القواعد محوى الروح ، يعيش في زمان القديس بولس أو كاسيودورس وفي نفس ظروف حياتها ، - كان يحيل إليه أن الحضارة قد أخذ ضياؤها مجبوراً وأدقت شمسها بالغبية . على أن النظرة الأرجب التي تلجها لنا دراسة التاريخ العام ، تطوح لنا أن نستعرض قرون الظلال هذه بوصفها دوراً - ولعله كان دوراً ضرورياً - من أعوار تقدم المفكرات وأفهام الاجتماع والسياسة في انطلاقتها إلى الأمام . ولئن حدث أثناء ذلك الزمان ، أن إحساناً قائماً بتكية فادحة يحم على صدر أوروبا الغربية ، فلا بد لنا من أن نتذكر في مقابل ذلك أن أجزاء عظيمة من العالم لم يلم بها أي قهقر ولا انحطاط .

- (١) من شاء استأنف في تاريخ ذلك الإمبراطور عليه أن يقرأ الترجمة كتابه « المشاركة البيزنطية » تأليف استيفن واسميان (مجلة الألف كتاب ومكتبة اللغة المصرية) . (الترجم)
- (٢) محوى الروح Public spirited هو من يحرم الغير بدفع من حب الخدمة العامة وهو القديس الروح كما أطلقنا في حاشيتنا سابقاً . (الترجم)

ويصح الكتاب الأوريوى ، سبب انشغال بالهم القائم بالدولة الرومانية الغربية وسيطرتها على أملاكهم ، إلى الإسراف في الميل إلى التقليل من شأن تلك الإمبراطورية الشرقية التي كان مركزها القسطنطينية . وغنى عن البيان أن تلك الإمبراطورية كانت لها تقاليد أقدم بكثير من تقاليد روما . فلو أن القارى نظر إلى الخريطة التي تبين مدى اتساعها في القرن السادس ، ولو أنه تأمل أن لغتها الرسمية كانت أصبحت آنذاك يونانية ، لأدرك أن ما نعالجه هنا ، إنما هو فرع



(شكل ١٢٢) صورة بالفيساء ليهستيان ويولط

من الإمبراطورية الرومانية بالاسم فقط . إذ الواقع أنها هي الإمبراطورية القسطنطينية التي طامح حلمها «هيريوت» ، وإلى أسسها الإمبراطور الأكبر . سقا إليها كانت تدعو نفسها «الرومانية» وتدعو سكانها «رومانا» ، ولا تزال اللغة اليونانية العصرية تسمى إلى يومنا هذا بالرومية (Romane) . وحالاً أن قسطنطين الكبير كان ضليلاً الخبط من اليونانية وأن لغة جستانان في نطقها كانت رديئة . على أن هذه الأمور السطحية المتعلقة بالاسم والشكل لا تسطيع أن تغير الواقع ، وهو أن الإمبراطورية كانت في حقيقتها هيلينية ، لها في زمن قسطنطين الكبير ماضى من

سنة قرون ، وأنه على حين تقلصت الإمبراطورية الرومانية اللاتينية تظلماً كاملاً في مدى أربعة قرون ، فإن هذه الإمبراطورية الرومانية اللاتينية قد وصلت أكثر من أحد عشر قرناً من ٣١٢ عند ابتداء حكم قسطنطين الكبير إلى ١٤٥٢ ، عندما سقطت القسطنطينية في يد الأتراك العثمانيين .

وعلى حين اضطررنا أن نحدّثك عن حدوث ما يشبه الانهيار الاجتماعي الكامل في الغرب ، فلم يحدث في الشرق انهيار مماثل لذلك . فازدهرت المدن والبلدان وتقدمت الزراعة في المناطق الريفية وتواصل رواج التجارة . وظلت القسطنطينية قروناً عديدة أعظم وأهم مدينة في العالم . ولن نشتغل أنفسنا هنا بأسماء أباطرتها المتعاقبين وحفائهم وبيرواتهم ومولاهم . فأنهم شأن معظم ملوك الدول العظيمة ، لم يكونوا ليرجعوا لإمبراطوريتهم ، بل هي التي كانت تدفعهم دفعا . ولقد سبق أن عالجنا في شيء من الإلهاب موضوع قسطنطين الكبير (٣١٢ - ٣٣٧) . وذكرنا ثيودوسيوس الكبير (٣٧٩ - ٣٩٥) ، الذي وحد الإمبراطورية لفترة يسيرة ، وذكرنا جستنيان الأول (٥٢٧ - ٥٦٥) . وسنذكر لك من غورنا شيئا عن هرقل (٦١٠ - ٦٤١) .

ولعل جستنيان كان قسطنطين يحصل في عروته دماً سلالياً . كان رجلاً واسع الطموح ذا قدرة عظيمة على التنظيم ، ومن حسن حظّه أن تزوج امرأة ذات مقدرة معادلة لقدرة إن لم تفقها ، وهي الإمبراطورة ثيودورا ، التي كانت في صياها مثلة ذات صحة مضبوطة . على أن محاولات الطموحة لاسترداد عظمة الإمبراطورية القديمة ، أهملت فيما يرجع مواردنا بالمراتب^(١) . ولقد أسلفنا إليك أنه استرد الولاية الإمبراطورية من الوندال واستعاد معظم إيطاليا من القوط . كذلك استرد جنوب أسبانيا . وبني الكنيسة المنظمة الجديدة كنيسة القديمة صوفيا بالقسطنطينية ، وأسس جامعة وجمع القرائين . بيد أننا يجب أن نضع للجرار هنا إلقائه بملرس أقينا . ولكن اجتاحت العالم في زمانه طاعون عظيم ، وانهارت بولته تلك الإمبراطورية الموسعة الجديدة كما تنهار مثالة تقصت بالهواء إذا غزها جحوش . فذهب القسم الأكبر من قووه الإيطالية إلى أيدي اللومبارد ، ولذكر هنا أن إيطاليا تحولت في ذلك الزمان إلى

(١) من المأخذ من تاريخ هذه الحقبة ، انظر كتاب « حياة القسطنطين » تأليف جروس وترجمة القزح (الألف كتاب ومكتبة عالم الكتب) . (الترجم)

صحراء لوما يتجه الصحراء . ذلك أن مؤرخي الوبارديين يؤكدون أنهم نزلوا في قطر حال من الناس . والمجدد الآكلو والعقالية (السلاف) يعيشون أساساً من أرض الدانوب إلى الأكريل ، وأخذ أقوام من العقالية يستقرون فيا هو الآن صربياً وكرواتياً وبلغارياً ، فأصبحوا يوهوسلاف هذا الزمان . فضلاً عن ذلك فإن زماماً عظيماً مضياً تشبه بين الإمبراطورية وبين الساسانيين في فارس .

ولكن يبدو بنا قبل أن نقول شيئاً من هذا الكفاح ، الذي أولئك فيه الفرس ثلاث مرات أن ينزهوا القسطنطينية ، والذي كان العامل الفاصل فيه حربة الفرس العظيمة قرب بيبوى (٦٢٧) ، يبدو بنا أن تلخص بملحة الإيجاز تاريخ بلاد الفرس منذ أيام الفارسيين .

٢ - الإمبراطورية الساسانية في فارس

سبق أن حددنا موازنة بين القرون الأربعة الوجيزة التي عاشتها الإمبريالية الرومانية وبين الحيوية القنيسنة لإمبريالية إقليم دجلة والفرات . وألقينا نظرة على الملكيتين البلخية الباكترية^(١) والبلخية المهلجيين الذين ازدهرتا لمدة ثلاثين قرون في النصف الشرقي عما غزاه الإسكتلو من بلاد . ولتبر تلك كيف هبط الهاريون أرض الجزيرة في القرن الأخير ق . م . ووصفنا لك معركة كاركاس (Carthage) ونهاية كرسوس . ومنذ ذلك الحين فابعد بقرنين ونصف استمرت أسرة الأرشكيين الهلالية تحكم في الشرق بينما حكمت الدولة الرومانية في الغرب ، على حين فصلت بينهما أرمينية وسوريا ، وكانت الحدود تتخلل شرقاً أو غرباً تبعاً لزيادة قوة أحد الطرفين على الآخر . ولحظنا أقصى امتداد لهذه الإمبراطورية الرومانية شرقاً في عهد تراچان (انظر الخريطة (١١٤)) المرافقة للفصل ٢٧ للتقسيم الأول من ٦١١ ج ٢٧ ، كذلك لاحظنا أن المندو إسكييليين Indo-Scythians قد تقوا قرابة ذلك الزمان إلى الحد (الفصل ٢٧ - القسم الخامس) .

وقد ثورت في ٢٢٦ ، وحطت محل الأسرة الأرشكية أسرة جديدة أقوى منها هي الساسانية ، وهي أسرة فارسية قومية يرأسها أردشير الأول . وكانت إمبراطورية

(١) بلخ (هلم)، بحرنا نسو الآن باكتريا : كانت ملحقاً بالمملكة وطبرما . (المترجم)

أردشير الأول ذات مشابهة عجبية من وجهة واحدة بإمبراطورية قسطنطين الكبير بعد ذلك بمئة سنة . ذلك بأن أردشير حاول أن يقوى أوامر تماسكها بأن ائتم بالوحدة القبطية وأصر عليها واتخذ من حليفة زرادشت الفارسية القديمة ديانة رسمية البلاد ، وشارك المريد عنها فيما بعد .

وتحولت هذه الإمبراطورية الساسانية المتجددة من نورها لك العنوان ، فاستولت على أنطاكية (Antioch) في حكم شاپور الأول ابن أردشير وعظفه . وقد ذكرنا من قبل كيف هزم الإمبراطور فاليريان (٢٦٠) وأخذ أسيراً . على أنه بينما كان شاپور عائداً من حرب مظفرة في آسيا الصغرى ، إذ انقضى عليه أذينة وهزمه ، وأذينة (Odenathus) هذا ملك عربي على مركز نجاري عظيم في الصحراء هو تلمر (Palmyra) .

وقد ظلت تلمر زماناً قصيراً في عهد أذينة ، ثم في أيام أرملة الزيناء (Zenobia) دولة ضئيلة تحت كاليسين بين الإمبراطوريتين . ثم سقطت في يد الإمبراطور أوربليان الذي حل الزيناء مكبلة بالأصفاد لتكون في روما أنه لخير لنصره (٢٧٧) .

ولنا بمحاولين أن نفوق قليات الخط بالساسانيين أثناء القرون الثلاثة التالية . ففي طوائف ذلك الزمان انتهكت حروب فارس وإمبراطورية القسطنطينية بلاد آسيا الصغرى لإنهاء الحمى . وانتشرت المسيحية انتشاراً واسعاً ولكنها كانت موضع الاضطهاد ، إذ أنه بعد أن تنصرت روما لم يعد على الأرض من ملك يدعى الوثنية غير الحاكم الفارسي ، فرأى في المسيحية مجرد دعابة لمخافة البيزنطى . وأصبحت القسطنطينية حامية المسيحيين ، وأضحت فارس حامية الزرادشتيين ، وبمقتضى معاهدة عقدت بين الطرفين ٤٢٢ قبل إحدى الإمبراطوريتين أن تتسامح مع الزرادشتية على أن تتسامح الأخرى مع النصرانية . وفي ٤٨٣ انفصل نصارى الشرق عن الكنيسة الأرثوذكسية وكونوا الكنيسة النسطورية ، التي نشرت - كما سبق أن ذكرنا - مبشرينها في كل أنحاء آسيا الوسطى والشرقية . ولما كان انفصال هذه الكنيسة عن أوروبا

قد حرر الأساقفة النصارى في الشرق من مطرقة البطارقة البيزنطيين ، وهذا أزال
عن كاهل الكنيسة القسطنطينية ما كان يحرم حول ولايتها السيامى من شيئات ، فإنه
أتى إلى تسامح تام مع المسيحية في بلاد فارس .

وانتهأ بحكم كسرى الأول (٥٣١ - ٥٧٩) الملقب أنوشروان آخر عهد
للقوة الساسانية . كان معاصراً لحسنين وعنبلا مكافئاً له . فأصلح نظام الضرائب
وأعاد الزرادشتية الطبقة الخفة ، ومد سلطانه على جنوب بلاد العرب (اليمن) ،
التي ألقاها من حكم نصارى الحبشة ، ودفع بتخومه الشمالية حتى التركستان الغربية ،
وعاضى سلطة من الحروب مع چستيان . وبلغت شهرته بوصفه حاكماً مستبشراً
درجة رفيعة جعلت الفلاسفة الإغريق ينتقلون إلى بلاطه عندما أخلق چستيان مدارس
أثينا . إذ اتسوا فيه الملك الفيلسوف - ذاك السراب الذى آمن كزوشوس
والفلاطون في البحث عنه في زمانهما كما سبق أن ألقنا . ولكن الفلاسفة وجدوا جو
الزرادشتية الطبقة أقل ملامة لأفواههم من يور المسيحية البقية . وفي ٥٤٩
رافق كسرى بهم بأن أدخل في هفتة عقدهما مع چستيان فترة تبيع لم العودة
إلى بلاد الروم ، وتوسعت آهم لن يضارهم أحد بسبب غلظتهم الوثنية أو بسبب
ملوكهم الذى يحمل فيه ميلهم حيناً ما إلى فارس .

وإلا تسع في أيام كسرى أنوشروان لأول مرة من شعب هولى جديد
في آسيا الوسطى ، هم الأتراك الذين دخلوا فيما نعلم في محادثة معه أولاً ثم
مع القسطنطينية .

وتغلب الحظوظ أروانا على كسرى لثاني أبروز (٥٩٠ - ٦٢٨) حفيد
كسرى الأول . فإنه في بداية حكمه أحرز انتصارات باهرة على إمبراطورية
القسطنطينية . وقد وصلت جنوده إلى خلفون ثلاث مرات (في ٦٠٨ ، ٦١٥ ،
٦٢٦) . وفى المدينة المواجهة للقسطنطينية ، وهى على أنطاكية وحقق والقدس
(٦١٤) . وحل من القدس حلياً ، قيل أنه الصليب الحقيقى الذى صلب عليه يسوع ، حمله
إلى عاصمته الدائن (طيشفون) . (ولكن جزاً من هذا الصليب الحقيقى أو صليها ما آخر
حقيقاً انتقل قبل ذلك إلى روما . إذ أسخرته من القديس فيما يقال بالإمبراطورة هيلانة ،
وهى أم قسطنطين التي جعلت مثلاً أعلى وولعت إلى مصاف القديسات ، وهى قصة

أظهر نحوها جيوش الشرق القليل من الاحترام (٢). وفي ٦١٩ فتح كسرى الثاني مصر ذلك القطر الميناءين . وأخيراً أوكاف الإمبراطور هرقل (٦١٠) ، حله الحياة للبلد بالفتوح عند حدتها ، حيث شرع يسترجع قوة القسطنطينية العسكرية المضملة . وظل وحشاً من الزمن يجنبه الدخول في معركة كبيرة أثناء جمعه قواته . ثم تقدم إلى الميدان بكل جد في ٦٢٣ . فلقى الفرس على يديه سلسلة من الهزائم كانت بمعركة نينوى (٦٢٧) ، ولكن أحداً من الطرفين لم يبلغ من القوة مبلغاً يتيح له أن يهزم خصمه هزيمة ماحقة قاضية . فلما أشرف الكفتاح على نهايته ، كان هناك جيش فارسي على ضفاف البسفور لم يهزم ، وذلك رغم وجود قوات بيزنطية منقذة في أرض الجزيرة .

وفي ٦٢٨ خلع ابن كسرى الثاني أباه وقتله . وتم صلح غير حاسم بين الإمبراطورين المتحكي القوي بعد ذلك بهام أو ما يقاويه ، وبه رجعت لكل من الطرفين حدوده القديمة ، وأعيد الصليب الحقيقي إلى هرقل ، فأوجه إلى أورشليم محرلاً يحرر من الضخامة والحفولة .

٣- اضمحلال سوريا في عهد الساسانيين

على هذه الشاكلة ، تقدم إليك في إيجاز أهم الأحداث في تاريخ الإمبراطورية الفارسية والبيزنطية على السواء . بيد أن الشيء الذي يهتما بذلك لنا ويصير مع ذلك تسجيله هو تلك التغيرات التي توافقت على حياة السكان عامة في هاتين الإمبراطوريتين العظيمتين أثناء ذلك الزمان . ولا يجد كاتب هذه السطور شيئاً منطوحاً بصحة إلا التردد اليسير في حديث تلك الأوبة العظيمة التي نعلم أنها اجتاحت العالم في القرنين الثاني والثامن من هذه الحقبة . ومن المحقق أن تلك الأوبة لغت السكان ، والراجع أنها أفسدت للنظام الاجتماعي في تلك المناطق على نفس النحو الذي نعرف أنها أحدثته في الإمبراطوريتين الرومانية والصينية .

ولقد دبح المرحوم السير ملوك سايكس (الذي جعلت وفاته في غير الأوان في

باريس أثناء وباء الأنفلونزا سنة ١٩١٩ ، خسارة لا تعوض على بريطانيا العظمى) في كتابه « آخر ميراث الطفلة : The child's last Heritage » ، استراضاً مشرقاً للحياة العامة ولتحدث آسيا الغربية أثناء الفترة التي نحن بصدددها . قال متحدثاً عن القرون الأولى التي انتصت بها الحقبة الحالية ، « أصبح توجيه الإدولة العسكرية والمالية في الإمبراطورية منزلاً في أذهان الناس عن الناحية المعيشية للحكم الزوالاً تلو تلو ، وبالرغم من قيام أبشع أنواع استبداد البهلاء والكبريين والمتوحشين والطفلة والمجانين والمتوحشين والقتل الخليفة ، الذين كانوا يقولون رمام الحكم من وقت إلى آخر ، فإن أرض الجزيرة وبابل وسوريا كانت تحوى عدداً هائلاً من السكان ، وبها قنوات وسدود ضخمة تحلى بالصيانة المستمرة ، كذلك ازدهرت التجارة والعمارة ، بالرغم من زحف الجيوش المعادية للانها في ذهاباً وجيفة وبالرغم من التغير المستمر في جنسية الحاكم . وكانت مصلحة كل فلاح متركزة في المدينة التي يتبعها ، كما أن اهتمام كل مواطن كان موجهاً إلى تقديم مدينته ورغدتها ، كما أن محمول جيش معاد ربما كان ينظر إليه في بعض الأحيان بعين الرضا والافتاح ، إذا كان نصره مضحوا وكان تسديده لما يصادف عليه محققاً .

« ولابد أن غارات أهل الشمال^(١) كانت من الناحية الأخرى مثار الدهر والملع ، إذ كان لابد للقرويين حينذاك أن يمتصوا خلف أسوار المدن ، ومن هناك كانوا يستطيعون أن يصروا للعداء الذي يطل على ما ينزله للرحل بممتلكاتهم من قمح وإصواف . وما دامت القنوات لم تمسها يد المدمرين (والواقع أنها بقيت في متانة وحيدة تضمان سلامها) ، لم يكن هناك ضرر يستحق على الإصلاح .

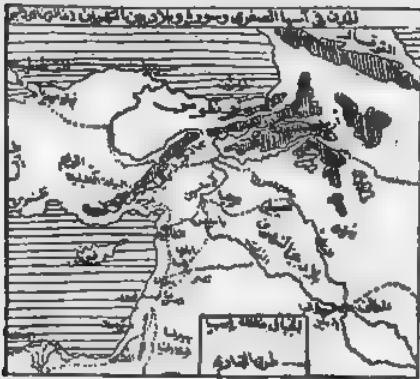
على أن حالة الحياة في أرمينية وبلاد بعلش كانت مخالفة لهذه تمام المخالفة . إذ كانت تلك البلاد مناطق جبلية تكثرها قبائل شرسة على رأسها قبيلة أقوياء من الوطنيين ، تحت ملوك يسلطون بمقاييد الحكم ، على حين كان المزارع السليم في الروديان والسهول يقدم الموارد الاقتصادية الضرورية . . . وكانت كيليكيا وكابادوكيا تخاضعتين

التبادل التجاري المباشرة بين هارتيا وروما . ولذا نجد بين جبال لبنان ولبنان الخلفية مدينة بطبك (هليوبوليس) وهي في أوج مجدها ، وما تزال بقاياها المهيمة تأخذ حتى الآن بمجاميع إصباحنا . . فلو خرجنا نحو الجليل وجدنا المدن المنيية جبركت (Gerasa) ولادانيا (عمان) وما متصلان بطرق صلبة من الحجر ومزودتان بسقايات مائية (١) مائة . ولا تزال سوريا غنية بغرائب ذلك العصر وبقاياها إلى حد لا يصعب علينا معه أن نرمم لأنفسنا عن حضارتها صورة حية . ذلك أن فنون الإغريق التي أدخلت إلى البلاد من أجل بعيد ، قد تطورت إلى درجة من الفسامة قاربت حد الاحتلال السوق . لأن جزلة السليات والإسراف في الضقة والمباهلة بالثراء تشد جميعاً على أن أذواق السامعين الشهدين ذوي الروح الفنية كانت آنذاك على ما هي عليه الآن . ولقد وقعت يوماً في أهباء الأعمدة بدمر وتظلمت يوماً آخر في فندق سيمس ، ولولا أن الثاني مبنى من الحديد المطعج بالشعب والحصى الزائف والموه بالذهب الزائف والتقطعة الزائفة والحجر الزائف ، لوهت أن تأثرت هذا هو نفس تأثير ذلك . أما سوريا فكان بها جوع وهجرة من الأرقاء تكفي لإقامة ميلان حقيقية ، حين أن الروح الفنية بها بلغت من الوضاعة حداً مما يخالل ما تخرجه الآلات . فلما في غير المدن ، فلابد أن سكان القرى كانوا يتخلون مساكنهم بطريقة تتأني ما يفطرونه الآن حيث يننون جدرانها من الطين والحجر العاري . حل حين أنه في المراعي البعيدة في الخارج ، كان الهلو يرمون قطعانهم بحلله حريتهم تحت حكم ملوك النبط (٢) (Nabatean) من أي جلدتهم ، أو يقومون بوظيفة الحراسة والوساطة في القوافل التجارية العظيمة .

ومن وراء الرعاة وأرضهم تحده التلال الالامحة ، وتترجم بدور الصخور والحصون النبعة التي تنفع كثر من الإمبراطورية الهلثية خلف نهر القنات حيث تقف مدن عظيمة من أمثال طيشون (المفائق) وعلوتيا وهاترا ونصيبين وسوران ومئات أخرى من المدن ، نسي الناس منها حتى مجرد أسماءها . كانت هذه المدن العظيمة تعيش على ما تلبه أرض الجزيرة من وفرة مائة من الحبوب . وكانت تروى آنذاك بالقنوات التي

(١) السقايات المائية (Aquaducts) هي قنوات صلبة فوق عقود مائية لنقل الماء داخل المدن وهي شبيهة بمجرى هيون الموجود بمقبة في الخليج بالعقيرة . (الترجم)

(٢) نبط . شعب عرب كان يسكن القسم الشمالي من بلاد العرب في موقع الهولاء الأردنية الآن . (الترجم)



(شكل ١٦١) خريطة للمنطقة في آسيا الصغرى وسوريا وبلاد الشام بين القرنين
(في القرن الأول الميلادي)

توارثت أحماء مثلها - حتى في تلك الأيام - في غيابات الماضي السحيق . وكانت يابل وثينوى قد حوصلا من التواجد . على حين أنغل خطاه فارس ومقدونيا . كانهم لهارثيا . بيد أن الناس والزراعة كانوا كما هم لم يتغير فيهم شيء . مما كان عليه الحال عندما أضحى البلاد قورش الفاتح لأول مرة . وكانت لفظة كمبر من المدن الإغريقية ، حتى ربما انتقد مواطنو سلوقيا الملقبون لظلمات أثينا ومكسبا (تراجيدياتها) . على أن الملايين من السكان الزراع كانوا لا يملكون من هذه الأمور بما يجعل أكثر مما يترك كثير من فلاحي مقاطعة إسكس اليوم مما يجري في العاصمة البريطانية .

وعلى القارئ أن يقارن هذا كله بالأحوال السارية في نهاية القرن السابع . وكانت سوريا عند ذاك لوغياً فقيرة منكوبة . ولا بد أن أدبنا العظيمة ، وإن كانت لا تزال آهلة بالسكان ، قد تكاثرت فيها الغرابة التي لم تكن الموارد المالية الطامة

كالية لإزالتها ، ولم تكن دمشق وأورشليم نفسهما أماناً مما أصابهما من ويلات
الحصارات الطويلة العظيمة ، وانحطت عمان وجيرش إلى مصاف ققرى الصفة تحت
سلطة البهو وسيادتهم . ولعل حوران كانت لا تزال على شيء من خلائل الرخاء
الذى اشتهرت به أيام تراجان . بيد أن مبادئ ذلك الزمان الصفة وكتابتها الخشنة
التي تعوزها الراحة تشير جميعاً إلى اغتمحال محزن مؤتم ، وهناك في وسط وصال
الصحراء ، كانت تدمر تحت غواية موحشة اللهم إلا من حامية تقيم في قلعتها .
فأما عن الشواطئ وفي لبنان فكان هناك لقديم التجارة والأعمال والثروة على لا يزال
مشاهداً ، فأما في الشمال فلا بد أن لشراب والدمار والإفقار والوحشة كانت
الحالة التي تم أراضي التي ظلت يخبر عليها المنبرون بالانحطام لا يقتر طولاً حة
سح ، كما تملكها حدر لما مدة حسة حشر حاماً . ولا بد أن قد انحطت
الزراعة وقل السكان قلة معلومة بسبب تعاقب الطاعون والحمن وحسبما العذاب
عليها ألونا .

١ وهوت كاهادوكيا إلى درك المعجبة على درجات غير محسومة . وصوت بسطح
الأرض الكنائس العظيمة (البازيليك) والمدن الكبيرة التي لم يستطع الرقيون لمسطه
أن يصلحوها ولا أن يبلوها إلى ساهن عهدها . وطلقت فيلوش القارسية تلوح
شبه جزيرة الأناضول طولاً وحرصاً ونهلك الحرث والنسل ، حل حين تعرضت
للمدن العظيمة للهب والنهب .

٤ - أولى رسالة من الإسلام

حدث عندما كان هرقل مشغولاً بإعادة النظام في سوريا هذه الفترة المتكوية بعد
وفاء كسرى الثاني أبريز وقبل عقد الصلح النهائي مع فارس ، أن ألفت إليه
رسالة غريبة . وكان حملها قد دفعها إلى خضر إمبراطورى أماى في البرية المستلة إلى
الجنوب من دمشق . وكانت الرسالة بالعربية ، وهي اللغة السامية غير المعروفة ، لغة
الشعوب المترحلة في الصحراء الجنوبية . ولعل الإمبراطور لم يصل إلى علمه إلا تأويل
لها - أضل إلى الرحمان فيها تعتمد بعض ملحوظات تم عن الاحتقار والاستهزاء .

كانت تعدياً شريعياً بليغاً من شخص يدعو نفسه باسم محمد بن الله . وكان محمد (عليه الصلاة والسلام) على ما يظهر ، يدعو هرقل أن يعترف بالإله الواحد الحق وأن يقوم على خدمته وعبادته . ولم يكن في الوثيقة بعد هذا أى شيء آخر محمد :

وليس هناك سجل أثبت فيه تسليم هذه الرسالة ، ويطلب هل القن أنها ذهبت دون رد . والراجع أن الإمبراطور هرقل فيه ، في شيء من الضكة (٥) بهله الحادثة .

يبد أن من في المدائن كانوا يعرفون عن محمد فعلاً أكبر . إذ قالوا عنه - إنكأ وبعثاً - إنه نبي مطلق ككتاب [كلنا ٢١١ . .] ، حرض ابن ، وهي الولاية القنبية في جنوب بلاد العرب ، على الثورة على ملك الملوك ، القاروس . وكان الملك تباذ محل الصانع بالأعمال . فقد طلع أباه كسرى الثاني أبريز ونقطه ، وأخذ يقول أن بعد تنظيم القوات العسكرية القاروسية . وإليه كذلك جاءت رسالة تطابق تلك الرسالة لملك هرقل . فأغضبه ذلك الأمر . فزق الرسالة وألقى بها في وجه حاملها - وأمره بالانصراف .

ولما أن نبي النبي (صلى الله عليه وسلم) بملك ، وهو في بلدته طائفة الصغيرة المواقضة ، المدينة ، غضب غضباً شديداً وصاح قائلاً : اللهم زق ملكك شريكاً ، (٦٢٨ م) .

(١) ذكر ابن خلدون في مقدمته أن القيس بن أبي حازم من بني عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان . وذكر ابن خلدون أن القيس بن أبي حازم من بني عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان . وذكر ابن خلدون أن القيس بن أبي حازم من بني عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان .

• - زرادشت ومالي

هل أنه يمكن بنا قبل أن نواصل الحديث في نشأة الإسلام في العالم ، أن نستكمل بحثنا في حال آسيا عند فجر القرن السابع . ويجب علينا أن نقول كلمة أو ما إليها من التطور الذي في المجتمع الفارسي أثناء العهد الساساني .

تدلت الزرادشتية منذ أيام قروش لما بعدها هل آلهة نينوى وبابل الأكلمين . وكان زرواستر Zoroaster (وهو لطباء الإغريق لكلمة زاراثوسترا Zoroastrian^(١) الإيرانية) قريبا مثل بوذا . ولما نرى شيئا من العصر الذي عاش فيه ، ويرجع بعض النقاد إلى سنة ١٠٠٠ ق . م ، ويعمله آخرون معاصرا لبوذا أو كنفوشيوس . ولا يريته هل حملنا هذا ، علمنا بعمل ميلاده أو جسيته بالبلقة . فأما تعاليمه لمحفوظة لنا في الزند أفيستا (Zend Avesta) . ولكن نظرا لأنها لم تعد تلعب دورا كبيرا في شؤون العالم ، فليس في طوقنا أن نبالغها هنا في أي تفصيل . وصفوه القول أن المعارض بين رب الخير وهو آهورا مزدا (هرمزد) : إله النور والصدق والبر والرحمة والشمس ، وبين رب الشر هو أهرمان : رب الخفاء والمكر والسياسة والظلمة والليل ، هو محور ديانته . ويجسد لها في التاريخ مجموعة آتفا بنظام طقوسي وكهنوتي ، وليس لها أصنام ولكن لها كهنة ومعابد ومهاكل ، تنقد عليها نار مقلعة وقام عليها العقوس القويانية . ومن بين خصائصها المميزة ، حظرها دفن الموتى أو إحراقهم . والقرميس (Purues) الخود ، وهم أكثر من بقى من الزرادشتيين إلى يومنا هذا ، لا يزالون يلقون موتاهم داخل أهراج مبنية مفتوحة ، هي أهراج الصمت والخشوع التي تنفاهم القبان .

وكانت هذه الديانة هي للديانة الرسمية للدولة إبان حكم بني ساسان من أردشير بن بهمن (٢٢٧ م) ، ورئيسها هو ثاني رجل في الدولة بعد الملك ، وطبقا لأدق

مقتضيات المعرفة القديم ، كان الاحتقاد السائد أن الملك قنسى أو شبه تسمى ربه
علاقة مودة صميمية خاصة مع هرمزد .

يبد أن ما كان يجري في العلم من اختصار ديني لم يترك الزرادشتية السيادة المطلقة
على الإمبراطورية الفارسية بغير منازع فلم يقتصر الأمر على توغل النصرانية شرقاً ، وقد
سبق أن أشرنا إلى ذلك ، بل نشأت طوائف جديدة في فارس حملت أفكار ذلك
الزمان للمنطقة ، ولقد سبق أن ذكرنا فرعاً أو نوعاً مبهكراً من الزرادشتية هو
للثرائية . وهي عقيدة انتشرت في أوروبا في القرن الأول ق . م بعد حلات يوحنا
الكبير في الشرق . قال إليها الجنود والعامه ميلا هائلا ، وظلت حتى عهد قسطنطين
الكبير منافسة خطيرة للنصرانية . ومثلاً هو إله النور الذي يصدره عن أمورا مزدا
(هرمزد) ويولد ميلاداً إيجابياً بنفس الطريقة التي يصدر بها الأتوم الثالث في التالوث
المسيحي عن الأول . ولنا حاجة إلى مزيد القول عن هذا الفرع من الجلع
الزردشتي . على أنه نشأت أثناء القرن الثالث (م) ديانة أخرى هي المانوية ،
وهي تستحق الآن بعض الالتفات .

ولد ماني مؤسس المانوية في حافلة كريمة بمدينة إكباتانا العاصمة البدية
القديمة (٢١٦ م) . وتلقى تعليمه في طيففون . وكان أبوه ناسكاً ينتمي إلى إحدى
الطوائف الدينية ، تربي في جو من البحث والدراسات الدينية . وانتهى به
الأمر إلى الاكتناع بأنه أصبح صاحب التور الكامل ، الذي هو القوة المحركة
لكل صاحب رسالة دينية . ودفعه الظروف إلى إعلان مبادئه . إذ أنه
شرح يديش بتأليفه عند تولى شاپور الأول ثاني ملوك بني ساسان في ٢٨٢ م .

وبما يلقى وعصا من تشكيل الناس في تلك الأيام ، أن يحتوى تعليمه على ضرب
من مزج الأديان والآلهة (التيوكرازيا) . فأعلن أنه لا يأتي بأى شيء جديد . فلك بأن
كبار مؤسسي الأديان من قبله كانوا جميعاً على صواب : فإن موسى وزرادشت وبوذا
ويعسوع المسيح - كانوا جميعاً أنبياء صادقين ، بيد أنه وكل إليه أن يوضح لتلاميذه
التناقض المضطربة ويوحيها . وقد قام بهذا بروح زرادشت وأسلوبه . وهو يفسر ماني
الحياة من اضطراب وتناقض بأنه صراع بين النور والظلمة . وأمورا مزدا (هرمزد)
عنده هو الإله وأمريمان هو الشيطان ، ولكن كيف خلق الإنسان ؟ وكيف سقط من

النور إلى الظلمة ؟ وكيف يحرر من أغلاله ويتخذ من الظلام ؟ ثم ما هو الدور الذي يقوم به يسوع في هذا الخليط المسجوب من اللذائذ ؟ هذه أمور ما نحن عاقلين أن نفسرها هنا وإن رغبتنا . فإن اهتمامنا بالموضوع فارغى بحث وما هو باللاهوت .

ولعل أهم ما يشير الاهتمام من الناحية التاريخية أن ماني لم يكف بالطوائف في إيران مبشراً بأفكاره الجديدة هذه التي بدت له مفعلة تمام الإقناع ، بل دخل التركستان وعبط الهند وعبط الممرات إلى الصين . ولا شك أن صعوبة التنقل هذه يجب أن تكون موضع الملاحظة . وهي شائقة لثبر الاهتمام كذلك ، لأنها تعرض على أرواظنا أن التركستان لم يعد قطر منحلين حطرين ، بل إقليماً زدهرفيه المدن وينال فيه قريجال من التعليم ووقت الفراغ ما يتيح لهم البحث في المسائل اللاهوتية .

وقد انتشرت أفكار ماني شرقاً وغرباً في سرمة عظيمة ، وكانت دوحه مشرة على نمد العالم المسيحي بأمره بالزندقات (الهرطقة) طوال ما يقارب الألف سنة .

وعاد ماني إلى طيففون في زمان يقارب ٢٧٠ م واتضم إليه أنصار كثيرون . فتمخض هذا عن احكامه بالدين الرسمي وبراءة الدين . وفي ٢٧٧ م أسره الملك الحاكم فسلب ، وأمر بحبه لسبب مجهول لسلخ . ومن ثم أختلوا يصبون على أنفاهه أحشف الاضطهاد . ومع ذلك فإن المانوية صمدت في فارس بضعة قرون مع المسيحية السطورية والزرادشتية فسلقة أهنى المزدكية Mazdaism .

٦ - الشعوب الهوتية في آسيا الوسطى وبلاد الهند

الآن ينبغي لنا أن نلح حد ما أنه في القرنين الخامس والسادس الميلاديين ، لم تكن فارس وحدها ، بل الأقاليم التي تعرف الآن بالتركستان وأفغانستان ، - على درجة من المدنية تتجاوز كثيراً في تفليها مرتبة الفرنسيين والإنجليز في ذلك الزمان ، وقد رفضت غشاوة القموض عن تلوين هذه الأقاليم في العشرين سنة الأخيرة ، واكتشف وأدب (١) ضخماً جداً ، لم يقتصر تلوينه على لغات من المجموعة التركية وخشب ، بل تجاوزها

(١) بين المؤلفات باللغة « أدب » لمن قام للكتابة التي يدل على جميع ما سطر في اللغة من كتابات ودلالات . (القسم)

لدى اللغة الصغدية^(١) (Sogdian) وإلى لغة كرية أخرى ، وترجع هذه المخطوطات الباقية
 إلى اليوم إلى القرن السابع وما يتلوها من قرون ، والأجدد فيها عتيقة من الآرامية ،
 وقد أدخلها الميشرئون الماتويون . وإن كثيراً من المخطوطات المكتشفة لهجتي علينا من
 آيات الجبال ما يضارع شعر ما أنتجه الرميان البندكيون . وقد وجد بعض الرقي^(٢)
 (Parchement) مشدوداً في التوافد مكان الزجاج . وفي هذه المخطوطات ترجمات لأجزاء
 من الأسفار المقدسة المسيحية والمسطرات البوذية ، وجدت مخططة بمقاس كبير جداً
 من الأدب الماتوي . وما يرح الكثير من تلك المواد في انتظار اليد التي تتولاها
 بالفحص الدقيق .

ويصرح السير دنيون روس بأن هذا الإقليم الآسيوي الأوسط ، كان لا يزال
 إلى حد كبير كرياً لغة وثقافة ، وكان فته لا يزال في جل أمره على الأرومة أولومبود
 الأصول . وتدل كل الدلائل على صحة الرأي فقال بأن هذه القرون التي هي في
 أوروبا قرون كوارث وتلخر ، كانت بالمقارنة عصر عظم في آسيا الوسطى لها ولها شركاً
 حتى بلاد الصين . ولسوف نحصل يوماً على تاريخ متصل الخلفات يسجل الأحداث
 التي حدثت في ذلك الإقليم أثناء القرون المملاكة التي عمت فيها القوضى لوديا -
 إذ حظيت حضارة ذلك الإقليم إبان زمان كان المناخ فيه موافقاً ، بلورق غير
 عادي . وفي برلين الآن مجموعة من الرسوم الخطوية المنقولة من الرقمان في تلك
 اللدة ، وكأنما هي تكون خارق المعتاد لما ظهر (بعد تلك ستة قرون) بفرنسا
 وألمانيا في القرن الثالث عشر من ثياب وملابس . لهذا الأشكال والرموز المألوفة العلوك
 والملكات والفنان في ورق الذهب مثلاً ، ترى بنسبها في هذه الصور الزامية . فقد
 كانت هناك حياة تبلغ في جلالها واعياها مبلغ حياة القرون الوسطى . الأروية -
 أزهي أحوالها وهي تشابهها مشابهة عجيبة . ويختلط الشعر والسحر في هذه المناظر ،
 ويكثر الأصهبون^(٣) وهم في العادة نتيجة التخطيطات القصصية .

(١) الصغدية نسبة إلى صغدiana وهي ولاية من ولايات دولة الخمر القديمة تقابل اليوم مناطق
 سمرقند وقشغر . (الترجمة)

(٢) الرقي (ينتج الرق) جلد رقيق يكتب فيه . (الترجمة)

(٣) الأصهب هو الآخر القدر . (الترجمة)

وكانت الشعوب المنيّة التي صارت تسمى آنذاك تاتاراً وأتراكاً تقوم في شمال
بحر قزوين بحركة انتحال مستمرة نحو الغرب تواصلت حتى القرن السادس ، ولكن
يعتبرنا أن بعدها قبضاً لقائص من القوم لا هجرة لشعوب بأكملها . وكان العلم من
الدانوب إلى الحدود الصينية ما يزال في معظم شأنه - الم لرحل وبدادة تنموه بلدان
ومدن على طرق التجارة الرئيسية . ولما في حاجة إلى تفصيل القول ما هنا عن
الاصطدام المستمر بين الشعوب التركية بالتركستان الغربية وبين الفرس إلى الجنوب
منهم ، وهو النزاع الأبدي بين الطوراني^(١) والإيراني . ولما نسمع شيئاً عن أي زحف
عظيم للفرس نحو الشمال ، ولكن كانت هناك غارات نحو الجنوب عظيمة خطيرة
بالتكرار قام بها كل من الطورانيين إلى الشرق من بحر قزوين والآلاتيين إلى الغرب
منه قبل أن بدأت مجموعة الحركات الكبيرة في القرنين الثالث والرابع نحو الغرب ، وهو
التي حلت الآلاتيين واللون إلى صميم قلب أوروبا . واحتل المترحلون إلى شرق فارس
كما انهمجوا جنوباً عتريتين أفغانستان إلى الهند ، وذلك فصلا عن هذه الحركة المتجهة
نحو الشمال الغربي . فكان هذه الأنهار البلياسة بالمحطين كانت تفيض على كل من
جانبي فارس . ولقد سبق أن ذكرنا قبيلة « يويه تلي » اللذين انتحلوا آخر الأمر إلى
الهند بوصفهم الهندوإسكيثيين في القرن الثاني . على أن قسماً متأخراً من هؤلاء
اليوه نشئ ظل مقياً على بداوته بأسيا الوسطى ، وتكاثر صعداً في سهوب التركستان ،
وهم يعرفون باسم الإختاليين أو الهون البيض . فبعد أن أقاموا ثلاثة قرون وهم مصدر
لزعاج وعطش على الفرس ، أعلوا يفرون آخر الأمر على أرض الهند في الرأطهم
حول ٤٧٠ ، وكان هذا بعد موت أنيلا يحوالي ربع قرن . حل أنهم لم يهاجروا
إلى بلاد الهند ، بل ظلوا يتهبون في البلاد ذهاباً وعلوا ، ثم يهجون بسلامهم إلى
موطنهم الأصلي ، مثلما فعل الهون عيا بعد إذ استقروا في سهل الدانوب العظيم وأعلوا
ثم يفرون على كل أوروبا .

وتاريخ الهند أثناء هذه القرون السبعة التي سمرضها الآن ، يعاقب عليه على
لعلوم هذان القروان : غزو اليوه نشئ أي الهندوإسكيثيين الذين أزالوا كما قلنا
آخر آثار الحكم المنيق ، ثم غزو الإختاليين . وقد دفعت الطائفة الأولى من هؤلاء ،

(١) أطلق الإبراهيمون ثم العرب ذلك الاسم على سكان التركستان وأسيا الوسطى ولتاتهم . (لقدج)

أمن المخلو إسكانيين أممها ، موجة من السكان المظرودين من أوطانهم هم الساكا (Sakas) ، ولما تكرر الهند قد بقيت في النهاية ثلاث موجات من إغارات البرابرة حدثت قرابة ١٠٠ م وقرابة ١٢٠ م وقرابة ٤٧٠ م . غير أن الثانية من هذه الغزوات ، هي الوحيدة التي خلقت فتحة مستديماً واستقراراً مقبلاً . واتخذ الهنود الإسكنديون مركزهم الرئيسي على الحدود الشمالية الغربية حيث أقاموا أسرة مالكة ، هي أسرة كوشان (Kushans) وهي التي حكمت معظم شمال الهند حتى بنارس شرقاً .

وأهم هؤلاء الملوك الكوشانيين هو كانيشكا (Kanishka) (وتاريخه مجهول) ، وهو الذي ضم إلى شمال الهند كلا من قشغر وبلخ وخراسان . كان - مثله مثل أسوكا (أو أشوكا) - حاملاً قويا على رفع شأن البوذية ، ولابد أن هذه القنوح التي تكونت منها هذه الإمبراطورية العظيمة على الحدود الشمالية الغربية ، أضافت بين الهند والصين والتحت علاقات وثيقة مستمرة

ولن نهم هاهنا يذكر ما لم يبد ذلك بالقوة المسيطرة على الهند من انقسام وانحلال وتحالف ، لاستعصامها على البحث عما هنا في هذا الحيز الصيق بين أيدينا . فكانت الهند في بعض الأحيان مجموعة كبيرة من الدول كرقعة الشطرنج ، وربما تظلت إمبراطورية كإمبراطورية الجوهتا (Guptas) على ساحات عظيمة منها . ولزدهرت إمبراطورية الجوهتا طوال القرون الرابع والخامس والسادس . وفي ظل رعايتها قامت الهندوكية المصرية ، وظهرت فترة من النشاط الأدبي العظيم . على أن هذه الأمور تبرز لا قليلا طريقة الحياة العادية لدى الشعوب المنتجة . وحصلت البرهمانية في وجه البوذية ولزدهرت الديانتان جنبا إلى جنب . وكانت كلمة السكان الكبرى تعيش كما تعيش الآن إلى حد كبير جداً ، فليس الشيايب وتزوح الأرض ولهي بيوتها على نفس الشاكلة الحالية

وغارات الإنفاليين جذيرة بالذكر ، لا بسبب تولد عنها من آثار مستترة بل بسبب ما ارتكبه الغزاة من القتل . فقد كان هؤلاء الإنفاليون أقرب الناس شياً جون أتيليا في بربريتهم ، كانت الفاعة كل همهم ، فلم يشجوا أسرة ملكية كآسرة كوشان ، واحتفظ رومانوسم بمركز قيادتهم العليا في التركستان الغربية . وقد سمي مبهراجولا (Mihiragula) أعظم زعمائهم كهاية باسم أتيليا بلاد الهند . ويروي أن إحدى تسلياه

المحبوبة كانت لعبة غالية كبيرة النفقة ، هي دحرجة القيلة في المحاولات الصعج على
آلامها . وأثار ما لوثكته من فظائع أمراء الهند التامبين له فثاروا عليه وطمعوه
(٥٢٨) . على أن للقضاء النهائي على غارات الإفتاليين على الهند لم يأت من جانب
الهند ، بل جاء نتيجة لتدبير المركز الرئيسى للإفتاليين على نهر سرادولوا أو
سيمون (Simon) (٥٦٥) على يد قوة الأتراك النامية ، إذ هاجمهم متحالفين مع
الفرس . وما لبث الإفتاليون بعد هذه الهزيمة أن انحلوا انحلالاً سريعاً تماماً وانصهروا
في السكان المحيطين بهم ، مثلما فعل الهون الأوروبيون بعد وفاة أتيليا قبل ذلك
ببنة سة . ذلك أن البدو المرعطين الذين ليس لديهم أرض مراعى مركبة لا بد
أن يتركوها ، إذ ليس أمامهم غير التشتت من صيل . ويقال إن بعض عشائر
الراجهوت (Rajput) الرئيسية الموجودة إلى يومنا هذا في راجهوتانا في شمال الهند ،
تنحدر من هؤلاء الهون البيض .

وإذا مضطرون أن نمسك آسفين عاماً عن الإدلاء بأى بيان عن تطور القروسية في
هذه الولايات الراجهوتية الصغيرة ، وهى حجية المائلة لتطور القروسية المعاصرة لها
في أوروبا .

ثم إننا لا نستطيع أيضاً أن نحج ولو في معالم إجمالية تطور الفن الهندى بين أيام
الإسكندرو مجىء الإسلام ، إذ لم يتم أى دارس بدراسة تلك الحقبة ولم نعد لنا السبيل في
هذا الصدد . ولا يخفى أن للتأثير الهلنى



Two Kushan Coins ...

(شكل ١٢٥) عملة إندالية

في الفن الهندى والمهارة الهندية حقيقاً ،
والراجع أن الفئتين وعلى الخصوص
الصوريين منهم كانوا لا يفتكون
يخلون ويروحوون بين فرس وآسيا
لومنى والهند . وذلك أن الفن
البوذى تتجلى فيه روح هندية
قوية . ولما حدث في القرن الثانى

وما يتلوه من قرون ميلادية ، أن انتشرت البوذية في الصين كما سبق أن ذكرنا ، حلت
مها شيئاً من رشاقة الفن الهلنى وطابعه وأدخلته على الأشكال الصينية المثلثة ليوذا وعلى

القرن الثاني الصيني عامة . ولكن لابد متحاشيا نقض على كل عمل في قديم مجهور .
فإن أسرات مملكة من التي كاد اللسان يفتي عليها غاماً ، كانت تعيش بالمتد حيثاً
جيلة متراً ، ولكنها لم تختلف من وراثتها إلا القليل مما أوليت من ألوان الجبال .

وهناك أثر قاتن لمتاد تبق عن هذا الزمان ، وهو يرى في كهوف أجاتا
(Agata) المنقوشة جذراتها التي أخلت صورها تلوى وتسر رؤيتها . ومن حسن
الحظ أن قد أخلت لها صور يمكن الاطلاع عليها برواية الجمعية الهندية . وتوجد
أجاتا في حيدر آباد في بحر هام بحال قنديا ، وقد كان هناك بين القرنين الثاني
والسابع الميلاديين جبر يوشى به كثير من الأبناء والدهاينز المقرقة في الصخر ، وق
هذه الفترة وق القرنين الخامس والسادس يوجه خاص زينت هذه الكهوف بالنقوش
على حساب ملوك ورجال أثرياء متوجين ، زينا هذه من القاتين المهرة الموهوبين .
وإذا لتنتظر إلى هذه القايا في أيامنا هذه فاهلين ، فلها بلغت من القصاصة في الترجمة
عن لراء وذلكه وشهوة الحياة في البلاط كل مبلغ ، فلولا هذه الصور لثارت هذه
الأموار من فاكرة الناس تمام الزوال ، ولا تزال موضوعات تلك الصور في كثير من
الاحالات موضع نظر ولغد وود ، لأن بعضها مناظر تمثل حياة بورا وأساطير تصور
حواله ، وبعضها تدور خاصة بالرب إلندرا (Indra) ، وبعضها لا يزيد عن صمعة من
حياة البلاط اليومية . وهناك منظر يظن أنه يمثل استقبال بنت سيلية مولدة مع
كسرى الثاني أبروير . وقد زار حسنه الكهوف والنقوش في أيام عهد (صلى الله
عليه وسلم) يواند ثنوتاج ، وهو رجالة صيني متحدثك عنه بالكثير من القول
حما قليل .

٧ - أسراتها وتاريخها بالصين

هذه القرون السبعة التي شهدت بداية ونهاية الأباطرة في روما ، ورأت حياة
أوروبا الغربية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية ، تتسلم ثم يصادفها ، -
شهدت كذلك تغيرات عميقة الأخر جلاً في العالم الصيني . ويتبع بين المؤرخين الصينيين
والبابائين والأوربيين فرض مفاده أن عهدى أسرة هان التي نجد الصين تحت حكمها في

بداية هذه المدة وأسرة تانج التي بها انتهت ، يعتبران من عهود الرخاء الثالثة ، وأنها كانتا تدبران أمور إمبراطورية متشابهة أو تكاد ، وأن قرون الانقسام الأربعة التي مرت بين نهاية أسرة هان (٢٢٠) وبداية أسرة تانج (٦١٨) ، كانت عهود اضطراب لا قرون انتفاخ ضروري . وهناك بعض الناس أن انقسامات الصين إن هي إلا انقسامات سياسية وعرقية . إذ ينحدرون لأن الصين كانت في نهاية هذه القرون الأربعة كما كانت في مسبقها ، تشغل نفس المركز في آسيا ، أنها ظلت طوال تلك القرون نفس الصين المعروفة ، إذ لم تبرح صاحبة ثقافة مشتركة وكتابة مشتركة ومجموعة مشتركة من الأفكار — وهم في ذلك يتجاهلون عملياً الهدم والبناء الجوهريين اللذين ظلتا تجريان ، كما تخترقهم أوسمة الطب الكثرة بين ما مر على الصين وأوروبا من أحداث.

حقاً إن الانهيار الاجتماعي لم يبلغ أبداً في العلم الصيني بلطفه الكامل في العالم الأوربي . فقد بقيت هناك طوال المدة بأجمعها سلطات مترامية كان من الميسور فيها أن يواصل الصين والإيمان في كل فنون الحياة . فلم يحدث بها تقوض تام في الثقافة والفخر والإنتاج الفني والأدبي كالأدبي علينا أن نسجله في الغرب . وليس هناك مثل ما حدث في أوروبا من صروف عن القاموس قرشاقة والمثمة . فلما نلاحظ ملاحظاً ، الشئ ه ظهر في العلم ، ولذا لمستهاله في كل أرجاء الصين . وبدأت الصين تعكس الشئ في القرن السادس للميلاد . وتظهر بين الشعراء الصينيين من يكتبون كتابات جيدة عن تأثيرات الفنجان الأول والفتنجان الثاني والفتنجان الثالث ، وهكذا ، واستمرت الصين تنتج تصوراً جيداً بعد سقوط أسرة هان زمن بعد ، في القرن الثاني والثالث والرابع ، تحت مناظر طبيعية^(١) بوية من أروع ما أبدعته يد الإنسان على مر القصور . وانطرد ظهور العدد الموفور من إنتاج الزهريات والنحات البهيمية . ولم ينقطع إنشاء المباني الرشيفة وأعمال الخزف . واتحدت للطباعة من كتل من الخشب في نفس زمان اختراع الشئ ه وتظهر مع بدايات القرن السابع انتعاش عجيب في الشعر .

وهناك فروق بأبعادها بين الإمبراطوريات العظيمة في الشرق والغرب ساعدت كلها على ترميم قدم الأولى وتثبيت أركانها . فلم يكن للصين حلة عامة . ولذا فإن

(١) المنظر الطبيعي Landscape : منظر أرضي كنظر قرية أو غابة وقد يكون فيها أشخاص أو حيوانات لا تشغل جزءاً مهماً من الصورة (المترجم)

ما كان للعالم الغربي من نظام للدفع نقداً وإتقاناً^(١) ، وهو النظام الذي يجمع بين الكفاية والخطر في وقت واحد ، لم يكن مما اهتمت به الصين في حياتها الاقتصادية . وليس معنى ذلك أن فكرة النقد كانت مجهولة . فقد كانت الولايات المتحدة تستعمل في صفتها الصغيرة نقداً ، متقوياً من الزئبق والنحاس ، فأما في الكرى فلم يكن هناك من شيء سوى سبائك مصنوعة من الفضة . وإذ فهذه الإمبراطورية المظلمة كانت لا تزال تقوم بغالب أعمالها التجارية على أساس من المقايضة يشبه ذلك الذي كان منتشرًا في بابل أيام التجار الآراميين^(٢) . وقد استمرت على هذا الحال حتى فجر القرن العشرين .

ولقد رأينا كيف قُصِيَ على النظام الاجتماعي والاقتصادي في الجمهورية الرومانية بسبب سيولة الملكية ، تلك السيولة الشديدة التي أوجبتها النقود . فأصبحت النقود شيئاً مجرداً قائماً بذاته ، وانقطعت صلتها بالقيم الحقيقية التي كان مقروصاً أنها تحتلها . فوقع الأفراد وانجذبت في الدائنين وفوقاً عالقاً لكل مغول ، ووقع الظلم تحت سيطرة طبقة من الأثرياء كانوا هم الدائنين ، وهم رجال كانوا لا يتداولون بينهم أية أروة حقيقية ، بل كان في طوقهم أن يطالبوا بالنقود ويسحبوها . فأما الصين فلم يحدث مثل ذلك التطور المالي . بل ظلت الثروة في الصين حقيقية ومرتبة ملموسة . ومن ثم لم تكن بالصين حاجبة إلى أي قانون ليسيني (Laissez) ولا إلى تيمبوليس جواكوس يدفع عن حقوق المدينين^(٣) . ففكرة الملكية في الصين لم تتجاوز كثيراً حدود الأشياء الملموسة . فلم يكن بها عمال وأرقاء ولا جماعات مستعبدة في الخدمة . وإن كان هناك بنات إماء يقمن بالأعمال المنزلية ونساء يثنن ويشترن بيج الرقيق ، بيد أن هذا لم يكن إلا توسعة لطيفة لما عليه النساء من مالوف للذل المنزلي . وكان شاغل الأرض والمستفيد منها هو في معظم الحالات المالك الفعلي لها أو بكاد ، ولا يدفع الإضرية الأرضي . وكان هناك قديسين من نظام ملكية الأراضي خلت الرقاع الصغيرة ، على أنه لم توجد بالبلاد مزارع واسعة . وكان من لأرض له من

(١) نظام الدفع نقداً وإتقاناً Cash & Credit System . (الترجم)

(٢) الآراميون : قبائل رحل يشبه جزيرة العرب . رحلت إلى وادي الفرات في ٣٠٠٠ ق.م . واتهموا حشادة الأحمديين والكتمانيين وفشروها في سوريا . (الترجم)

(٣) انظر الجلد الثاني من المجلد من ٦٦ ط ٣ . (المؤ ١)

الرجال يعمل أجبراً مقابل أجر يدفع في غالب الأمر حيناً - شأن ما كان يحدث في
بايل القديرة .

وكانت هذه الأشياء من حولنا الاستقرار كما أن شكل الصين البطواني كان من
حولنا الوحشة ، ومع ذلك فإن قوة أسرة هان اضمحلت ، وربما يكون الشرق
عائل وحياتها ، وعندما حدث تغير الأمر في نهاية القرن الثاني الميلادي أن ذكرت ذلك
النظام للكتابة العالمية ككتابة الوياء العظيم ، وهو نفس الوياء الذي بدأ في الإمبراطورية
الرومانية قرناً من الأرباب والاضطراب ، انتهت أسرة هان اختيار شجرة نخلة
عاجية بيت حليها ويح عاصفة . وتبدى في الشرق والغرب على السواء نفس الاتجاه
إلى الانقسام إلى عدد من الولايات المتناصرة ونفس إشارات الحكام البرابرة .

ويجوز المستر هو كثيراً من حوز الصين السياسي في تلك المدة إلى انتشار النزعات
الأيغورية التي نشأت - فيما يرى - من المنح الهوى المتشكك الذي أنشأ لاوتزي .
ويعرف دور الانقسام هنا باسم عهد الممالك الثلاث . وهذه القرن الرابع أسرة
مالكة من الهون ممتدة نوعاً ما ، وقد فرضوا أنفسهم حكماً على مقاطعة شن مي
(Shen-Si) . ولم تشمل هذه المملكة الهونية شمال الصين فصح ، بل وصلت
عظيمة من سيبريا ، وتحتل أسرتها المدنية الصينية ، وحل نفوذها تجارة الصين
ومعربها وثقافتها قديماً حتى الدائرة القطبية . ويولون المستر فوين حاكم المملكة
السيبرية وبين إمبراطورية شلمان في أوروبا التي ستمضي لك من فورنا . فتملأ حنكه
أن البربري أصبح ذا طابع « صيني » فملأ أن شلمان البربري أصبح رومانيا .

ونشأت عن امتزاج هؤلاء السيبيريين والعناصر الصينية الشمالية من الأمان ،
أسرة سوي (Sui) التي فصحت بلخوب . وتوذن أسرة سوي هذه بداية عصر
نهضة بلاد الصين . فالتقت جزائر لوتشو (Liao-chow) بالصين أيام أحد ملوك سوي ،
ومرت البلاد بطور من النشاط الأدبي العظيم . ويحدثونا بأن عدد مجلدات المكتبة
الإمبراطورية في ذلك الزمان زيد إلى ٥٤ ألف مجلد . وشهد فجر القرن السابع
استئصال عهد أسرة تانج (Tang) العظيمة التي قدر لها أن تلوم ثلاثة قرون .

وصير المسترقو حل أن نخبة الصين التي اجتذأت بأسرة موى وولدت فووتها أيام تانج كانت ميلاداً حقيقياً جديداً لبلاد . وهو يكتب قائلا : لقد ظهرت روح جديدة ، وهي تدعى عدية تانج بخصائص تميزها تماماً عن كل ما عداها . إذ أن حوامل رئيسية أربعة قد جمعت ثم صهرت بعضها في بعض ، وهي : (١) الحضارة الصينية المحررة (٢) ، للنسب الصيني الكلاسيكي العتيق Classicism ، (٣) البروزية المتجددة ، ثم (٤) شجاعة أهل الشمال :

« لقد ولدت صين جديدة - فكان نظام المقاطعات والإدارة المركزية والتنظيم العسكري عند أسرة تانج عتقاً تمام الاضطرابات مما كان عليه الحال عند أسلافها ، وتأثرت الفنون بما تأثر وانصبت كثيراً بفضل مؤثرات هندية وأخرى من آسيا الوسطى . ولم يكن الأدب مجرد استمرار للقديم ، بل كان إنتاجاً جديداً . وكانت مدارس اليوقية الدينية والفلسفية مظاهر جديدة ، وكان العصر عصر تغيرات جوهرية »

« وربما لعل لنا أن نقارن تكوين الصين هذا ، بما آل إليه أمر الإمبراطورية الرومانية في آخريات أيامها . فكما كان العالم الروماني مقسماً إلى نصفين غرب وشرق ، كذلك كان العالم الصيني مقسماً إلى شمال وجنوب . وقد قام البرابرة في حالة الصين وحالة روما بإغارات متتالية : وأسروا سياحات أو قولا من نوع واحد . وضارعت إمبراطورية شرقان إمبراطورية الأسرة السيبيرية (وای وای) التالية ، ولقائلي استرجع الإمبراطورية الغربية للوقت حل يد جيستيان ، استرجاع الشمال موثقاً حل يد ليويو (Liuyao) . ويضاهي الفرح الهزنطى الأسرات البلغوية . حل أن الدالين تفارقاً من هذه القطعة . فلصاعدت الصين وحلتها ، حل حين لا يزال باقياً حل أوربا أن تحلو حلوها . »

وكانت عيطكات الإمبراطور تاي تسنج (Tai-Tsung) (٦٢٧) - وهو ثاني ملك في أسرة تانج - تمتد جنوباً إلى أنام (Annam) وغرباً حتى بحر قزوين . وكانت

(١) Liberal Culture ومع ذلك الفهرية المستعير المذهب من الحضارة الخلق بالأسادة للملادين
والبلطانية . (الترميم)



(شكل ١٢٩) الإمبراطورية الصينية ومقارنتها بالإمبراطورية الرومانية

حدوده الجنوبية في هذا الاتجاه تبار حدود فارس . فأما حدوده الشمالية فامتدت بمحاذاة جبال آلتاي من سهوب القرمز في شمال صحراء جوبي . بيد أنها لم تشمل كوريا التي غزاها ابنه وضعاها إلى ممتلكاته . وقد استطاعت أسرة تانج حله أن تفكر الحضارة بين سكان الجنوب أجمعين وأدجنهم في الجنس الصيني ، وكما أن صيني الشمال يسمون أنفسهم « رجال هان » ، يسمي صيني الجنوب أنفسهم « رجال تانج » . وتم تفتيق اللقائين وجمعها في ملونات ، وتقع نظام الامتحان الأدبي ، وأصلدت طبقة كاملة مضبوطة من كل الآداب الصينية القديمة .

وولدت على بلاط الإمبراطور تاي تشنج بنتة صينية من بيزنطة ، وأهم من ذلك ، أن قد أتت من فارس جماعة من البشربين الفسطوريين (٦٣٥) فاستقبلهم تاي تشنج باحترام عظيم ، واستمع منهم إلى أهم مواد حديثهم ، وأمر بترجمة للكتاب المقدسة المسيحية إلى الصينية لينحسرها بها بعد .

وما لبث في ٦٣٨ أن أعلن أنه وجد اللبنة الجديدة مرغوبة تماماً ، وأنه يجوز التبشير بها في الإمبراطورية ، كذلك معج بهناء كنيسة وتأسيس دير . ويوجد

في ميناء هو (Sianfu) اليوم حجر منحوت بدعونه الأثر القسطنطيني يرجع تاريخه إلى ٧٨١ م ، وقد سجلت عليه هذه الوثائق باللغة الصينية .

كلذك مضرت إلى بلاط تاي تسنج بعتة أدعى إلى المعجب عام ٦٢٨ م قبل هجرة القسطنطينية بسبعة أعوام : وكانت تلك البعثة جماعة من العرب انحدروا من بفتح ميناء المدينة ببلاد العرب إلى كتون بحرأ في فلك تجارى . (ومن الشائع أن نلصق لهذه المناسبة وجود أمثال تلك المعر التي كانت تعمل في التجارة بين الغرب وشرق في ذلك الزمان) . أرسل هؤلاء العرب محمد (صلى الله عليه وسلم) الذي سبق لنا ذكره والذي نعت نفسه نبي الله . والمرثاة التي أحضروها إلى تاي تسنج هي فيما يرجع نفس الدعوة التي أرسلت في السنة نفسها إلى هرقل الإمبراطور البيزنطي والذي قبلها في طيففون^{٤١٣} .

عل أن ملك الصين لم يعمل الرمثاة كما فعل هرقل ، ولا أهان الرسول كما فعل قباذ قاتل أبيه ، بل أحسن استقبالهم وترجم عن لغة عظيمة في آرائهم فلاهوتية وساعدهم قبا يقال على بناء مسجد من أجل التجار العرب في كتون - وهو مسجد باق إلى اليوم - وهو من أقدم مساجد الدنيا .

٨ - أخلال الصين الذهبية

كلن عصر^{٤١٤} الصين وثقافتها وقوتها في ظل حكم ملوك تانج الأوائل تقريباً ناصباً واضحاً للاختلال والاضطراب والاضطرابات في العالم الغربي ، وهي حال قد تثير على الفور طائفة من أمتع الأسئلة في تاريخ المدنية . فلماذا لم تحفظ الصين بتلك الزخامة التي فازت بها بفضل عروبتها السريعة إلى الوحدة والتكامل ؟ فلماذا لا تسلط إلى اليوم على السلم ثقافياً وسياسياً ؟

لقد ظلت زماناً طويلاً وهي على التحقيق السبالة المفضدة ، وما نستطيع أن نقول مع

(١) مي هانن كسرى : جلسة المسامحة وتقع ج ق هـ . (الترجم)
(٢) يقصد للكتاب بالتحضر أو الحضورية دالة الأخلاق وحسن الآداب والتهذيب وهي صفات أهل الحضرة . (الترجم)

الثقة والاطمئنان إن العالم الغربي قد شرح بسبق الصين من جديد ، إلا بعد ألف سنة ، وفي القرنين السادس عشر والسابع عشر وعند اكتشاف أمريكا وانتشار الكتب المطبوعة والتعلم في الغرب ويزدج فجر الاكتشاف العلمي المصري . في عهد أسرة تانج ، وهو أعظم عهودها ، وفي ظل أسرة صنج (٩٦٠ - ١٢٧٩) الفنية الفزحة وإن كانت على شيء من التدهور ، ثم كذلك إبان حكم آل منج الختص (١٢٦٨ - ١٦٤٤) ، تتجلى الصين قاعاً في مشهد من الرفاهية والعبادة والنشاط الفني المتقدم أشواطاً بعيدة على أي دولة معاصرة . فإذا راعينا أنها لمزجت ذلك القدر الكبير تساملاً لماذا لم تمرز الويد ؟ كانت السفن الصينية تبحر البحار ، وكانت هناك تجارة عظيمة وراء البحار أثناء ذلك الزمان (١) ، فلماذا لم يكتشف الصينيون قبل أمريكا أو استراليا ؟

وهناك رسوم قبري قديمة نقش على الصخور ، ربما دلت على أن سفناً صينية متفرقة قد وصلت إلى جنوب إفريقيا في تاريخ ما غير معلوم ، كما يقال إن هناك آثاراً تدل على نزول زوار صينيين في بلاد المكسيك ، فلن صبح هذا ، وإن واحداً من حلين الاكتشافين المرعيبين لا يبدو أنه أثبت بغيره مثلاً لم يتابع أحد طوائف الفراطاچيين حول إفريقيا أو مثلاً لم تتبع زيارات أهل الشمال (Northmen) لأمريكا بزيارات أخرى . ويقول المشر فوجان : إن هناك أيضاً رسوماً صينية مخدرة في الصخور في نيوزيلندة ونيوكاليدونيا . على أن توفر المقبرة القديمة والإقليم غير القواصل ، لا يمكن لتوطيد اكتشاف من الاكتشافات في يد أحد المجمعات ولا يضمن أن يوثق بحارة

(١) من المشكوك فيه أن يكون الصينيون عرفوا البوصلة البحرية . ويصفى ميرت في كتابه « تاريخ الصين القديم » ص ١٢٦ لما يبعث ، بعد نفس دليل لكل الصور والأزمنة ، أنه ولو أن من العمل أن يكون فيه كالبوصلة عرف في الأزمنة السحيقة ، فإن لا علم به بحوالي اكتشاف هذه كجود بعد ذلك ، حتى ظهر مرة أخرى في الصور الوسطى كسكة بأبواب البحادين (ومثل الذين يترك بهم احجار المثل الموانع القصور الخ) . وأول ذكر واضح لاستعمالها كرسد البحارة ورد في كتابه في القرن الثاني عشر . وغير ذلك استعمالها في سفن أجنبية بين الصين وموسطرة . ومثل ميرت في الاعتقاد بأن الزوار العرب جعلوا أن رأوها في أيدي لحادين صينيين لم يطبقوا استعمالها على الملاحة . حتى أنهم استعملوا بعد ذلك إحداها في الصين في صورة البوصلة البحرية . (المؤلف)

ويصبح معرفة مطلقة قابلة للاتصال . ولا بد أن يكون المجمع نفسه مستعداً لقبول
والإفادة منه .

ومن المضحك أنه ظهر بالصين من ضروب المشاهدات العلمية والمهارة والاختراع
- وإن كانت فردية متزلة مضرقة - ما لا يقل عما في أي جزء من أجزاء العلم .
وعرف الصينيون البارود في القرن السادس . واستعملوا القنبر بالقمح المحجى
وقطار استملاً حلياً قبل أن تستخدم هذه الأشياء في أوروبا بفرون . فلما إقامتهم فكبارى
وهتمهم المثانية قديمة جذيرة بالإعجاب ؛ وإن معرفتهم بالمواد كما تبدلت في الآونة
الحالية بالمياه واللاكية^(١) لطيفة جداً . فلماذا لم ينشروا قط طريقه لتسجيل والتعاون
في البحث ، تلك الطريقة التي وهبت العلم الحديث لعالم ؟ ولماذا بالرغم من مراتهم
العام على السلوك الحسن وضبط النفس لم يتسرب التعليم الدمي إلى كتلة السكان
السامة ولم يتخلها ؟ ولماذا كانت جهامير الصين اليوم ، كما كانوا على الدوام أميين
بالرغم من المستوى الرفيع للذكاء الطبيعي الاستثنائي المنتشر بينهم ؟

من المألوف أن تقابل مثل تلك الأسئلة بإجابات خالية ما تكون بوجهه . فيقال
لنا إن الصينيين أشد المخلوقات البشرية مخافة ، ولذا عقله - على تقيض الأجناس
الأوربية - مغطوت نحو الماضي ، وأنه العهد الخاص بيزادته آداب الأباقة والتقاليد
إلى درجة لا يكاد يتصورها العقل الغربي ؛ وهو يمثل كأنما له عقلية مميزة إلى حد
يجعل الإنسان يتوقع غالباً أن يجد في تركيب المخل غارقاً بفسر ذلك الاختلاف . ولما تاملون
هذه الآراء فيفتشون التماس كنهوشوس لحكمة القدماء لديهم ذلك الزم .

هل أنا لومحسناً هذا التعميم (الحكم العام) فمحسناً أمق وأضبط تبدد في الهواء هباء
مشهوراً . فإن قوة الابتكار والمبادرة للتحية الفاتحة والإقدام العقلي للتحرر والميل إلى
التجريب ، تلك المزايا التي تعتقد أنها قوام حصائص الذهن الغربي ، لا تتجلى في تاريخ

(١) لاكية lacquer دمان ملون لك وهو مادة وكنتيجة (للفردية) يفرها نبات فوكوكوس
Coccoloba Lacca الذي ينح صلباً أحمر دماً . (الترجم)

هذا الزمن إلا في أثناء أحوار معينة ونحت ظروف استثنائية . وفيما هذا ذلك ، لا يجلي العلم الغربي إلا مضارعا للصين في التزام التقاليد والمحافظة على كل قديم . ومن الناحية الأخرى ، فإن العقل الصيني كان إذا حفره حفر يدي قدرة على الاختراع والابتعاد وتعددا في الزايات كالأوروبي سواء بسواء ، كما أن للفن الياباني الميائس له يكاد يفوق في هذا . فلذا اغتلت من الإغريق مثالا ، وجدت أنقى ما بلغه من قوة ذهنية وأصا في المدة بين القرن السادس ق م . وبين اغتملال منتصف الإمبراطورية أثناء حكم البطالة للتأخرين في القرن الثاني ق م . ولا شك أنه كان هناك إغريق قبل ذلك الزمان وإغريق بعده ، بيد أن تأريخ ألف سنة من سبق الإمبراطورية البيزنطية أظهر أن العالم اللاتيني واكد للفن كالفين سواء بسواء . ثم إننا نجد سبق أن وجهنا النظر إلى حكم الزمن الإبطالي نسبيا أثناء العهد الروماني ، وإلى وفرة محصيه منه نهضة إحياء العلوم . وكذلك الفن الإنجليزي ، فقد مر به دور من التوقد في القرنين السابع والثامن ، ثم لم يسطع بعد ذلك حتى القرن الخامس عشر . كذلك ذهن العرب كما مستفرك من فودنا ، قد تألق ثائق النجم طوال ستة أجيال بعد ظهور الإسلام ، ولم يحرز قبلها ولا بعدها أي شيء ذي بال . ومن الناحية الأخرى كما هناك على الفوام غلو عظيم من القدرة على الاختراع مبهر في الصين ، وآية ذلك ما يشهد به تقدم الفن الصيني من ظهور حركات جديدة وابتكارات قوية . ولذا لنبالغ في مدنى احترام الصينيين لأبائهم ، فقد كان قتل الآباء على يد أبنائهم جريمة أكثر شروعا بين الأباطرة الصينيين ، لدى حكماء فارس أنفسهم . ونخلصا من ذلك فالتاريخ يسجل أنه قد حدثت بالصين حركات تحريرية كثيرة . وكفاحات جديدة ضد الأساليب القديمة .

سبق أن أوضحنا أن أدوار التقدم للفن الحقيقي في أى مجتمع من المجتمعات تبدو مرتبطة بوجود طبقة من الرجال بعيدة عن الفرض غير متحيزة العقول ، بلغت من الحرية مبلغا يجعلهم لا يكسحون ولا يعماون مما يستفد القوى من أجل حاجاتهم الدفعية ، ولم يحصل في أمثا وسعة سلطانها إلى حد يفريهم بالإسراف في الشهوات أو المظاهر أو التساوت . ويجب أن يتوافر لم شعور بالطبائفة ، لا غرور بالظوق . وأفسنا كذلك أن هذه الطبقة يجب أن تهبها القدرة على الكلام بحرية وأن تتواصل بسهولة . ويجب ألا

ترأى لفظة الترفقة أو تضطهد لأية قرأة قد تعبر عنها . ولا مراد أن مثل هذه الحالة السعيدة كانت تغمر بلاد الإغريق في أحسن أيامها . والواقع أن طبقة من القوم الأكفاء للمهنيين الأسرلو يتبدى على صفحات التاريخ حيناً ظهرت فلسفة جريئة مدونة أو تقدمت علمية فعالة .

ولا بد أن الصين كانت تضم في أيام تانج وسنغ ومنج كثرة من القوم للصين من نفس الطبقة التي كان منها معظم شبان « أكاديمية » أثينا أو أذكفاء إيطاليا الفايين في عصر النهضة أو أعضاء الجمعية الملكية اللندنية ، وهي الجمعية التي كانت بمثابة الأم من العلم الحديث ، ومع ذلك فإن الصين لم تنتج في عصور الفرس التي أتت لها شيئاً مماثل لتلك الهيايات العظيمة للحقائ المسجلة المحلة .

فلذا نلنا الفكرة القائلة بأن هناك بعض الفوارق العنصرية الصيقة بين الصين وبين الغرب ، تلك الفوارق التي تجعل الصينيين محافظين بطبيعتهم ، وبجمل الغرب تقدماً بطبعه ، وجب علينا إذن أن نبحث عن السبب الضال لهذا الفارق في روح التقدم ملتصين بإياه في نواحي أخرى . ويعمل كثير من الناس أن يحسوا في نهاية آخر عن السبب الضال في تآخر الصين ذلك للتأخر العظيم بالرخم مما لها من ميزات أصيلة أثناء القرون الأربعة أو الخمسة الأخيرة . وهم يرون أن تشكيل الذهن الصيني في كتابة وفي صيغ الفكر بلغت من الإحكام التفصيل والشمولية حداً جعل طائفة البلاد العقلية مستغلة استغلالاً عظيماً في تحصيلها هو مرد ذلك كله . ونحنى أن هذا الرأي جدير بالتحقق والنظر .

وقد سبق أن أعليناك بياناً عن خاصيات الكتابة الصينية واللغة الصينية . والكتابة اليابانية مشتقة من الصينية كما هو معلوم ، وتتكون من مجموعة من المصغ أسرع تدويناً . والعدد الكبير من هذه المصغ : كتابة تصويرية رمزية ،^(١) متقولة عن الصينية وتستخدم بالضغط بنفس الطريقة التي تستخدم بها الكتابة التصويرية الرمزية ، الصينية ، على أن هناك كذلك عدداً من العلامات يستعمل لتعبير عن المقاطع واليابانيين مجموعة من الأحرف تمثل المقاطع على طريقة مجموعة الأحرف السومرية الممنلة المقاطع والتي سبق أن وصفناها . ولكن الكتابة اليابانية تفضل بعد ذلك طريقة صحيحة كالخط السيلري سواء سواء ، وإن لم تصل بساقتها وتقدمها إلى درجة

(١) « كتابة تصويرية رمزية » Ideograms ، أي رموز كتابية هي كما أسلفنا ص ٢٥١ من المصغ ص ١٩١ صوراً أو رموز تحصل في كلام للكتابة

الصينية ، وقد قامت ببلاد اليابان حركة تطالب باستخدام أجدية غريبة . على أن
كوريا تقدمت إلى الأمام خطوة من زمان بعيد ، ولجحت أجدية حقيقية من المصادر
الصينية نفسها .

وفيما هنا هذه الحالات وحدها فإن جميع طرق الكتابة المستعملة الآن في العالم ،
تقوم على أجدديات البحر المتوسط ، وهي أسهل حفظاً واتقاناً من الصينية بشكل
لا يسمح بأية موازنة . ومعنى هذا أنه بينما الشعوب الأخرى لا تعلم لتدوين اللغة
المألوفة لها إلا مجرد طريقة سهلة ومستقيمة نسبياً ، فإن الصينى ملزم أن يتعلم من
أشياء عظيمة من رموز الكلمات وجماعات الكلمات المركبة . فليس حله أن يتعلم
العلامات وكفى ، بل لتجميع القدر تلك العلامات أيضاً ، حتى يتاح له إظهار المعاني
المنظمة . فيجب وإحاطة هذه أن يعمل نفسه ملياً بعدد من المؤلفات القديمة التي تتخذ
مثالاً يحلى . وبناء على هذا ، ليس أنت وأجد في الصين أهدأ عظمة من الناس
يعرفون معنى حروف معينة مألوفة كثيرة الظهور ، فلي نجد إلا القليل من تلك
معارفهم لإدراك معنى فترة في إحدى الصحف ، وأقل من هؤلاء من يستطيعون أن
يفرلوا ما قلده يرى إليه الكاتب من مرام دقيقة أو خفية أو أى ظلال بمنزلة للمعاني .
وهذا يصدق أيضاً على اليابان وإن يكن بلوجة أقل . ولا مراء أن القدر الأوروبيين
وبخاصة أصحاب تلك اللغات التي لا تلزم نظاماً معيناً والفتية بالألفاظ مثل الإنجليزية
والروسية ، يختلفون اختلافاً عظيماً فيما بينهم بالنسبة إلى عدد الكتب التي يستطيعون
فهمها ومدى فهمهم لها ، فإن قوتهم في اللغة يختلف باختلاف محصولهم من القدرات ،
ويد أن ما يقابل ذلك من مستوى الفهم عند الصينيين ، يستدعي تحصيله بدلاً من الجهد
والوقت أصغر كثيراً . فإن تعلم المؤلف (للاندوين Mandarin) في الصين إنما هو
في معظم شأنه تعلم القراءة .

وربما كان ما يترتب على ذلك من انشغال بال الطبقة المتعلمة أثناء معنى
قابليتها لتعلم والاستيعاب وإكسابها على الآداب القديمة الصينية يجعلها متحيزة لهذه
العلوم التقليدية التي ألقت فيها مثل هذا القدر الكبير من الزمان والطاقة . وعلى من
الرجل الذين كسحوا في حقولهم من العلوم ، من يطرح برضاء ذلك العلم بناتياً ،
مفضلاً عليه شيئاً آخر جديداً غير مألوف . وحتى من قبيان أن هذا دليل شئ . لا يتمد

به المشرقى دون الغرب ، وهو يبدو ظاهراً ملموساً عند كبار علماء الجمعيات البريطانية والأمريكية مثلاً يجعل لدى أى متقنين صينى . وإن البريطانيين فى الزمن السابق ، ليرقصون أن يترجحوا خطوة عن طريقهم المسجية فى المجاهد والإملاء ، بالرغم من المراتب العظيمة الواضحة التى منحود على التعليم الشعبى والدعاية القومية من الانتقال إلى الأيديدية الصوتية^(١) ، والمجاهد الصوقى . ولابد أن خصائص الكتابة الصينية والنظام التعليمى لترتب على تلك الكتابة قد قاما عصرأ بعد عصر بعملية غريبة قوية تظاهر العقول المخرجة فى قوالب جامدة كما تظاهر عقلية الخلقة العملية الجوفاء وتصرها على الطرار الجامع الخلاق . وتستبعد هذا الأسبر من مراكز التعود والظلمة . وهذا أن هذا التفسير مسلماوع ومقبول إلى حد كبير .

ومع ذلك فإن نظام الامتحان القديم لم يتوطد بكامل شدة إلا إبان أسرة منج الحديثة سبأ . وكانت أسرة منج (١٣٦٨ - ١٦٤٤) أسرة وطنية الزعة محافظة على القديم ، لستردت الصين بعد حكم المغول . ويقول المسرل . ي . تش L. V. Chen : إن أول أباطرة أسرة منج قال علما أعاد تنظيم الامتحان على أسس أشد تدقيقاً : وسوف يجلب هذا إلى مصيدق كل من فى العالم من ذوى العقول . وقد سميت « الأناج القديمة الخمسة والكتب الأربعة » عقل الصين فى عجبها . فعندما يجلى الزمن الذى ينتهى فيه أى رجل من شق طريقه فيها كدساً وكذاً يكون تقدير القيم لديه ، قد بلغ من الصلابة واستعداد العلاج ببلنه عند علماء الآداب الكلاسيكية القديمة بأكسفرود .

ولقد جرت محاولات عديدة لتبسيط الكتابة الصينية ولإكتباس طريقة أبجدية . وفى أيام البوذية الأولى بالصين ، عندما ترجم قدر عظيم من المؤلفات عن السنسكريتية : أوشكت المؤلفات الهندية على بلوغ تلك الفتاية . وقد انتعرت فى القواعد أبجدجان صينيتان ، وحظيت كل منهما بشيء يسير من الاستعمال . ولكن الذى « الذى حال دون تعميم استعمال هاتين الأبجديتين ، ولذى لا يزال حتى اليوم يقف فى سبيل أى « طريقة صوتية » للكتابة الصينية . هو أنه على حين ترى الكتابة الأدبية وأسلوب العبارة القصصى واحداً لا يتغير من أقصى الصين إلى أقصاها . فإن لغة العامة المتداولة تختلف فى كل من طريقة نطقها وصيغها الاصطلاحية المأكوفة اختلافاً يبلغ من الاتساع حداً يجعل الرجل من أبناء

(١) الطريقة الصوتية Phonetic فى الكتابة الإنزجية طريقة لا تسلك إلا علماء اللغويات المعروف لكلمات وأما مثل الكلمات أو تصور أصواتها بعلامات وحروف بيضة . (لترجم)
تاريخ الإنسانية ج ٣

إحدى الولايات لا يفهم لغة مواطن له من أبناء ولاية أخرى . وهناك على ذلك لغة
صينية فصحى ، وهي جملات اصطلاحية تكاد تكون مستظهرة من الكتب وتطلى بها
المتعلمون ويهملونها على وجه العموم ، وتتلقى آمال الكثيرين من المصلحين الغربيين
بالصين في الوقت الحاضر على أحوال استخدام طريقة ليجمدة للكتابة في هذه الصينية
الفصحى . وقد صيغت أجنبية صينية ، وهي تعلم في المدارس العامة ، وتنتشر بها الصحف
والقشرات ، وتضئ على نظام الامتحان الجامد الذي قتل كل ابتكار فكري خلاقي .

كل ذلك أهدلوا تبسيطاً جسيماً يمثل في إدخال صيغ الحديث الاصطلاحية المنطوقة
إلى الصينية المكتوبة . وهذا من شأنه أن يتجه بها إلى البصر والوضوح . فإن مثل هذه
الصينية وإن كتبت بالحروف القديمة أسهل قراءة وكتابة . وهي مكيفة لحاجات الصغار
الأدنى المصري تكيفاً أوفى كثيراً من الصينية الكلاسيكية القديمة .

على أنه ربما كانت هناك كذلك أسباب أخرى حالت دون تقدم الصين إلى مركز
زعامة الإنسانية الحقن . فإن ما ناله الصين في الماضي من النجاح والرخاء القديم
والقناعة العامة ، لا بد وأنها علمت عملها هناك البلاد لتبرر كل ما فطر عليه جنتنا
البشرى من طمأنينة نفسية وروح بحافظة طبيعيين . فلو نظرنا إلى المسألة من الناحية
البيولوجية ، فما من حيوان يحتاج إلى التنفّر ، ما حست أسوره حناً يكمل له البقاء
في وقته الزمان . وما يزال الإنسان في هذا الأمر حيواناً . وقد ظلت الصين ما يرى
على الألف سنة حتى القرن التاسع عشر ، دون أن يتغيرها أو يتأصل تاريخها إلا
أقل إحساس بأى شكوك خطيرة حول تفوق مدينتها بوجه عام على مدنات العالم
كله ، ولم يكن هناك تبعاً لذلك أى سبب ظاهر يعلو بالصيني إلى إحداث أى تغيير .
لقد أنتجت الصين فيضاً وفيراً من الفن الجميل وبعض الشعر المتع وطباخة
ملحشة وآلاف الملايين من الكائنات البشرية الذكية اللطيفة جلا جلد جميل . وكانت
وما تزال بلاد ملكيات صغيرة ، وكل الأيدي لها مطلوبة ، ويمكن استخدامها جميعاً
أعمال زراعية عتيقة تعود إلى عهد الأجداد . هذا إلى أن هناك منافذ أمام القوى
الجانحة إلى الانساع . إذ لا يزال في الشمال والغرب متسع عظيم للإقامة والاستيطان
وإذاً فإن شيئاً ذا بال لم يحدث ، فلم يتم نور فاعلى حاد يشتت عمل الحضارة العالمية الصينية
القائمة على نظام الأبوة . وهي العائلة التي تزوج أبنائها في سن مبكر وتحتفظ بهم في المنزل

قبل أن يحصلوا على الاستقلال الاقتصادي . هكذا مارست الصين في طريقها حصراً بعد عصر ، وما تزال تسيطر أن يضاعفها أي شيء من ذلك التبرم العام ولا تلك اليهودية ولا اللدلة ولا الصن العام التي كانت تحف بحسب الاختباء الإمبراطورية الرومانية ، حتى أدت في النهاية إلى انهيارها . أجل كان هناك والحق يقال فقر كثير ولستياء كبير . بيد أنه لم يكن فقراً جامعاً لقوم مطرودين من أملاكهم ، ولم يكن استياء شعبياً لا مناص منه . فبعد كل شدة وبعد كل كارثة ، تبرأ نفوس السكان ، ونظم الجراح وفقد عمر النظام الصيني ألف سنة ، لاح فيها ممتناً على كل انحلال وإن مرت عليه أيام كان فيها يتلوه ويترنح . أجل حدثت تغيرات في الأسرات المانكة وتورات وأدولر فوضى وجماعات ولوبة ، كما حدثت عزوان عطيان نصبا أسريين أجنبيين على عرش « ابن السماء » ، ولكن لم تحدث تلك الصلحات التي توجد انقلاباً ثورياً في نظام الحياة اليومية . وقد يأتي الأباطرة والأسرات المانكة ويعبؤون ، فأما المثقفون والامتحانات والآداب القديمة والتقاليد والحياة العادية فقد ظلت على ما هي عليه . فالمثنية الصينية وإن ظلت منذ أسرة تانج ما بعدها ، تنشر في بطء ولستمر في أنام وكبوديا وسيام والحب إلى بيبال وكوريا ومنغوليا ومنشوريا ، لا تتطوى على شيء . تستطيع تسجيله لها هذا ذلك التقدم الجغرافي . وكان مسينو القرن السابع الميلادي شعباً مبدعاً يبادل في كل من حضارته ومواهبها الجوهري ما كانوا عليه بعد ذلك بألف سنة .

٩ - الفن الصيني القديم

ربما جاز لنا هنا أن نقول بكلمة حول فن الصين وعمارتها في عهد أسرق هان وتانج وما جاء بينهما من أسرات أخرى . ولصينيون ، لأسباب لا نستطيع البتة أن نحققها ، فصلوا على اللوام استعمال الخشب والطوب على استعمال الحجر في المباني . ومع ذلك فإن أحجار البناء الجيدة موجودة ببلاد الصين . ولا يكاد الخارج يسجل لنا فيما قبل القرن الحادي عشر الميلادي أي خرائب وأطلال ولا أية مباني الهام إلا السور العظيم . على أن الصور والسجلات تشهد بوجود تراث طويل الأمد يرجع إلى عهد أسرة « تشي » إن « أو أكر منها » .

وأقدم أشكال اللباني تشتت اشتقاقاً مباشراً من الحزمة المخوية . وأهم مظاهرها هو السقف العظيم الذى قد يكون ثانياً أو ثلاثياً وبه أشتال ششية محصورة ومطوية بالاك (المسلكتة) . وربما كان السقف نفسه مغطى بقرايد صقيلة ألوانها زاهية ، ولللباني على الصوم ذات طابق واحد وتنتشر انتشاراً أفقياً . وهناك ظاهرة كثيرة الحثوث فى التصميم الصينى من المرات التكريرية ذات المقود . وتكثر القناطر الحجرية ، والتكثير منها على درجة عالية من الرومن . والهاجود (الاشيرة إلى السياه طراز ثالث البناء ، وهذه وسعها المرفقات والنوازينات تكمل الصورة العامة للمبنى الصينى . تلك هى الصورة المثلة للفن المصلوى فى الصين فى أوائل الحقبة المسيحية ، وهى ما تزال على هذا الحال إلى يومنا هذا . ويقال إن الهاجودا - وربما كان ذلك غير صحيح - ترجع إلى بدايات هنتية بوذية ، وأنها المعادل الصينى للإستوبا ، للذكارية الهنتية .

ولهذا الانحطاف بالمواد الطويلة الأجل للقوية الاحتمال أثره فى معرفتنا بفن التشكيل الصينى قبل أسرة هان . ويكاد البرونز أن يكون هو الاستثناء الوحيد . قلنا نعرف بوجود زلج (١) وتماثيل من البرونز ترجع إلى أسرة تشو (Chow) بل إلى أسرة شاتج . وهى من جملة التشكيل ومهارة الصنع إلى حد أنها تدل على وجود عالم بأكمله يعاصرنا من المنتجات المماثلة التى لم يبق منها اليوم شئ . ولستنا نصل إلا فى عصر أسرة هان وبعد بداية الحقبة المسيحية - إلى دور من أدوار الحياة الضيقية ترك آثاراً كثيرة فى شئ مادة أخرى هذا كله .

ويعد لنا أهل فلاكرمان والتصوير ، كان فن الصين الأصامى ، وكانت تصنع منه أشغال بالغة الجمال والرومن فى عهد أسرة هان . ويؤيد التاريخ باسم كوكاى تشيه (Ku-kai-chih) (القرن الرابع الميلادى) بأنه من أعظم أساتذة المرقاش (٢) الصينيين . وما يزال بعض أعماله باقية ، ويحفل لها من التضييع والأستديفة ما يشهد بوجود منواسة راسخة

(١) الهاجودا أو الإسموعيا - لعبه بولط على صورة آلة ذات ثمة . (الترجم)

(٢) آلة زلجة معاد معروف ، وهو الجرة الكجوة . (الترجم)

(٣) المرقاش هو دقة للصورة . (الترجم)

التقدم في الفن صلا . والتصوير الصيني يعمل دائماً أبداً بالألوان المائية . وإنما
توجد بدلاً من التصاور الجمعية الجدارية (الفرسكوحات)^(١) الكبيرة صوراً وقفت
على الحبر والورق ، وهي تختلف عن المنتجات العربية فيما تظهر من كراهية إيجائية
تمثيل مظهر الروز (Retel) . فهي مسطحة^(٢) هوائية رقيقة ، كما أنها تعالج المناظر
الطبيعية البرية أكثر مما تعالج التثيل الدقيق للجسم البشري . وعصر أسرة تانج يده
كثير من النقاد العصر الذهبي لفن التصوير الصيني

فلما عن النحت للصيني فإنه لم يواكب بأية حال من التصوير الصيني ولا يكاد
يكون له شأن يذكر إلى جوار الإنتاج الأوربي ، على أن الخزف الصيني من ناحية
الأخرى غالق في امتيازه . فقد جرت عادة الصينيين أن يعرضوا خزفهم لتأثيرات
أشد كثيراً مما جرت به العادة في العالم الغربي ، وأنتهوا عند نهاية حكم أسرة تانج
خزف البورسلان^(٣) وما لا نظير له من أنواع الخزجج^(٤) ، واتصف خزف أسرة هان
بالفعل يبالغ الصلابة والإبداع . وتوجد الآن في المتاح والمجموعات الأوربية أمثلة
وفيرة من تماثيل خزفية مزججة تمثل الخدم والخيال والبهائم وما إليها ، وكلها ترجع
إلى زمن أسرة تانج . وقد استخرجت كلها من القبور ، وكان الأصل في وضعها في
هذه القبور أن تحمل عمل المبدعان والحيوان التي كانت تنفق دماؤها في ماضي أكثر
هجمية . واستمرت ملائح القبور هذه التي يقصد بها تزويد الرئيس المخوف للراحل
بالخدمة والنواب في أرض الظلال : (القبور والموت) ، استمرت في الصين حتى
القرن السابع أو السادس ق . م . ثم استبدلت بها التماثيل . على أن الموتى في أيام
أنيلا ما برحوا يراعون المادة القديمة ، عادة اللبج الحقيقي . على أنها كانت بادئ
في مصر قبل أيام أقدم الأسرات الأولى وحلت محلها هناك الصور والتماثيل الجنائزية .

(١) تصوير الحصى أو الفرسكو Frances ضرب من الصور وطريقة تصوير التماثيل على الجدران
الجدران الطرى كثيراً ما تظلم في الألوان بزال البيض . (الترجمة)

(٢) الصورة المسطحة ، هي التي ليس فيها ما يدعى بالصقل والمسلة . (للترجم)

(٣) خزف البورسلان Porcelain صنف من الصين أبيض ودرق وشبه ففات كان يصنع أولاً
بالصين . (للترجم)

(٤) الخزجج : وضع علامة فيه زجاجية على سطح الخزف . (الترجمة)

١٠ - رحلات يوان تشوانج

في عام ٦٢٩ ، وهي السنة التالية لوصول مبعوثي عهد (سول) إلى كيون ويعد عبوط المبشرين اللذين بعث بهم البابا جرمودي إلى إنجلترا بيف وثلاثين سنة ، قام حلم يوفى متجمل يرضى يوان شوانج أو (هيون تشوانج) كما يفضل بعض النحات أن يكتبوا اسمه - برحلة عظيمة إلى الهند من سيان فو أي (سيفيان) وهي عاصمة تاي تشنج . غاب عنه بلاده في هذه الرحلة سنة عشر عاماً ، وعاد (٦٤٥) وكتب



شكل (١٢٧) خريطة بين طريق يوان تشوانج من الصين إلى الهند ٦٢٩ - ٦٤٥

من رحلاته ياناً يبرز به الصينيون كقطعة من الأدب الكلامية القديمة . وإن فيها مر به من تجربة لقطعة أو تقطعت جديرتين بالملاحظة ما هنا ، لأنهما تسامان بوسط في استعراضنا العام لحالة العالم في لقرون السابع (الميلادي) (١) .

كان يوان تشوانج نظيراً لغيره من خروجه بالعجائب وصعرة تصديقه لإياها ، وإن أعوز ما للكاتب الثاني من الحاسة التلويضية الممتدة ، فلم يكن يطبق أن

(١) من وصف جبرائيل هناك المعلق نظر عليه ثلاثة أجيال الثاني من « العالم » سنة ٦٤٥ (القديم)

بحر ينصب أو خراية دون أن يعلم عنه قصة ما خراية . وربما تكون نظرة أهل الصين إلى كرامة الأدب ، هي التي منته من إحاطتها بتفاصيل كثيرة عن كيفية تنقله ، ومن كان رفيقه ، وكيف كان يقيم ، أو ماذا كان يأكل ، وكيف كان يذوق نفقاته - وهي تفاصيل لما قيمتها البالغة لدى المؤرخ ، ومع ذلك ، فإنه يضعها مجموعة من مضامير برافعة عن الصين وآسيا الوسطى والمتمدن في المدة التي نحن يصددها .

كانت رحلته رحلة عائلية . ذهب فيها وعاد منها بطريقين عضبة الهامير . فذهب بالطريق الشمالي حاراً صحراء جوبي ، سائراً المنحدرات الجبلية لجبال تيان شان ، مطوقاً حافة بحيرة إيسيك كول (Issyk-Kul) العظيمة العميقة الزرقاء ، وبلغا وصل إلى طشقند وبمرقند ، ثم سار يترسم إلى حد ما خطى الإسكندر الأكبر متجهاً جنوباً نحو بحر خيبر وبيشاور . ثم عاد بالطريق الجنوبي مخترقاً للهامير من أفغانستان إلى قشغر ، وبلا يكون قد سار على امتداد خط القرايج الذي اتبعه قبيلة « يويه تشي » في أجياد مضاد قبل ذلك بسبع قرون ، ومرت بطريق رفته على امتداد منحدرات الكوكين لن ، حتى عاد إلى طريقه القديم قرب النهاية الصحراوية للسور العظيم . وكان سلوكه كل من هذين الطريقين يتضمن تسلياً شاقاً للجبال وعرة . وليس من المستطاع اقتضاه أنه أثناء رحلاته ببلاد الهند ، فإنه ظل عتلك أربعة عشر عاماً ، اخترق أثناءها كل شبه الجزيرة من نيال إلى ميلان .

وكان هناك في ذلك الزمان مرسوم إمبراطوري يحرم السفر إلى الخارج ، حتى لقد انطلق يركن لتلواتج من ميان فوغية كأنما هو مجرم هارب . وتعبه السلطات منه من تعذيب مشروحه . وإن القادري ليجد في كتابه « الحياة » كيف أنه اشترى من رجل أشيب اللحية حصاناً من بلاد أحرار القوقاز يعرف طرق الصحراء ومساكنها ، وكيف نفادى مخفراً على الحدود بمساعدة « شخص أجنبي » ، صبح له على ظهر جسر من الحديد أدنى من ذلك الوضع ، وكيف أنه عبر الصحراء مسروداً بنظام الموتى من الرجال والمشي ، وكيف وأي سراياً ، وكيف نما بأصحية مرتين من المهام حملها كان يزود بالمال بالقرب من أبراج الخفارة في الطريق الصحراوي . وحدث ذات مرة أنه ضل الطريق في صحراء جوبي ، وظل أربع ليالٍ وحمة أيام ولا ماء معه ، وتجدد

إثنا عشر قرأ من رفاقه ومانوا برأ وهو فوق الجبال بين أحضان الجبلد . كل هذا ترى رويتا موجود في كتاب « الحياة » ، إذ أنه لا يتوكل عن ذلك خبر القليل قد يباهه الشخص من أسفاره .

وهو يمرض علينا الترك - وم التطور الجديد لجميع اللون ، وقد ملكتوا لا ما هو الآن التركستان فحسب ، بل كل ما يقوم على امتداد الطريق الشمال بأكله . وهو يذكر أسماء مدن جنة ويشير إلى الزراعة واتساع رقعتها . ويوم له الولائم يحكم حديدون ، وهم إما من حلقاء الفيس أو من أنبياءها إلى حد ما ، كما يوم له كنعون من بينهم خان الترك وهو شخص غامض في ثياب خضراء من الأطلس ، وقد حصص ثمره الطويل بالحرير .

وكانت هذه الخيمة العظيمة الموشاة بالذهب تشع فخامة وضاعة تغلب الأبصار ، وقد جلس الوزراء الحاضرون والقائمون بالخيمة على بسط في صفوف طويلة على كلا الجانبين ، وكلهم مرتد ثياباً فخمة من وشى الليناج ، حل حين كانت بقية الحاشية صاحبة المنوية تنف من ورائهم . ولقد رأيت أنه وإن كان والياً من ولاية متاخلة للخرم ، فلقد أحاطه مع ذلك جو من السوء والتطرف . خرج الخان من خيمته زهاء ثلاثين خطوة ليستقبل يوكان فتواجج الذي دخل الخيمة بعد تحية كريمة . . . وبعد فترة وجيزة ، أدخل حل الخان رسل من الصين ومن كاورستان فقدموا رسائلهم وأوراق اعتمادهم ، قرأها الخان وصرمها كثيراً ، وأمر فأجلس الرسل ، ثم أمر نفسه ولم بالنبيذ والموسيقى وشراب العنب اللطاج . وعند ذلك تبادل القوم الأنخاب ، وكان لكل كورس النبيذ وارتشاف ما فيها وسوسة وحفيف ، بينما لو رتخت أنظام الموسيقى عن آلاتها المتنوعة : ومع أن الألحان كانت أنغام الأجانب الشعبية الشائعة ، فإنها أدخلت السرور على المشاعر وأنشئت الملاحظات القلبية . وبعد قليل قلمت إلى الآخرين أكرام من شواء لحم البقر والضأن ، وقدم اللطاج الطعام اللطاج من أمثال الككك واللبن والقواكه المسكرة والشهد والعنب . وبعد انتهاء الوجبة ، قدم شراب العنب مرة ثانية ، ودعا الخان يوكان فتواجج أن يتنزه للناسبة فينفع المجتمعين بعض صلته ، وعند ذلك بسط اللطاج لم مباحث « القبائل الشر »

والرقي بالحجوان وكالات الباراميتا (Paramitae) (١) وذلك الرقاب . فانحنى الختان والماء عليه . وأمن مسروراً متعيطاً وتقبل العالم .

وبيان يوكآن تشوانج عن سمركت بصورها مدينة كبرة ذات رعد ورعاه ، إنها مستودع تجارى عظيم ، والمنطقة المحيطة بها عظيمة المحصورة ملتحة الأشجار كثيرة الأزهار ومتجة لكثير من الخيول الصافيات . وأهلها صناع مهرة ذوو رشاقة ونشاط . وما يجدر ذكره هذه المناسبة . أنه لم يكن هناك في ذلك الزمان شيء يمكن تسميته مدينة في إنجلترا الأنجلو سكسون .

ومع ذلك فكما اقررت رواجه مما مر به في الهند من خبرات ، غلبت نزعة الحاج التي العلم في شخص يوكآن تشوانج على نزعة الرحالة ، وعند ذلك يصبح للكتاب مزدهراً فأقاصيص عظيمة تروى مصبرات لا ميل إلى تصديقها . ومع ذلك فلما نحصل على انطباعة عن المساكن والياب وما إليها ، وكلها وثيقة الشبه بما في الهند اليوم . وإن ما كان بالهند آنذاك ولا يزال بها إلى اليوم . من شدة تنوع الأشكال والميئات المحظية للجواهر ، لم تفيض صريح العين بما يرمع جميع جواهرها من الشباب الزرقاء . ووجود الكتابة والقراءة بالهند أيام يوكآن تشوانج المشكوك فيها ، فلما آنذاك لقد صارت الكتابة والقراءة من المهارات الشائعة تماماً . ويقدم إليها يوكآن تشوانج بياناً مختصاً عن جامعة يوزية عظيمة في تالاندا ، كتبت أخبراً خرافتها وولفت عنها الأثرية . ويبدو أن تالاندا وتاكسيلا كانتا مركزين تعليميين كبيرين في زمان يرجع في قدمه إلى عهد فتح المدارس الفلسفية في أثينا . كذلك زار كهوف أجاتا التي مر الحديث بها . وقد وجد يوكآن تشوانج نظام الطوائف كامل الاستقرار هناك بالرغم من كل ما بذله ضده يوكآن تشوانج ، ووجد نجم البراهمة في تألق وصعود لا ريب فيه . وهو يذكر الطوائف الأربعة الرئيسة التي ذكرها (٢) . بيد أن بيانه عن عقائدها وأعمالها يختلف نوعاً ما . فهو يقول إن السودرا (Sudra) هم حراث الأرض . ويقول للكتاب الهند إن عليهم كان خمسة الطوائف الثلاثة : المولودة مرتين ، الأعلى منهم .

ولكن كما سبق أن ألقنا فإن بيان يوكآن تشوانج عن واقع الأحوال الهندية بغيره ما اكتسبه فيه من الأساطير والمحططات الخروجة . فمن أجل هذه دون غيرها جاء ، وبهذه كان

(١) كالات الباراميتا هي فصائل تلك الملائكة مثل : البخت والاحسان والسر والشفقة . التي ينبغي أن ياربها كل من تتوق نفسه إلى سلوك سبيل الخير ، البرية . (المترجم)

(٢) انظر المجلد ٣ ، ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ . (المترجم)

يفرح وينتبط . فأما ما عدا ذلك فواجب قد ألقى على هامشه وعفا عنه كما مضى ، فإن عقيدة بوذا التي ظلت إلى أيام أسوكا ، بل حتى في زمن متأخر يصل إلى عهد كانيشكا (Kanishka) ، خالصة نقية إلى حد يجعل منها إلهاً نبيلاً ، تبدو لنا آنذاك ثابتة في بيلام من الهراء غير المقبول ، حيث تحولت إلى فلسفة تؤمن بوجود سلسلة لا نهاية لها من البوذوات وإلى أفاصيص كرامات وأعاجيب شبيهة بجشليات عيد الميلاد الإيمائية (Pantomime) ، وإلى إناث يحملن حملاً إصعاجزياً ويلدن فيلة ذوات ستة أنياب ، وإلى أمراء محسنين يقدمون أنفسهم طوعاً لخيرات جامعات ، ومعايد مشبعة على قلامة ظفر مقدسة وما إلى ذلك من أشياء . ولست بقاترين أن تنلى بمثل هاته الأفاصيص هنا ، فإن كان المقارئ ميلاً إلى مثل هذا التورع من الأشياء ، وجب عليه أن يرجع إلى مطبوعات الجمعية الملكية الآسيوية أو الجمعية الهندية ، حيث يجد طوقاً من مثل هذا الهديان . وذلك بينا البرهمانية قد أخذت تكسب الانتصار وتغزو بالتفوق من جديد في كل مكان في منافستها هذه البوذية التي تقوصت ذكراً واختفت تحت زخارفها الملحمية ، كما لاحظ ذلك يوان تشوانج آسفا .

وإلى جوار هذه الشواهد اللثة على وجود انفسحال فكري كبير في الهند ، يجوز لنا أن نلاحظ أيضاً تكرار الحديث من المدن الخربة المهجورة في بيانات يوان تشوانج . فإن شطراً كبيراً من البلاد لم يرح يكايد من طارات الإنجليين وسلبهم والقوضى المترتبة عليها . وإنما نجد مثل هذه القفرة مرلواً وتكراراً : « لقد ذهب شمالاً بشرق غتراً غابة عظيمة ، وكان الطريق ممراً صيفاً خطراً يكثر به الجواموس المرى والفيلة البرية ، ويرى في اللصوص والقناصة على الدوام لقتل المسافرين ، حتى إذا خرج من الغابة وصل إلى إقليم كوشيه فأكالوا (كوزينا جارا) . وكانت أسوار المدينة حطاماً خربة ، بينا البلدان والقرى قد هجرها أهلها . وكانت لمس بهاى المدينة القديمة المبني من الطوب ، (أعني القبة التي كانت للقبعة) تمتد في دائرة يزيد محيطها على عشرة من الأميال الصينية (١) (٢) . فأما عدد السكان فقد تضاعف إلى أقصى حد ، حتى أصبح داخل المدينة غريباً موحشاً . ومع ذلك ، فلم يكن هذا الخراب هاماً بأية حال . إذ

(١) لـ لـ : مرسيل سنة يندى على الأرجح أكثر من لك ميل (انجليز) . (للفرم)

لا يقل عن ذلك كثيراً ما يذكره الكاتب من المدن المزدهرة والقرى الآهلة والزوارح النشطة .

ويصنف كتاب « الحياة » عما لقيه الكاتب من مشاق في طريق حروبه : إذ وقع في أيدي الصوحر ، وغرق الفيل الضخم الذي كان يحمل غالب مناعه ، ولقي صعوبة كبيرة في الحصول على حابة جديدة . ولكن لا سبيل لنا إلى مطبعة هذه المغامرات .

والظاهر أن حودة يوان تشوانج إلى ميان فر عاصمة الصين كانت تسمى ميان . فلا شك أن بشره يسعون بين يديه كانوا يلبثون الناس بمقدماته . وأعلنت بالبلاد حطلة عامة ، وازدادت الطرقات بالأعلام الزاهية وملئت أرجاؤها سروراً بانضمام الموسيق . وحف به التام أثناء دخوله إلى المدينة في موكب فخيم حالي . ولما حل مقام رحلته إلى عشرين حصاناً ، ذلك أنه أحضر معه مئات من الكتب البوذية المكتوبة بالسكريدية ، والمصنوعة من خوص النخل ولحاء البنولا المطبق طبقات بعضها فوق بعض ، وحمل معه تماثيل جملة لبوذا ما بين كبيرة وصغيرة ، وما بين ذهبية وفضية وبوذية أو من خشب الصنل ، وكانت معه صور مقدسة ، وما لا يقل عن مئة وخمسين ألفاً حقيقياً مشهوداً بصحة نسبه إلى بوذا . وقدّم يوان تشوانج للإمبراطور ، فعامله معاملة صديق شخصي ، وأدخله إلى القصر يسأله يوماً بعد يوم من عجائب تلك الأراضي الغريبة التي قضى فيها مثل ذلك الزمن الطويل . ولكن بينا الإمبراطور يسأل عن الهند ، كان الحاج ميالا ألا يتكلم إلا عن البوذية .

وبخبر ما يطلع عليه من تاريخ يوان تشوانج على حادثتين تقييان الفسباء على النشاط الفكري لهذا العاقل العظيم تاي تسنج ، الذي كان فيها يرجع مسلماً بقدر ما كان مسيحياً أو بوذياً^(١) . والسبب في كل الاختصاصين في الدين معرفتهم بأكثر مما يلزم من شؤون ديانتهم الخاصة ، ومن أوجه اختلافها عن البيانات الأخرى ، ولعل مزلة - أو حبيب - أولئك الساسة الخلاقين من أمثال تاي تسنج أو قسطنطين الكبير ،

(١) ولقد كتب البوذيون يذكر تاي تسنج لاسم يوان تشوانج (٦٤٥) . يد أن حودمي المسلمين فعلوا مثل ذلك بسبب سببه كثر ، وكذلك مثل الكتاب المسموعة من أجل ما لقيه المبعوثون القاطرة (٦٤١) ومن هنا جاء استنتاج المؤلف بما اجتمع في عقل هذا الإمبراطور من احترام لاهم الأديان الثلاثة . (لترجم)

أهم لا يعرفون من تلك الأمور إلا القليل نسبياً . وواضح أن الخبير الجوهري الكمين في هذه البيانات جماعة كان يقولون نأى تسج غيراً جوهرياً واحداً لا يختلف في إحداها عنه في الأخرى . لذا كان من الطبيعي أن يقترح على يوآن تشوانج أن ينفذ الحياة الدينية ، وأن يلتحق بوزارة الخارجية ، وهو الاقتراح لم يقبله يوآن تشوانج لحظة واحدة . وعند ذلك أمر الإمبراطور أن يحصل على بيان مكتوب من أسفاره ، ولما حصل على هذا الأثر الأدنى النفيس الذي نكتزه معزّين به . وأخيراً اقترح نأى تسج على اليوفى التشيع تماماً بمبدئه أن يستخضع معرفته بالسنة كبريتية في ترجمة مؤلفات المعلم الصيني العظيم لاو تزي (Lao-Tse) ليصنع بها القراء المنوود .

ولا مرأه أن الإمبراطور رأى في ذلك رداً عادلاً للجميل وحلقة نافعة للخير الجوهري الكامن وراء البيانات جميعاً . فذلك أنه كان يرى بوجه الإجمال أن لاو تزي لا يقل عن بوذا إن لم يكن حيراً منه . وإذن فلو أن عمله (مؤلفه) وضع تحت بصير البراهمة لتلقوه بالترحاب . ويمضى هذا الروح بللى تسطنطين الكبير قصاصه ليحمل آريوس وإثناسيوس على تسوية أمورهما ودياً . وطبعي جداً أن مقترحه هنا قد رفضه يوآن تشوانج . فإنه اعتكف في أحد الأديرة ، وقضى بقية حياته مترجماً بأسلوب صيني وشيق كل ما وضعه جهده من الأدب البوذي الذي أحضره معه . (٥)

(٥) عن الدين والفسلفة والتاريخ بلاد الصين وبلند وفيرها من أقطار الغرب والشرق : أنظر الترسيم : والتاريخ وكيف يصورونه : تأليف ليان ورجري [نشرته الهيئة العامة للتأليف والنشر بمصر] .

الفصل الثامن

محمد (صلى الله عليه وسلم) والاسلام

- ١ - بلاد العرب قبل محمد (ص)
- ٢ - محمد (ص) يصبح نبيا مسلماً
- ٣ - الملائكة أنزلوا به الوحي
- ٤ - المولد النبوي والاسلام في ظل الميسرة
- ٥ - حياة محمد (ص) سنة حجة
- ٦ - ما بين الإسلام
- ٧ - أيام حجة في أمية
- ٨ - الثقافة العربية
- ٩ - الفن العربي

١ - بلاد العرب قبل محمد (ص)

سبق أن وصفنا كيف حدث في ٦٢٨ م أنه أمّ بجالي بلاط هرقل وقيامه
تسليم رسل من العرب ، أرسلهم شخص معين هو محمد ، رسول الله ، المقيم
في بلدة المدينة التجارية الصغيرة ببلاد العرب . وسنذكر الآن من كان ذلك النبي
الذي نشأ بين بدو الصحراء العربية وتجارتها .

فقد ازمان حقيقة كانت بلاد العرب ، على شريط اليمن الخصيب الممتد في الجنوب
الغربي ، أرض بدو رحل ، وهي المذيت الرئيسية للشعوب السامية . قبل بلاد العرب
وفي أزمان متنوعة اندفعت أفواج من هؤلاء البدو نحو الشمال والشرق والغرب إلى بلاد
المدنيات القديمة بمصر وساحل البحر المتوسط وأرض الجزيرة بالعراق . وقد لاحظنا
في هذا الكتاب كيف تحورت السومريين بعض تلك الموجات السامية وتخلت عليهم ،
وكيف مكن الفينيقيون والكنعانيون الساميين لأنفسهم على امتداد شواطئ البحر المتوسط
الشرقية ، وكيف انطلقت الشعوب السامية حيلة الاستغفار في بلاد بابل وآشور ،
وكيف غزا المكوس مصر ، وكيف استقر الآراميون تماماً في سوريا متخليين من
دمشق حاصية لهم ، وكيف فتح العبرانيون أرض الميعاد فتحاً جريماً . وقد انتقل

الكلدانيون في تاريخ مجهول من بلاد العرب الشرقية ، واستقروا في الأراضي الجنوبية السورية القديمة . وكان كل غزو يدخل في التاريخ هذا تقسم من الشعوب السامية ثم ذلك . بيد أن كل واحدة من هذه الجماعات كانت لا غنى تترك نواة قبلية من خلفها نزود الفزوات التالية في المستقبل بالرجال .

وتاريخ الإمبراطوريات الأعلى تنظيماً في عهد الحصان والحديد : إمبراطوريات الطرق والكتابة ، يظهر لنا بلاد العرب ممتدة كالإسفين بين مصر وفلسطين وبلاد القارات والبلجة ، كما يصورها خزناً للقبائل للرحلة التي تغير وتنتج وتغاضى الجزية من أجل حصانة القوازل ومجانها . أجل إنها تعرضت في بعض أيلها للخصوم لسلطان خارجي ضعيف مؤقت . وإن كلا من مصر وفارس ومقدونيا وروما وسوريا والقسطنطينية ثم فارس من جديد انتهى هل لتعاقب شيئاً من السيادة غير الحقيقية على بلاد العرب ، وتعلم عليها ضريبة لا أساس له من الحياة . وكانت هناك في عهد الإمبراطور تراجان ولاية رومانية تسمى « بلاد العرب » ، وكانت تتضمن إقليم حدود الذي كان غصياً آنذاك وتعتمد حتى اليوم (Petra) . وكان يحدث بين الآونة والأخرى أن يرتفع أحد مشايخ العرب ومدبته التجارية إلى مرتبة مؤقتة من الرفعة . كذلك كان حال أذينة (لوديباتوس الهاليري) صاحب تدمر الذي ذكرنا من قبل سيرة حياته القصيرة . وكانت عليك كذلك مدينة صحرانية أخرى بلغت رفعة مؤقتة وما زال خرائبها تدعش السائح .

وبعد تدمير تدمر أخذت السجلات الرومانية والفارسية تسمى حرب الصحراء باسم (Saraceni) : أهني المشاركة .

وفي أيام كسرى الثاني للقب بأرويز ، ادعت فارس نوعاً معيناً من السيادة على بلاد العرب ، وبعثت إلى بلاد اليمن بالموظفين وجباة الضرائب . وقبل ذلك الزمان ظلت اليمن بصح سين تحت حكم النصارى الأحباش ، وظلت قبل ذلك سبعة قرون وهي تحت حكم أمراء من بني جلدتها ، يستغنون الدين اليهودي ، وهو أمر غليظ بالملاحظة .

ولم تكن هناك حتى مستهل القرن السابع الميلادي أية أمارات على وجود أية قوة

غير مأوفة أو طاعة خطيرة في الصحراوات العربية . إذ كانت حياة البلاد تسير على ما كانت عليه منذ أجيال طويلة . فحبيبا وجدت وكمة خصبة ، أعني حبيبا كانت هناك حين أو بئر ، كان يعيش سكان وادعيون قليلو العدد في مدن مسورة ، محاذرة من البدو الذين يعيشون مع أغنامهم وماشيهم ويعيولهم في الصحراء . وكانت المدن الرئيسية تنشأ على اعتماد طرق القوافل المهمة وتبلغ من الرخاء مرقبة ثانوية ، وكانت في طليعتها المدينة (: يرب) ومكة . وفي بداية القرن السابع كانت يرب بلداً يحوى على ما يقارب ٥٠ ألف نسمة لا يتجاوزونها أما مكة فكان بها ، فيما يحصل عشرون أو خمسة وعشرون ألفاً . وكانت يرب بلداً أفضل تسيياً من حيث المياه ، بها أحراش تخيل كثيرة ، وكان سكانها من البقية ، أى من أهالي الأرض المنصية في الجنوب ، أما مكة فمدينة من طراز آخر قائمة حول بئير ماء حتى طعم مرمر ويسكنها بدو حديثو الاستقرار .

ولم تكن مكة مجرد مركز تجارى ولا كان ذلك أول وأهم صفاتها ، بل كانت بمثابة حج للناس . فكان بين قبائل العرب من زمان بعيد نوع من الخلاف يتمركز في مكة وبعض أباكن مقدسة أخرى ، وكانت هناك أشهر حرم (عدة) تحف فيها الحروب وتحتج للثارات ، وعادات مرجية من حياة الحجاج وإكرامهم . وقد نما بالإضافة إلى هذا عصر أوليبي (١) في هذه الاجتماعات . إذ كان العرب قد أخذوا يكتشفون في لغتهم مجال الروعة والجمال ، فكانوا يلقون القصائد الحماسية وأغاني الفزل . وكان مشايخ القبائل يجلسون وعلى رأسهم أمير الشعراء للحكم بين الشعراء ومنح الجوائز ، وكانت الأغاني الغائرة بالجرار تنفي في كل بلاد العرب .

وكانت الكعبة بيت مكة المقدس مسجدة القدم آنذاك . وهي حديد مربع صغير من الأحجار السوداء ، حجر الزاوية فيه من الأحجار النيزكية . وكان هذا الحجر النيزكي بعدوياً ، وفي حايته كل الآلهة القبلية الصغيرة ببلاد العرب . وكان سكان مكة للداعون قبيلة من البدو ، استولوا على هذا المقدس وأقاموا أنفسهم سدنة له . فبأنهم في الأشهر الحرم ألغوا عظمة من الناس يسرون حول الكعبة وفي طقوس

(١) نسبة إلى متعلقة أرميا اليونانية القديمة التي كانت تقدم فيها الهزجانات . (المترجم)

دينية معينة ، فيتمنون ويقبلون الحجر ، ويشتملون كلوك بالتجارة وإلقاء المقطوعات
الشعرية . وكان المكابيون يحنون أكبر القواد من هؤلاء الزوار .



(شكل ١٢٨) خريطة بلاد العرب والبلاد المجاورة لها

ولشد ما يذكرنا هذا بحالة بلاد الإغريق الدينية والسياسية قبل ذلك بأربعة عشر قرناً .
يبد أن وثلة هؤلاء العرب الأشد بدالية أخذت تعرض للهجمات من جهات عدة .
فأدخل العرب في دين اليهودية لوجاً لأنه عهد المكابيين^(١) والميروديين ببلاد اليهودية
(Judea) ، وكانت إذن : كما سبق أن ذكرنا ، قد وقعت على التعاقب في حكم اليهود
(أعني العرب المنتقن لليهودية) ، فالنصارى فالزرادشتيين . وواضح أنه لا مفر
من حدوث الكثير من المقتلة الدينية أثناء انقراض أسواق الحج في مكة وما شابهها من
مراكز : وطبعاً جداً أن تكون مكة هي مغفل عملة الوثنية القديمة التي وعيها أهميتها
ورعايتها ، فلما المدينة فهي من اللحية الأخرى ذات ميول يهودية ، وتقع بالقرب

(١) المكابيون : أسرة يهودية ظهرت في القرنين ١٠٢ ق.م . وأسرة حيرودس : حكمت في
مستطيل في زمن المسيح عليه السلام . (المفسر)

منها مستخرات اليهود . فلم يكن بد إذن من أن تكون مكة والمدينة في حالة منافسة وتنازع .

٢ - حياة محمد (ص) حتى الهجرة

كان مولد محمد مؤسس الإسلام بمكة قرابة ٥٧٠ م . ولد في شهر ربيع ، وكان ضاليل الحظ من العلم ، ولو فليس حتى بمعايير الصحراء لكان أمياً غير متعلم ، ومن المشكوك فيه أنه تعلم الكتابة إطلائاً^(١) . وظل بضع سنوات يشتغل بالرعي ، ثم دخل يندك في غصنة سيدة معينة اسمها خديجة ، وهي أرملة تاجر موسر . ولعله كان يعني^(٢) بإيلها أو يساعد في أعمالها التجارية . ويقال إنه سافر مع القوافل إلى اليمن^(٣) وإلى سوريا . ولظاهر أنه لم يكن تاجراً عظيم النفع لما في تجارتها ، ولكنه أوفى من الحظ نصيباً موفوراً ، فأجبت به السيدة وزوجه ، فتضايفت^(٤) من ذلك حالتهما تضائفاً كبيراً . ولم يكن عند ذلك قد تجاوز الخامسة والعشرين . وليس من المضحق أن زوجته كانت أسن منه بكثير ، وإن أجمع التواتر على أنها كانت في الأربعين . والراجح أنه لم يتم بآية وحلات طويلة بعد الزواج . وولد له أطفال حديدون ، كان اسم أحدهم

(١) علم الشك راجعه (عليه الصلاة والسلام) مقطوع بما ينص القرآن في مواضع متعددة من .
(المترجم)

(٢) الجمع عليه في الكتب الإسلامية أنه (عليه الصلاة والسلام) أفرده على تجارة لما إلى الشام
سائق أمير معلوم . (المترجم)

(٣) ثم ثبت أنه عليه الصلاة والسلام شاعر قبل الإسلام لا لتجارة ولا لأي عرض آخر . وكما ثبت للفرس من كتب السيرة أنه لم يسافر إلى الشام إلا مرتين ، مرة وهو حدث في حواله كفاية طرفة عين .
عمره في حصة عم أبي طالب وأخيراً حينما كان في حواله الخامسة والعشرين نالاً من السيدة خديجة (وهي
الله حيناً) في تجارتها . (المترجم)

(٤) قال الدكتور ميكل في كتابه « حياة محمد » ص ٨١ ما نصه : « فلم يكن خديجة أن يحدث
الساعة التي يحضرها مع أمهات ليهوداً أمهاتاً عندما لهن الزواج - وزوجها مهاجرين أنه إذ كان عمره
قد ملك قبل سرب للجار - ما يكاد ما يروى من أنه كان سافراً ولم يكن رافقاً من هذا الزواج » .
(المترجم)

عبد مناف (٥) - أى خادم الرب المكنى « منافع » ، وهذا يدل على أن محمداً لم يكن قد توصل في ذلك الوقت إلى أية اكتشافات دينية (٦) .

ثم ظل حتى بلغ الأربعين من عمره يعيش في مكة حيثاً عادياً كميل لزوجته ثرية . وربما كان هناك أساس لظن بأنه أصبح شريكاً في بعض الأعمال المرتبطة بالإنتاج الزراعى . فلأن إنساناً زار مكة سنة ٦٠٠ م رأى فيه فيا يرجع شخصاً أشبه بالقرين ، شخصاً حياً وسم الطلعة ، متقللاً بين المجالس ، متصفاً بالحديث ، وشاعراً غير جيد (٧) ، ورجلاً ذا حربة ثانوية على وجه العموم .

وليس في وسعنا أن نتحدث عن حياته الخاصة إلا على مهيل النظر والتخمين . وقد اعتقد بعض المؤرخين الخياليين من الكتاب أن كانت تلم به أدوار صراع ووحى عظيم ، وأنه كان يخرج إلى الصحراء في آلام مبرحة من الفسك والرغبة القسرية . « ففى هذه الصحراء ليلاً ، وفى قبض ظهيرة الصحراء نهواً ، حزن النوى نفسه كما يفصل الناس جميعاً وأحسن الوسيلة والافراد وإن لم يستوحش ، ذلك أن الصحراء لله ، وفى الصحراء لا يستطيع إنسان أن يحصله » (٨) . وربما كان الحال كذلك حقاً ، ولكن

(١) كتابت خطأ أن لم يولد له عليه الصلاة والسلام ولد هذا الاسم . ولما ثبت أن لقبه الشريف كانت لغز منه سببه من كل أصنام العرب . ولعل الكاتب قد اعطى عليه الأمر فيعمل من عبد مناف البلد الثالث ليس عليه الصلاة والسلام اسماً لأحد أبنائه . (المترجم)

(٢) وهل قال أحد بأن محمداً عليه الصلاة والسلام له جاء مجيد من ناحية العقيدة والدين قبل الأربعين حينما جله الروح الأمين وهو يعتقد غداً حراً ؟ وهل لا يخرج لقدر محمد (صلى الله عليه وسلم) من الأصنام وكل ما رأت إليها بسطة من طوقوس ودرابن ونظم الخ من أمارات السور القروسى على حروف به بين قومه من طريق تمسك بكامل الصفات والأحوال حتى القيود بالأمين . ولعل حزنه إلى التفكير والتأمل والتحدث جفاً عن الحق الذى عدله في النهاية إلى همه القوم حتى عبد عليه الروح الأمين بالرسالة والقرآن الكريم . (المترجم)

(٣) معاذ الله أن يتصف النبي بقول الشعر ، بل قد نزع من الشعر في كتابه الكريم ولم ترد عليه النبوة الشريفه فلهذا أنه عليه السلام قال حراً في سببه . (المترجم)

(٤) السيد جارك سايكس .

لم يحم أى دليل (١) على حدوث مثل تلك الرحلات الصحراوية . ومع ذلك فلاه كان ولا مرء يفكر تفكيراً عميقاً فيما حوله من أشياء . ويحتمل أنه رأى كتابس مسبوحة في سوديا (٢) ، ويكاد يكون عتقاً أنه كان يعرف الكثير عن اليهود وديانتهم ، وأنه استمع إلى سخرتهم من ذلك الحجر الأسود في الكعبة التى كانت له السيادة على الأرباب القبيلة الثلاثة ببلاد العرب . ورأى جماعه الصحيح ولحق أمارات الخطأ وعدم الإخلاص والشراعات المتجلية في وثنية البلدة فضاق بذلك فرحاً . وربما كان اليهود قد هدوه إلى الاعتقاد في الرب الواحد الحق ، دون أن يدرك ما حدث له (٣)

أخيراً لم يستطع أن يكتم هذه المشاعر في نفسه زمناً أطول . فلما بلغ الأربعين شرح بتكلم عن حقيقة الإله إلى زوجه أول الأمر كما هو واضح إلى قمر قليل من أصدقائه المخلصين . وجاء بآيات سمعية ، أعلن أنها قد أوحيت إليه عن طريق ملك من السماء . وكانت تحترق على الجزم بوحدة الرب وبعض أحكام عامة مقولة عن البر والتقوى . كذلك أسمر على وجود حياة في دار الآخرة ، وحطاب جهنم المستبين والشرير . وجعل القردوس "زكراً للمؤمنين بالإله الواحد . وفي ما هنا دعواه أنه نبى جديد لا يدين أن قد كان في هذه المبادئ شيء بارز بالحدة في ذلك الزمان ، بيد أن هذه التعاليم كانت في عرف مكة دعوة إلى الشفب والفتنة ، وهى التى كانت تتحد في بعض معاشها على تحنها للتعبد الآلهة ، والتي كانت لذلك مستسكة بالأصنام يوم كان سائر العالم قد أخذ يبتئها . وقد قال محمد ﷺ - كما قال ماني -

(١) الخواصر المحس عليه أن ذلك حدث به عليه السلام ولا تألن حديثه من سواه ؟

(الترجم)

(٢) إطلاق القول بأنه عليه الصلاة والسلام زار سوديا لا يقوم عليه دليل إلا أنه لم يحد في زيارته لشام مدينة بصرى عند فواطل الكوفة ومنى إلى أقصى الجنوب للشرق للعاسطين الحالية .

(الترجم)

(٣) لم يكن قنسى عليه الصلاة والسلام قبل الرسالة بحاجة إلى تعرف الإله الواحد الحق من الجود لأن العرب في جاهليتهم الوثنية كانوا يعرفون الله الخالق وأما كانوا يعبدون من الأوثان والأصنام في بداية أسرم بها شعلة في قلوبهم إلى الله الحق . فلما تقدم عليهم العهد سجدوا له من دون الله مع ذكرهم لآلهه وسرفهم له وذلك طامس في أصنامهم وعبيتهم في الجاهلية

(الترجم)

بأن الأقباط من لبله وبخاصة عيسى وإبراهيم كانوا معلمين قداميين ، ولكنه يكلهم
تعاليمهم وعصمتها . وهو لم يذكر اليهودية بأى حال . وربما كان ذلك لأنه لم يسمح قط
باسم بوذا . فإن بلاد العرب الصحراوية كانت غارقة في الركود والتخلف من
الناحية اللاهوتية .

وظلت للنبانة الجديدة بضع سنين وهي لم تحتفظ به جماعة صغيرة من البسطاء ،
هم : خديجة زوجة النبي ، وعلى ابنه المتي ، وزيد وهو عبد ، وأبو بكر وهو
صديق محبوب به . وظلت بضع سنين ففحلة مضمورة في بيوت قليلة بمكة ، كانت
بجرد عيشة وزجيرة خالقة في وجه عبادة الأوثان ، بلغ من خول شأنها وضآلة أمرها
أن زعماء البلدة لم يصروها أدنى اهتمام . ثم أعلت نفوذ ويصلب حودها . وأخط
محمد يجر بالدعوة أكثر وعلم الناس مبدأ الإيمان بالحياة الآخرة ، ويتوعد عبدة
الأوثان والكفرة بتار جهنم . ويبدو أن دعوته كان لها أثر عظيم . فبدأ للكثيرين أنه
إنما يهدف إلى إقامة نوع من اللدكاتورية في مكة وإلى اجتذاب كثير من البسطاء
والتفلسفين إلى جانبها . وبلغت قريش محاولة لتثييط الحركة الجديدة والقضاء عليها .

ومكة كما هو معلوم مثابة للحج وحرم آمن ، ولا يجوز منك أى دم داخل
أسوارها ، ومع ذلك فإن القوم نفعوا عيش أتباع المعلم الجديد تنصباً شديداً
إذ استعملوا معهم أساليب المقاطعة والمصادرة . فاضطر بعضهم إلى اللجوء إلى الحبشة
المسيحية . على أن النبي نفسه لم يمس بسوء — لما له من عزوة قوية تحميه ، بينما لم يشأ
محبوه أن يفتخروا على أنفسهم باب التآمر السموى . وليس في إمكاننا تتبع تأرجحات
الكنائس في هذا المقام . بيد أن من الضروري أن نذكر حادثة واحدة مبررة في حياة النبي
ليخبريد ، يقول عنها السير مارك ماينكس « إنها تثبت أنه كان عربياً صليماً » فإنه
بعد كل إصراره على وحدانية الله ، عاد فلهجته الردد . فجاءه سلسلة الحكمة وأعلن (١)

(١) هذه قصة القرآنيين ، وإن تعدد الصورة المروية للأحداث المذكورة من ذلك القرآنيين فلا وإن
قصاصين في القى ترجمي « أو » وإن القصاصين لترجيح « ليح لها يجعل تصديق الرواية مستحيلاً فاعلمك من
أنه لا يمكن أن يتبع القرآن أسام قريش و يفسر آيات ثم يعقب ذلك بأسارة بالاستنكار في نص
المسودة كما هو ظاهر من قوله تعالى « ألم رأيتم آلات والذين ، ومننا للآلة الأخرى : أنكم لا ترون
الآلة ، تلك إذا تسمه قريش ، إن هي إلا أسماء سميتوها لكم وأنزل لكم بها من سلطان » ،
ليح : فلما وضعنا « ألم رأيتم آلات والذين » ومننا للآلة الأخرى ، تلك القرآنيين القلاء ، وإن شاعرتي »

أن أرباب مكة وديارها ، قد تكون قبل كل شيء حفيظة ، وقد تكون ضرباً من التقديس للذين لم قوة الشفاعة .

قوله تراجع بالجملة والجملة من قریش ، ولكنه لم يذكر يم قوله حتى أُنشد .
 [كذا ...] ، وذلك يدل على أن الخوف من الله - كان لا جرم -
 محلاً جوانب قلبه ، لما يدر منه في حق الأمانة أكبر دليل على أمانته ونزاهته (١) .
 ومن ثم بلل كل ما وسعه لإصلاح ما فرط منه [كذا ...] . قال إن
 للعيطان لباس لسانه (٢) ، ثم أُنشد بسبب عبادة الأصنام بقوة وعزم مجتهدين .
 وبذلك نجد الكفاح ضد الآفة العتيقة بعد فترة سلام وجيزة ، متأجلاً حل صورة
 أشد وأخف ، دون أي أمل أكثر في الصلح .

وانقضت فترة من الزمن كانت قریش وأنصارها فيها ليلد العليا . فوجد محمد
 نفسه بعد عشر سنوات من الرقابة رجلاً قد بلغ الخمسين من العمر ، ولحقه إنطلاق
 تام في مكة . وكانت زوجته الأولى خديجة قد ماتت ، وكان كثيرون من كبار
 أنصاره ماتوا أيضاً قبل ذلك بقليل . فخرج يتنسى بالمرور في بلدة الطائف القرية ،
 ولكن الطائف ودته بالأحجار والصلب . حتى إذا أغلقت الدنيا في وجهه كأنه لم يكن ؛
 انقلبت أمامه أبواب الخط . إذ وجد أنه كان موضع تقدير وإعجاب في مكان لم يكن
 له بهيبان . فذاك بأن يشرب (المدينة) كانت تحرقها الانقسامات الداخلية شرمزق ،
 وكان كثير من أهلها ، استقبلتهم بمآلهم محمد أثناء موسم الحج إلى مكة . ولعل

لترجيح ... (ثم أردفناه بقوله تعالى) ... ، وأنكم الذكر له الأثر ، فلهذا إننا نرى ،
 فكان الملح ولهم لهم ، وسه متحابين ، ليس من القبول إذ أن يكون ذلك صدر عن عهد قديم لم يرد
 عنه أحد القوال أو يستأله أملاً بغيره متفاداة طوال حياته .

ولعل عدم ذكر ابن عباس شيئاً من هذه القصة يشير إلى أنه عام ومر أنه يحصل كثيراً أن هذه القصة
 ولعلنا من الإسرائيليات لم تكن قد وقعت وفاتت في أيامه وبذلك تكون هذه القصة وشبهه في تاريخ
 متأخر حدثت حشرأ في التفسير وغيره . أنها دليل لنزول آيات أخرى من غير محض أو تخيل .

(الترجمة)

(١) وكيف يزاد وهو المسموم من لئلاً والقوامي لقوله تعالى : لو تفرقوا علينا يفر الآلاف
 لا غنايتهم باهين وفلعلنا من الروين . وهو بعد ذلك يبلغ القرآن على أمة الله حل نفسه حظه
 . إنا نحن نرسلنا الذكر وإنا له لحافظون . من كل دعاة وكل سوء . (الترجمة)
 (٢) فلو كانت وكل ما تفرح منها بعض الخلق ولم يأت بها إلا مؤرخ واحد هو البشور .
 (لئلاً ...)

اليهود الكثيرى العمد في المدينة رحلوا في قلوب الناس مكانة جادة الأصنام
الصيفة . فترسيت إليه الدعوة لمضور ليحكم المدينة باسم ربهم .

على أنه لم يلبس من فوره بل راح يتفاوض منين ، ويرسل الصحابة ليطمئوا
للناس في المدينة ويخطوا ما بها من الأولان . ثم أخذ يرسل أتباعه من مكة إلى المدينة
لكي يكذبوا في اتظافره عند وصوله ، ذلك أنه لم يشأ أن يسلم نفسه لأكتصار مجهولين
في مدينة غريبة . واستمر خروج المؤمنين هذا ، حتى لم يبق إلا هو وأبو بكر .

وبالرغم من أنه كان مفروضا أن مكة حرم آمن ، فانه أوشك أن يقتل هناك .
وواضح أنه كبار أهل مكة كانوا على علم بما كان يجري في المدينة ، فأدركوا
ما يحدث بهم من خطر لو نبأ للكت التي الخارج علم أن يسيطر على بلد في طريق
تواصلهم الرئيس إلى سوريا . فلا بد إذن للعرف أن يفتي أمام الضرورة القاهرة ،
فألبسوا أمرهم على أن محمداً (ص) يجب أن يموت ، سواء أترقب على ذلك ثار
أم لم يترقب . فذهبوا أن يقتلوه في فراشه ، ولكن يشركوا جميعا في إثم غرق قواحد
الحرم الأمن المقررة ، تدبوا جماعة بهم لتفخيل ذلك بعثل أفرادها كل عشيرة في
البلدة ما خلا بني هاشم عشيرة محمد . ه أن محمداً كان خير جبرته من قبل ،
فلما انقشروا عليه جبرته في سلفة الليل ، وجعلوا عليا ابنه الخفي ، ناعما أو متألما
في فراشه .

وكانت الهجرة علية بالضاطر ، إذ كانت المطاردة شديدة سريعة . وأخذ المسلمون
من قصاصي الأثر في الصحراء يقصون مواطن الجبال في شبال مكة ، على أن
محمداً وأبا بكر انطلقا جنوبا إلى بعض الكهوف حيث كانت الإبل والموتن
غذاءهم ، ومن ثم قاما بالعودة عظيمة إلى المدينة . حيث وصل النبي ومعه رجليه

(١) ليس في شروط بيعة النقية ما يفرض لزوم بدعوة الحكم . (للترجم)

(٢) فليصح أنه إن بعد هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام عدد من المؤمنين والمؤمنات ،

ما لبثوا أن ارتسوا إلى المدينة بعد الهجرة . (للترجم)

(٣) ما عرفت يتضح مما ليس الهجرة من آيات يثبت نسب لها كتاب البيرة ولم يلقوا في
تفاسيدها ؟ أين نشاط الكون في لقب الفاروق ، وأين لغة الفاروق التي يهاها لافقة ، وأين ذكر
وتعرف حافة بين المسلمين يهاب الفاروق وأبو بكر آدم مع يتصل من لقد إلى يحدث عنه القرآن .

الصدّيق ، واستقبلاً بحفاة كبيرة في ٢٠ سبتمبر ٦٢٢ . وكان في ذلك خلافة ابيلاّله
وبداية صولته وسلطانه .

٣ - محمد (ص) يصبح نبياً مثلهما(١)

لقد ظلت شخصية نبي الإسلام حتى الهجرة ، أى حتى أمّ الحانية والحسين
من عمره ، موضوع الخس والتخمين والتجاذب والتنازع بين أهل الرأى .
فبات من بعدها يطع عليه ضياء التاريخ . وإلاّ فليتين فيه رجلان لوفى قوة تصويرية
خالقة ، وإن كانت عرجونية على طريقة العرب ، ولها أغلب مزايا الهوى
وقالعه(٢) .

وكان ابتداء حكمه « بدويّاً محضاً » . فإن حكم الإله الواحد إله الأرض طرّاً
- حسب محمد محمد - بدأ بسلسلة من السرايا على قول(٣) مكة ، قامت أكثر من

« . إن لا تصروه فقد ضمه الله من قبل : لى اثنين إلاّ ما فى كتاب ، إذ يقول لسانه لا تحزن إن
له حنا ، ولين حديث سراقه للى جد قد طبع هو وأبى بكر وما كان من غوس فواتم حرب فى الرمل
وارقائه من لولها وظله الإنسان من فرونيه المروطين لما وضع لرأسهما من مكافأة مجزية ، حل أن
يكتفى به الطيب ؟ ولكن ليس يظهر منه - وهو غير المؤمن - أن يورده ما يهت له حبه كسلالة
والسلام الرسالة والنبوة ؟
(الترجم)

(١) من غزوات الرسول وسراياه نظر كتاب « الخلاء » والواقى طبع جامعة أكسفورد وكلمة
Fighting إلى مصطلح الموت لا تسمى بالضرورة دائماً كلمة ومقاتل ، وقد نشرنا متناً لأن أكثر
الأنباء انشغالاً على حالة النبى صل الله عليه وسلم وأصحابه وأخصائه فى المدينة ، إذ كانوا يهودون عن
حقوقهم المشروعة إلى أنكرها عليهم للكثيرين ، فقد أخرجهم من ديارهم بقوة واستعسراً مما سم
وما كان لهم من حان ومناه ، وما كان النبى صل الله عليه وسلم ومن وراءه المهاجرون ليمأوا عظام
الهدى ومعاها ، لكنهم والأخصار منهم فى صعود واحد ، ما كانوا يهدأ لهم لآخرة حتى يفتنوا من
الكثيرين بالمل أو بالحرب ، بلقفاؤسة والإلتعاج أو بالتهديد والبطش ، حتى تمهم المقررة كالأثر النبى فى
سريرة أروى وسريرة الشفحة وسريرة العودة إلى الوطن .

(الترجم)

(٢) خافاً أن تكون النبى لقلل ، لأن كان الهوى إنساناً عادياً ، فإن النبى هو رسول الله
الذى لا ينطق عن الهوى .

(الترجم)

(٣) أنكر بعض المحسنيين من كتاب أوروبا طبع السرايا وسورها وفارقه ، وعلى من سلفه
المساعدة بينها لى أنزله ، ففانزون الدولى وحمل ما قلته الميوس فى جميع المسودات قبلتها فى
الحرب الحاضرة والحرب الماضية - صفرية عمه للأستاذ السقا مر ٦٥ .
(الترجم)

عام كامل دون أن تلقى واحدة منها أى توفيق . ثم حدث حادث جليل ، هو نقص
الهدية القيمة المسنونة ، هدية الخلف العربي في شهر رجب الحرام . فإن جماعة من
المسلمين في موسم السلم الأصيل هذا ، هاجوا خدوا غافلة صغيرة وقتلوا رجلا .
وكان ذلك هو النجاح الوحيد الذى أصابوه ، وقد أئوه بأمر النبى (١) .

ثم نشبت فور ذلك معركة . فلهذه مكونة من سبعة رجل خرجت من مكة
لتسبيل في الطريق قافلة أخرى وتوصلها إليها ، فالتقوا بفتة صغيرة كبيرة حشها
ثلاثة : وحدت بين الطرفين قتال ، هو معركة بدر التى انهزم فيها الكيون وحسروا
حسين أو اثنين من القتل وما يبالغ من الجرحى . وعاد محمد إلى المدينة مستصراً
وقد ألهه الله وهذا النجاح ، أن يأمر يقتل عدد من عصىمه اليهود في المدينة الذين
كانوا قائلوا أقواله النبوية يستخفاف غير محمود .

على أن مكة سمحت على الإكظام لبدر ، وأنزلت بأبواب النبى في معركة « احد »
بالقرب من المدينة ، هزيمة غير حاسمة . وقد وقع النبى وكاد يقتل ، وهرب
كثيرون من أتباعه . ومع ذلك فإن المكين لم يفتخروا من ميزة غلبتهم بدحول
المدينة (٢) .

(١) يقتل الثلاث هاجوا هاجوا الفيل المستقرين في سرية عبد الله بن جحش التى قال فيها الأستاذ
الملك ما نصه : النبى سرية اصطلاح لم تأسر بقتال ولم يؤخذ خاليه وقتل عبد الله بن جحش
ومن معه إلى المدينة وقد حيزوا القيس عليه السلام انكسر من غيبته ، فأبد عليه السلام وقال لم ،
ما أرتكنم بقتال في شهر الحرام . وعظمهم إيمانهم فتألفه القيس وسامت للسلام بين أهل المدينة . .
س ٧٨ صفرية محمد . ويظهر من هذا أن هذه القصة لم تكن تأمر من القيس صل الله عليه وسلم . ونجس
كتب المعركة كلها على أن السرايا لم يكن للعدا الأول والأخير منها شيء دفع مكة إلى التسليم للمسلمين
بالمدينة بجنونهم الذى ذكرنا ما أتينا .

(المرجى) :

(٢) ما قلنا يدل عليه التفسير موقوف ثم تنافس عن أن يتابع الموزوم حتى يلقى عليه قضاء جبراً
لا تقوم له بعد ثلاثة ؟ ألم يكن المسلمون نوبة في ظهر المكين وهذا النصر فرصة ذهبية للتخلص منهم
نهائياً ؟ لا حسب القديس ؟ وقد ألقى المؤلف من هذه المسائل ، إلا مدركاً لما بين السور من أن المكين
قد تكفلوا في هذا النصر عساة حجة أجرتهم على الرضا من كهنه بالآباب . ويظهر بنا أن لادو
عنا أن المعركة في بدايتها وعلماً حتى وعلها كانت تتطور لصالح المسلمين وكانت الأحوال كلها ترضى
بالن المسلمين لا بد مستصرون ، لولا أن الرماة بالليل ، وكان القيس عليه الصلاة والسلام قد أوقفهم على
ويرة خلف المسلمين لحاية ضرور وأوصاهم ألا ينادوا مكانهم حتى ولو رأوا أن المسلمين يقتلون .

ثم تركت كل طائفت النبي ودعاً من فرما في استغرة أنبائه الذين كانت
 عزائمهم على ما يبدو قد أصابها الكثير من القصور . وسجل القرآن الكريم الحق التي
 كانت تحرّبها للشامري تلك الأيام . يقول السير ملوك ما يكتس : « وسور القرآن
 التي ترجع إلى هذه الفترة ، أبرز نظرياتها كلها تقريباً في جلالا ودوحها وبخيتها
 للرافع » ، ولقد لأقدم لقائنا هنا مثالا يحكم عليه من تلك الآيات بليلة قلقة
 عن الترجمة الصحيحة الحديثة التي قام بها مولانا محمد علي (١) : « يا أيها الذين
 آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يرموكم على أفعالكم فتتفلحوا عاصرين . بل الله
 مولاكم وهو خير الناصرين . ستلقى في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله
 ما لم ينزل به سلطاناً وأوأام النار ، وبئس ثوى للقاتلين . ولقد حلفكم الله
 وحده إذ تحصنتم بإذنه ، حتى إذا غلظتم وتنازعتم في الأمر وحسم من بعد
 ما أؤاكم ما نجون ، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم
 عنهم ليبتليكم ، ولقد حلفا حنكم ، والله ذو فضل على المؤمنين . إذ تشعبدون
 ولا تلقون على أحد والرسول يلعنكم في أنفركم ، فلا يذكركم بما بهم ، لكيلا تحزنوا
 على ما فاتكم ولا ما أصابكم ، والله خير بما تعملون . ثم أزل علىكم من بعد
 الغم أمناً نحساً يشقى طائفة منكم ، وطائفة قد أهتمهم أنفسهم ، يظنون بالله
 غير الحق من الجاهلية ، يقولون على لنا من الأمر شيء » ، قل إن الأمر كله لله
 يخفون في أنفسهم ما لا يملكون لك ، يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قلنا
 ها هتا ، قل لو كنتم في يوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ، وليصل
 الله ما في صدوركم ويخلص ما في قلوبكم ، والله عليم بذات الصدور . إن الذين

— قتلا ، نورا وصيته عليه الصلاة والسلام حيناً أسروا المكيين بترجوعهم إلى القواء تحت ضغط
 المسلمين ظنوا أنه الخيرة قد حلت بهم وأنه أولهم أن ينزلوا إلى الميدان إلى جانب إخوانهم ، وحدها
 قتلن بحاله بن الوليد - وكان لا يزال على الوقتية وعلى رأس فرسان مكة - إذ أتمية البرودة قدسدار
 بقرساده ونهبا المسلمين بوجهه من الخلف ، وكلفه وقع المشون بين فائض ، ومع ذلك لم ينجوا
 ولم يخلصوا بل قاتلوا قتالا جديداً وأزولوا بأعدائهم عشرة أمجرتهم كلية من السير في القود إلى دوابه .
 وحسبذا يكون هذا السر أنه فيه بالخيرة إذ لم يقص من المكشورة وطرا ، ولم يقصد لهم خلا ، اللهم
 إلا لعل للذين المسلمين وتروم في بدر في كثير من العالم .

(الترجوم)

(١) وهي أن أسودتها ليلة الإسلام .

قولوا منكم يوم النقي الجمعان إنما اشتراهم الشيطان ببعض ما كسبوا ، ولقد عفا الله عنهم ، إن الله غفور رحيم (آل عمران) .

واستمرت المناجزات سجلاً غير فاصلة بضع سنين ، وأخيراً بلّث مكة آخر جهودها لكي تحشد إلى الأبد قوة المدينة الثانية . فجمعت قوة عظيمة لا تقدر على حشدها آلاف مقاتل - وهي قوة عالة بالنسبة للزمان والإقليم . وكانت بطبيعة الحال قوة غير نظامية تماماً من المشاة والفرسان والحصالة ، ولم تكن مستعدة لأي شيء عدا متوشحات الصحراء العادية . وكان كل ما لديها من سلاح هو القوس والحراب والسيوف . قلنا أن وصلت آخر الأمر وقد أثارت عمليات عالة من النفع وأصبحت برأى من أكوخ المدينة ويوتها ، فبدلاً من أن تجد قوة أسفر منها ومن نفس حشدها مصحلة للزوال كما كان معتظراً ، وجدت ظاهرة جديدة أهدت عليها عظمها وحشرتها : هي غنق وسور . ذلك أن محمداً احتسب وراء غنق أنشأه حول المدينة بمشورة غلامه أسلم (٢) .

فإذا فكك الغنق بعين الخيط اليدوي أشد الأشياء عالة لأصول الزوال الشريف والروح الرياضية القوية . فلتدروا حول المكان راكبين . وأعلنوا يتصايحون صبرين للمحمودين عن رأيهم في الأمر كله . وأطلقوا بضع سهام ، ثم خمسوا آخر الأمر لبحث هذه الإمامة القاحلة . هير أنهم لم يصلوا في شأنها إلى قرار حاسم . فإن محمداً لا يريد أن يبرز إليهم ، وأنشئت الأنظار تهطل ، ولجئت غمام الأحلاف وأصبح الظهي صبراً ، وحب حبيب الخلاف بينهم في الرأي وأخذ صبرهم يتقد ، ثم قوى ذلك الحشد المرموم مرة ثانية مغزقاً شراذم وثقلا ، حو أن يتلاصم مع المسلمين في معركة (٦٢٧) . ففترقت الجبهات شمالاً وشرقاً وغرباً وجنوباً ، وأصبحت ظلالاً من القتال وزال كل خطر لها . وكان بالقرب من المدينة قلعة اليهود ، كان محمد مضطرباً من قبل عليهم ، بما أبدوه من عدم احترام لعقيدته (٣) . وكانوا أظهروا ميلاً

(١) من وصف إحداهن ذلك الغنق وكيف فدك الرسول عليه السلام في حفره بنسبه أشهر كتابه في التاريخ ، هو القصة طبع جامعة أكسفورد من ١١٢ - ١١٣ .

(المترجم)

(٢) كراتنج أنه كان بين الرسول عليه السلام وبين قرية جند فقهه أولئك معلوماً أسلمت الأسراب بالمدينة إذ ترأسوا مع قبيلتي وأنشأوا يلقون العرب في المدينة وأعدوا جيوشهم للانقضاض على -

لدى الانضمام إلى من خيل إليهم أنهم أصحاب الكفة الراجعة المختلون في هذا الصراع النهائي ، هناك أطبق محمد عليهم ، وبيع كل الرجال وكانوا تسعج ، وسبي النساء والأطفال . وعمل أن يكون الكثيرون من أحلافهم قبل ذلك بقليل ، من بين المسامرين على مشرى هؤلاء السبايا والعبيد . ولم يحدث قط بعد ذلك الإنفاق الصحيح أن اتبعت مكة بعد فتحها فعلاً لمحمد ، وأخذ كبار رجلا ينضمون إليه واحداً بعد الآخر .

ولنا حاجة إلى تتبع دورات الهدنة والمعاينة التي انتهت آخر الأمر بمحمد سلطان النبي على مكة . وكانت خلاصة الاتفاق أن يجبه للوثنون نحو مكة عندما يصلون ، يبدؤ أن يولوا وجوههم شطري بيت المقدس ، كما كانوا يفعلون حتى ذلك الحين ، وأذ تكون مكة مركز الحج للدين الجديد . وما دام رجال مكة قد ضمنوا استمرار تسحق الحجاج إلى بلدهم ، فالظاهر أنهم لم يكن يعينهم كثيراً ، هل يجمع الناس باسم إله واحد أم آله كثيرة . وأخذ الناس من تحويل أي عدد كبير من المسيحيين واليهود إلى الإسلام ينسب إلى محمد ديناً مزيافاً ، فأنشأ يكف عن التشديد على شكرته القائلة بأن كل هذه العقائد إنما تعبد في الحقيقة ربه واحداً . « فانه قد أخذ يصبح شيئاً فشيئاً ربه الخاص به » وخاصة وقد أصبح الآن بهذه المعاهدة مقيداً بحجر المكعبة النيزكي ، كما أخذ يعد قليلاً عن أن يكون رباً وأباً للبشرية جملة (١) .

— جهاد المسلمين من الخلف . حياة محمد من ٢٠١ طبة أول . سيرة ابن هشام ٢٠٢ - ٢٧١ . وفيها ذكر العهد بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين قريظة وقسطنطين لهدم الذي عاهدوا عليه واتصلوا إلى الأحزاب وتهدمهم مؤامرة المسلمين بفتح مكة في تحصيلهم للأحزاب لثبوتها من المسلمين وكل ذلك منسوبة عظمى . ومع أن النبي صلى الله عليه وسلم قد بعث إليهم يكرّم بالعهد ، يطلب إليهم التقي به فته أجازوا . ومع ذلك فطلب الأحزاب والفتكر المسلمين وسب الرسول ملك وأمرهم من مؤازرة الأحزاب أظهروا بعبود محمد المسلمين ، لعل يربى من أحد بعد هذا كله أن ينسب هذه القصة الشهيرة وألا يقبل عليها بمعلها ٤ .

(المرجع)

(١) إن هذا الذي نقله المؤلف هو رأي المستشرقين ، ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يجد الله حين تصور التنزيل التي تنسب جميعها على الأحزاب بالأنبياء جميعاً وأن الله رب العالمين كافة . وكيف يسوع محمد صلى الله عليه وسلم أن ينسب لنفسه ما هو بها من دون الناس ، وهو الذي ينشأ جناس المسيحيين واليهود على سواء . ويستلهم من وسنة الفكر ويعلمون أصل الكتاب أي (التنزيل من عند الله) . وما ذلك إلا لأنهم يقررون أنه بالعبودية كالمسلمين سواء رسول . وإن يكن المؤلف يقصد قوله تعالى « لقد كفر الذين -

وكان النبي أظهر بالفعل ميلا إلى أن يحقد مع مكة صفقة ، وهذا قد تمت للصفقة
أمر الأمر . وكانت السيادة على مكة تستحق بلد هذا الساحل (٢) . ولنا حاجة إلى
الكلام عن القتلوات والروحوات وعن نزاع أخير حدث بين الطرفين . وصفوة القول
أن عمداً قتل في مكة في ٦٢٩ ميذاً مطاعاً وحطمت صنم صنم - وهو الرب الذي سمي
ابنه يوماً ما باسمه - فهوى تحت قدميه وهو يدخل الكعبة (٣) .

ومن ثم أخذ سلطانه يمتد ، وحدثت معارك وفتوح وفتاوح ، بيد أن الغلبة
كانت له على الجميع ، حتى دانت له في النهاية بلاد العرب كلها ؛ حتى إذا تمت له
السيادة على كل بلاد العرب في ٦٣٢ ، انتقل إلى الرليق الأهل وهو في الثانية والسبعين .
وليس في سيرته أثناء السنوات الإحدى عشرة التي عثمت بها حياته هذه المجرى

« قالوا له الله ثلاث ثلاثة » فلذلك حرمنا بعضاً مع وحدانية الله المبردة التي ظل يدعو إليها طواغيت
رساله والتي يطلب بها القرآن للمسيحين واليهود وجميع المدينة في قوله تعالى « قل يا أهل الكتاب تعالوا
إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يفتد بعضنا ببعضاً أدياناً من دون الله
فلان تولوا فقلوا انشعروا بالما مسجون » ،

(المترجم)

(١) سجل على المؤلف هذا الاصرار الصريح إذ أن ذلك بين بوضوح ما كان للنبي عليه السلام
السلام والسلام يحرم عليه جد الحرص من حق السماء وعلية العدل والحكمة فتشوب مكة إلى رغبها وتقل
بين المسلمين وبين حقوقهم المبرومة المباحة ليعبرهم من حرية الرأي والعبادة دون حشد ولا إكراهات . لما
وجه عليه السلام والسلام أن مكة قد أصبحت آذانها وأسماعها للكر وصعدا من السجل القوم وتحدثت في
طياتها حتى حاولت قتله فلما لأنها فقد أعدت فيه ، هجر موطنه وهاجر إلى المدينة ، وفيها حاول بكل
ما أوتي من قوة أن يظهر لك أن المسلمين قوة لتطعن التكتيل بها وبمصلحتها الخفية صامداً قاطعاً من غلبتها
وتصالح مع المسلمين وتكف من أذيهم وتتركهم وقائهم يهرون إلى دينهم ويذلون عبادة الله وحده على
طريقهم الخلل ، ولكنها أبت إلا الاستمرار في فيها والمبالغة في كيدها وتأييد العرب لصورتها ولم يبع
النبي صل الله عليه وسلم مع هذا إلا أن يرد القوة بالقوة وما ذاك بقل حتى تمسكت شوكة مكة
وتلغضت دعائم شركها وبان ضعفها شفقها لما جناح رحمة وبسط لها يد السلم التي انقضت عنها من قبل
يدعاه حية واستكباراً . ولعل القارئ إذا رجع إلى صلح المدينة وما ثم فيه حاجة فيما ظهر به للنبي عليه
السلام والسلام من روح الإنسانية الكاملة ما يؤكد له إلغائه ما أرجونه هنا .

(المترجم)

(٢) ليس بين أمية النبي كما أسلفنا من يسى فيه خلاف قط ولا لدى من أين جاء المسترقون
لثنين قتل منهم المؤلف هذه الفكرة ، (راجع مقدمة أمد الحياة في أعمال الصحابة وغيره النبي وذكر
أولاده وأزواجه) .

(المترجم)

خير القليل مما يفرق سلوكه العام من سلوك أي شخصي يجمع ثنات الشعوب في كنف حكم ملكي موحد . والفارق الوحيد هو استعمال الدين الذي جاء به ، مادة يقد بها أجزاء ملكه بعضها إلى بعض . كان يستخدم الدبلوماسية ويداري قارة ويقو ويشتد أغرى ، أو يساهل ويلين ، حسبما تقتضي المناسبة والغرف (١) ، كأي ملك (٢) عربي قد يوجد في مكانه ، وكانت ملكيته تضم بصورة فريدة قسراً طفيفاً من الروحية (٣) . كذلك لم تكن حياته المنزلية إبان فترة سلطانه وقنونه على التصرف ،

(١) ما كانت المدارة ولا القسوة من صفاته البتة سلوكات لله عليه ، وإن اللزوم لم يقتض نفسه في فصل ذلك حين يذكر قسوة الرسول عليه الصلاة والسلام على اجتذاب حذافة الأصنام والإحصاء . وحده فسرى أمر لا يتأتى إلا لأن كانه حقاً من خلق عظيم أيده ما يمكنه من المدبرة والقسوة . ولما يجد أبلغ في الرد على هذا القول من قوله لعل الكرم في تعامله به الأمين : « قسوة من الله لست ألم ، ولو كنت ظناً غلبت القلوب لالفتوا من حركه » ، وقوله تعالى وهو أصله القائلين « وإليك لعل خلق عظيم » .

(المترجم)

(٢) ليس أدل على خطأ هذه الفكرة من قصة الأسرى التي قال النبي « أنت سيدنا ، فأجاباه عليه السلام » السيد الله تبارك وتعالى .

(المترجم)

(٣) مله حجة يجب المفقود أن يلمسوها بالإسلام مكارمة بهم وتعباً وقد دفعها الاستلا للإمام محمد حينه ، فليرجع القارئ إلى ما كتبه فيها رحمه الله ، ويتردد به . وأية روحانية أكبر من أجل للناس جميعهم ، خاتم وغلوهم ، قهرهم وتسيدهم ، أكرم وحقيهم بما فرقه لفرقة الكرم من قلعة الصلاة والصوم وذبيحة الفكة والجهاد في سبيل الله ونسب تلك حيلته النفس الأمانة بالسو . بالإصالة به جهاد التكابر أمداه الله ، وتطهير النفس من أدران الفساد الملقى وحطهم خلا على يد الرذائل وقتلهم بالفضائل وبخاصة للصدق والمعلم والمعلم والتواضع والرحمة والإخاء في الله والمساواة المطلقة والعبور وإنكار الذات وليلة للامة وما تقوى به ، إلا بما يقوم بالأود ويقضى غروراته طيبة ، والإيمان بالله إيماناً سافلاً صغراً من أعمال قلب ماسر به عالم بأنه من في السر والعلنة ، يعلم عائلة الأمين وما تقى الصدور ، وابتغى فيما أتاك الله الفار الآخرة ولا تنس لصديقك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين ، كما أن رسول الله عليه الصلاة والسلام على طوال حياته لا يله لحظة ولا يترك فرصة إلا ويذكر الناس فيها بالله ، والآخرة والحساب والقراب والعتاب ويضربهم فيم الأخلاق بنفسه قولاً وعملًا فهو الصديق الأمين لغير الحرم الصابر المتوكل المكلف جالس السومين ، والمؤثر على نفسه ، الكامل فيهم ، المرائي به ، الكامل بوجهه وأمره . وتصادق القول بأنه كان الإنسانية الكاملة حية ناطقة وقد خصها الله تعالى في قوله « وإليك لعل خلق عظيم » ، ومن ثم خصه تعالى الناس على اختلاف أئمة وتوسم بحله : « ولست في رسول الله أسوة حسنة » . ولهم الحق إن تلك كله نقول من كثير ما كان عليه الرسول سلوكات لله عليه وما كان عليه أصحابه الأئمة الصيرة من قوة روحية لا تنال ، بما استقوا به أن يحظوا بملكوته السموات فلا يجهل في الإيجال والقرينة ما حلت روحية أبلغ وأسمى وأهدأ أثرًا مما جاء به عليه الصلاة والسلام ولقد به نفسه وأعطه أصحابه .

(٨ - مسلم)

غير أنواع الحيلة ولا أعمدها . وهو يدوحق وفاة عذيقه ، يوم كان في الحسين ،
الزوج المختص لامرأة واحدة - ولكنه عاد عند ذلك - كما يفضل الكثيرون من
الرجال عندما تملو بهم المن^(١) - فأظهر بالفاء اهتماماً قوياً .

فزوج زوجين بعد وفاة عذيقه ، كانت إحداها الصغيرة عائشة ، التي أصبحت
وظلت شريكته الأخيرة صاحبة السلطان الأكبر عليه . ثم أضاف إلى أهل بيته خدماً
من نساء الخريجات ، ما بين زوجات وإماء . وأدى هذا إلى كثير من المتاعب
والاضطراب ، وبالرغم من نزول آيات كثيرة حول هذا الموضوع ، فإن هذه
التعديلات ما تزال تنظم من المؤمنين الكثير من الضمير والتعاضد .

وقد كان هناك مثلاً قصة حول السيدة عائشة ، فإنها عثقت في ظرف
ما حل حين تابع المودج ولجس السير بينما كانت تبحث عن صفها بين الشجيرات ؛
ولما صار لازماً أن ينزل الله الآيات القوية ويدفع المظولين بالإفك^(٢) . ثم نزلت

« ومن دخل في حية دون تلى أو تولى » .

(الترجمة)

(١) « وقد كانت ثلاث الحسن من بني ميثون على رولج القيس صلى الله عليه وسلم بعد وفاة
عذيقه فكان الاسم يورثه هذه الثغرات أن يسع القيس إليه تسماً من الفتيات الأبنكار اللواتي اشتهرن
بذلك لجمال في حكة واللمعة والمزودة للرمية ، فسرعن إليه راضيات قعودات ، وأولياء أمودهن
أرهن منهم وأشهر بهن المصاهرة التي لا تفلوها مصاهرة . لكنه لم يتزوج بكنزاً لها غير عائشة رضي الله
عنها ، ولم يكن زواجه بما يقصوداً في نهاية الأمر حبه ورضاه فيه غولاً بلت حكمهم التي عرضت
عليه الزواج بعد وفاة عذيقه .

كما سائر زوجاته عليه الصلاة والسلام لما من واحدة منهن - رضي الله عنهن - إلا كان لزوجها بها
محب من المصلحة العامة أو من الحرية والنفقة دون ما يجلد به المرحلون من ذات الحسن المزعومة «
(مقابلة عبد السلام ، ص ٢١٥ - ٢١٦) .

(٢) يقول السير ولم يورث تلياً من هذا الحادث ما ترجمه : « إن سيرة عائشة قبل هذا الحادث
ويعد تدنواها إلى القطع بمراسها وعدم التردد في دسوس أية شهة أثيرت حولها . (سيرة أحمد) . حل
أنا لا نجد رداً أبغ ولا أبلغ للشك يبين من قوله تعالى : « إن الذين جاءوا بالإفك مصبة عنهم
لا تبيدهم الله لكن بل هو غير لكم ، لكل امرئ ما اكتسب من الإثم والى قول كبره منهم له
طلب منهم . لولا لا يستنوه من المؤمنين والمؤمنات بأنفسهم غيراً وقالوا هذا لله مريب . لولا

الآيات أيضاً فيما غلب على بيت النساء هذا من كراهة على « الحياة الدنيا وزينتها » وعلى « التصح بالرقابية » . ثم هبت حاصفة جدل قوية لأن النبي زوج في البداية ابنة عمه زهبة بنت جحش من ابنة النبي زيد ، « فلما قضى زيد منها وطراً » أخذها النبي وتزوجها - ولكن الأمر كما يوضحه التذييل ، إنما كان قطب يتعمد إظهار الفرق بين الابن النبي والابن الحقيقي . « زوجها كما هي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعياتهم » إذا قضوا من وطراً ، وكان لمرأته مبعولاً ، ومع ذلك فمن المضحق أن آية بسيطة في القرآن^(١) كانت تُقنى عن هذه المظاهرة العملية للشريعة . وحلت بالإضافة إلى هذا تردد في الحرج بسبب اللعبة الزائفة التي أظهرها النبي لحلوة مصرية ، ولدت له غلاماً - وهو غلام كان يحنو عليه حتى أحببنا ، ذلك أن لم يرض له واحد من أبناء عطية . وكل هذه المناهض للزنية تخرج أعظم استزاج

« جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذا لم يأتوا بالشهادة فأدركه حم الكاذبون » ولولا لعل أنه طبع ورجحه في الدنيا والآخرة لم يكن في ما أنضم به طاب طبع ، إذ تنقذونه بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحبونه حيناً وهو عند الله طبع . ولولا إذ حستوه فلم ما يكون لنا أن نحكم بهذا حسبانك هذا جهنم طبع ، يحكم الله أن لموهوا هذه أبداً إن كنتم مؤمنين . وبين الله لكم الآيات والله طبع حكيم . وإن كنتم تحبون أن تصح فلا تفسد في الذين آمنوا لم طاب ألب في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون . (سورة التور)

(١) لم يكن الرسول كما تصور المشركون « رجلاً يأخذ بمقله القوي » . لم يعرف منه في حياة خديجة ولم يعرفه منه قبل فواجه بها أنه كان من تعزيم سلطان النساء في وقت لم يكن فيه من النساء حساب . (حياة محمد) للتكثير مكيك .

ويؤكد الأستاذ محمد ما نصه : وكانت للنبي زوجة أخرى وصحت بالولادة والقتل ، وهي كريمة بنت جحش ابنة عمه عليه السلام التي زوجها زيداً بن حارثة وأموه وحل غير رض عنها ، لأنها أفتت - وهي ما هي في الحسب والقرابة من رسول الله - أن يتزوجها غلام صغير . حله أياً لم يكن ، فكانت الحسب « المزعومة سلطان في هذه النبي بها بعد طلاق زيد إليها وتسلمت لزوجها زينباً » . ولما كان ذلك الحس سلطان في هذا الزواج فكان أمر فيه حل للنبي أن يتزوجها ابتداء ولا يردتها حل يقول زيد وهي ثابته . فقد كانت ابنة عمه يرعاها من طهرتها ولا يملك من حسنها فيه كان يحمله يوم عرض عليها زيداً وشدد عليها في قوله . فلا تفتق الزوجان ، وتكررت فتوى زيد من إصرارها عنه وترسبها عليه وإظهارها بالفرار له كان زواج النبي بها « حلاً للفتنة » بنته بين زهبة في سورة الابن وابنة عمه أطاحت في زواج لم يقرن بالوفيق . (حكمة محمد ص ٢٠١) للفتاد .

(٢) أنظر الرد على ذلك في حياة محمد ص ١١٦ ، ١١٧ . للتكثير محمد حسين مكيك .

يصورها لشخصية النبي . وكانت - صفة - إحدى زواجه اليهودية (١) ، تزوجها ليلة المعركة التي قبض فيها على زوجها وقتل . إذ استعرض السبايا في آخر النهار ، فرأيت نظره وحلت إلى حبيته .

عنه وقائم بلرزة في حله الإحدى عشرة سنة من حياة محمد .

هذا وليس هدلاً أن نتخذ لفظنا رادياً ، فمن الناحية الأخرى هل تراءى حلت قط بأن رجلاً على غير كريم السجايا مستطيع أن يتخذ له صديقاً ؟ ذلك أن من عرفوا عمداً أكثر من غيرهم كانوا أشد الناس إيماناً به . وقد آمنت به خديجة طوال حياتها - على أنها ربما كانت زوجة حبة . وأبو بكر شامد أفضل ، وهو لم يرد قط في إخلاصه . كان أبو بكر يؤمن بالنبي ، ومن الصبر على أي إنسان يقرأ تاريخ تلك الأيام ألا يؤمن بأبي بكر . وكذلك على ، فإنه خاطر بحياته من أجل النبي في أسوأ أيامه . لم يكن محمد دجلاً بأية حال ، وإن كان اعتداده بنفسه يدعو في بعض الأحيان أن يتصرف كأنما كان الله رهن إشارته ؛ وكأنما أفكاره بالضرورة أفكار الله (٢) .

(١) وكان إزار من دوابه حرة من النبي عليه السلام في معاملة مع الناس ولا سيما النساء اللاتي تنكسر قلوبهن في ذلك بعد فقد الحياة والأقرباء . ولهذا غير صفة الإسرائيلية حرة بعد فريضة يرى أن يمسحها بأهلها أو أن يمسحها ويزوج جد فصحاح الزواج من عليه السلام . حلقية محمد من ٥٠٤ . فكانت عليه السلام لم يصرف إزارها تصرفاً ينافي مع ما علم عليه من خلاف كرم ودوقه سليم ووجه بالشفاه .

(٢) المقروء أن المؤلف لا يؤمن برسول الله صل الله عليه وسلم وقد رأيت أن تؤكد هذا القول وغيره ليطلع عليه المسلمون ويحبوا ذلك دمه والرد عليه مما يقولون من نفس الرسول صل الله عليه وسلم من روحانية والنية والواقع روحه إل غير ذلك مما حبه الله جل جلاله ، صفاته في نعمته العظمى بأنه لا ينشأ عن الخلق ، ولو رجعت إلى تاريخ الرسول بأكله لرأيت أن المؤلف قد تكسب طريق الحق والإنسان إذ تمكن النبي عليه الصلاة والسلام سنة واحدة ما تعلم بها المؤلف عليه ، بل الأمر حل القبح من ذلك إذ كان النبي صلوات الله عليه الخصال الكونية كلها في سرور حية كما أن القرآن الكريم على أنزل عليه قد نبأ جزءاً وسراحة من الرذائل كلها ومن بينها تلك التي تعدها المؤلف ولا يمكن لخلق بشر أن يصور خروج محمد عليه الصلاة والسلام حل ذرة مما نزل به القرآن خاصة ومن الخلال . أدنى وفي أحسن تأديس . فضلاً عن أن أسد من الرواة لم يرد لفته أنه عليه السلام قد يؤمن ما أدبه به ، ولا أن أسد من صحابه أعد عليه يوماً شيئاً من هذا الذي ينتقده المؤلف ، فكان كل أحاديث صلوات الله عليه كانت ما يقبله الطرق السليم في عصره .

(المترجم)

ولئن كانت رغبته في صفة يوم مقتل زوجها تدهش حقولنا المصرية ، فإن حبه لإبراهيم الصنبر ابن مارية المصرية وحزنه المقروط عندما تولى الطفل ، ليحله مكانة الزمالة مع كل أولئك الذين عبروا حانقة الحب ولوعة الحرمان .

وهو حين سوى القرامب فوق القدر الصنبر يديه قال : « إنها لا تضر ولا تنفع ولكنها تفر عين الحى وإن العبد إذا عمل عملاً أحب الله أن يتعه » .

٤ - تعالم الإسلام

على أن سمات محمد الشخصية^(١) شيء ، وصفة الإسلام - تلك الديانة التي أسس - شيء آخر . لم يتأصب محمد يوماً أو مائى أى عداة . ولكن الإسلام هو الذى ناهض مسيحية القرن السابع للميلاد ، وتقابلت الجيوش الزرادشتية للمنطقة ، وحى الأمور التي يعنى بها المورخ أعظم ما يعنى وسواء أكان الأمر يفضل النبي صلى الله عليه وسلم ، أم يسبب صلف وملابسات معينة لنشأة الإسلام وصفات معينة في الصحراء التي منها نشأ ، فلا مجال هناك لإبتكار أن الإسلام يمتاز بكبر من الصفات الممتازة النبيلة .

وقد حج محمد حبة الرذاع من المدينة إلى مكة قبل وفاته بعام في آخر السنة العاشرة للهجرة . وعند ذاك أتى على شعب موصلة عظيمة ، بقلها إنها القوار كما على . وبديهي أن هناك خلافاً حول الألفاظ . . ولكن ليس ثمة نزاع و أن عالم الإسلام ، وهو عالم به مع ذلك ثلاثة مليون نفس ، بقلها حتى اليوم قاعدة حياته ويعمل بها إلى حد كبير . وسيلط القارئ أن أول فقرة في الخطبة يعرف أهلها كل ما بين المسلمين من نهب وسلب ومن ثارات وهدايا . وتجعل الفقرة الأخيرة منها ، الزجى المؤمن جيداً للخطبة . وربما تم تكن تلك الكلمة رفيعة^(٢) رضة يعنى لقوال يسوع الناصري ، يد أنها أمتت في العالم تقاليد عظيمة ، لتتعلل المبادل الكريم ، وإنها لتنتفع في الناس روح الكرم والمهابة ، كما أنها إنسانية السمة عميقة للتفصيل .

(١) أسلفنا لقد حل مذام الموالف ، والمستترين لها يتعلق بشخص الرسول عليه السلام وما نرى دلها إلى تأكيد أن الرسول هو روح الإسلام وتلكه وهدايه فيجمع أعماله في سنة وجميع تعبراته هي الأسوة وجميع أموره هي الأسوة التبرية الفريضة ولا يمكن عملاً لتعمل بين نبي رسول دين رسالته النبوية . (المترجم)

(٢) فقارئ أن يحدّد أنه أن يقرأ الخطبة ، حل دوماً ألفاظها وحياراتها وما انشطت عليه من جوامع الأفكار ودلج المبادئ . (المترجم)

وقد أنشأت مجتمعا أكثر تحمرا من أي مجتمع آخر سبفه ، مما أمر الدنيا من قسوة
وظلم استجاعي . قال : -

أيها الناس : اسمعوا قولي ، فإني لا أدرى لعل لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا
للوقوف أبداً . أيها الناس : إن دعاءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم
كحرمة يومكم هذا كحرمة شهركم هذا ، وإنكم ستقنون ربكم بمآلكم من أعمالكم ،
وقد بلغت ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمه عليها ، وإن كل ربا
موضوع ، ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ، قضى الله أنه
لا ربا ، وأن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله ، وإن كل دم كان في الجاهلية
موضوع ، وإن أول فداءكم أضاع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب . أما بعد
أيها الناس ، فإن الشيطان عدو إبليس [من] أن يجبد بؤسكم هذه أبداً ، ولكنه إن
يطلع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحفرون من أعمالكم ، فاحلوه على دينكم .
أيها الناس إن التمس زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا ، يحلونه عاماً ويحرمونه
علماً ، ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله . وإن
الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله
اثنتا عشر شهراً ، منها أربعة حرم - ثلاثة متواليه ، ورجب مفرد الذي بين جادى
وشعبان . أما بعد أيها الناس فإن لكم على نساءكم حقاً وحقن عليكم حقاً ، لكم عليهن
ألا يوطئن فراشكم أحداً تكرهونه وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فإن
الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع ، وتضربوهن ضرباً غير مبرح ، فإن اتهمن
ظهن وذقهن وكسوتهن بالمعروف ، واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عندكم حواء
لا يملكن لأفئسهن شيئاً ، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستحلتم فروجهن
بكلمات الله . فاحفظوا أيها الناس قولي ، فإني قد بلغت ، وقد تركت فيكم ما إن
اعتصمتم به ظن تصلوه به أبداً ، لمرأيتنا : كتاب الله وستة زبیه . أيها الناس :
اسمعوا قولي واحفظوه ، تاملن أن كل مسلم أخ للمسلم ، وأن المسلمين إخوة ،
فلا يحل لامرئء من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس ، فلا تظلمن أنفسكم .
اللهم هل بلغت ؟

فهنا الإصلاح على تبادل الرق والرعاية بين الناس في الحياة اليومية إتما هو واحد من فضائل الإسلام الكرى . بيد أنه ليس التفضيل الوحيد فيه . ويعادل هذا في الأهمية للتوحيد الذى لا هوادة فيه ، والذى يجرد من كل ما جاء به اليهود من استئثار بالله ، وهو توحيد يدعمه القرآن الكريم . وكل الإسلام منذ البداية قاطعاً مانعاً إلى حد بعيد لكل الإضافات والتفصيلات اللاهوتية التى أربكت المسيحية وقرنت كلماتها وغطت بالدخان على روح يسوع . وكان مصدر قوته الثالث تعمله الدقيق لطرائق الصلاة والعبادة ، وبيانه الصريح عن الخزي السرى المهدود للأخوة المشتركة . وأقل دون للمؤمنين باب كل قربان ، ولم يترك اسم^١ خباط مفصلاً يغد منه كاهن القربان في الثفران القديم ويعود بذلك إلى مسرح العفلة الجديده . لم تكن مجرد عقيدة جديدة ولا ديانة نيرة خالصة ، كما كانت عقيدة يسوع أيام يسوع . أو ديانة جوثاما في أيام حياة جوثاما ، ولكنها وضعت بحيث تظل على حالها دون تغيير . ولا يزال للإسلام حتى يومنا هذا قضاها معلون ووعاظ . ولكن ليس له كهنة ولا قساوسة .

كان ديناً مليئاً بروح الرقى والساحة والأخوة ، وكان عقيدة سهلة يسيرة الفهم ، كان دين قطرة نحوى ما قصصوا من حواطف القرومية ، وكان يهوج بمناشدته للمباشرة إلى أشيع النظر الغالبة على تكوين الرجال العاديين . وقد ناصبت اليهودية علماء مبرراً ، وهى التى انحلت من قرب كنزاً عنصرياً تكثره بلجتها . كما تألفت عليه المسيحية وهى التى كانت تتكلم وتبشر آنذاك وبلا نهاية بالتثايل وقوانين الإيمان والمطقات التى لم يكن أى رجل عادى يستطيع أن يميز فيها الرأس من الذنب ، كما حاربه للركنية نحلة الميوس الزرادشتيين الذين أوسوا يصب مائى ، ولم تكن كتلة الناس الذين جاعتهم دعوة الإسلام ونحله يمتعون إلا بشيء واحد هو أن ذلك الرب (الله) الذى كان ييشريه فرسول ، كان بشادة الضمير المتطورة عليه قلوبهم ، رب بر وهدى وتقى ، وأن القبول الشريف لمبادئه وطريقته يفتح الباب على مصراعيه - في عالم طامع بالتقليل والحقارة والاقسامات التى لا تسمح فيها - على أسوة عظيمة متزايدة بين رجال جليبين بالحق في هذه الدنيا ، وعلى فردوس لا يأخذ الناس فيه أنفسهم بالسردى المواصل من التسبيح والعبادة ، على حين يكون فيه قنيسون والقوس والملوك المملون ما يزالون يحظون

بالدرجات العليا ، وإنما تقوم فيه الزمالة المتكاثرة والملاذات البسيطة البسيطة التيهم من أمثال تلك التي تتلف عليها قلوبهم . وقد أوصى محمد (صل الله عليه وسلم) حله المبائى بالخلافة إلى سويداء قلوب البشرية ، دون أن يلجأ إلى أية ومزية مهمة ومون أي نعيم فيها كل ولا رزق القوس .

٥ - الخليفةان أبو بكر وعمر

إن روح الإسلام الحقة لم تتجدد في محمد ﷺ قط ، وإنما في صديقه الحميم ونصيره أبي بكر . ولا يقوم أدنى شك في أنه إن كان محمد هو العقل والفكر واللبال المنصب للإسلام البدائي ، فقد كان أبو بكر ضميره وولادته . ففي كل أيام حياتهما معاً كان محمد هو الذي يقول الشيء ، فيؤمن به أبو بكر أوتى الإيمان . فإذا دخل عمداً شيء من الردد^(١) سارع أبو بكر إلى مساندته . كان أبو بكر رجلاً عامر النفس باليقين خلوها من الشكوك ، وكانت معظاته تقطع قطعاً حاسماً وتخصص كسكين شاحنة - من أعمال جلزمة . وما يحتاجنا إلا شديد التأكد في أن أبا بكر ما كان ليدارى أو يصانع حيال أرباب مكة الأصاغر ولا كان بحاجة إلى الوحي ليفسر الناس تصرفاته في حياته الخاصة^(٢) . قلنا أن مرض النبي بالحصى في السنة الحادية عشرة للهجرة (٦٣٢) والفصل إلى الرقبة الأمل ، كان أبو بكر هو الذي أعقب خليفة له وإماماً للناس ، وكانت ثقة أبي بكر التي لا تزعزع في الله وبره وعده . هي التي منعت الشقاق بين مكة والمدينة ، وهي التي أخذت تحت واسعة النطاق أنارها الأعراب البدو على ضريبة الزكاة الحبية للصالح العام ، وهي المسماة « حرب الردة » ، وهي التي دعت أن يفد إلى سوريا رحلة غزو كان النبي الرسل أحدها . ثم أنشأ أبو بكر ، بذلك الإيمان الراسخ الذي يزجج الجبال وذلك البساطة الثقية والفصل الرابع ، يتعصب نفسه لتنظيم إخصاص العالم بأسره بحكم الله وولادته - بجوش صغيرة يتألف كل منها من ٣٠٠٠ أو ٤٠٠٠ حربي - أخذاً بذلك الرسائل التي بعث بها النبي ﷺ من المدينة في (٦٢٨) لكل ملوك العالم .

(١) سبق أن تحدثنا عن المراتب في مثل هذه التغطيات فلا داعي للتكرار والمصلحة للأطباء في أدلة الرسالة مكتوبة لجميع القصور المتأخرة . (لقرنم)

(٢) كل هذه أمور سبق قوله عليها فليرجع إليها القاري . ثم إننا لا ندري ما دخل هذا كله بالرسول عليه السلام أو بالخليفة التي جاء بها الرسول ما دلت -

وأوشكت المأولة أن توثق ثغرها . ولورقيض للإسلام عشرون رجلاً من طينة أبي بكر ومن يصغرونه سناً فواصلوا عمله لتجس على التحقيق في بلوغ تلك الغاية . وما قارب الإسلام هنا النجاح ولوشك أن يلفه إلا لأن بلاد العرب كانت آنذاك مركزاً للإيمان والزينة ، ولأنه لم يكن هناك في أي مكان آخر في العلم حتى حدود الصين ، اللهم إلا في سهوب روسيا أو أفغانستان ، مجتمع أكثر من رجال أحرار الأرواح لم أي قوة من إيمان يحكمتهم وروحهم . ذلك أن عظيم الإمبراطورية البيزنطية هو قتل قاهر كسرى الثاني (أبرور) ، قد انحدر عن أوج جده وثالثه حلة الامتلاء ، وأنهكت الحرب الفارسية الطويلة إمبراطوريته . وكانت فارس متردية في الحضيض الأود من دركات المخطاط الملكية . فلان قباض الثاني قاتل أبيه لن حظه بعد حكم قام أشيراً قليلة ، وحدثت سلسلة من المؤامرات على العرش ومن أحداث الاغتيال المثيرة للمشاعر فلات حياة القصر نشاطاً ، ولكنها أضحت قوة البلاد . ولم تلبث الحرب بين فارس والإمبراطورية البيزنطية بصفة رسمية إلا قرابة بداية حكم أبي بكر . وكان كلا الطرفين يستخدم الجنود المرتزقة العرب لوسع استخدام ، واتخذت في أرجاء سوريا عدد من المدن والمستقرات للعرب المتعربين ممن يدينون للقسطنطينية بولاء ليس له من أساس ، وكانت مناطق التحوم القلوبية الممتدة بين أرض الجزيرة والصحراء تحت نفوذ أمير عربي تابع لفارس ، مقر إمارته الحيرة . وكان سلطان العرب لوباً في مدن من أمثال دمشق ، حيث كان السادة من مسيحي العرب يقتلون وينشدون أحداث ما يقصده المتهاون من الشعراء في الصحراء من القصيد . وبهذا كانت في حقلول الإسلام مقادير وفيرة من المواد البيرة الفتل مهيأة لتقبل دعوته .

والحملات العسكرية التي بدأت عنه ذلك من ألب ما عطف تاريخ العلم . فقد أصبحت بلاد العرب على النجاعة يستأنف موتفاً من رجال ممتازين ويمرؤ أمم خالد بينهم أركمى نجم وأسطع في نخبة من القواد المسلمين المقتدرين الأتقياء . فحجها حل قائداً لجيش كان قصر حليفه ، ولما أن دفعت الفيرة الخليفة حمزين الخطاب إلى خطمه - ظلماً منه لا يظفر - لم يحدث أية ضجة ، بل واصل يخدم الله في سرور وإنتلاص

— الضجة لم تثار أولاً وأخيراً لأنه فيه ما يكفه المولود وفيه المشرقون ولعلد الشيء والإسلام في قديم الزمان وحاضره . إن حمدا هو رسول الإسلام والفكره وتلقى وسية وسلب منه ، ولا يمكن أن تخلص القروح الأصول - (للمرجع)

تحت إمرة اللذين كان كبيراً عليهم^(١). ولما استطعين أن تتبع قسمة هذه الحروب هاهنا ، وبحسب أن نقول إن الجيوش العربية رجعت غرباتها في نفس الوقت إلى سوريا البيزنطية ومدينة الحيرة على النخوم القارسية ، وكانوا في كل مكان يجيرون الناس بين أمور ثلاثة : فلما أن تلحق الحزبة ، ولما أن تؤمن بالله الحق وتنضم إلينا ، ولما أن تقتل . فالتقوا بجيوش كثيرة ، جيوش كبيرة ومنظمة ولكنها جيوش جوفاء لا روح فيها فمزحوها . ولم يحدث في أي مكان أن قبلوا بشيء اسمه المقاومة الشخصية . فلكي مكان أراهم يرى والزراعة الآكلة في أرض الجزيرة بالعراق ، لم يكن ليصعب قلامة ظفر أيدفعون الضرائب إلى بزنطة أو برسيروليس^(٢) أو المدينة ، فإن قاضل الناس بين البلاط القارسي وبين العرب ، كان العرب ، أصغر حرب اللين المتعلمة ، أنظف الطرفين وأظهرهما بشكل ظاهر ، وكانوا أوسع رحمة وأكثر عدلاً . وانضم العرب المسيحيون دون تردد إلى الفزاة كللك انضم إليهم كثير من اليهود . وكانا كان الحال في الغرب كان كذلك في الشرق ، إذ كان القزوة يتحول إلى لودة اجتياحية . ولكنها كانت هاهنا ثورة دينية أيضاً لها حيوية ذهنية جديدة متميزة .

(١) يقول ثورتز في تاريخ العالم (طبعوت) إن سيطرة البطرك القسطنطينية كانت تتطوى على وصية . فلما ارتكبت القسطنطينية خطأ عظيماً في مجمع نيقية بعدد اللوجيات (المؤلف)
ولكن المعروف أن هذه المصادفة التي يسمونها خطأ قد عرضت على أن يكر للصلبان دس في الله وهو من علم في ورده وتقرأه فلم يرها كذلك وأقر غالباً حل تسرع . ولعلنا من هذا لم يكن ما حدث من صر دس في الله من غير ولا ظلم ، ذكر ابن الأثير أن صراً دس في الله حتى احتل غالباً إلى المدينة به البرك ، فلما وصلها رعد حل صر شكاه ، وقال له شكرك إلى المسلمين ، فلهذا لك في أمرى لغير مجمل ، فقال له صر : من أين هذا القراء ؟ قال من الإنصاف والسياسة ما زاد على ستين ألفاً لك ، فقوم صر ماله لفراد عشرين ألفاً فبسطها في بيت المال ، ثم قال : يا غالب ؟ والله لك حل لكرم ولك إلى لبيب ، فكتب إلى الأصغر ، إن لم أمزح غالباً من سطوة ولا غياقة ولكن الناس فضوه وقتوا به ، فحدث أن يذوا كلوا إليه ، فأسبغت أن يطهروا أن الله هو الصانع وألا يكون بمرس فتنة ، وعرفه مما أنه منه .

تاريخ الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٢٦٦ (الطبعة الأولى المطبوعة الأهلية المصرية سنة ١٣٠٩ هـ) .
(المترجم)

(٢) مدينة قارسية قديمة تقع على بعد أربعين ميلاً إلى الشمال للفرق من مدينة جيراز الحالية ، خير مية من بحري بحر البوار وأسمها حنة الماردينين الحرب استلمت .

(المترجم)

وكان خاله هو الذى قاد الحركة الحاصلة (٦٣٦) ضد جيش هرقل على ضفاف اليرموك ، وهو أحد رواد الأردن . إذ كانت الكتاب - شأنها على النوام - خلوا من القدر لكثافتها من القوسان الصالحين ، فكان طيف كراسوس الشيخ على سبع قرون وهو يتردد على بلاد الشرق حيثاً دون أن يحط بمصره لحد ، فكانت الجيوش الامبراطورية تعتمد فى أعمال الخيالة على الجنود العربية المسيحية الخليفة ، وانحاز هؤلاء إلى المسلمين عندما التقى الجيشان . وأقام الجيش البيزنطى موكباً عظيماً من القسوسة والرايات القلعة والصور والآثار القلعية ، وساعدهم فوق ذلك الرهبان بترابيلهم . ولكن الآثار لم يكن لها أى سر ، كما أن الاحتفاد فى القربل كان ضليلاً . فلما فى الجانب العربى ، فإن الأمراء والشيخ استحثوا الجيوش بخطهم وانطلقت أصوات القلعة فى المؤخرة بالزخريد تشجيعاً لرجالهم حسب العادة العربية القديمة . وكانت صفوف المسلمين ملية بللوزين الذين كان جلاً أمام نواظرهم أمران : النصر أو الفرجوس . ولم يد فى نتيجة الحركة أدنى ريب بعد انجياز الرابطة غير القلعية . والقلبت محاولة العدو التراجع إلى تشتيت شمله تشجيعاً لم يلبث أن تحول إلى ملبة . وكان الجيش البيزنطى يحارب وظهيرة إلى الظهر ، الذى أصبح قوت ملياً بأشلاء قتلاه .

ومن بعد ما أخذ هرقل يحتل من سوريا شيئاً فشيئاً لأعدائه الجدد ، بعد إذ لم يحضر على استرداده لها من يد القوس إلا زمن محصر . وسرعان ما سقطت دمشق ، وبعد ذلك سنة دخل المسلمون أنطاكية . ثم اضطروا أن يهبطوا عنها مرة أخرى بعض الزمان نتيجة لجهل آخر بذلك القسطنطينية لاسترداده ، على أنهم ما ليتوا أن عادوا فدخلوها تحت قيادة حاكمه ماكين بها إلى آخر القوس ،

وفى نفس الوقت حدث فى الجبهة الشرقية ، بعد أن أصاب العرب نهماً ابتدائياً سريعاً استولوا به على الجزيرة ، أن اشتعلت مقاومة القوس . وكان النزاع على العرش قد انتهى آخر الأمر بتولية ملك ملوك جديد ، واكتشاف قائد ذى مقلدة هو رسم . فالتهم بالعرب قرب القادسية (٦٣٧) . وكان جيشه جسطاً كالذى اقتاده دارا إلى توليا أو الذى هزمه الإسكندر فى إسوس . كان عظيماً من المبتدئين ، وكان لديه ثلاثة وثلاثون فيلا حروباً ، وجلس على عرشه لخمى من فوق منصة مزخرفة خلف



(شكل ١٢٩) خريطة بنهاية الدولة الإسلامية

الصفوف القارصية وهو يلاحظ للمركة ويشرف عليها ، وهذا القرض يذكر القارصة
 بهروموت والغلس بونت وسلامييس قبل ذلك بما يزيد من الألف سنة . واستمرت
 للمركة ثلاثة أيام . وكان العرب في كل يوم يهجمون ، فيصعد الجيش العظيم القارصين
 في مكانه ، حتى يبدل الليل متاراه أمراً بالهزيمة ، وتلقى العرب في اليوم الثالث
 أمداً ، وحاول القرمس قرابة المساء أن يصلوا بالحرب إلى نهاية حاصية ، بأن قاموا
 بهجوم باقية . وقد جرفت تلك الوحوش المائة في مبدأ الأمر كل شيء . أماها ،
 ثم جرح أحدها جروحاً أليمة ، فحين جنوه وأخذ ينشع هنا وهناك بين الجيشين ،
 وانتقل القرمس منه إلى القبلة الأخرى ، واستمر الجيشان معوقين فترة من الزمان في
 أصيل شمس الغروب ، وهما يلاحظان اليهود الجنوبية التي قبلها هذه الوحوش

الشهباء الصارخة كى نهرب من جموع الرجال المسلمين المطوعة لما والى أساطلها من كل جانب . وقد حدث بمحض الصدفة أن القيلة خاضت في الجيش القروى آنمر الأمر ولم تخض صفوف العرب ، وأن كان العرب هم الذين قبض لم أن يهجموا صيغة فحالة في التسميم على أثر القوضى التي وقعت في صفوف أحداثهم . وبعد التناق أطبقت ظلمة الليل ، ولكن الجيوش لم تتباعد عنه المرة . وظل العرب الليل كله يكيلون القريبات لأحداثهم باسم الله ، وضغطون على القوس المطعين المتقهقرين . وبرز القعج وقول جيش رستم قهر مبتلة عما بلاء ميدان القتال من القوضى وبقايا المعركة المتأثرة . وكانت تلك الغلول تخفى في طريق ملوء بالأصلحة المتأثرة والأهوات الحربية ، وكثير من دواب ومعدات الحبل والوقى واللحن في القزع . فأما المنصة والعرش فللهي فقد تكسرا ، وكان رستم صريحا بين كومة من اللوى .

وكان أبريكرد مات من قبل في ٦٣٤ ، فتولى الخلافة من بعده عمر وكان تحتها قتي^(١) . وقد ابرزت أعظم فتوح المسلمين في عهد عمر (٦٣٤ - ٦٤٤) . فطردت الإمبراطورية البيزنطية من سوريا طرداً تاماً . حل أن زحف المسلمين أوقف عند جبال طوروس . واجتاحت لرميقية وفتحت كل أرض الجزيرة ، كما فتحت فارس وراء النهرين . وانتقلت مصر انتحالا يكاد يكون سليماً من يد الروم إلى العرب^(٢) ، وبذلك استطاع الخلفى الساسى في بضع سنين ، باسم الله ورسوله ، أن يسترد تقريباً كل الأقاليم التي خسرها القروس الأربعين قبل ذلك بألف سنة . وسقطت بيت المقدس في وقت مبكر ، إذ عقدت معاهدة دون أن تحتل الحصار ، وبذلك حدث أن

(١) ورد في الأصل Brother-in-Law أي عميل القوس أو شقيق زوجته وهذا خطأ والصحيح هو أليوت هنا ، حيث تزوج القوس (حم) حفصة بنت عمر . (المترجم)
(٢) إن تميم قهرت لمصر حول الخيشة من سائر العالم المسيحي ، ثم يظل العالم يمد ذلك ألف عام دون أن يسع شيئاً من هذه البلاد الدالية التي بقيت حل التسمية . وفي منتصف القرن الخامس عشر ظهرت في روما فضاء بنت حشبة تستلم عن بعض تطل سيرة تيمار بالدخيلة المسيحية . وكانت تشع في العالم المسيحي أسطورة من بلاد مسيحية طليحة في الشرق في بلاد هيرسترجون أي القوس يوحنا . والمظاهر أنها قلست حور لقصص عريقة من الخيشة وخططة بأفانجيس أميري من زعماء من لتتوك تتسروا حل أليوت التسلط

والصليب الحق ، الذي حمله القرم قبل ذلك بالثني عشرة سنة ، ثم أحاده هرقل بمشقة كبيرة انقل مرة ثانية من دائرة حكم دولة النصارى . حل أنه ظل باقياً في أيدي مسيحية ، ونصت المعاهدة نفسها أن يتم النصارى بالتسامح في مقابل دفع الجزية على الروم فقط ، وتركوا الكنائس بأسرها والآثار والمخازن المقدسة بأجمعها في حوزتهم .

ولشرطت بيت المقدس مقابل تسليمها شرطاً عجيباً . فإن المدينة أبت أن تسلم إلا الخليفة عمر نفسه . وكان الخليفة حتى ذلك الحين مقياً في المدينة ينظم الجيوش ويدير شئون القتال عامة . فحضر إلى بيت المقدس (٦٣٨) ، حل أن طريقة حضوره والحالة التي وحلها عند مجيئه تبين مبلغ السرعة التي أودى النجاح بها بساطة البداية الإسلامية الأولى وقوتها . جاء في رحلة طويلة أمدها ستة ميل ومعه تابع واحد ليس جبر ، وكان راكباً بجلاً ، وكانت عدته في السفر كعباً صغيراً من شعر وكثر من تمر وقرية ماء وجفت من خشب . واستقبله فؤاده الكبير بخارج المدينة ، وهم يرتدون أثواباً فاخرة من الحرير ويمشطون صبرات بجاء مزركشة للسروج والأحذية . وهناك الغضب الشديد الرجل الشيخ لهذا المنظر الغريب . فازرق من رحله ، وجمع يديه الأرى والأصهار ، ثم لطخ هؤلاء السادة المتأقين وهو يمسح بهم سباجاً . فلماذا كانت هذه الإهانة ؟ وما معنى هذا التأني ؟ وأين المتقاتلون الأشداء ؟ وأين رجال الصحراء المشهون ؟ إنه ليأبى حل هؤلاء « الملوك » المتأقين للمسيحيين بأنفسهم أن يسبوا في سجنه . فواصل المسير مع تابعه ، ومار الأمراء المتأقنون من خلفه عن بعد . فخرج مجال قلعه أيامهم بالأحجار . التي منفرداً بطربك بيت المقدس ، وهو الذي تحل المدينة فيما يظهر من حكمها البيزنطين . وأخذ يعامل والبطريك على ما يرام ظلالاً معاً بالأماكن المقدسة ، وأنشأ عمر ، وقد هدأت آثاره بعض الشيء ، يوجه التكاثر الساخرة للمأكرة إلى أتباعه ذوى الثياب الفاخرة . وما له دلالة كلكل على ترجمة ذلك الخليفة ومالة عمر إلى أسد حاله . وكان ابني لنفسه قسراً بالكوفة . يأمره فيها أن يهجم ثانية .

كتب إليه يقول : « بلاني أنك قلت أن تحاكي ليوان كسرى » ، وألك قلت أن تحبط نفسك بالأبواب التي كانت له ، أترغب كلكل أن يكون لك ما كان لكسرى

من حراس وحجاب ؟ أم تريد أن تعاود يظك وبين المؤمنين وتجعل بين جسدك وبين
الفقراء حجاباً ؟ أم تريد أن تخالف سنة النبي ، وتصير إلى ما كان عليه ملوك
الأمم من الأبهة والطمعة ، فتردى في نار جهنم كما تردوا ؟ (١) .

٦ - أيام عظمة بنى أمية

كان أبو بكر وعمر بن الخطاب (٢) أعظم شخصيتين في تاريخ الإسلام . لا يقع
الحيل هنا لوصف الحروب التي تم بها في خمس وعشرين سنة من القرن أن نشر
الإسلام لواءه من نهر السند إلى المحيط الأطلسي وألبانيا ، ومن قشتالة على حدود
الصين إلى مصر العليا . وبحسبك خريطة ليبيان المدى الذي دفع به البعث
القرى للعقيدة الجديدة . الفكرة الحرة والقرآن العربي قبل أن استطاعت الزعة
الدينية أي روح التجرد والذهب القديمة وريق الرداء الجبري ، أن تعيد كامل
سلطانها القاتل لكاه العرب وولاتهم . وسيطت القلوى كيف سار المد العربي العظيم
في آثار خطى يراد تشوانج ، وكيف ثم في سهولة يفرقية أن تفرح الوندك السهلة
قد كُروث في الانجاء المضاد أحنى من الجنوب إلى الشمال ، وإذا خامرت القارئ
أية أوهام مضطه في أن حضارة من الحضارات المتأخرة حواه أكات فارسية أم رومانية
أم هندية أم مصرية ، بحرهما هذا الفيضان الجديد ، فإنه كلما سارح إلى نبد مثل
حاله الصكرات من حقله كان ذلك غيراً له . لأن الإسلام ساد لأنه كان خير نظام
اجتماعي وسياسي استطاعت تلك الأيام تقديمه . لقد ساد لأنه كان يجد في كل مكان
شعوباً قبلد حسباً ميسراً ، تسلب وتظلم وتُخوف ولا تعلم ولا تُظلم ، كما وجد
حكومات ألتانية مقيمة لا اتصال بينها وبين شعوبها بأية حال . كان أوسع وأحدث
وانظف فكرة سياسية كان لها نشاط فعل في العالم حتى ذلك اليوم ، وكان يجب
الجمهرة المنفجرة من البشرية عامة ظلاماً أفضل من أي نظام آخر مبعه . وكان
النظام الرأسمالي الاسترقاق في الإمبراطورية الرومانية ، والأكبد والطمعة والفضاليد
الاجتماعية في أوروبا ، قد انحلت انحلالاً تاماً وانهارت قبل أن نشأ الإسلام . ولم يحدث

(١) نلاحظ : Schwartz in Mehneld's History of the World .

(٢) دمج كتاب العرب على نسبة هذا الكلمة باسم عمر الأول ، ونسبة عمر بن عبد العزيز
الكلمة إلى عمر بن الخطاب .

بالاستيلاء على القسطنطينية ، دارلى أوروبا أولا بطريق إفريقيا وأسبانيا الملتوى
الجيد ، فإنه لم يصادف إلا في فرنسا في نهاية خط مواصلات هائل الجهد من بلاد
العرب قوة كافية للناس لإيجاف تقدمه .

وقد تسلط سادة مكة الفخو على الإمبراطورية الجديدة منذ البدايه ، فإن أبابكر
الخليفة الأول انصب في المدينة للخلافة بطريقة شكلية قلب فيها الصياح ، وهكذا
كان شأن عمر بن الخطاب وحنان الخليفة الثالث ، هل أن ثلاثهم كانوا مكين من
أمر حريفة . ولم يكونوا من رجال المدينة . ومع أن أبابكر وعمر كانا رجل بساطة
وتحسب مطلق واستقامة ، فقد كان حنان أدنى منهما مرتبة ، وهو رجل من طراز
أصحاب الثياب الحريرة . فلم يكن الفرو لديه من أجل الله بل من أجل بلاد العرب ،
وبخاصة من أجل مكة ببلاد العرب ، وبالأخص لنفسه هو والمكين ولشهرته الأكرين
في أمية . كان رجلا ذا مكانة شريفة ، تصب نفسه لمنعة وطه ويلطه وتومه .
ولم يسلم ميكراً كما فعل سلفاء الأولون (١) . وانضم إلى النبي لأسباب سياسية في عملية
أصل . وعطائه عادلة [كلها ! . . .] وهو ليس بكف الخليفة من أن يكون رجلا صهيماً
له شخصية مدعشة متوقفة ، ويصبح ملكاً شرقياً ، كتكثير من الملوك الشرقيين من
قبل ومن بعد ، ملكاً لا بأس به إذا قيس بالمخاير الشرقية حتى ذلك الحين ، ولكنه
لا يزيد على ذلك شيئاً .

وإن حكم حنان ومقتله ليجرزان يوضح عواقب ما حدث في عهد النبي (ص) ،
بمقتله ما شملت حياة أبي بكر وعمر بما انطوت عليه تعالجه من جنوة قلبية . إذ كان
محمد صلى الله عليه وسلم يلجأ إلى التديولوجية في أوقات كان أبو بكر يمنع فيها إلى
الصلابة ، وكان المنصر الجديد من الجحش الأرستقراطي الذي ظهر بتولية حنان أحد

(١) فاصح أن أبابكر أول من أسلم من الرجال وأن عائشة أسلم قبل عمر وثلاثين من السابقين
الأوليين إلى الإسلام ، وكلهم من المهاجرين المحمدين في الرسول ولم يكن لأحد منهم بنية خاصة من وراء
أسلمه فقد عسى كل منهم أن يميل للإسلام بالنفس والتفويض وتحمل آلام التضيق والتفريد والمفرد
والهوانة من أجل طيبته ودينه . ومن مذهب من صفان وضعت على الإسلام والتفرد التي أدت إلى مقتله ،
انظر الموسوعة العربية المصورة . (المترجم)

(٢) أسلفنا طبع القول في تلبية تلك المزاميم بما فيه الكفاية . (المترجم)

تمت تلك التصرفات الدبلوماسية . وكانت حواشي ذلك المحرم ، حرم النبي
لجميع من غير محبس ، والمنازعات والفتنات العائلية التي اشكتت خلف أمور
المسلمين أثناء حكم الخليفتين الأولين ، قد أغلقت لتسلل إلى ضوء النهار . فإن علياً
وهو ابن عم النبي وابنه النبي^(١) وزوج ابنته فاطمة ، كان بعد نفسه صاحب الحق
في الخلافة دون سواء . وكانت لاعتداله تلوياً خفياً بتورق معبراً عن امتعاض المدينة ،
وعشائر مكة المناهضة لارتفاع شأن بني أمية . ولكن حادثة زوجة النبي الحظية ،
كانت تثار على الدوام من فاطمة وتعادى علياً . فاعلمت إلى هناك . . . وبذلك
تتبار بداية قصة الإسلام البديعة فجأة في حياة هذا الزواج وللنوشة بين الوراثة
والأرامل^(٢) .

(١) م ينسب النبي صلى الله عليه وسلم علياً وإنما هو قد نسب إليه ، وهو ابن عمه أبي طالب ،
في أيام المصطفى صلى الله عليه وسلم ، فعمل مثل ذلك العباس بمجلس بين أبي طالب تحقياً من أبي طالب
لكثرة صفاته حتى يكشف عن الناس ما هم فيه ولم يزل كل من رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بعده
الله ليلاً فليته وآمن به وصلة (المترجم)

(٢) إن كان هذا القول من جانب المؤلف هو بسبب لشعر كل كرم الله وجهه من جهة أبي بكر
بما عده الشيعة سداً لأصفيته في الخلافة دون أبي بكر وصهره ، فإننا نبادر إلى القول بأن جأناً لشعر
عن جهة أبي بكر لا لأنه يرى أسبقته في الخلافة ، وإلا نلظ طوال حياته دون مباينة ، وإنما كان ذلك منه لأنه
استشعر أن يجرم الأمر من دونه ومن دون بني هاشم قلب تون له إخراج المسلمين من دخل في الجحافة وبيع .
لذا أمهات المؤمنين في أمة هذا القول ليس من العسة ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينفذ كل واحدة من
زوجاته إلا لسبب عام وذلك ظاهراً من كسبه السيرة والتخفيف ، فبعضهم كان ذريته منها بسبب التزويج كما
حدث في سالا زهيد ، بنت جشيتي مثلاً ، وبعضهم كان ذريته منها لثأف وإسكان الروابط كما حدث في
حالة سلمة . وبعضهم لولاهن لما يكنين شر العيلة مثل أم حبيبة مثلاً لأن أودت الاستزادة
لهذه الكتب السيرة كلها تفصيل ذلك بما يشهد أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يتزوج دون غرض
تقصي الرحلة المسحة أو تمحيص ، وإنما كان له من ذريته من كل واحدة من زوجاته رضي الله عن
غرض جليل ، وأضاف إلى ذلك أن واحدة من أمهات المؤمنين لم تتدخل في شؤون الدولة إطلاقاً لا في
حياة النبي صلى الله عليه وسلم ولا بعده . وما كان خروج عائشة رضي الله عنها مع الزبير وظلمة عن كرامة
لعل كرم الله وجهه ولكن لأن الزبير وظلمة أرحمها له علي لم يكثر ثم كان المطول فخرت مسجلاً .
حتى إذا مرت بالحوادث وأخذه إلى كلابها سأل سائل عن اسم المكان فلما ذكر كل مسجع منها وقد كبرت قول
رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أيتكن تبسها كلاب الحواري فتح » صرعت وأبركت الجبل وعت بالزبيج
وعلقت مكانها حتى تصالح الناس في إقراره كل كرم الله وجهه كل الحوادث بهم فسادت منهم إلى العبرة . .

وفي ٦٥٦ وجم جماعة من الرجاج هناك - وهو شيخ في الدين - بالاحصار في شوارع المدينة ثم طاردوه إلى منزله وقتلوه - وأصبح على آخر الأمر خليفة لهم يقتل بدوره هو أيضاً (٦٦١) . وفي إحدى معاركه هلكه الحرب الأهلية مزت عائشة نفسها وقد أصبحت سيده عجزوا شجاعة حادة الطبع ، بأن قادت (٦٧) ضد على معركة وهي في هودج على جبل . فأمرت وأصغت معانها .

وبينا كانت جيوش الإسلام تتقدم منصوره في غزوها للظفر العالم ، أصابها هذا الوباء ، دله الحرب الأهلية بضرية على أم رأسها - ماذا كانت قيمة حكم الله في العالم ، لدى عائشة ، ما حامت تستطيع أن تقضى على فاطمة المقتولة ، وماذا كان يعني الأمويون وأتباع على على السواء من وحدة البشرية ، وقد قام بينهم مثل ذلك الفكر العظيم الحار الذي يظهرون به ويقتلون والذي الخلافة خلفه وغنيته في النهاية (٦٨) ؟ لقد انقسم العالم الإسلامي شطرين ، قسمه الفضائل والبلع والسخط والخزيرة لحنه من رجال ونساء في المدينة . ولا يزال هذا الفلق قائماً إلى اليوم . فإن هناك حتى يومنا هذا نمسا رئيسا من المسلمين هم الشيعة من يدينون بتكره حتى على الروائي في الخلافة ، كاذبة رئيسية في عقيدتهم ، وهم متفكرون في فلس والمخت . ولكن شطراً آخر يعادل هؤلاء في الأهمية هم السنيون ، الذين لا يسع المرأب المهاد إلا أن يوافقهم على ثوابهم ، ينكرون هذه الإضافة العجيبة إلى عقيدة محمد البسيطة . ونحن - على قدر ما نستطيع أن نستطيع على يد الزمان بيننا وبينهم - نرى أن حلياً كان غرضاً عادياً جداً .

ومراقبة هذا الصلح يمتحن في بداية الإسلام المدينة الرائعة ، أشبه الأشياء بملاحظة حالة مريض يتطرق إلى عقله الضعيف . وإنا لنحيل القارئ إلى (٦٩) الأدب (٧٠)

هذا الصلح يخرج من جانب عائشة ونسب الله ضياء لم يكن سبياً إلا حصاراً على قدم المطرول ومطالبة بمقابلة الجرحى وإن كانت قد خلعت هذا الأمر وصحت عليها الأغراض المنهنية للمين حطروها على الخروج معهم . والواقع أن مرد الفتنة الكبرى كلها هو شجاعة حيان وتسلط بني أمية في أقاليم على شعوب المسلمين تسلطاً لمعط الناس (انظر الموسوعة القرية المهره) . (الترجمة)

(١) هي لم تعد المعركة وإنما كان هودجاً في وسطها لأن أمصار طمعة وقريور أبراً إلا الانطباع حول الخروج بأمر الصلح (الترجمة)

(٢) يبلغ من قوة إيجاب المؤلف ببداية الإسلام والفاقة الأولى وهي صعبة جداً ، أن يستطع هذا الصلح لبالع على الخلافات التي نشبت بين كبار القادة . ولكن المؤلف يظهر ويظهر وينسب الأهمية إلى غير أسبابها الحقيقية كاحتضانه الخلفاء في فترة عائشة من فاطمة . (الترجمة)

(٣) يفسد المؤلف بالأدب الكتب والمؤلفات التي ظهرت حول تلك الموضوع ، للأدب هنا مستغنة بمقتضى العلم القرائع . (الترجمة)

الكثير المعلن في هذا الموضوع إذا هو شاء أن يعلم كيف أن الحسن بن علي صحت
زوجته ، وكيف قتل نسوة الحسن . ولست أحتاج أن نذكر اسميهما في هذا المكان ،
لأنهما لا يروان يحملان قسماً كبيراً من البشرية بجمال فمهم بالعوالم الشعبية
والامتيازات المتبادل . وهما أعظم الشبهاء مكانة لدى الشيعة . وقد أحرقت الكعبة
البيت الحقيق بمكة بين خمر المصاعمت الناشئة بين عطف الأطراف ورواحها ، وطبعي
أن يحدثي لثأرها في إثر ذلك منازعات لا نهائية بين المسلمين : فهل يجب أن يعاد
بنائها في نفس حيثما القديمة بالاضبط أو على مقياس أكثر كبراً ؟

لقد رأينا مرة أخرى في هذا القسم وسابقه ، كيف أن الكفاح الحثيث لهذا البداع
الجديد ، الذي هو أحدث الفواعل وأكثرها ، والذي يدعو إلى الوحدة في الشئون
العالمية ، والذي يكالغ ما ركب في البشرية من نزعات عنصرية ، ورأينا كذلك كيف
أن دار النبي بما سادها من ثققل وتحيد كانت منذ البداية أبهى الأشياء بركة مخلة
بالأعباء في العقيدة الجديدة (١) . ولكن لما كان هذا التاريخ يتحدو بعد ذلك إلى الجرائم
الطاهرة والمؤامرات التي تحدث في أية أسرة مالكة شرقية ، لأن دأوس التاريخ سيلوك
قطعة جوهرية تالفة في إصلاحات محمد الحلي . فإنه كان عربياً أميناً ، غير ملم بالتاريخ ،
ولا بكل تجارب روما وبلاد الإفرنج السياسية ، ويكاد يكون غير ملم كذلك بتاريخ
بلاد اليهودية الحقيق (٢) ، فترك أتباعه من غير لحظة لحكومة مستقرة تنظم إرادة المؤمنين
العامة وتركها (٣) ، وخطفهم من غير صورة فعالة لتعصير عن الروح الديمقراطية الحقة
التي هي الطابع الغالب على تعاليم الإسلام الجوهرية (مع استعمالنا للكلمة بمعناها المصري)

(١) وما محل دار النبي يلهي يلهاد؟ مقدسية الدولة بعد انتقاله إلى القريش الأمل ؟ الحق أننا لا نجد
مبدأً لهذا الإصمام العربي . وكل ما في الأمر أن بني أمية التزوا لمرسة نصف سكان وقرائهم مع
فوطها مركزهم في الدولة . فكانوا قوماً تجاراً وديون ، ذوي لذة جاهلية ولم يجهوا للذمهم موجه
على من أبى طلب وهو رجل زاهد لم يؤت قدرتهم على الخلق والتدبير . (المترجم)

(٢) هذه الأمية وحكم الإنلام خبرات روما والإفرنج السياسية والتاريخ أدهى اليهودية الحقيق
هي البرهان الأول على صحة النبوة وقد أشار القرآن إلى ذلك في مواضع متعددة منها على سبيل المثال :
« وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك » إذا لا وقاب المطلوب (سورة التينكروت) .
« وكذلك أوحينا إليك ورساً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً
نبيد من لثام من عباده ولذلك تجد في صراط مستقيم » (سورة الشورى) . (المترجم)

(٣) لعل المؤلف يشير بهذه العبارة إلى أن النبي لم يستغلف أحداً من بعده ، ولأنه أن الشورى من
القطب الأساسية في حكم الإسلام بحس القرآن . وذلك ما تم في انتخاب الخلفاء الأربعة الأول . (المترجم)

وكان حكم حكماً فرعياً مطلقاً (١) ومن ثم ظل الإسلام حكومة فردية مطلقة . ولما لا يعد الإسلام من الناحية السياسية تقدماً بل تراجعاً (٢) عن الحريات التقليدية وقوانين الصحرى البرية . وكان نقض هذه الحجج (٣) الذي أدى إلى سرقة بلد أبيض وحمرة الإسلام الناشئ . والله هو المدبر الأعلل للإسلام نظرياً ، ولكن سيده للقتل كان . حل للروام أى رجل يبلغ من القوة ومن موت الضمير ما يجعله يسلب التخلية ويستملك بها ، وإذا أن رجلاً كهنا يصبح عرضة لشوب الثورات عليه والإقناعات على اقتياله ، فإن قانون الإسلام النهائي كان لزيادة ذلك الرجل .

وقد ارتفع شأو أسرة بني أمية زماناً بعد موت حل وظلت قرناً من الزمان تقرية على الإسلام حكماء وولاة .

ويبلغ من انشغال مؤرخي العرب بالمنازعات على العرش ويجرأ ذلك العصر أن

(١) إن كان الانصراف مما كانت عليه الجعلية من إباحية وتقلت وخروج من لغة الإستهانة ومثالة لروح كل قانون وعقل وعدم وجود حكومة موحدة ولا نظام موصول به ، بعد في نظر المؤلف ترجيحاً فليقم به من تراجع . (المترجم)

(٢) يشير المؤلف هنا إلى سرية عبد الله بن جش وبتدخلها مدوراً على الإسلام ، وتنتهي أن يسيى صلى الله عليه وسلم لم يرسل عبد الله بن جش وأصحابه لنزو أو شيء من أعمال القتال . وإنما أرسله للاستطلاع فقط ، وذلك ظاهراً ظاهراً من كتابه (ص) لعبد الله ، كما أن المؤلف أظفر غضب النبي من القوم عند حردتهم بلونه ، ما أسرتكم بقتال في القبر الحرام ، وولف العير والأميرين وأبى أن ياعنه من ذلك شيئاً ، وكذلك سقط في أيدي القوم وغنوا أنهم حكموا والمحدث صيف المسلمين لم حتى أقول الله تبارك وتعالى ، وما أولئك من القبر الحرام لئلا يله لئلا يله كبير وحد من سيول الله وكفر به والمسيح الحرام وإخراج أهل من أكبر من القتل ، (سورة البقرة) وفي هذا أبلغ رد على المؤلف الذي يحنه من هذه السرية وسيلة لأعداء المأخذ على الإسلام في نهايت سلباً ضد الكفار المسلمين من سيول الله ، ومن المسيح الحرام ، وإخراج المسلمين من رم أهلهم ولظهم المسلمين مع أن كل واحدة من هذه أفعال والكنى عن القتل واستعصما . هذا ، ولزيادة في الإيصال نقول إن سرية عبد الله بن جش لا علاقة لها بنزو . وهو التكرير لأن المسلمين لم يلقين خروجاً لاعتراض جبر قريش القادمة من الشام لتخرج جليل قريش لحماية جبرم . ولكن القير حين أظنت من المسلمين عز على كذا قريش وأهلها أن يرجعوا للمستقل بمفهم دم المظري (الذي كل في سرية عبد الله بن جش) وسيلة للصريح على من قال أنهم بالمعومة دون قتال ، وبذلك كانت قريش لقيادة لجهل الله لكتالا عليها ولصر المسلمين نصراً مهنياً . (المترجم)

تاريخ الإسلام ج ٢

مركزاً صالحاً للمعتمرات الإسلامية الماثلة في آسيا وإفريقية والبحر المتوسط ، وبهذا أصبحت دمشق العاصمة الطبيعية للمحافظة الأمويين .

ومن أعظم هؤلاء - يوم تبددت إلى حين سحب المؤتمرات على العرش - عبد الملك (٦٨٥ - ٧٠٥) والوليد الأول (٧٠٥ - ٧١٤) اللذان لوضع شلو الأسرة الأموية في مهديهما إلى ذروة المجد والمظلة . فانتقل الحد الغربي إلى جبال البرانس ، على حين كانت ممتلكات الخليفة في الشرق تطعم حدود الصين . وأخذ الخليفة سليمان بن الوليد (١) سلسلة ثالثة من هجرات المسلمين على القسطنطينية ، كان أبوه (٢) قد وضع خططها وأخذ العمل لها . وكان الهجوم بمرأ شأن ما حدث أيام الخليفة معاوية قبل ذلك بنصف قرن من الزمان - وذلك لأن آسيا الصغرى كما أشرنا من نونا لم تكن خربت بعد . وقد أخذت السفن بصقة رئيسية من مصر . وأبدى الإمبراطور ليو الإيسوري (٣) - وهو مستعب العرش - في التطلع بهرة وحشاً خارقين المعتاد . فخرج من تحتل أسوار المدينة غروجا مباغتاً رابما تمكن به من إحراق معظم سفن المسلمين ، وقطع خط الرجعة على الجيوش التي كانوا أزلوها على القلعة الأسيرة من البسفور ، وبعد حملة حامت ستين في أوروبا (٧١٦ - ٧١٧) دحر المسلمون . ثم جاء شتاء لا نظير له في القسوة فأكل مزيمهم .

ومن هذه الآونة فصاعداً يبدأ عهد السلالة الأموية في الأكرول . لقد تسعد عند خاتمة النافع الأول الماثل للإسلام . فلم يمتد هذا ذلك أى توسع فضلاً عن ظهور التسلل بين في الهامة الثانية . وكان الإسلام قد ضم إليه الملايين ، ولكن مضى هؤلاء

(١) سليمان بن عبد الملك وهو أخو الوليد وليس ابنه . (المترجم)

(٢) فاعلم أن المقصود بآية هذا الوليد بن عبد الملك وهو أخو كما نرفنا قبله . (المترجم)

(٣) الفار كتاب : الحصار البيزنطية ، تأليف والسياسة (ص ٢٩ - ١٥) وقد عرجه المترجم

لإدارة القروحة والألف كتاب [مكتبة النهضة المصرية] .

والإمبراطور لاورون (ليو الإيسوري) (٦٨٥ - ٧٤٥) جنى انتصاف العرش في ٧١٢ ،

ونجح في التطلع من القسطنطينية على العرب . (المترجم)

للملأين كان مضياً ناقصاً وسيئاً ، فإن إمبراطورية خلفاء محمد الخاتمة الجديدة هذه
 اجتلت المدن والشعوب والطوائف والأجناس بأكملها والوثنيين الصروب والهنود
 والمسيحيين والماتوية والروادشيين والوثنيين الطورانيين . وحتى ذلك الحين ، كان
 من الخصائص المشتركة بين جميع عظماء أصحاب الرسالات الدينية ، الداعين إلى توحيد
 العالم ، الوقوع في خطأ شائع ، هو قيوهم المثل العليا الأخلاقية والدينية التي مال للناس
 إليها قبل زمانهم كما لو كانت ملاحيا عومية . فكانت دعوة محمد ملاحيا متوجهة إلى
 القروسية التقليدية ، وإلى ما وفر في نفوس أذكباء العرب في زمانه من إحصاسات
 بالوحدة الربانية . وكانت هذه الأمور كامة في طوية مكة والمدينة وضميرهما .
 فكان كل ما خطه أن أمرجها من مستقرها (١)

فلما انتشرت الصالح الجديدة وتكيفت في قلوبها الخاص ، اضطرت أن تعمل حل
 لئسى تظت على الدوام أبداً ما تكون من الهباسة لطبيعتها ، والزمّت أن تنمو في رؤية
 أمرجها عن صورتها السوية وحوادثها عن طريقها القويم . وكان مرجعها الوحيد هو
 القرآن . وهذا الكتاب كان يبدو للقول التي لم تنلوق لغات اللغة العربية ، أعني كما يبدو
 لكثير من القول الأوربية الهرم حليطاً من البلاغة الرائعة المعنى المستأزة الروح التي
 يمازجها - ولتحلها صراحة - حقيقة خاصة لا كيف لها (٢) . وقد عاب مغزاه الحق

(١) لا سمح هذا لزمي لكان لزلماً أن يسير دعوة محمد صلى الله عليه وسلم في سر وبهولة ،
 مع أن الواقع أنها لبثت في مكة بعدها ، مداعة قوية وعناداً مرة أجمت وأبقت قديماً من المكين
 المسلمين ومعهم الذين صلى الله عليه وسلم ، ولبت للسكون بغيرهون كلوس الضارب أولاً ولم يصل
 من ذلك أحد منهم ، كما تعالاه المكين على مقاومة الحاشيين وسمانهم اقتصاداً واجتماعياً وسلباً من
 كل ما هو مفرد لغيرهم ، لقاء فسرهم حة عليه الصلاة والسلام وعلم لصلبه لم ليتشوه ويستمر
 ما كاله لأمناسهم من سب وتلقبه أسلهم ولكه من حقولهم وسدازكم ، بل أنهم عقدوا القناصر
 بعد أن أجمعهم فيه الهيلة ، حل قتله وتفريق دمه في القنائل لمناات لبق عالم ولجبازاً ثم من لبلط
 السيف الفار . ومنهله جابر النبي صلى الله عليه وسلم من مكة إلى يثرب وتفتت بذلك الأقالق لدعوة
 الحرة وجعل الدين يتنثر بالطرق الطبيعية التي كان أمها وأنجبها الإنتاج بالحيلة فلهذا وحلقت
 السليم المعجز . (الترجمة)

(٢) هذا رأي لا يستغربه حل رجل الندم للماء بالغة الشرعية أسلاً ، لتعوك بتلوق أمها وبانفتها
 تلك المظاهرات التي احتلها الوليد بن الزبير أسد أنبال مكة لمن النبي صلى الله عليه وسلم ، والقرنوك -

عن عدد لا يحصى من المسلمين بالهدوء غيابة تاماً . ذلك حدثنا هو مرد* ما أظهرته
المتاحر القارصة والندبة من المسلمين من استعداد للانقياد إلى صفوف الشيعة بسببه
تسعة خلاف كانوا من الأقل يستطيعون إخراجها والإحساس بها . وإلى نفس المحاولة
التوفيق بين ذلك الشيء - الجديد وبين التراث القديم . يرسخ ذلك الظرف الفقهي الذي
صرحنا ما نهض يسهل : أكان القرآن - ولم يبرح منك الأزل - قديماً قديماً
الله ؟ وإنا نحاذرنا النجاسة حيال خروج هذه الفكرة عن كل معنوك إذا نحن
لم نلتزم فيها على الفور محاولة حصة القصد لمسيح من رجال العلم أسلم ، وأراد أن
يسبغ صبغة إسلامية على اعتقاده القديم بأنه : وفي البدء كان الكلمة ، والكلمة عند
الله وكان الكلمة الله (١) .

ولم يحدث قبل ذلك أن واصلنا من عظماء أصحاب الرسالات الدينية الداعين إلى
وحدة العالم قد أظهر يوماً أدق فهم للواجب الطبيعي العظيم ، واجب الشرح الواضح
المتبع فضلاً عن التنظيم الفكري الذي تنطوي عليه مقدماتها وقضاياها الأولية : بل
ترامهم جميعاً يكررون نفس القصة ، قصة الانتشار السريع الذي نشبه بخليل من الله
صب فوق مسطح عظيم ، مصعورة بكل ما يقرب ذلك من سطحية وفساد ،

ولا يفتنى طويل زمن حتى نسبح الأكاسيح عن خليفة أموى هو الوليد الثاني
(٧٤٣ - ٧٤٤) ، الذي حرأ بالقرآن وأكل الخنزير وشرب الخمر ولم يكتم الصلاة .
ووبعاً كانت هذه القصص صحيحة أو وبعا كانت نشاط لأصحاب مهامية . ومهما تكن
أحوال فقد نشأت في مكة والمدينة حركة تطهيرية رجعية تقوم استخفاف دمشق وترفها .
وثمة حملة حرية أخرى عظيمة هي حالة العباس (العباسيين) ظلت تدبر الخطط زمناً
طويلاً للاستيلاء على حويلان الحكم ، فأنشأت تستغل التمر العام والزجاج بين يدي أمية

* أن يطرق ما في القرآن من لسان ولسان الله . إذ يصنف ما مع من عهد عليه الصلاة والسلام
من القرآن ٥٥٠ والله إن القول الذي يقول خلافة وإن عليه خلافة وأنه خير أمه ، وخلق أسفه ،
والله ليعلم ولا يسل ، والله ليعلم ما معه . البداية والنهاية ج ٢ ص ٦١ . (الزبيدي) .

(١) مير ماركس .

(٢) الجليل يوحنا ، الأصمعي الأول ، آية ١ .

ربيعي للعباس أقدم من الإسلام . وكان متصل الحلفات قبل ميلاد محمد . وحمل هؤلاء العباسيون لواءه ، شهداءه الشئمة : عليّ وأبيه الحسن والحسين ، وألماوا بالدليل على أنهم والشئمة سواء^(١) . وكان علم بني أمية أبيض ، فانخذ العباسيون علما أسود حذافاً على الحسن والحسين ، وأسود لأن اللواء لقد تأثراً في النفوس من أي لون آخر . وفضلاً عن ذلك أعلن العباسيون أن كل خليفة بعد عليّ مقتصب . وفي ٧٤٩ قاتلوا بمرور بحكمة التيسير ، وطاوردوا آخر خليفة أموي وقتلوه بمصر . وكان أبو العباس السفاح أول الخلفاء العباسيين ، فبدأ حكمه بأن جمع في صحن واحد كل ذكر حي من سلافة أمية استطاع أن يضع يده عليه ، وأمر بهم جميعاً فنجوا . وقد جعلت أجسامهم فيها يقال ، ومد من فوقها بساط من آدم (جلد) وعلى هذه المنضدة القطيعة الكنية ، جلس أبو العباس وسنثاروه يطعمون^(٢) . زد على ذلك أن قبور خلفاء بني أمية نبتت وأحرقت عظامهم وفريت بين مهب الرياح الأربعة . وهكذا انتقموا آخر الأمر لما حل بهم من مظالم ، وزالت أسرة أمية من التاريخ .

ومن الأمور الشائعة الجديرة بالملاحظة ، أن ثورة مناصرة للأمويين قامت بخراسان وكان إمبراطور الصين يشد أزرها .

٧ - انحلال قوة الإسلام في ظل العباسيين

على أن ذرية علي لم يقدروا أن تسهم في هذا النصر طويلاً . فإن العباسيين كانوا مضامين وحكاماً من طراز أقدم من الإسلام . فلما قصروا من قصة علي وطهرهم المنقوش ، كان ثاني إجراء قام به الخليفة الجديد أن يصعد الأسياء من حجرة علي وطلاطمة ويلجهم .

(١) ليست الشئمة كلها وأبيه الحسن والحسين ، وإنما هي سرقة بلصر أمها قبل وأبيه وأبائهم على أهم أسماهم الحق الأول في الخلافة أو أهم كانوا يناصرون مبدأ الخلافة وهذا هو المبدأ الذي أكدته العباسيون أنه يرجع حقهم في الخلافة على حق الأمويين لأنهم أباءهم القبيح . وهذا بالذات دفع الخلاف بينه وبين أن يدركه على أساس المصدق الذي ظهر في الإسلام بسببه شجرة الخلافة هيان ، وهو كلفه القديم في الخلافة بين المخضوم والأمويين . (المترجم)

(٢) ليس هذا على أبي العباس وإنما هو على عبد الله وثلاثة جبهته وواله على القائم . (المترجم)

روايع أن التقاليد القديمة في فارس الساسانية وفي فارس قبل الإغريق كانت في طريق عودتها إلى العالم . وبارتقاء البساسين مرض الخلافة أظنت السيادة البحرية من قبضة الخليفة وذهبت معها شال إفريقيا وأسبانيا التي نشأت فيها دول إسلامية مستقلة ، وكانت أسبانيا من نصيب رجل من بني أمية أظلت من الموت .

وانقل محور الأهمية في الإسلام عبر الصحراء من دمشق إلى تونس الجزيرة . وشيد المنصور الذي تولى الخلافة بعد أبي العباس عاصمة جديدة لنفسه في بغداد بالقرب من خرائب الملائك (طيشقون) (Tishphon) العاصمة الساسانية القديمة . وأصبح الأتراك والفرس أمراء مع العرب سواء بسواء ، وأعيد تنظيم الجيش على النظم الساسانية . ولم يعد للمدينة ومكة آنظم من أهمية قط إلا كركرتين للفتح بولي المؤمنين وجوههم شطرهما في الصلاة^(١) . على أن الحرية استمرت في انتشارها وحلت محل اللغة الرومية وأصبحت لغة للتعليم في كل أرجاء العالم الإسلامي لأنها كانت لغة ممتازة ولأنها كانت لغة القرآن .

ولن ندلي إليك إلا الأنزو اليسير عن ملوك البساسين بعد أبي العباس . وكانت تنشب سنة بعد سنة في آسيا الصغرى حرب ماثولات مرعبة وسجراجة ، لم تنزع فيها بيزنطة ولا بغداد بأي كسب دائم ، وإن وصل المسلمون في غزوم مرة أو مرتين إلى البسور . وظهر نبي كذاب هو المنتقم ، ادعى الألوهية واستمر حلفه قصيرة الأمد ، ولكنه أتبى السولة وشغلها . وحدثت مؤامرات وشبهت ثورات تركت اليوم في أسفل التاريخ هزيمة يابسة كما تركت الزهرات الميتة بين دفتي سفر قديم . وثمة خليقة عباسي آخر لا منلوحة لنا من ذكر اسمه ، وفلك لما يفور حوله من الأساطير وماله من أهمية حقيقية سواء بسواء ، ذلك هو هرون الرشيد (٧٨٦ - ٨٠٩) . لم يكن له حسب خليفة لإمبراطورية ظاهرها الرخاء في عالم الحقيقة ، بل كان كذلك خليفة لإمبراطورية

(١) سج المسلمين هو البيت الحرام ، والجمع منك مثل حرفة والصفاء والمروة وغيرها وكلها جهود مكة ، كما أن قبلة المسلمين للصلاة هي المسجد الحرام بمكة ، والعبادة حربتها الخاصة في نظر المسلمين ، ليس في تقويم حفظ مهابر رسول الله صلى الله عليه وسلم وثقوله الأخير بعد الوفاة ، ومن ثم كانت ليهادتهم لها قبل الحج أو بعده وبهجة القزود عن قرب زيارة قبر حبيب الرسالة عليه الصلاة والسلام . (المرجع)

خاتمة لا تغرب لها شمس في عالم القصة المرمى ، لهر هرون الرشيد في ألف ليلة وليلة ٥

ويدهج السبر مارك سابكس في وصف إمبراطوريته الوالية بيالا تقتبس منه فقرات معينة (١) ، كتب يقول : « كان البلاط الإمبراطوري مهذب مترفا غنيا غنى لا حد له ، وكانت العاصمة بغداد : مدينة تجارية ماثلة تحيط بقلعة ضخمة هي مقر الحكم والأداة ، كان فيها لكل مصلحة من مصالح الدولة ديوان عام متكلم على قواعد صحيحة ومرتب ترتيبا تاما ، وفيها كثرت المدارس والكتبات ، ولها تقاطر الفلاسفة والطلاب والطهارة والشعراء والفقهاء من كل أنحاء العالم المسلم : . وكانت النواصم الإقليمية مزدانة بالبنائى المعمورة الضخمة ، وتصل فيها بينها بخدمة مريعة فعالة من برىد وقوافل ، وكانت الشغوم متبعة وفيها الخاضعات الكافية ، وكان الجيش عظاما الضخيمة وفيها ذخائر وشجاعة ، وكان الحكام والوزراء شرفاء رعاة . وكانت الإمبراطورية تمتد بقوة معادلة وهيمنة سليمة من بوابة قيليقية (٢) إلى عدن ، ومن مصر إلى آسيا الوسطى . وكان المسيحيون والوثنيون واليهود والمسلمون حل للمساواة يعملون في خدمة الحكومة . وكانوا اختفى المنتصبون للعروش والقواد الخمدون والأعيان الكذبة من الديار الإسلامية انخفاء تاما . وحلت حركة التبادل والثراء على الثورة والبطامة . . . وكانت الأدوية والأمراض تواجه بالمستشفيات الإمبراطورية وأطبائ الحكومة . . . فلما في أعمال الحكومة ، فإن طرائق الادوية المصرية القهوجية الانجليزية أنحلت مكانها لنظام معقد من القوافل نقل عن الروم منه جزء ، ولكنه أخذ في الغالب من النظام الحكومي الفارسي . فكان البريد والمال وديوان الخاتم وأراض التاج ومراتب العدالة والشئون العسكرية تدور كل منها عن دولتين منفصلة على أيدي وزراء وموظفين ، وكان جيش من الكتبة والناسخين والمنسقين والمحاسبين المختصين في هذه الادوات يصمون كل قوة للحكومة في أيديهم هم وريداً وريفاً ، وذلك بإسعادهم أمير المؤمنين عن أي اتصال مباشر برعاياه . كلالة القصر الإمبراطوري ومن به من حاشية ، مؤسسين بالمثل

(١) كتاب آخر تراث الخلفاء The Caliph's Last Heritage

(٢) بوابة من قبة بنية (بوليك بوليا) مر عهد يتقرب سلسلة جبال طوروس آسيا الصغرى ، والطريق القارص من تحت من الغرب ، في منحدر طويل وهو يبدأ من القبة الوسطى ، إلى وادي أخه (أدلا) وطرموس . والناج للشرق عند البوابة تسمى ٣٠ قلعا . (الترجم)

على سواقي وتقاليد رومانية وفارسية . وكان الخصبان ودور الحرم المترواح والمقروض عليها الحجاب الشديد والحراس والجواسيس والوسطاء والمصحكون والشعراء والأقزام يتزاحون حول شخص أمير المؤمنين ، كل في مكانته يحاول أن يظلي بالطفل الملكي ويشغل لظل الملكي بطريقة غير مباشرة عن شئون العمل والدولة . وفي نفس الوقت كانت تجارة الشرق تصب الذهب في بغداد صبا ، وتضيف إلى سبل القود الخائل المأخوذ من فير الأسلاب والفتنم المرسل إلى العاصمة من لندن قواد القنات للغيرة المظفرة ، التي كانت تسلب آسيا الصغرى والهند والتركستان . وغمة معين آخر قرأه كان يبدو كالبض الذي لا نهاية له ، وهو المالك والأترك والنفوذ المدنية البيزنطية ، وكان يزيد دخل العراق ثراء ، كما كان - بالإضافة إلى حركة التبادل التجاري الضخمة التي كانت بغداد مركزاً لها ، يخلق طبقة كبيرة قوية من قوى اليسار . تتألف من أبناء القواد والموظفين وأرباب الأملاك واحتفاء الملك وتجار ومن إليهم ، ممن شجعوا الفنون والأدب والفلسفة وفتنوا بالفتن الذي فصلهم عليه أمزجهم ، يابن القصور لأنفسهم ، متنافسين فيما بينهم في بلخ رفيع ، عرشين الشعراء على ملهم والإشادة بذكرهم بطلين بالفلسفة ، معضلين مدارس للتفكر متنوعة ، بافخين الصناعات والكتين في الحقيقة نفس الطريق الذي يسلكه الأثرياء في كل العصور .

ولقد قلت إن الإمبراطورية الساسية في أيام هرون الرشيد كانت ضعيفة واهنة إلى درجة ما ولعل القارئ يجد هذا فكرة حقاه عندما يضع في اعتباره أني وسفت الإمبراطورية بالنظام ، والإدارة بالذقة والاستقرار ، والجيش بالانتشار ، والثروة بالوفرة . ويرجع ذهابي لهذا الرأي إلى أن الإمبراطورية الساسية لم تحتل حلتها بكل شيء . أصيل وحيوي في الاسلام ، وأنها أقيمت بكلتها على تجميع أشلاء الامبراطوريات التي حطمتها الاسلام من قبل . ولم يكن في الامبراطورية شيء يستحق في قادة الشعب أسمى للفرار ، إذ أن الجهاد أو الحرب للقمة قد انحط وتحول إلى استيلاء منظم على القنات . وبات الخليفة إمبراطوراً أو ملكاً للملك مترفاً فاعراً . على حين انضمت الانارة من النظام « الأيو » إلى نظام مركزي بيروقراطي . وانضمت الطبقات الكبيرة التي تنفذ كل إرمان بديانة الدولة . بينا أعيد التأمل والنظر الفلسفي والعميقة الراقية ، يعلن على العقيدة الترانسية الفلسفية والسياسة البرية . وقد أهمل كل من الخليفة :

ومستشاريه إجمالاً تاماً صرامة الاسلام وسياسته ، وهما الرابطة الوحيدة التي كان في وسعها أن تربط بين أجزاء الامبراطورية . . وكان هرون الرشيد نفسه من معاقري النيل^(١) وكان قصره مزينا بصور وتماثيل للطيور^(٢) والحيوان والانسان .

وأنا لتوقف عنية زاهلي أمام عظمة الممتلكات العباسية ؛ ثم لا نلبث أن نذكر فجاعة أنها لا تزيد عن غلالة برقة تستر رغبات للذنيات الفائرة ورمادها .

مات هرون الرشيد سنة ٨٠٩ . وما أن مات حتى هوت إمبراطوريته للفضيحة في حمة الحرب الأهلية والاضطرابات . والحادثة الكبرى التالية ذات الأهمية البارزة في هذا الجزء من العالم ، تأتي بعد ذلك بحق سنة عندما انتقل الترك من التركستان جنوبا بقيادة رؤساء آل سلجوق العقظام ، ولم يقهروا فحسب إمبراطورية بغداد ، بل أسيا للصخرى كذلك . ونظراً لانصرافهم من الشمال الشرقي ، فأنهم استطاعوا أن يتجنبوا الحاجز العظيم وهو جبال طوروس ، التي ظلت حتى ذلك الحين تصد المسلمين . وكانوا ما يزالون الكثير من شأنهم نفس أولئك الذين أعطائنا منهم يوآن تشوانج شحة مرمية قبل ذلك بأربعة سنة ، ولكنهم كانوا الآن قد أسلموا ، وكانوا مسلمين من الطراز البدائي ، أي رجالات من كان أبو بكر رحب باعنائهم الاسلام . فأخذوا في قوة الاسلام انتماعاً عظيماً ، وأدلووا أذهان العالم الاسلامي من جديد صوب الجهاد « الحرب الدينية » ضد للمسيحية . ذلك أنه حدث ضرب من المصادفة بين هاتين اللذيتين العظيمتين بعد انقطاع القضاء الاسلامي واصمحلال شأن الأمويين . أما تلك الحروب التي قامت بين المسيحية والاسلام فكانت بالأغرى متوشحات في منطقة الخصوم أكثر منها حرياً متصلة الحفقات . ولم تصبح كفافاً مبرراً تعصبياً من جديد إلا في القرن الحادي عشر .

(١) ذكروا أن هرون الرشيد كان يحضر مجالس القرباب وأنه كان يتربى ولكنهم احتفلوا في نوع شرابه من حيث الاختيار والكمية على المنال ليعطوه التبهة فيو الحرم عند أن سنية والظلم أن هرون الرشيد كان يهوداً وكان القرباب ضرورياً له ليعبر الحطم وبعد لا يكون مطراً للتبهة الحرم .

(المترجم)

(٢) انظر « حضارة الإسلام » لجورجياوم وترجمة للفرغم ، (١) الألف كتاب ومكتبة مصر بالقاهرة (ص ٤٤ - ٤٥) ي التباس من القبطي في وصف لشجرة التبهة وطورها الحديثة المربعة وأدوة تسر الخلطة ولغاته . (المترجم) .

٨ - الثقافة العربية

هل أتقبل أن تنقل فتحتك من الأراك والصليبين ، وعن الحروب المنظمة التي ابتدأت بين المسيحية والإسلام ، والتي خلقت من ورائها حالة جنونية شديدة من عدم التسامح بين هذين النظامين العظيمين دامت حتى العصر الحاضر ، نرى من الضروري أن توجه مزيداً من عنايتنا العملية الفكرية في العلم الناطق بالعربية الذي كان اتخذاً عند ذلك في الانتشار انتشاراً يرداد سمة أكثر فأكثر فوق الأقاليم التي تطلعت عليها الثقافة للمليّة يوماً ما . قصد كان اللحن العربي ، قبل محمد ﷺ يفضة أجيال مقدماً بنار تسرى تحت الرماد ، فكان يفتح الشعر والقصيدة الكبر من الجبل القيني . وما لبث ذلك العقل - يتأثر ما أحرز من النجاح القوى والنصرى - حتى تأجج في نائي لا يفوقه إلا ما كان للاخريين في أزهي عصورهم . فلجأ من جديد بحث الانسان وراء العلم . فلئن كان الاخريين أياً للطريقة العلمية ، فلقد كان العربي أباً ووحياً لها وشريكاً له في أبوتها . فمن العرب ، وليس من طريقين فلايين ، تلقى العالم المصري تلك المنحة من النور والقوة .

هل أنا حتماً نكتب كلمة العرب علمنا ، يجب أن نكتبها في قدر معين من الحفظ ، لأن ثقافة الإسلام العربية تتصل بالعربي القبح بصلة تشابه إلى حد ما صلة الثقافة للمليسيّة^(١) بعد أيام الإسكندر بالإخريين الأولين الأصلي . إذ لم تعد تلك الثقافة تقي من الناحية النصرية . بل خست بين دفتها مجموعة من الثقافات السابقة عليها ، هي ثقافة فارسي في عهد الأسرة الأرشكية^(٢) والثقافة القبطية لمصر المملوكة . إذ لم تلبث فارس ومصر أن تعلمتا الحليث بالعربية في سرعة عظيمة على أنهما لهما في جوهرهما فارسي ومصري .

(١) يفرق المؤرخون بين الثقافة المملوكة وهي الإمبريالية بصفة عامة شاملة والثقافة المملوكة هي المملوكة بعد مصر للإسكندر انظر لترسم كتاب « الحضارة المملوكة » (تارن) مكتبة الأجلو والألف كتاب . (المترجم)

(٢) الأرشكيون Aracidae : هم أسرة حكمت إحدى دول الطوائف بعد الإسكندر الأكبر أو هي الأسرة التالية على أمر دول الطوائف فتمها ومنها أودوان الأمبر التي تالعه السلطنة أوديوين بن بابل وقطه وتلقب بشارشله ، وأرميخو هذا هو مؤسس حكومة الساسانية في فارس . (المترجم)

وكانت صرح العرب الأولى قد أبلعت لثقافة العربية صلة وثيقة بالتقاليد الأدبية
الأغريقية . سقا إن ذلك لم يحدث في الاغريقية الأصلية ولكن من طريق الترجمات
السريانية المنقولة من الكتاب الاغريق . ويلوح أن المسيحيين القساوسة ، وهم للمسيحيون
المقيمون إلى الشرق من الأرلودكية ، كانوا أكثر ذكاء وألطف ذهنًا من علماء
اللاهوت في بزنطة ، كما كانوا من حيث مستوى التعليم العام أهل كثيرًا من مسيحيي
العرب الناطقين باللاتينية . وحظوا بالتسامح في الأهم الأخيرة للدولة الساسانية ،
كل ذلك تسامح معهم الاسلام حتى يوم ارتفاع شأن الترك في القرن الحادى عشر .
كانوا للمعتمد القسرى لثقافة العلم الفارسى . وكانوا يحفظوا بكثير من علم الطب
للبيزنطى ، بل لعلم أناسوا إليه أشباه . حتى عصر بنى أمية كانت غالبية الأطباء في
دولة الخلافة من الفساطرة ، ولا مراء أن الكثيرين من علماء الفساطرة اعتنقوا الاسلام
دون أن يلم بهم أى لدم خطير أو أى تغير عظيم في مبادئهم أو أفكارهم . ومن فضلهم
على العلم احتفاظهم بالكثير من مؤلفات أرسطو في كل من الاغريقية والترجمات
السريانية . وكانت لديهم مؤلفات كثيرة في الرياضيات . ولا شك أن عتدم من العلم
يصل ما لدى كل من القديس بديكت أو كلسيودوراس من موارد معاصرة ، يبدو في
حالة إغواز تصنع الرثاء . وإلى هؤلاء المعلمين النسطوريين وفد من الصحراء الغل
العربي الغفل متوقفا مستظلا ، فاستوحب كثيرا ورفع قبة ما تعلم بزادته قدرا ونسبته
لوعا . تعلم كثيرا واستوحب كثيرا . ومن قبل ذلك كانت فارس قروا عدة مبدانا
لنشاط لاهوتى وفكرى حقيقى . فاستند لهذا النشاط بدلل الأساليب العربية
وأصبح سبيلًا للزدة والانتقام في النهضة الاسلامية . وكان الانقسام التيمى لارسيا
في جوهره .

على أن القرو ومعهم العلم الغلى لم يكونوا المعلمين للوحدين الذين أتبعوا العرب .
فقد كان نفوذ قريبات اليهود متعين في كل مدن الشرق الفنية ومعهم أبهم وتعاليمهم الخاصة
المبزة لهم . وأثر العقل العروى وللعقل اليهودى كل منهما في صاحبه تأثيرا حاد بالمنفعة
المشتركة عليهما جميعا : فاستعاد العرب من ذلك علما وأفاد اليهودى من ذلك مزيدا من
فلسفة الفكرى . ولم يحدث قط أن كان اليهود مصححين في أمر لنتهم . فلقد ذكرنا من قبل
أنهم كانوا قبل ظهور العرب بألف سنة ، يتكلمون الاغريقية في الاسكتلورية المهلثة

والمعالم الآن في كتالة أنحاء هذا العالم الإسلامي الجسدي بتكلمون العربية ويكتبونها .
فكثبت في العربية طائفة من أعظم الآداب : (المؤلفات) اليهودية ، منها على سبيل
المثال ، كتابات ابن ميجون (Maimonides) الدينية^(١) . والواقع أن من قصير أن
تقول ، في حالة هذه الثقافة العربية ، متى ينهي المؤثر اليهودي ويبدأ العربي ،
إن عواملها اليهودية بلغت من الجوهرية والأهمية حداً كبيراً .

وفضلاً عن ذلك ، ثم مصدر ثالث للإلهام ، هو بلاد الهند - وقد تجل على
الأخص في علم الرياضيات ، وبسرطين في الوقت الحاضر أن قلده حتى قلده .
وليس هناك إلا القليل من الشك في أن الذهن العربي إبان فترة روعته كان على اتصال
ولبق فعال بالأدب السنسكريتي ويعلم المؤرخون الهندى القدر من Indo-perian .

وقد نجحت نواحي النشاط اللغوية التي يمتاز بها العقل العربي منذ أيام بني أمية
وإن لم تظهر بأحسن مظاهرها إلا في عهد العباسيين . والتاريخ هو بداية ولباب كل
لغة سليمة وكل أقب عظيم ، وكان أول من برز من الكتاب العرب المستأثرين هم
المؤرخون وكتاب التراجم والشعراء شبه المؤرخين . وتبع ذلك ظهور رواية الخاتمة
الطائفية (الرومانس) والقصة القصيرة عندما نشأ جمهور من القراء يريد أن يتسلى .
حتى إذا كثفت القراءة عن أن تكون امتيازاً خاصاً ، وأصبحت ضرورية لكل رجال
الأعمال ولكل شاب مهلب ، نشأ التطور المنظم لنظام تعليمي وأدبي تعليمي . وعند
حلول القرنين التاسع والعاشر لم يكن لدى المسلمين مؤلفات في قواعد اللغة
(أجيرومات) فحسب بل معلم عظيمة وكتلة ضخمة من المؤلفات في لغة اللغة .
وقد سبق العالم الإسلامي الغرب بقرن أو ما يقاربه ، إذ تحت به مجموعة من الجامعات
الطبية في عدد من المراكز في البصرة والكوفة وبغداد والقاهرة وفي قرطبة ،
تطورت مما كان في مبدأ الأمر مدروس دينية تعتمد على المساجد . لأضاض نور هاته
الجامعات خارج العالم الإسلامي إلى مسافات بعيدة ، واجتلب إليها الطلاب من الشرق
والغرب . وكانت قرطبة بصفة خاصة تحوي أمداداً كبيرة من الطلاب المسيحيين ،
وكان تأثير الفلسفة العربية الواضحة من طريق ألبانيا على جامعات باريس وأكسفورد

(١) حر أبو عمران موسى بن ميمون (١١٢٥ - ١٢٠٤) فيفسوف وطبيب يهودي ومعتمد
تورتيين . ولا يهمل ، والتج الفلسفة الدينية لها رزها راجع طيبها لصالح الدين والآلاء بمر ، وله
مؤلفات منها : مشة القوراة ، و : دليل المقلدين (المدرس)

وعمال إيطاليا وعلى الفكر الأوروبي الغربي عامة ، - جسبا جنداً ولا جرم . ويبرز اسم ابن رشد القرطبي (١١٢٦ - ١١٩٨) مثلاً لأقصى ما بلغه تأثير الفلسفة القرية من سلطان على الفكر الأوروبي . وهو الذى طوّر تعاليم أرسطو على أسس فصلت الصلوق الدينى عن الصلوق العلمى فصلاً تاماً ، وبهذا مهد الطريق لتحرير البحث العلمى من المذهب الاعتقادى (Dogmatism) الملاحق الذى كان يقيده فى ظلال كل من المسيحية والإسلام . وهناك اسم عظيم آخر هو ابن سينا لقبر الأعلية (٩٨٠ - ١٠٣٧) الذى ولد فى الطرف الآخر من العلم العربى يخشى ، وتضل فى خراسان^(١) وازدهرت صناعة نسخ الكتب فى الإسكندرية ودمشق والقاهرة ومغداد ، وقرابة سنة ٩٧٠ كانت هناك سبع وعشرون مدرسة مجانية فى قرطبة لتعليم الفقهاء .

ويقول ناتشر وشوبل^(٢) : « شاد العرب ما شادوه فى الرياضيات على الأسس التى ألقاها الرياضيون الإغريق . وأصل ما يسمى بالأعداد القرية ينشأه الإلهام . وقد حدث فى عهد ثيودوريك الأعظم أن استعمل بروبوس (Boethius) علامات معينة ، كانت من ناحية جبرية شبيهة جداً بالأرقام العشرة التى نستعملها الآن . » وكذلك استعمل أحد تلاميذ بربرت علامات كانت أشد شها بأرقامنا ، على أنه يقال إن الصفر ظل مجهولاً حتى القرون الثمانى عشر ، عندما اخترعه رياضى عربى اسمه محمد بن موسى^(٣) ، الذى كان كذلك أول من استعمل العلامات العشرية ، وأعطى الأرقام القيمة الوضعية فى خاناتها . على أن هذا يتنازع فيه الكثيرون من المنوذين الذين يلحون لأقسامهم الصفر والطريقة العشرية بوصف كونهما مساهمة فعالة وفضلاً للهند على الثقافة .

« ولم يصف العرب إلى ما ابتكره إقليدس فى الهندسة إلا قشراً القليل ، ولكن الجبر يكاد يكون من خلقهم ، وكذلك أخذوا بحسابات على حساب المثلثات القسرية عتبر حين جيب الزاوية (Sine) وظل الزاوية (tangent) وظل تمام الزاوية (cosecant) ، واخترعوا فى علم القوزجى ، الهندول وكتبوا فى علم البصريات (optics) بعض الكتب .

(١) خراسان : هى منطقة شمال شرق إيران للداخلية لبلاد التركستان . (المترجم)

(٢) فى كتابها : « A General History of Europe »

(٣) هو عبد الله محمد بن موسى الخوارزمى (ت. ٨٥٠) وياضى والمكى وجغرافى ، عربى حاكم المندول (المترجم)

وتقدموا بعلم الفلك . فبنوا مراصد عديدة وركبوا كثيراً من الآلات الفلكية لازالة
تستعمل حتى اليوم . وحسبوا زاوية سمت الشمس (Ecliptic) والموضع النقيض
لنقطتي الاعتدالين . وكانت معرفتهم بالفلك جيدة ولا مراء .

وتقدموا في الطب أشواطاً بعيدة على الإغريق . ودرسوا علم وظائف
الأعضاء (الفسيولوجيا) وعلم تدبير الصحة ، ويكاد علم الأترياديين (١) (المادة الطبية
materia medica) لديهم أن يكون هو نفس ما لدينا اليوم . ولا يبرح كثير من
طرق العلاج متعلم مستعملاً بين ظهرانينا إلى اليوم . وكان جراحوهم يفهمون
استعمال التخدير ، ويقومون بطاقتهم من أصعب العمليات المعروفة . وفي نفس
الوقت الذي كانت فيه المكتبة محرم ممارسة الطب انتظروا منها لإعلاء الشفاء على
يد المتعلم الطبية التي يقوم بها القسوسة ، كان لدى العرب علم طبي حق .

وابتدأوا في الكيمياء بداية حسنة . واكتشفوا كثيراً من المواد الجديدة ، من
أمثال البوتاس ونترات الفضة والسلياني وحضرت التريكل والكبريتيك . وكلمة
« الكحول » عربية ، وإن كانت المادة معروفة باسم « أرواح الخمر » عند هلني
(١٠٠م) فأما في الصناعة فإنهم يزوا العالم في نوع الصنف وجمال التصنيع وإتقان الصنعة .
كانوا يشتغلون في جميع أنواع المعادن : الذهب منها والفضة والنحاس والبرنز
والحديد والصلب . ولم يفهم أحد أبداً لدهر في صناعة المنوجات . وصنعوا
زجاجاً وخزفاً من أرق الأنواع وأشدها امتيازاً . وعرفوا أسرار الصباغة ، وصنعوا
الورق . وكانت لديهم طرائق عديدة لتهيئة البلود ، وكانت مصنوعاتهم الخيلية
شهيرة في كلالة أرجاء أوروبا . وأنتجوا الأصباغ والظهور والأشربة . وصنعوا
المسكر من القصب ، وأوجدوا صناعات كثيرة ممتازة من النخورد . ومارسوا الزراعة
بطريقة علمية ، وكانت لديهم طرائق جيدة لري . وعرفوا قيمة الخصيبات ،
وكيفوا محصولاتهم حسب نوع التربة . وعرفوا في خلاصة البساتين وعرفوا كيف
يظلمون النباتات وكيف يتجهون أشربة جديدة من القواكه والأزهار . وأدخلوا
إلى الغرب أشجاراً كثيرة ونهاتت متعددة اجتلبوها من الشرق ، وكتبوا وسائل
علمية في الزراعة .

(١) الأترياديين : فرع الطب الذي يمتد في سداد الأدوية وطبعتها وعملاتها وتعليمها .
(الفرع)

ونعمة عنصر في هذا اليان يجب أن يبرز هنا بسبب أهميته في حياة البشرية الفكرية ، وهو صناعة الورق . ويلوح أن العرب تعلموا تلك الصناعة من الصينيين بطريق آسيا الوسطى ، وأنشدوا الأندلسيون من العرب . وكان ثلما حتى ذلك الزمان أن تكتب الكتب على الرق^(١) أو البردي ، حتى إذا فتح العرب مصر ، انقطع عن أوروبا مورد البردي . وما كان فن الطباعة يكبر الفناء ، ولا كانت المصحف والتعليم الشعبي العام بواسطة الكتب من الأمور الممكنة ، حتى أصبح الورق وفيراً . وربما كان هذا عاملاً أعظم أثراً في تأخر أوروبا الفسي أثناء العصور المظلمة ، مما يدر أن المؤرخين يميلون إلى الاعتراف به . . .

وتواصلت حلقات هذه الحياة العقلية في العالم الإسلامي حل الرغم مما محله من لومى سياسية ذرية . ولم يحاول العرب من البداية إلى النهاية أن يعالجوا المشكلة التي لا تزال تنتظر الحل ، ألا وهي مسألة الدولة المستقرة التقدمية ، فقد كان نظام الحكم عديم في كل مكان مطلقاً وعرضة للهزات والتغيرات والمؤامرات والقتل ، وهي أمور كانت على الدوام ولا تراك من خصائص الملكيات الشديدة التطرف . ولكن روح الإسلام ظلت يضع قرون تحفظ للناس عامة بقدر من الانسجام وضبط النفس من وراء آلام القصور والمسكرات ومنافساتها ، وكانت الإمبراطورية البيزنطية أعجز من أن تعلم هذه اللدنية ، كما أن الخطر التركي في الشمال الشرق لم يفتأ يثقل ثمة ولكن في بدء كبير . واستمرت حياة الإسلام اللدنية ثابتة بالحياة حتى أطبق الترك عليها . ولعلها كانت تمنى نفسها في طويتها بأنها قادرة على البقاء بالرغم مما كان يلبدى في توجيهها السياسى من آيات العنف والمخافة لكل معقول . وقد كان هذا . حتى ذلك الحين ، هو الخاصة المبهزة العلم والأدب في كافة الأنظار . إذ كان الرجل ذو العقلية والفكر الخفيف نالراً من الاصطدام برجل العنف والقوة . وكان على الجملة رجلاً من حلقوا خدمة البلاط والمناورة مع مقتضيات الزمان . ومن المحتمل أنه لم يكن قط تام الثقة بنفسه . وإلى ذلك الحين ، لم يكن لأهل الحكمة والمعرفة شجاعة المصعب اللقى (التفتلق) ولقته بنفسه . ولكن لا يكاد يساورنا أدنى شك في أنهم قد تجمعت لديهم

حقالة كاجبة ، واستجمعوا القوة في أنفسهم أثناء القرون القليلة الأخيرة ، فاحتلوا في بلاد إلى ميلهم إلى القوة والسلطان بفضل تطور التعليم الشعبي ، الفساح والأدب الرائع بين الناس عامة ، وها هم اليوم أشد ميلا إلى الصلح عن الأشياء بصراحة ووضوح ، وإلى المطالبة لأنفسهم بحق القسط على تنظيم الشؤون البشرية أكثر مما سبق لهم من قبل في أي عصر من عصور تاريخ العالم .

الفن العربي

رابط الفتح الإسلامية بطرز جديدة في العمارة ، وهي تسمى بأسماء متنوعة هي : للشرقية أو الإسلامية والمعمدية والعربية . على أن العربي الحق فيها يقول « حياتنا » Omayyad ، لم يك قط فنانا . وإنما شيد العربي المسجد والقصور والقصور والملا ، لأنه اضطر أن يبتئها بحكم الحاجة . على أنه وجد عماله ومهندسيه ومعلميه بين المصريين والسوريين والفرس الذين أنقصهم . فلم يكن الفن العربي في فارس إلا مجرد استمرار للفن الفارسي ، ولكن حدث في مصر وسوريا تكييف حقيقي يسائر الظروف الجديدة ، وتظهر طراز جديد وغصيبة جديدة في المبانى والزخرفة . كان هذا هو الفن « العربى » بأدق معناه . وإلى الغرب في شمال إفريقيا وألبانيا نشأ تنوع غاص جديد يتميز بعدة حدود الفرس . وكانت سوريا ومصر قبل مجيء العرب برمن طويل ، قد انخرطت عن الأشكال البيزنطية باستبدال المقد المستدير بالمقد للذهب ، وكانت تقلدنا على الفن البيزنطى كثيرا ؟ بإعمال الأشكال المتنوعة نماذج مجسدة ذلك بأنهم كانوا ينفلون لروح فوقانية اللطيفة ويستبدلون بها التزيين الزخرفى بالرسوم والتقوش . وكان المزاج العربى المخطور على الفضل والنشوة ميلا بكليته إلى تقوية هذه العملية . ولا يرجع ذلك - كما يقول جاييت - إلى طريقة في إطاعة ناموس ديني - لأن هناك كثيرا من التصاوير العربية المبكرة التي تمثل الأشكال الحية - بل إلى حرية فطرية ركبته فيهم . والعربى يبدى في شئون الحياة العادية ، ومصرف النظر عن أية ثقافة ، كراهية شاذجة لصورة جسمه أو لشعره إلى جسد حار . وحلت تدريجيا في ثانيا تطور الفن العربى أن انطلقت الزخرفة من صورة الحيوان والنبات لتتوضع حليا إلى التشابكات المتعمقة المسماة « بالنسق الزخرفى

الفرني Arabesque ، وتصبح الشوف والأمية مشقة بطيئة مشكلة لا يبرح تشكيلها
 يرهاد عمقا ، فيتكأر الخليس بالأمطار للثقة ، بل إن الشكل الخارجى نفسه
 يصير مجسما متعدد السطوح ، وتظهر الأكبة مطاة بمخانات (studs) مستديرة ومتعددة
 الأشلاع (polygonal) تتلخ كثر الأمر على المقلات الكلسية^(١) . ويتمنض هذا
 الخفض والرفع والروز والموعد عن جمال جديد سحرى فيه بحال البلورات
 والفوهات المائية والإسقاغات السحرة الغامضة لشبر الأحياء من الأشياء ، ولكنه
 جمال يفاد عن غبط مستنم تلك الحريات المطلقة والسوقيات الفضة والحيوية المتشقة
 لقن الخلق .

وتقرن هذه التطورات البنائية بخصائصها البرية في أنفاتها بالملئة والقبه البعبلية
 واستمال جيل القراميد المرجبية الى غالبا ما تكون جزلة الحلقات . ونمة توسع هائل
 في استعمال الزخرفة المكونة من آيات وقترات قرآنية بالخط العربي الانسيابى الجميل .

(١) المقلات الكلسية (Stalactites) : تكونات كلسية مدبة تتأق الكهوف الصخرية
 من - فتح المياه الجوفية وتندو مدابة كالزهرات والشموع من مقوف الكهوف . (الترجم)

الغسل المجدي الساتون

عالم المسيحية والحروب الصليبية

- ١ - العالم الغربي في أشد ذكوات تنحوره
- ٢ - نظام الإنتطاع
- ٣ - ملكا الميراثيين الغربية .
- ٤ - تصورات البراءة الغربيون .
- ٥ - عزلة يسوع إمبراطوراً على الغرب
- ٦ - شمسية شركان
- ٧ - القس والبابا الرومانسكيان .
- ٨ - فرسبون والألمان قم المناظم .
- ٩ - لتدمللديون والغرب والميريون .
- ١٠ - كيم امتحالت الفسطاطية بروما .
- ١١ - الحروب الصليبية .
- ١٢ - الإمبراطور فرديك الثاني .
- ١٣ - الحروب الصليبية اختيار المسيحية
- ١٤ - ملابب البابوية وعندهاها .
- ١٥ - لائحة بأسماء البابوات النظام .
- ١٦ - السيرة والفن القوطيان
- ١٧ - موسيقى القصور الوسطى

العالم الغربي في أشد ذكوات تنحوره

علينا الآن أن نحول الضائقة مرة ثانية من هذه النهضة الفكرية التي قامت في عهد
للتنقيات القديمة إلى شئون العالم الغربي .

ولقد وصفنا لك الأنهار النام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي الذي لم ينظم
الإمبراطوري الروماني في الغرب ، وبيننا الارتباك والمظلمة المثلين أحبا ذلك إبان
القرنين الخامس والسادس ، وكفاح رجال من أمثال كاسيودوراس في سبيل حفظ
ثقافة العلوم الإنسانية متقدة وسط هذه الارتباكات العاصفة . وتعرفنا من الزمان
يكون من البلاء أن يكتب المرء عما قام فيها من الفسول والحكام إذ لا دول هناك
ولا حكام . وكل ما في الأمر أن بعض المنظمين الصغار أو الكبار كانوا يستولون على
كلية أو نسبة من الريف ويحكمون منطقة غير ثابتة الحدود حكماً غير مستقر . فكانت البلزود
البريطانية مثلاً . مقسمة بين حشد كبير من الحكام ، وكان هناك زعماء كلتيون حديدون

في إيرلندة واسكتلندة وويلز وكورنوال ، يقتلون ويضربون لحظهم على الآخر أو ينجسون بعضهم بعض . وكان الفزاة الإنجليز مفسمين أيضاً إلى عدد من الممالك غير المستقرة ، وهي كنت ووسكس وساسكس وإكس وميرسيا ونورثمبريا وأنجليا الشرقية ، وهي دول لا تقطع الحرب بينها أبداً .

وكذلك كان شأن معظم أنظار العالم الغربي . فأنت وجدت هنا أسفاً يتولى الملك ، كما كان جريجوري الكبير في روما ، ووجد هنا مدينة أو بصوحة من المدن تحت حكم دوق أو أمير لهذه أو لتلك . وكنت تجد بين الخراب المائلة بمدينة روما ، أسرات نصف مستقلة من صائرين شبه نبلاء ، كل بنود عن سياضه ومعه أباهه . وكان البابا نوع من السيادة العامة هلك ، ولكن كان ينافس في تلك السيادة ويرجعها تماماً في بعض الأحيان شخص يطلق على نفسه «دوق روما» . وقد حوّل المجندون العظيم في الكولوزيوم إلى حصن يملكه فرد ، وكذلك حوّل قبر الإمبراطور هادريان المائل المستدير ، وكان المظامرون الذين استولوا على تلك المائل يقطعون هم وأنصارهم الطريق بعضهم على بعض ، ويقتلون ويتناوون في الشوارع الخربة للمدينة التي كانت يوماً ما حاضرة الإمبراطورية . وكان قبر هادريان يعرف بعد أيام جريجوري الكبير باسم قلعة سانت أنجيلو أي حصن الملاك المقدس ، لأنه عندما كان البابا جريجوري يمر بالسر من فوق النهر في طريقه إلى كنيسة القديس بطرس ليصل في طاباً رفع الوفاء العظيم الذي كان يبيت في المدينة دماراً ، أطلقت به رؤيا مكثت عظم واقف فوق كتلة الضريح اللكناء وهو يخدم سبياً ، وعند ذلك عرف أن دعوته مستجاب . وقد لعبت قلعة سانت أنجيلو هذه دوراً عظيماً للغاية في الشؤون الرومانية أثناء هذا العصر المضطرب .

وكانت ألبانيا على نفس التمزق السياسي الشديد الذي كانت عليه إيطاليا وفرنسا وبريطانيا ، وكان النزاع القديم بين الفرطاجي والرومان ما يزال مستمراً في ألبانيا متمثلاً في العداء المرير بين أنغلافهم وورثتهم من يهود ومسيحيين . حتى أنه

(١) المقلد (Arena) هو كما سبق أن ذكرنا الحرة المتوسط من مدججات الألبان الصغيرة ، وهو مفروغ بالرمل قصاصات . انظر المقلد الثاني ص ١٦٣ [٢٥] . (القرص)

لما جرفت قوة الخليفة ما أمامها على امتداد الساحل الإمبريوني انتهى إلى مضيق جبل طارق ، وجدت في جود أسبانيا أحوالاً متأهين لمولوتها في غروها لأوروبا . فإن جيشاً عظيماً من العرب والبربر (وهم الشعوب الحامية للرحلة في الصحراء الإفريقية والكواضى الجبلية اللاندية الذين اعتنقوا الإسلام) ، قد عبر البحر وهزم القوط الغربيين في معركة عظيمة (٧١١) وأصبحت البلاد بأجمعها في قبضة أيديهم في بضع سنين^(١) .

وما حلت (٧٢٠) حتى كان الإسلام قد بلغ جبال البرانس ، وانتدفع من حول نهايتها الشرقية إلى فرنسا ، وانقضت فترة من الزمان لاح لتأسيس ألتامنا أن الدين الجديد يوشك أن يخضع بلاد الغال (: فرنسا) بغض السهولة التي أنضم بها شبه الجزيرة الأيبانية . على أنه ما لبث أن اصطدم من فوره بشيء صلب ، هو مملكة جديدة للفرنجة ، أخذت أمزاجها تماسك طوال قرنين تقريباً في أرض الراين وشمال فرنسا^(٢) .

ولدينا الشيء الكثير نقوله الآن عن هذه المملكة الفرنجية ، المبشرة بظهور فرنسا وألمانيا ، والتي كانت الحصن الغربي لأوروبا ضد دين محمد ، كما كانت الإمبراطورية البيزنطية خطف جبال طوروس حصنها للشرق ، على أننا نرى لزماً علينا أولاً أن تقدم إليك يواناً عن النظام الجديد لتلك التجمعات الاجتماعية التي نشأت بها تلك المملكة .

(١) صحيح أن اليهود في أسبانيا كانوا مسلمون موه الخلد ، ويعملون صناعة جيدة أيام القوط الغربيين بآسبانيا . ولكن صحيح كذلك أن لليهود ملك أسبانيا عند فتح السرداها كفة منصفياً للفرس وكان أولاد طيطة وكثير من أمراء القوط يلقبون عليه نفساً مستعزين بالإيمان به . ومع ذلك فبعد سواحل تقطعها هزيمة القوط في شرش ويمكن أن يكون منها قوة جيش الخليفة المعتدة ومهارة قواته العسكرية واستانة الجبل والقفار في عصر الدولة والدين . (المرجع)

(٢) يشير المؤلف هنا إلى موقفه تور أو يلاط للتهداء التي هي فيها جيش العرب بالجزيرة أمام جيش شارل مارتل وهو في إشارته يهزم الفرنجة إلى قوة للفرنجة وصلاتها بدرجة تحمت على مستورها قوة الغال وجيشه ، ولكنه من قبله أيضاً أن يجلو أن جيش المسلمين كان قد توغل إلى سافة مهمة فاعمل حدود بلاد حافة وحالات محطوت تبويه وحده . وقلت عنه وحده سبب الخبايا التي اضطر إلى تركها خلفه كما أن كثرة يمنة بها من رجال الجيش كانوا أغلظهم لقتالهم وأجمعهم أمراً حتى شغلهم من لقاء مدوم بغض القوة والحماية التي كانت لهم في اللغات والملاص السابقة فكان ما كان من هزيمة جيش أمرو أدرك إليها المؤلف في فصل سابق . (المرجع)

٢ - نظام الإقطاع

من الضروري أن يكون لدى القارئ فكرة محددة عن أحوال أوروبا الغربية في القرن الثامن . فلأنها لم تكن على صفة بربرية . أبجل كانت أوروبا للشرقية ما تزال متبربرة ومتوحشة ، ولم تقدم الأمور هناك إلا قليلا من حالها التي وصفها جيون في حياته عن بطة هيرسكوس إلى أنبلا (راجع الفصل ٢٧ قسم ٦ ص ٦٦٠) . هل أن أوروبا الغربية لم تكن إلا حضارة محطمة ، لا قانون فيها ولا إدارة ، وطرقها تالفة وتعلبها غير منظم ، ومع ذلك فكان بها أناس كثيرون لم يفكروا وحادات وتقاليد محطمة .

كان الزمان زمان فوضى ولصوصية وجرائم تلعب هون عقاب وأمن متعلم حل وجه العموم . ومن اللاتقي الممتع أن تتبع ذلك التفتت والهرالك الشامل للصاحب وتبين كيف تمخض عن ظهور بواكير نظام جديد . طو أن أنباراً حدث في عصرنا هذا لم على الراجع تكوين جماعات للإدارة والرقابة المحلية ، تتحد لها بينها وتقيم إدارة بوليسية وحكماً ديمقراطياً بدائياً عشياً . ولكن أنكار الناس في عهد حكام الإمبراطورية الغربية المتأخرة إلى أن القرون السادس والسابع والثامن ، كانت أكثر انجهاً صوب فرعماء والقادة منها إلى الجماعات والقبائل ، وكانت المراكز التي تلورت حولها شئون الناس هي أحد رؤساء البريرة هنا أو أستاذاً قوياً هناك أو مدحياً لوثيقة ووحانية قديمة ، وهنا نجد مالك أرض قديم طال اعتراف الناس به أي رجلاً من أسرة حريفة ، وتمتع هؤلاء على قوى منصب السلطان ، وهي حال لم تدع لرجل بمفرده مجالا للأطمئنان والأمن .

لذلك الخطر الرجال أن يربطوا أنفسهم بشيخهم ، مفضلين في ذلك من كان أقوى منهم من الرجال . وكان الرجل الفرد يختار أقوى وأنشط رجل في إقليمه ويصبح رجلاً وتايحه . وكان الرجل الآخر أو المالك الصغير لقطعة أرض صغيرة يربط نفسه بسيد أقوى منه . وكانت حابة ذلك السيد (أو خطر حداثته) تزداد جسامه كلما تكلم المشيرون تحت جناحه . وبذلك استمرت بسرعة شديدة عملية تبلور ميامي ، في عضم الارتباك وانسداد القانون الذي هوت إليه الإمبراطورية الغربية . وهذه

الارتباطات والملاقات الطبيعية تماماً بين الحاي والأحياء مرعان ما تدرجت في
المنو فأصبحت نظاماً هو : نظام الإقطاع ، ، الذي لا تزال آثاره باقية في التركيب
الاجتماعي لكل مجتمع أوربي غرب الروميا . وكان يختلف اختلافاً بيناً في
مظاهره الخارجية .

ولم نلبث هذه المسئلة أن اتخذت لنفسها سوراً فنيصة وأصولاً وقوانين
خاصة بها . فكانت في قطر كبلاد الفال متفصلة تماماً حتى أيام القلاقل واستدام
الأمان السابقة لانقضاء قبائل البرابرة على الإمبراطورية الغربية ، ، ولما أن حبط
الفرجة بلاد الفال جلبوا معهم نظاماً سبق أن لحظناه لدى القوتونين ، وكان على
الراجع ولمس الانتشار إلى حد كبير بين الشعوب التوردية الشمالية ، وهو اجتماع
هيئة من شبان الأسر العريقة حول الزعيم أو حول الملك الحارب ، وهم رفاقوه
أرلداته وبطائته من النبلاء (*comitatus*) (الكوتات) أو قوتده . فكان من الطبيعي
في حالة الشعوب الغازية أن تتخذ علاقات السيد الضعيف بالسيد القوي شكل العلاقة
بين الكوتات وعليكة ، وأن يوزع الرئيس القاطع على رفاقه للزروع والممتلكات
للمستوى عليها والمصاهرة . وتسربت من الإمبراطورية المنحلة إلى نظام الإقطاع فكرة
التجمع بنية الحياة المتبادلة للناس والممتلكات ، وجاءت من الجانب « الثيوتوني »
فكرات جمعيات الفرمان ، والإخلاص والحلمة للشخصية . وكانت الأولى هي
الناحية الاقتصادية للنظام ، على حين كانت الثانية ناحية القرومية فيه .

ولمخالفة بين التجمع في الإقطاع وبين عملية التبلور عملاقة وثيقة جداً . وبينما المؤرخ
يراقب أثناء القرنين الرابع والخامس مراحل الارتباك ودولاماته تفرور وتهفو في أوروبا
الغربية ، فإنه يبدأ في ملاحظة ظهور هذه التكوينات الهرمية المكورة من رؤساء
وأبناء ، وأتباع أتباع ، وهي تتنافس إحداها مع الأخرى أو تتفرع أو تنحل من
جديد أو تنجم . وإنا لنستعمل مصطلح « نظام الإقطاع » من أجل اليسر والسهولة ،
ولكن في شيء من عدم الدقة إذا كانت لفظة نظام تحمل إليك معنى « الترتيب
والنظامية » . فنظام الإقطاع في أزهر عصوره أبعد ما يكون من فكرة الترتيب
والنظامية . إذ لم يكن الأمر فيه إلا قوضى واضطراباً نظم على أنشؤ وجه ، وكان
للتفارق والانحلاف العظيم بين أشكاله منتشراً في كل مكان . ومن ثم غلب يدعشنا

وجود تباين في الوقائع والعرف والمعادات المقررة بين إقطاعية وأخرى . وقد وصل نظام الإقطاع الأنجلو نورماندى في القرنين الحادى عشر والثانى عشر على ثلاثة ما أوفى من اتساع الرقعة إلى اكتمال مطلق وانساق في الملموسة والعرف كان منقطع للتغير في صميم العصر الإقطاعى نفسه .



(شكل ١٢٢) خريطة أوروبا حوالي عام ١٠٠٠ م

والأصل في العلاقة الإقطاعية الصحيحة هو الإقطاعية (Estate) التي كانت في المادة أوضاعاً . ولكنها وبما كانت أى شيء مرغوب فيه كالتواضع ، أو الدخول نقداً كان أم عينا ، أو حق جمع سكس أو (فرضة مالية) ، أو إدارة ملاحون . وكان الرجل يصبح في مقابل الإقطاع تابعا (vassal) لولاه ؛ فكان يحثو أماله ، ويعطيه

(١) ويسر أيضاً بالمتنوع [بشم المم وشم اللاد] أو النمل (Vassal) (المترجم)

- ويدها بين يديه - بالولاء والخدمة وكان الإخلاص في تنفيذ كل الواجبات التي اضطلع بها التابع في عهد الولاء غوام خفي في التمتع بإقطاعه : فإذا أدت الواجبات ، احتفظ هو وورثته من بعده بالإقطاع ملكاً حلالاً لم من الناحية المالية وبالنسبة إلى كل من دونهم من المستأجرين كأنهم هم الملاك . وفي حقة الولاء والتحويل التي هي الركن الأساسي في عقد الإقطاع ، كانت الالتزامات التي يضطلع بها الطرفان ، غير محددة في العادة تحديداً دقيقاً ، وكان العرف المحلي هو الذي يحددها . وكانت خدمات التابع تخضع لاختلافات بيناً في كثير من دقائق التفاصيل بين أجزائه عالم الإقطاع المختلفة . على أننا نستطيع أن نقول مع هذا بأنها تنقسم إلى طليقتين ، عامة وخاصة . فأما العامة منها فتضم كل ما تشمله فكرة الولاء : من المحافظة على مصالح السيد ، وكيان أسراره ، وإنشاء خطط أعدائه ، وحماية عائلته ومكلا ، والخدمات الخاصة يمكن أن تصاغ في عبارات أشد تحديداً ، ومحددات خاصة بمرافق مضبوطة يقررهما العرف أحياناً والوثائق المكتوبة في بعض الأحيان الأخرى . وكانت أبرز نواحيها هي الخدمة العسكرية ، التي كانت تتضمن الخروج إلى الميادين عند الضرر بشوة معينة من الجند ، غالباً ما تكون مسلحة بأسلحة من نوع محدد . وتبقى فيه زمناً معلوماً . وكانت كثيراً ما تشمل كذلك واجب حراسة قلعة السيد ، ووضع حصن التابع (المقطع) تحت تصرف السيد وفق خططه في الدفاع عن إقطاعه (Pief) . . . وإذا نظرنا إلى نظام الإقطاع من الناحية النظرية ، ألفيناه بدلاً أوروبا بشبكة من هذه الإقطاعات التي تخرج إحداها فوق الأخرى في مراتب متدرجة جادة من أسفلها شأنها في القاع ، وهي أبر القاموس ، حتى الملك في القمة ، وهو مالك الأرض الأعلى ، أو هو الذي ومعه الله المملكة (٢١) .

على أن هذه هي النظرية التي فرضت على الحقائق المقررة . ولكن الحقيقة الواقعية في نظام الإقطاع كانت تقوم فيها هو عليه من تحول اختياري .

« وقد قيل ، إن الدولة الإقطاعية دولة اختصب فيها القانون لخاص مكان القانون العام » . ولكن أليس الأصح أن يقال : إن القانون العام قد فشل وتولى وأن القانون الخاص جاء ليحل الفراغ للحاصل ؟ لقد صار الواجب العام إلزاماً خصوصياً .

وكانت مملكة الفرنجة دولة بربرية أخرى شأت في أول الأمر فبا هو الآن بلجيكا ، ثم امتدت جنوباً حتى التوار ، يد أنها أظهرت من قوة والتماسك ما يعوق كثيراً ما كان لدى الأعراب . وكانت أول دولة حققة تخرج من عمرة المدخل العام . ولم تلبث حتى أصبحت آخر الأمر حقيقة سبلية قوية منسقة الرقعة . ومنها لبث دولتان عظيمتان في أوروبا المصرية ، هما فرنسا والإمبراطورية الألمانية . وكان مؤسسها هو كلوفيس (Clovis) (٤٨١ - ٥١٤) الذي بدأ أمره ملكاً صغيراً في بلجيكا وانتهى وحدوده الجنوبية تكاد تتطابق بالفرنس . وقد قسم مملكته بين أبنائه الأربعة . على أن الفرنجة احتفظوا بحرف من الوحدة بالرغم من هذا التقسيم ، وشارت بين الإخوة شيئاً من الدهر حروب تستهدف الانفراد بالسيدة لوحدهم أكثر مما فرقت بينهم . على أنه نشأ بعد ذلك تصدع أشد خطورة بسبب اصطباغ الفرنجة الفريسيين بالصيغة اللاتينية ، بعد أن احتلوا بلاد الغال الرومانية الصلبة ، وتعلموا اللاتينية للشوهد المهرقة ، لنة لسكان المقهورين ، على حين احتفظ فرجة بإقليم الراين بلغتهم الألمانية الدنيا^(١) . وتفرقت عن الاختلافات اللغوية عند وجود مستوى خفيض قسدية ، توارثت سياسة قوية للغاية . وأقام العالم الفريسي منذ وحينئذ وهو متشقق شطرين ، هما نورميا (Normandie) ، وهي نواة فرنسا وتكلم لغة مصطبغة باللاتينية أصبحت آخر الأمر اللغة الفرنسية التي نعرف الآن ، وأوستراليا وهي لوص الراين التي ظلت ألمانية . وكان الفرنجة يخطفون عن السوايين وسكان جنوب ألمانيا ، ويقلبون الأجلوسكسون كثيراً لأنهم كانوا يتكلمون لهجة ألمانية دنيا لا لهجة ألمانية عليا . وكانت لغتهم تشبه اللغة الألمانية الدنيا (Plattdeutsch) والأجلوسكسونية ، وهي الأم المباشرة للهولندية والفلمنكية . والواقع أنه حيناً لم يصطبغ الفرنجة بالصيغة اللاتينية كانوا يتحولون إلى غلمنك ويصبحون هولنديين جنوب هولندا (فلما هولندا الشمالية فلا تزال فريزية Priestach أي أنجلوسكسونية) . والفرنسية التي كان يتكلمها الفرنجة والبرجتليون ذوو الصيغة اللاتينية في القرن السابع إلى

(١) ، (٢) الألمانية الدنيا (Low German) واسمها الألماني (Plattdeutsch) ، هي لغة سكان المستعمرات بدهال ألمانيا . والألمانية العليا هي لغة سكان المرفعات الجنوبية بها . (الترجم)

المأثر ، كانت عجينة الشبه بلغة سويسرا الرومانشية (Rumanach) ، - استنتاجاً منا من البقايا الباقية في الوثائق القديمة (١) .

ولنا بمحدثك ما هنا من انحلال الأسرة الميروفنجية التي أسسها كلوفيس ، ولا كيف حدث في أوستراسيا أن موظفاً بعينه في البلاط ، هو محافظ القصر (Mayor of the Palace) ، أصبح بالتدريج ملكاً فعلياً ، واتخذ من الملك الحقيقي العorie طيعة . ثم أصبح منصب محافظ القصر وراثياً أيضاً في القرن السابع ، وفي (٦٨٧) كان من يملئ يمين المرستال محافظ القصر في استراسيا قد غزا نوسفريا ووجد كل الفرنجة تحت لوائه . وأخيه في (٧٢١) ابنه شارل مارتل ، الذي لم يكن يحمل كذلك إلا لقب محافظ القصر . (فلما سادته الملوك الميروفنجيون النافلون الساكنين ، فلا بمنزلة أمهم هنا في قليل ولا كثير) وشارل مارتل (٢) هذا هو الذي أوقف المسلمين العرب . وكانوا قد وصلوا إلى « تور » حينما اتى بهم ، وهزمهم هزيمة كاملة في معركة عظيمة بين ذلك المكان وبين بوانيه (٧٣٢) وقتل من عزيبتهم . ومن ثم ظلت جبال البرانس أقصى حد لهم ، فلم يتقدموا بعد ذلك في أوروبا الغربية .

وقسم شارل مارتل دولته بين ولديه ، ولكن أحدهما أُزيل الملك وترهب . تاركاً أنحاء بين حاكماً وحيداً على الدولة . وبين هذا هو الذي قضى نهائياً على أحفاد كلوفيس . إذ أرسل إلى البابا يسأله من هو ملك الفرنجة الحق ، صاحب القوة والسلطان أو صاحب الحاج ؟ وكان البابا في حاجة إلى ناصر بعينه ، قضى لصالح محافظ القصر . وبذلك انتخب بين ملكاً في جمع من نبلاء الفرنجة في العاصمة الميروفنجية ، سواستون (Soissons) ثم مسح بالزيت المقدس وتوج . وكان ذلك في (٧٥١) وقد قوى ابنه شارلمان من أواخر التمسك بين البلاد للفرنجة والأندالية التي وحدها بين . وظلت الدولة موحدة متمسكة إلى عهد حفيده لويس (٨٤٠) ، ثم انفصلت فرنسا وألمانيا إحداهما عن الأخرى من جديد - بما أزل بالإنسانية أبلغ الضرر

(١) الرومانشية من اللغة التي يتكلمها الناس ببعض المناطق الشرقية لسويسرا . (المترجم)

(٢) من هذا الموضع بالتسلسل أنظر لترجم « ميلاد الصور لوسيط » تأليف « دس (الأم كتاب و مكتبة مطب الكتب) .



(شكل ١٣٤) خريطة إنجلترا عام ١٦٤٠ م

ولم يكن ما فصل بين هلمين الشماليين والفرنسيين فاروقاً في الجنس ولا المزاج ، بل فاروقاً في اللغة والعقائد .

ولا يزال ذلك الانقسام القديم بين نورسريا وأوسترالسيا ينعكس ثماراً مرئية إلى يومنا هذا . ففي ١٩١٦ كان غيب ذلك النزاع القديم بين نورسريا وأوسترالسيا قد تأجج من جديد حرباً غرسوا ، وفي أغسطس من تلك السنة ، زلزل كاتب هذه السطور مدينة مولسون ، وجبر الكوبري الخشبي الموت الذي بناه الإنجليز بعد معركة الإين (Alsace)

مرتين في الجزر البريطانية . فكانت موجودة بها فعلا حين كانت بريطانيا جزءاً من الإمبراطورية الرومانية . إذ يذكر أن شهيداً اسمه القديس ألبان (Alban) خلع اسمه على مدينة سانت ألبانز ، ولا شك أن كل زائر لكاتدربرى : لن يلوته أن يزور كذلك كنيسة القديس مارتن الصبغة القديمة التي كانت تستعمل لمبان العهد الروماني . وانتشرت المسيحية من بريطانيا - كما أسلفنا - خارج حدود الإمبراطورية إلى أيرلندا - وكان أهم المبشرين القديس باتريك - وحدثت حركة دينية قوية اتصل بها أسماء القديس كولبا والسوطانات الدينية بجزيرة أيونا (Iona) (١) . ثم جاء الإنجليز المتوحشون الوثليون في القرنين الخامس والسادس ، ففصلوا كنيسة أيرلندا القديمة عن جسم المسيحية الرئيسي . وفي القرن السابع أخذ المبشرون المسيحيون ينصرون الإنجليز في كل من شمال إنجلترا ، حيث أتوا من أيرلندا ، وفي الجنوب واغدين من روما . وقد أولد يسة (إرسالية) روما البابا جريجوري الكبير عند نهاية القرن السادس بالاضط . ونقول الرواية إنه رأى عالماً من الإنجليز يباعون في سوق الرقيق بروما ، وإن كان من السير طينا إلى حد ما أن نفهم كيف وصلوا إلى هناك . كانوا شديدى الشقرة ووسامة الطلعة . فلما أن عثرى عنهم أبلغوه أنهم من الإنجليز . فقال لهم ليسوا لإنجليز (Angles) وإنما هم ملائكة (Angels) (٢) لو أن لديهم الإنجيل .

وظلت البعثة الدينية تعمل طوال القرن السابع . وقبل أن ينتهى ذلك القرن كان معظم الإنجليز قد تنصروا ، وإن أبدت مرسيا (المملكة الإنجليزية الوسطى) عواقباً مقلومة شديدة ، دفاعاً عن العقيدة والطرائق القديمة . وأصاب أولئك المنتصرون الجحود نقداً مرسياً في العلوم . فأصبحت أديرة مملكة نورثمبريا في شمال إنجلترا مركزاً للثقافة والعرفان . وكان ثيودور الطرسوسى من لوانل رؤساء أساقفة كانتربرى (٦٦٨ - ٦٩٠) . وعمل حين كانت الإفرقية مجهولة جهلاً تاماً في غرب أوروبا ، كان بعض تلاميذ ثيودور يجلبوها . وكانت الأديرة تضم كثيراً من الرهبان الذين بلغوا من العلم المذروة . وكان أشهرهم جيمس بيد (Bede) ، المعروف باسم بيد الوقور (٦٧٣ - ٧٣٥) ، وهو

(١) هي جزيرة من جزر الهندوس التابعة لمملكة نصراً كورليا في ٥٠٢ م . (الترجم)

(٢) معنا يفسد الكتاب كل الجناس بين اللغى (Angles) أي الإنجليز و (Angels) أي للملكة .

(الترجم)

راهب من جالرو (Jarrow) على نهر تاين (Tyne) . وتلمذ عليه رهبان ذلك الدهر السبعة ، فضلاً عن الأجانب للكثيرين الذين كانوا يقدون لسماعه . ولم يرح يبد حتى اثنتي بالترديد كل علوم زمانه ، وترك عند وفاته خسة وأربعين مجلداً من كتاباته ، أهمها تاريخ الإنجليز الكنسي (١) وترجمة إنجيل يوحنا إلى اللغة الإنجليزية . وقامت شهرة مؤلفاته واستعملها الناس في كافة أنحاء أوروبا . ثم إنه جعل ميلاد المسيح بداية لكل تواريخه ، وبفضل مؤلفاته أصبح مستطعم لتواريخ اللاتينية للأحداث للمسيحية شاملاً بكل أوروبا . ونظراً لكثرة الأديرة والرهبان في نورثمبريا ، تنقسم ذلك الجزء من بريطانيا حيناً من الدهر قسماً كبيراً على الجنوب في المدينة (٢) .

وإذا نتجهد للبشرين الإنجليز في القرنين السابع والثامن يعملون للقطين حل المملوك الشرقية للمملكة الفرنجية . وأهم هؤلاء هو القليس بونيفاس (٦٨٠-٧٥٥) ، الذي ولد في كريدنغتون بمقاطعة ديفونشير والذي نشر الفريزيين والتونجيين والمهسين (Hesians) ثم أسسهم في هولندا .

وفي كل من إنجلترا والقارة الأوروبية ، كان الحكام الذين أخذت نجسهم بطر يستمكون بالمسيحية ويتخلون بها قوة موحدة لكسب أجزاء فواحهم بعضها إلى بعض . وبذلك أصبحت المسيحية لواء يرفقه كل زعيم يزعم إلى العنوان - ذاتها في أوغندا بأفريقية في الأيام الدامية قبل أن يلحق ذلك القطر بالإمبراطورية البريطانية .

وعطف بين الذي توفي ٧٦٨ ولنا ، شارل وأخوه ، فالتسا مملكة . ولكن أنما شارل توفي (٧٧١) ، وعندئذ انتقد شارل بالحكم (٧٧١ - ٨١٤) في مملكة الفرنجية الثامنة . وعرف شارل هذا في التاريخ باسم شارل الكبير أو شارلمان ، وكذا حدث في حالة الإسكندر الأكبر ويوليوس قيصر ، فإن المتكثف بالغوا الإشادة بذكراء . فإنه جعل من حروبه العدوانية حروباً دينية لا شك فيها ١١ وعمل على شمل فري لوزيا بأجمه الذي هو الآن بريطانيا العظمى وفرنسا وألمانيا

(١) «The Ecclesiastical History of the English»

(٢) انظر : «A General History of Europe» تأليف تشارلز ديفول .

وللأناطلة والروم واليونان طوال القرن التاسع ، متكرراً لصراع مرير بين العقيدتين القديمة والجديدة . وأجبرت شعوب بأسرها على اعتناق المسيحية بعد الحسام ، كما فعل الإسلام قبل ذلك بنحو قرن حين اضطر شعوباً بأسرها في بلاد المغرب وآسيا الوسطى وأفريقية إلى اعتناقه .

فلمستخدم شرلمان السيف والشار في التبشير بإنجيل الصليب لدى المسكون واليويسيين ، بل توغل حتى الدانوب فيما هو الآن بلاد المجر ، وحمل نضى الصالح منظرها بها حتى سواحل الأدريات ، خلال ما هو الآن دالماتيا^(١) ، ودفع المسلمين خلف القرائس حتى برشلة .

زد على ذلك أنه هو الذي آوى إيجرت (Egbert) ، يوم نفي من ويسيكس لإنجلترا ثم ساعده من لورده في أن يقيم نفسه ملكاً في وركس (٨٠٢) . وانضم إيجرت البريطون^(٢) في كودوال ، مثلاً أنضم شرلمان البريطون في برتاني (فرنسا) ، ثم تبعاً له بقيامه بسلسلة من الحروب التي والاهما بعد وفاة نعيه القوي ، أن يصل نفسه كآخر الأمر أول ملك لإنجلترا بأسرها (٨٢٨) .

على أن هجمات شرلمان على آخر مناطق الوثنية أحدثت حركة مضادة قوية من جانب اللاتين لم ينتصروا . وكان الإنجليز المتصورون لم يحفظوا إلا بالنظر للسير من فن لللاحه الذي جاء بهم من أرض القارة الأوروبية ، ولم يكن النتيجة أصبحوا يعد من البحارة . وبهذا كانت حماية شارلمان تنساق نحو شواطئ "بحر الشمال وبحر يطلق ، فقد دُفع الوثنيون طغاً إلى البحر . وكان ردهم على اضطهادات المسيحية ، القيام بغارات صلب ونهب وحملات على سواحل فرنسا الشمالية وعلى إنجلترا المسيحية .

وهؤلاء المسكون والإنجليز الوثنيون في أرض القارة الألمانية وذوو قرباهم من اللاتين والروم هم اللاتينمركيون وأهل الشمال (Northmen) الذين تذكرهم

(١) دالماتيا : من القسم الشمالي من يوغوسلافيا على حدود النمسا . (المترجم)
(٢) البريطون : سكان بريطانيا القديمة الإسكوتلنديون ، أو سكان إقليم أيرلندا (المترجم)

كتب لفرينشا القوي . وكانوا كلهم يسمون بالتيك (Tiki) (١) ومعناها
رجال الخلدان أو الفيوروات ، لأنهم جاءوا من القنبا السيقية في الشاطئ
الاسكتلندي . حضروا في صنف طويلة سوداء تسمى القواص (٢) : مستعملين الشراع
استمالا لطيفا . ومعظم معلوماتنا عن حروب وغارات التيك (Tiki) الوثنيين مستقاة
من مصادر مسيحية ، ولذا فإن لدينا معلومات مستنقضة عما كانوا يرتكبونه في
خلواتهم من المذابح والقتال ، ولزوا يسيرا عما حلّ بإسوانهم الوثنيين السكون
من قبلات على يد فرلان . وكان جلوسهم للصلب والرهبان والرايات شديداً
متطرفاً . ولشد ما كان يهيجهم إحراق أديرة الرهبان والرايات وفتح من بها
من الأحياء .

وعلى هؤلاء التيك (Tiki) أو أهل الشمال طوال الفترة بين القرن الخامس والقرن
السادس يصلون في البحرية ، ويؤيدون جرأة ويوسعون مجال نشاطهم . ثم اجتروا
على البحار الشمالية حتى أحدثت شواطئ جرينلند الثلجية حداثاً مألوفاً لديهم ،
وكانت لم عند حلول القرن التاسع مستقرات في أمريكا (ثم تعرف أوروبا عنها شيئاً)
ولم يكن لأهل الشمال أي مستوطنة في أمريكا ، وفي زمان ما يقرب (١٠٠٠ م) ،
قاموا بمحاولة للاستقرار في جزء ما من أمريكا اسمه فن لاند (Vinland) ، على أنهم
لم يملكوا الأرض سوى سنتين اثنتين ، لأن غارياً من بلد ظهر في أحد الأيام ملياً
بالغنود المنقوشة القشرة ، فدار بخلد رجال الشمال أنهم ضيوف سود خلدو القبح .
ويلوح أن الطرفين تبادلوا نظرات التخصص الصامت ، ولكن لم يحدث بينهما تجلوة
ولانزاع ، لقد حاق العالم الجديد في وجه القديم . وحدثت لكاهن ثيا بعد ، وإذا أن
رجال الشمال كانوا أقل حذراً ويميلين عن أوطانهم ، لأنهم جمعوا منهم واعتلوا
سفنهم عاكفين إلى بلادهم . ولا يسجل التاريخ أي مستوطنة لرجال الشمال على
الأراضي الأمريكية . وفي القرن الثاني عشر ، بنى بكثرة كثير من ملاحهم (Vikings)
في غرينلند ، ذلك أنهم كانوا ينظرون إلى العالم بوصفه مسرحاً للمغامرة البحرية .

(١) تيك : تعلق هذه الكلمة بكلمة إيز وليس في كنجز . ومنه بك : طلب حد فوره
أو طبع . (للزائد)

(٢) القواص : سفينة قديمة طويلة ذات سطح واحد تسمى بالمجاديف والشراع . (الترجم)

لظلمة هاجوا كلب البحر والسب والحدوث . وقد انتصح في غيالم صورة فضمة للدينة عظيمة غنية في الخشب . وهي ضرب من الخلط بين روما وبيزنطة وجموعها ميكلاجارد (Midegard) أو ميكلاجارت (أي للدينة العظيمة) - (لارن حله بكلمة ميكلاباير (Miklabæir) الإسكندنافية ومعناها المزرعة العظيمة) . وبلغ من قوة جاذبية الميكلاجارت هذه أن اجتذبت أنحاذ رجال الشمال هؤلاء إلى البحر المتوسط بطريقين ، أولهما من جهة الغرب ، وثانيهما عبر روسيا من بحر البلطيق كما سنبين ذلك فيما بعد . وبالفريق الروسي ذهب كذلك ألفرياذم السويديون .

ولم يكن الفيك إيجر إلا مجرد مفيرين ما عاشى شارلمان وإيجبرت ، ولكن مع تقدم الأيام بالقرن التاسع ، تطورت هذه الغارات فأصبحت غزوات منظمة . ففي كثير من نواحي إنجلترا ، لم يكن مركز المسيحية حتى آنذاك وطيبا بأي حال . إذ كان رجال الشمال الوثليون يلاقون في مرسيا على وجه الخصوص كل عطف ومعاونة . وما أن وافت (٨٨٦) حتى كان قسم كبير من إنجلترا في قبضة الدانيمركيين ، وحتى كان الملك الإنجليزي الفريد الكبير ، قد اعترف بحكمهم لما قصوه ، (وهو ما يسمى بالقانون الدانيمركي (Dano-Law) في السلف الذي حمله مع جوثرام زعيمهم .

وبعد ذلك بقليل في (٩١١) وطدت حملة أخرى لإزعامة رولف البداء (Roll the ganger) ، ألقاها على ساحل فرنسا في الإقليم الذي عرف منذ ذلك الحين باسم نورماندى (أي بالرجال الشمال (Northmen) .

على أننا لا نستطيع أن نمثل ذلك بأي تطويل عن كيف حدث على الفور خرو جليد لإنجلترا على يد الدانيمركيين ، ولا كيف أصبح فوق نورماندى كثر الأمر منكأ على إنجلترا . والفولوك النصرية والاجتياحية بين الإنجليز (الأنجل) ، والسكسون والحدوث والدانيمركيين أو النورماندين ضائلة لا تكاد تذكر ، ومع أن هذه الفصيرات ترتسم ضخمة في أخيلة الإنجليز ، إلا أنها والحق يقال تبدو مجرد تموجات طفيفة جدا في هجري التاريخ عندما تقبسها بمعايير عالم أكبر .

وسرحان ما اعضت من مشهد النزاع مسألة الخلاف بين المسيحية والوثنية . إذ قبل

الذي اعتبرهم كيون بجملة ودمور (Wodmore) أن يعتقدوا النصرانية ، إذا ضمن لم يفا .
ما غزوا بأيديهم ، ولم يقف الأمر بأحد رولف في نومندى عند حد التصبر ، بل
إسهم تعلموا الكلام بالفرنسية من الشعب للحيط بهم الأكثر منهم عدداً ، فاسبق لسانهم
للشمال (التوروس Nervas) الخالص على أن هناك شيئاً . له شأن أعظم قدراً في تاريخ
البشرية ، هو علاقات شرمان بغيرته في الجنوب والشرق ، وعلاقاته بالتقاليد
الإمبراطورية .

٥ - شرمان يصبح إمبراطوراً على الغرب

أعيدت تقاليد القيصر الروماني إلى الحياة في أوروبا على يد شرمان . كانت
الإمبراطورية الرومانية قد ماتت وأعلنت تصفن ، وكانت الإمبراطورية البيزنطية معنة
في الاضمحلال ، على أن تعلم أوروبا وحقيتها كانوا ترفدا إلى ذلك كاد مع كل فكر
سياسي جديد خلاق أن يكون ضريباً من الهل . وتعل أوروبا بأكلها لم تكن تصحوى
مقال قوة من قوة النظر والتفكير التي نجسها في الأدب (١) الأثني في القرن
الخامس ق . م . ولم تكن هناك قوة تصور على سبيل الفرض قيام حالة جديدة
أو تضع منهاجاً سياسياً جديداً وتنظمه فكراً .

تعمدت المسيحية الرسمية أن تسلط منذ آمد بعيد ستاراً كثيفاً على تلك العالم
الصعبة الرأفة ، تعاليم يسوع الناصري التي منها أبعثت - كما أنها ووعدها نفسها على
نجاهها . فلما الكنيسة الكاثوليكية فهي حين تثبت ذلك القشيب الشديد بملكيتها قلب
الخبر الأعظم (Pontifex Maximus) ، قد تنكرت منذ ذلك الزمان البعيد لواجبها
الذي خلقت من أجله ، وألوى بملك بلوغ مملكة السه . فقد بأنها كانت مشغولة بإحياء
حزة الرومان على الأرض ، التي تصورت أنها ترأها التليد . فقد أصبحت هيئة
سياسية ، تستغل إيمان بسطاء الناس وحاجاتهم المعضى قنماً بعشروعاتها وخططها .
وتثبتت تقاليد الإمبراطورية الرومانية وبفكرة أنها هي الطريق الطبيعي لوحدة أوروبا .

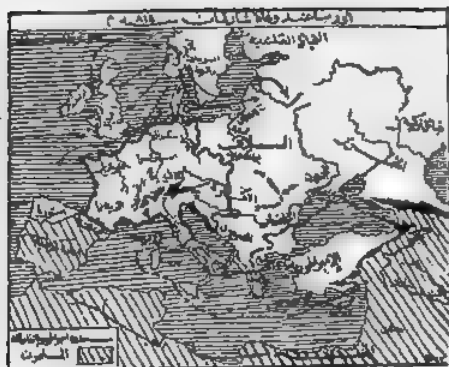
(١) الخراف هنا كمادة يستخدم لفظة الأدب بمتاعها أمام القتال ويقصد بها كل ما ظهر في الفة
من أبحاث ومقالات أيا كان نوعه . (الفرج)

على أن أوروبا في ثيابا محولاتها المتكررة إعادة تلك الإمبراطورية إلى الوجود ، قد
انخرقت إلى تريف مائة لما شاله محووخ : وإلى إصباح كبوات لثامى ومقطاته التي
أساعت تصويرها .

وانقضت أحد عشر قرناً من عهد شرلمان لما بعده ، و « الأباطرة » و « القياصرة »
من هذه الأسرة أولئك يظهرون على مسرح التاريخ الأوروبى ثم يتوارون كأنهم نيات
سقية تروى للحن مضطرب . ونحن على أن ننبؤك من عملية حطية من أفق العظمى
في أوروبا ، وعن الساع الآفاق وتجمع القوى ، بيد أنها كانت عملية سارت في طريقها
مسئلة من الأوضاع السياسية للعصر وبالرغم منها ، حتى تراءت آخر الأمر إلى عظيم
تلك الأوضاع تحلياً مطلقاً . وكانت أوروبا أثناء حقبة الأحد عشر قرناً من القياصرة
الفرانكين التي انتهت بشرلمان ، والتي لم تنته إلا بمجزوءة (١٩١٤ - ١٩١٨) الرهية
الوحشية ، - أهبة شىء - بمصنع مزدحم يملكه رجل مصاب بالتجول أثناء النوم ،
فهو في بعض الأحيان تائه لا أحيه له مطلقاً ، وهو في أحيان أخرى مسطر للأعمال
تسليلاً ينظر بالشر المستطير . بل لعلنا نشبهها بما هو أقرب إليها من ذلك المتجول في
توبه : فتألفا بيئة عامنة تعطل بالنصر سيا الحياة . فأنت تشهد الإمبراطورية
الرومانية تترنح ثم تنقطع على الأرض ، ثم يتلف بها خارج للمسرح ثم تعود لتظهر
كل هذا وكيفية روما - إن جاز لنا أن نقدم به - (الصورة التمهالة) خطوة أخرى
إلى الأمام - هي التي تقوم بدور المسرح وتنت في هذه البيئة سيا الحياة .

وتواصل طوال تلك القرون كفاح متصل الحفلات ، حول التحكم في البيئة
يظل ناشبا بين القوى الروحية وعنف القوى الزمنية . وقد سبق أن رجحنا الأنظار
إلى الروح التي يتلوى عليها كتاب « ملية الله » قليس أوغسطين . وهو كتاب نعرف
أن شرلمان طالعه ، أو استمع لثلاوته - إذ أن معارفه الأدبية تكاد تكون موضع الشك .
وكان يرى أن هذه الإمبراطورية المسيحية شىء يحكمه ويعصون سلامته في أمثل صورة
وأسلمها ، فيصر عظيم مظه ، وأن له أن يحكم حتى البابا نفسه :

على أن وجهة نظر روما في شأن الإمبراطورية البيطية ، كانت تختلف قليلاً عن
ذلك . إذ أن الرأى المتخذ هناك هو أن القيصير المسيحى يجب أن يحسبه البابا بالزيت



(شكل ١٣٦) خريطة لوريا بعد وفاة شعلان عام ١٨١٥ م

المقصود وبهذه سواء السبيل - بل هو الذي تكون له حتى سلطة حرمانه وحزله .
وكان هذا انتصارا في وجهات النظر والمصالح حتى في أيام شعلان نفسه . على أنه
ازداد حدة في القرون التالية .

ولا شك أن فكرة الإمبراطورية المبتدئة لم تكن بخلافه شعلان فجأة ، بل بداية البطء
والتنعج . فإنه كان في مبدأ الأمر مجرد حاكم على مملكة آية القرطبية ، وكان منسكبا
بكل عواء في الكفاح مع السكسون والبالارين ومع الصقالبة في شرقهم ، ومع المسلمين
في أسبانيا . ولما لبس في مملكاته نفسها من ضروب الصليان . وحله شقاق ديب رينه
وبين حبيته ملك لومبارديا على فتح لومبارديا وشمال إيطاليا . وقد رأينا استقرار
الومبارد في شمال إيطاليا قرابة (٥٧٠) بعد الوفاء العظيم ، وبعد طمع جستنيان للملك
القرطبي الشرقيين . كان هؤلاء الومبارد على الدوام مصدر خطر وخوف للبايات ، وقد

أمرت ضلعهم عائلة بي البابا وملاك الفرنجة في زمن بين. والآن أنخضع شرلمان لومبارديا تمام الإخضاع (٧٧٤) ، وأرسل حاه إلى أحد الأديرة وحمل فتوحاته إلى ما وراء الحدود الشمالية الشرقية لإيطاليا : إلى نللتيا (٧٧٦) . وفي (٧٨١) جعل ابنه بين (الذي لم يمض بعده) يتعصب ملكاً على إيطاليا ويتوج في روما .

وجاء بابا جديد هو ليو الثالث في (٧٩٥) ، وقد عقد العزم منذ البداية على ما يظهر على جعل شرلمان إمبراطوراً . وكان ليلاط يزنطة حتى ذلك الحين ثم من السلطان غير المهنود على البابا . وكان أقوياء الأباطرة من أمثال جستنيان يخيفون الباباوات ويجبروهم على الخوف إلى القسطنطينية ، وكان الأباطرة الضعفاء يضايقونهم مضايقة غير ذات أثر . ولعلنا نطهرت قصر اللاتيران^(١) فكرة الانفصال عن القسطنطينية انفصالاً علمانياً ودينيّاً ، كما تمثل له في الدولة الفرنجية السند الذي لا يله منه إذا أريد تمجيد القسطنطينية .

ومن ثم أرسل البابا ليو الثالث إلى شرلمان عند توليه البابوية مفاتيح قبر القديس بطرس ولواء^(٢) ، رمزاً لسيادته في روما بوصفه ملكاً لإيطاليا . وسرعان ما اضطر البابا إلى الاتجاه إلى الحامي الذي اختار . ذلك أنه كان مكروهاً في روما ، فهو جرم في شوارعها وأسيحت معاملته أثناء مسيره في أحد المراكب ، واضطر أن يهرب إلى ألمانيا (٧٩٩) . ويقول إجنهارد إن عينه سمكت وأن لسانه قطع . ويبدو مع ذلك أنه كانت له كل من العينين واللسان مرة ثانية بعد ذلك بسنة من الزمان . فإن شرلمان أعاده إلى روما ورجعه إلى منصبه (٨٠٠) .

ثم حدث مشهد بالغ الأهمية . ففي يوم عيد الميلاد (٨٠٠) ، وبينما كان شرلمان ينهض من الصلاة في كنيسة القديس بطرس ، وضع البابا (وكان قد جهز كل شيء) ، تاجاً على رأسه وحياء قصيراً وأوخطس . ووجع الشعب بالانحناس العظيم . ولكن إجنهارد صديق شرلمان وللترجم لسيرته ، يقول إن الإمبراطور الجديد لم تسره غلة

(١) واللاتيران هو قصر الباباوات الأول في روما . ثم اسطوا اللاتيران فيما بعد . (المرفق)

البابا الحاجة منه بأية حال . لأنه قال : لو أنه عرف أن هذا سيحدث لا دخل للكنيسة ، مهما بلغ العيد من الجلال ١ . ولا شك في أنه كان يعكر ويتكلم من جعل نفسه إمبراطورا ، ولكن من الواضح أنه لم يكن يريد أن يجعله البابا إمبراطورا . وكان يقول في خاطره أن يتزوج من الإمبراطورة إيريني ، التي كانت تحكم في القسطنطينية في ذلك الزمان ، وبهذا يصبح حاملا لكل من الإمبراطوريتين الشرقية والغربية . ولكنه أصبح آنذاك مضطرا إلى قبول القرب على الشاكلة التي رسمها ليون الثالث ، أي بوصفه حبة من البابا وبطريقة أغضبت القسطنطينية وأكدت انفصال روما عن الكنيسة البيزنطية . وكانت بيزنطة في بادئ الأمر غير راغبة في الاعتراف بلقب شارلمان الإمبراطوري . ولكن حدث في ٨١٦ أن حلت بالإمبراطورة البيزنطية كالوتة عظيمة . فإن البيلغار الوثنيين بقيادة أسبرم كروم (Krum) (٨٠٢-٨١٥) ، دحروا وشكوا جيوش الإمبراطور نففور الذي أصبحت أصبحت كلاً لكروم . وضع هؤلاء القوم القسم الأكبر من شبه جزيرة البلقان . (وبذلك يكون الشعبان البلغاري والإنجليزي ظهرا كوحدين سياسيين في وقت واحد تقريباً) . وبعد هذه الكارثة لم تبد بيزنطة أي اعتراض على هذا الاجتثاث للإمبراطورية في الغرب ، وفي (٨١٢) اعترف رسمياً بشركان إمبراطورا وأوغسطس على يد مندوبين بيزنطيين .

وبذلك تكون إمبراطورية روما التي ماتت على يدى أودواكر (Odoacer) في ٤٧٦ ، قد بعثت من جديد في ٨٠٠ م باسم «الإمبراطورية الرومانية المقدسة» ، وعلى حين أن جسمها وقوتها الجثمانية كانت في شال جبال الألب ، فإن مركز فكرتها كان روما . فكانت من ثم ، منذ بدايتها شيئا مرزعا له قوة غير محدودة . كانت دعوى وجلا أكثر منها حقيقة لا يستغنى عنها . كيف كان صليل السيف الألماني يسمع على اللوام في مسيره من فوق جبال الألب إلى إيطاليا ، وكانت بهوث البشرين ولفافصنون الرسولون يلقون من فوقها في الاتجاه للعناد . على أن الألمان لم يتبنوا لهم البتة أن يحتفظوا بإيطاليا باستمرار ، إذ لم يكن في طوقهم حمل الملازما التي كانت تلك البلاد الحرة للهمة غير المبررة المياه بمائة ها . وثمة تقليد قديم كانت جلوسه تضد حلال الرماد في

روما وفي مدن إيطالية أخرى عديدة ، تقليد أحرق منجا ، هو أصل التقاليد المتوارثة من الجمهورية الأرستقراطية ، تلك التقاليد المعادية للإمبراطور والبابا ، على السواء .

٦ - شخصية شرلمان

من الصعب علينا أن نمثل خلق شرلمان وشخصيته ، وبالرغم من أن لدينا صورة مكتوبة عنه كتبها معاصره إجنهارد (١) . ذلك أن إجنهارد يحوز الإشراف والتصانة ، لم يله يملأ إلينا بتفاصيل كثيرة ، ولكنها ليست التفاصيل التي تبحث الحياة في صورة الرجل المسجى . وهو يقول إن شرلمان كان رجلاً طويل القامة ، له صوت ضعيف أو يكاد ، وكانت له هتان يرتان وأنف طويل . « وكانت فة رأسه مستديرة » ، (وما ندرى للملك القول معنى) . وكان أشيب الشعر . وكانت وقبه غليظة قصيرة توجاً و « بطة شديد البروز » . وكان يلبس لذارا (Zurara) مطرز الحواشي بالفضة وجودها له أربطة الساق . وكانت له حيازة زرقاء ، وكان على الدوام يتقلدا سيفه ، وكان مفضيه وحامله من الذهب والفضة .

وواضح أنه كان رجلاً بيم النشاط - وإن الإنسان ليتصوره يتحرك بسرعة - ولم يحمل خراشيه القليلة قط دون قيامه بأعماله الحربية والسياسية التي لم تقطع . كانت له زوجت عديدة وخيلات كثيرات . وكان يكثر من مزاوله الرياضة ، وكان مفرماً بالأهبة والحفلات الدينية ، كرمياً يجوز العطاء . كان رجلاً متعدد نواحي النشاط عظيم الإقدام للحمى ، وكان على ثقة بالنفس تكاد تذكر المرء بظلمهم الثاني إمبراطور ألمانيا السابق هو آخر - وربما كان ذلك إلى الأبد - هذه المجهوطة من القيصرية الراقين بأوروبا اللين يقوم على رأس قائمتهم شرلمان .

والحياة العقلية التي يسوطها عنه إجنهارد شاقة لا تخور من متعة ، لأنها لا تنف عند إعطائنا شحات من شحمته مستطمة ، ولكنها تمل لنا نموذجاً من عقلية ذلك الزمان . كان له إلمام بالقرامة ، والراجع أنه كان أثناء تناول الطعام يصنى إلى

(١) انظر : «Life of Karl the Great» تأليف إجنهارد (جلينتر) .

(٢) هودنر دوشن يشد يطاق حول الشعر . (للتبريم)

للموسيقى أو القرامة ، ، ولكن يمثلنا مؤرخه بأنه لم يعلم فن الكتابة ، ، وكان من عادته أن يضع دفتره وألوانه تحت وسادته ، حتى يموت يده على كتابة أشكال الحروف إذا تيسأت له فحة من وقت الفراغ ، ولكن ثقلمه كان عقيقاً في ذلك الفن الذي ابتناه في وقت متأخر جداً من حياته . ومع ذلك فقد كانت نفسه تنطوى على احترام حق العلم ورجية صادقة في المعرفة ، وبذلك تصارى جهده لجلب رجال العلم إلى بلاطه . ومن بين الكثرين الذين وفدوا عليه لكرين (Alcibiades) وهو عالم إنجليزي .

وكان كل هؤلاء العلماء بالطبع من رجال الكنيسة (الإكليروس) ، إذ لم يكن هناك أي علماء آخرين ، وطبعاً أنهم كانوا يصيغون المعلومات التي يقدمونها لسيهم بصيغة قوية من الدين . وكان مقر بلاطه في العادة إكسي لاشاهل أو ماينتس ، فإذا حلت شهور الشتاء أقام فيه مؤسسة خيرية تسمى مدرسته ، ، وفيها كان يتظاهر هو وعظماؤه القوذميون أنهم يثلثون جانباً كل تفكير في المراكز الثبوية ، ويتخلون لأنفسهم أسماء مستفظة من كتأب الآداب الكلاسيكية القديمة أو من الأسفار القديمة ، ويتناقشون في اللاهوت والأدب . فلما شارلان نفسه فكان يسمى بامم دلود . فأفاد علماء غزيراً ومعرفة جسيمة باللاهوت ، وإليه ينبغي لنا أن نسب اقترح إضافة حجارة : (ومن الابن أيضاً ٣١١٥) إلى قانون إيمان العقيدة النيقية (٥) - وهي إضافة انتهت آخر الأمر بانفصال الكنيستين اللاتينية واليونانية إحداهما عن الأخرى . ولكننا نشك كثيراً في أنه كان يرى إلى مثل هذه الفرفة . فإن كل ما أراده أن يضيف إلى قانون الإيمان المسيحي كلمة لوما إليها ، كما شاء الإمبراطور غليوم الثاني بالفيبط أن يكتب المسرحيات الفنالية (الأوبرات) وأن يبيع الصور ، وكان بذلك يتخذ لنفسه ما كان في الأصل بدعة أمهانية . فلم يقبل تلك الإضافة أحد إلا بعد زمن طويل ، وانقضت حكمه البابا ليومعلوشتها . وعند ما تم قبولها آخر الأمر ، كان ذلك على الأرجح عمداً بقصد إحداث الانفصال عن الكنيسة اليونانية . والنتيجة التي تنطوى عليها الموضوع ، تقالة حقيقة خفية ولكنها حيوية ، خير أن كاتب هذه السطور

(١) يشير كما أسلفنا إلى المسيح الذي ملقه صليبين (٢٢٥م) وأصدر القانون ليوثا (٢٢٥م)

شبه مثالة ، بحالة ثانية (٢٢٥م)

(٢٢٥م) . (المترجم)

لا يستطيع أن يملك فيها برأى . فالمسيحية اللاتينية تعتقد أن الروح القدس يثبت من الأب ، ومن الإبن ، على حبر يعتقد المسيحيون اليونان والشرقيون بأن الروح القدس إنما يثبت من الأب دون أي ذكر للإبن . وهذا الاتجاه الثاني يبدو كأنما يحمل هوناً ما نحو وجهة النظر الأرثوذكسية . ولن نسوق إليك هنا إلا القليل من القول في تنظيم شريمان للإمبراطورية . فقد كان من شدة القلق وعدم الاستقرار وكثرة المشاغل بحيث لم يتبها له أن يدرس صفة خطفه أو يبحث في شروط الاستقرار السياسي ، وأجبر الأمور بالذكر في هذا الصدد هي أنه أوصى ابنه وخليفته ، لويس الورع (٨١٤ - ٨٤٠) ، بأن يأخذ الحاج من الملحق ويحج نفسه بنفسه . على أن لويس الورع كان أتقى من أن يتسلط بهذه الصلوات عند ما اعترض البابا .

وقد تشرع شريمان أعظم آثار بقراءته للكتاب المقدس ، فإنه أصبح مع تقدم الزمن ، جيد المعرفة بالكتاب المقدس ، ومن خصائصه المألوفة أنه بعد ما توج إمبراطوراً ، طلب إلى كل ذكر من أفراد رعيته تجاوز الثانية عشرة أن يحدد له قسم طرلا ، والطامة ، وأن يصعد بأن يكون لا مجرد فرد طيب من أفراد الرعية بل مسيحياً صالحاً . وكان رفض التصعيد والارتداد بعد التصعيد جرأته حقونها الإعدام .

فعل الشيء الكثير لتشجيع فن العمارة ، فاستحضر معماريين إيطاليين حليدين ، من دالماتيا (Ravenna) بصفة خاصة ، ونحن مدنيون لهم بكثير من المهاني الجميلة التي بما زالت تبهج السامعين في ورمز وكولونيا (كولن) وغيرها من بلدان أرض الراين . وبذل جهداً كبيراً للهوض بفن العمارة الرومانسكي ،^(١) الذي سنصفه في القسم التالي . وأسس حديداً من الكاتدرائيات ومشارب الأديرة ، وفضل الشيء الكثير لتشجيع دراسة اللاتينية (الكلاسيكية) القديمة ، وكان حارياً ممتازاً شديد الولع بموسيقى الكنيسة . على أن احتمال تحده باللاتينية وفهمه للإغريقية مسألة فيها جهال ونظر ، ولعله كان يتكلم اللاتينية الفرنسية . ومع ذلك فإن الفرنسية (Frankish) هي لئله المعادية . وقام بجمع مجموعة من الأغاني والأقاصيص الألمانية القديمة . على أن خطفه لويس الورع صرح هذه لوثليها .

(١) الرومانسكي طراز من فن العمارة وسط بين الطرازين الروماني والقوطي . انظر يرب أودوا من القرن التاسع وعاشه عشر . (الترجم)

وتبادل الرسائل وهرود الرشيد الخليفة العباسي بغداد ، الذى يحتمل أن مودته له لم تأثر قط بما لقيه العرب الأمويون في أسبانيا على يده من شديد النكال ويرى جيون أن هذه المراسلات العذبة كانت تقوم على العزوف ، وأن « مركزهما المتباعدين لم يتركهما أى مجال لاحتكاك المصالح » . ولكن لما كانت الإمبراطورية البيزنطية تقوم بينهما في الشرق ، والمملكة المستقلة بأسبانيا في الغرب ، وانحطرت المشتركة من أثر تلك السهول العظيمة ، فقد كانت لهما أسباب ثلاثة قوية تدعو إلى تبادل المودة القلبية . ويقول جيون إن هرود الرشيد أرسل إلى شلمان على يد سفراءه مسطاطاً ظهراً وساعة مائبة ولبلا ومفاتيح النانوس المقدس . والمملكة الأخيرة تشير إلى أن المليك العربى كان يحد شلمان إلى حد ما ، حامى المسيحيين وللممتلكات المسيحية في مملكته ، ووطن بعض المؤرخين صراحة - أنه قد كانت هناك معاهدة بهذا المصطلح .

٧ - الفن والعمارة الرومانسكيان

كان يحدث في الشرق بدافع المؤثرات المسيحية ، أن فن عمارة الإمبراطورية الرومانية للفاخر الاتزان والجسود ، أى فن البهامة الذى يوجد في تدمر وبعلبك . قد أُلِمَ به تصوير سريع حقيقى بحول به نحو جود البهامة الأليزية التى للطرز البيزنطى ، أما في الغرب فكانت تلم به تطورات متغاية وإن لم تكن متاضرة تلك تماماً . وقد شاع إطلاق اسم « الرومانسكى » على أحتراب جملة من المباني التى فيها جميعاً صفة مشتركة : لأنها مشتقة جميعاً من التقاليد الفنية الرومانية : التى أوهرن قوتها وكبحها انتشار القفر وعبقة عامة في أرجاء العالم ، ولكتبا تشهد أيضاً في كل مكان بوجود تأثيرات عنصرية جديدة وضرورات اجتماعية جديدة . فلم تعد هناك بعد أية مدرجات ولا أية سقايات عظيمة قماء ولا أى أنوار نصر ولا معابد تقام للألثة . بل كانت هناك حصون وقلاع ضخمة مستديرة أو مربعة ، وكنائس وأبراج . ويصير البرج آنذاك لأول مرة مهما في أوروبا ، ذلك أن فن العبارة أخذ يطو مشعناً . وقد كنا حتى الآن لا نشاهد



(شكل ١٦٧) رسم بارز من قبر هرمان في الكسار لانييل يملك وهو يكرس كنيسة القديس

الأبراج إلا في أرض الجزيرة بالشرق . ولم تحاول المبادئ في العالم للمصري ولا الملتيني ولا الروماني أن تشق عنان السموات . حقاً إنه توجد أبراج في التجميعات الرومانية والمليانية وفي سور الصين العظيم ، وهي أجزاء من الاستحكامات الدفاعية ، ولكن هنا يكاد يكون كل مظهر من الأبراج حتى الحديقة المسيحية . ثم يصبح البرج ضرورة لا بد منها في عالم يغير عليه الهون والغرب وقراصنة البحر من كل الأنواع . ومنذ ذلك في قسم قابل من أهل الشمال (Northmen) والغرب والمهريين . وتصبح الكنيسة ضرورة أخرى بسبب صلاة الجماعة التي يذهب إليها الدين الجديد ، وطبعاً أن يظهر الاثنان جنباً إلى جنب .

وتفترق ديانا ، الكتاب والفكرة ، الجديتان : النصرانية والإسلام ، في هذه الصفة ، فإنهما يجهدان أن تصلا إلى قلب كل إنسان . فكان لابد من حشد الناس في مكان العبادة والقرآن ، وكان لابد من تكبيرهم بالصلاة والتعبئة . ولذا أطلق من العبادة الإسلامي لوق زمراته ، وهي المثلثة التي يمكن من فوقها دعوة الناس

وهذا بهم . ولم تعد المسيحية تستطيع الاكتمال بالمجد العظيم الصغير الخاص بالآلة
الأكلمين ، فكان لازماً أن تبقى الكنائس كبيرة منسجمة بالجنات ، لتضم كل من
فه الناحية من المؤمنين . وكان لا بد من دعوة الناس لخرج الجرس .
لهجر طراز المجد الإمبراطوري ، وحدث الحاجة إلى المهاني القسيمة الممارين
المسيحين لتحويل بوجههم إلى نموذج دور الفضة الرومانية وأهني بها البسيليكا
(Basilica) (١).

ومن المشجّل علينا في هذا المجال التناح لنا أن تقفو القن « الرومانسكي »
بمختلف أنواعه وأشكاله الجمية ، فزاده وهو ينقل مصحولا إلى لمن يزعملى ناحية للشرق
ثم وهو يعدك على يد النورمانديين والسكسون والمقرنية . على أن عهد الاستقرار
الذي حل إبان حكم شرلمان جمع تحت وحافته كل ما في أوروبا الغربية من قوى فنية ،
وإنما يصل الطراز الرومانسكي إلى أبرز مستويات تعبيره من ذاته في مباني كاتدرائية
إكس لا شابل (إكس) وأمثلة .

وكما حدث من انخفاض الأشكال الجمية المثلثة للكاتانات الجمية الذي لاحظناه
في القرنين البيزنطي والعربي ، تواصل في أوروبا الغربية أثناء تلك العصور المضطربة ،
انخفاض منظر له وإن لم يكن تاماً . حتى أن المثال الذي كان يستطيع أن يعالج
بقوة أوضاع الإنسان أو الحيوان ، لم يعد له وجود على ظهر البسيطة في
أية منطقة غربي بلاد الهند . والتجاً فن النقش والتصوير إلى الأديرة . إذ
أن تحلية الكتب بالصورة ارتفعت إلى مستويات عالية من الإتقان في الإمبراطوريتين
الرومانية والبيزنطية ، ولم تنتشر خط انتشاراً تاماً . وإنما أضافها على قيد
الحياة خدوات الرهبان المسيحيين وروحانهم ، كما كان يصعد لها النشاط
بإبدال الأساليب والفكرات . وكانت الأديرة الإولندية تخرج حلة عصر مبكر يقامى إلى
القرن السابع عظمولات ذات جمال أعماذ . ويرجع كتاب الرقائق (The Book of Kells) (٢)

(١) البسيليكا أو القديس كاتدرائية الرومان قدامات مستطيلة ذات سقفين من الأحاد ولها عرب
معدن دائري في نهايتها ، تستخدم في الشؤون القسسية والدينية . وتقول آخرها لها يد إلى كنائس
مسيحية . (للتقديم)

(٢) كلمة مستأدا الجملة الرقيق أو القليل أو الميكات (حل لغزاً وراء الإنسان في الشبيكة من عيوب
مطاطة لركة بينها تقويماً أو حطاً) وعليه يمكن تسمية هذا الكتاب باسم «كتاب الرقائق أو الميكات»
(للتقديم)

اللى هو نسخة من الأناجيل بكنية ترينتى (Trinity College) بدلين ، الى ذلك العهد . وعائل الإنتاج الكلتى الإنتاج العربى الأول عائلة غربية فى امتناعه عن استخدام صور الأشكال الحية فى زخارفه . وألوانه وتصميماته بدية ، ولكن الرسم فيه زوى حثير ، واحتفظت الموترات الكلتية بالموترات الكلاسيكية والبيزنطية فى التهمة الفنية ببلاد شرلان . وهناك ارتفعت الخطوط المحلاة بالصور المثقلة بالذهب الى أبدع وأروع مستوياتها .

على أن بعض المتاحف الإنجليزية والتورماندية تبدى شيئا من التمرد بإظهارها ميلا الى القرن التحيل ورسم الأشكال بالخط المحيطي^(١) ، وشرعان ما تنطلق نحو عمل الصور المصغرة Miniatures أو المنصحات . على أن الانعطاف التوسيعى الذى لحق فن تحلية الخطوط بالصور ، واختفاء روح المبادعة والابتراع فيها بسبب انحراف الطاقة الفنية الى أوساط Media أخرى^(٢) ، لم تصبح ملموسة إلا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر .

— الفرنسيون والألمان يتم انفصالحهم

لم تعيش إمبراطورية شرلان بعد ابنه وخليفته لويس الورع ، لأنها انشطرت الى أجزاءها الرئيسية الأصلية . ذلك أن سكان بلاد الغال من الكلت والفرنجة ذوى الصبغة اللاتينية يأخذون عند ذلك فى أن يتميزوا تحت اسم فرنسا ، وإن كانت فرنسا تلك متضمنة الى عدد من الدوقيات والإمارات انقساماً لم يجعل عامه فى معظم الوقت إلا وحدة اسمية ، وشرعت الشعور الناطقة بالألمانية بين نهر الراين وبين الصقالبة فى الشرق تكون بالمثل صورة لألمانيا أشد من صورة فرنسا القساماً . حتى إذا ظهر آخر الأمر إمبراطور حقيقى فى أوروبا الغربية (٩٦٢) ، فإنه لا يكون فرنجيا بل سكسونيا فقد أضفى المغلوبون فى ألمانيا هم السادة .

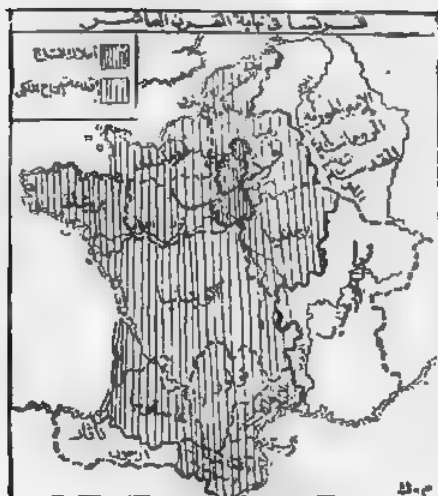
وإذا لئلا نرى هاجما أول الإشارات الى صنف جديد من أصناف التجمع السياسى فى أوروبا ، وهو فجر ما نسميه الآن « بالقومى Nationalism » . وهى شىء أشبه ما يكون ببداية إحدى عمليات البلور ، أو قل إنها عملية تقاريج وفرز حدثت فى الخطيط المتلاطم الزمام الاضطراب الذى جاء فى أعقاب تحطم النظام الإمبراطورى .

(١) الخط المحيطى : طريقة فى الرسم تبرز فيها الخطوط الخارجية لشيء من غير تلوينه . انظر لترجم كتاب « القرية من طريق الكس » لهربرت روب (الألب كتاب)
(٢) الوسط : المواد والأصناف والوسائل الفنية والمادية والتكنيكية لصيرورة الفن . (المترجم)

ومحال أن تغفون هذا المقام أحداث القرنين التاسع والعاشر بأي فكر من التخصيل ، مترجمين ما جرى فيه من الخلافات والحجالات والادعاءات وحسوف القوم والاستيلاء . فقد كانت تم أوروبا حالة من الفوضى والخروج على القوانين وحروب وكضربات من أجل القوة والسلطان . وفي (٩٨٧) انتقل ملك فرنسا الإسمى من أبساي الكارلوفنجيين ، وهم آخر سلالة شرلمان إلى يد هيو كاييت ، الذي أسس أسرة ملكية جديدة . وكان معظم أتباعه للزعميين مستقلين في الحقيقة ، تراعين إلى خوض بحمار الحرب على الملك لأكل استغراؤ . فكانت ممتلكات دوق نورماندى مثلا أشد سعة وأحظم قوة مما كان يملكه هيو كاييت نفسه . وتكاد الوحشة الوحيدة التي تجمع شتات فرنسا هذه ، التي كان للملك عليها سلطة إسمية ، تنحصر في عزم ولاياتها الكبرى جميعاً على مقاومة أي اندماج في أية إمبراطورية يتسلط عليها حاكم أجنبي أو يسودها البابا . وفيما علنا ذلك التنظيم الهبط الذي كانت عليه تلك الإرادة المشوكة ، فإن فرنسا لم ترد عن رقعة شطرنج مكونة من نبلاء مستقلين أو يكادون . كانت الحقبة حلبة يتاه قتالها وإقامة تحصينات ، وفرة ما يسمونه بالحرب الخاصة ، في كل أرجاء أوروبا .

- وتكاد حالة روما في القرن العاشر أن تعجز القلم عن أي وصف . لأن الحلال إمبراطورية شرلمان ترك البابا ولا حتى له : شبهة يهزئة والغرب الذين استولوا على صقلية ، ويحترش به نبلاء روما القسوس . ومن أقوى هؤلاء النبلاء امبراتوران ، هما ثيودورا وماروزيا وهما أم وابنتها (١) ، تعاقبا في الاحتفاظ بقلعة سانت أنجلو (انظر ص ٨٣٠) ، التي استولى عليها ثيوفيلانكت زوج ثيودورا النبيل ، كما استولى على معظم سلطة البابا الزمنية . وكانت هاتان المرأتان من البغراء وموت القسوس خلاصة كأي أمير ذكر في ذلك الزمان ، والمؤرخون يسوينها كأنها كانتا أسوأ من الأمراء عشر مرات . وقبضت ماروزيا على البابا يوحنا العاشر وسجته (٩٢٨) . وصرحان ما توفى في ظل رعايتها ١١ . . . فأما أنها ثيودورا فكانت خليله له . ثم نصبت ماروزيا بعد ذلك ابنتها غير الشرعي على عرش البابوية ، باسم يوحنا الحادي عشر .

(١) ولذلك جرد اسم ثيودورا القوي ، هي شبهة ماروزيا . (المؤلف)



(شكل ١٢٨) خريطة لفرنسا في نهاية القرن التاسع عشر

ومن بعده شغل كرمي القليس بطرس حينها يوحنا الثاني عشر . وإن ما سطره
 جيون عن سلوك يوحنا الثاني عشر وأخلاقه ، ليتوارى آخر الأمر خجلا وراء ستار
 من الحواشي اللاتينية . وقد جُرد هذا البابا يوحنا الثاني عشر من منصبه على يد
 الإمبراطور الألماني الجسليد أوتو ، الذي عبر جبال الألب واعتمر إلى إيطاليا
 لينتج (١٩١٢) .

وهذه السلسلة الجديدة من الأباطرة السكون ، التي ارتفعت على هذا النحو إلى



وتبة الصلابة ، تشب
 إلى شخص معين اسمه
 هنري الصبي ، انتخبه ملكا
 لألمانيا جميعه من قبله
 والأمراء والأساقسة الألمان
 في (٩١٩) - وفي (٩٣٦)
 خلفه في الملك ابنه أوتو الأول
 الملقب بالكبير ، الذي
 انتخب كذلك خليفة له في
 إكس لا شابل ، وهو الذي
 انطلق آخر الأمر إلى روما
 بدعوة من يوحنا الثاني عشر
 لكي يوجبه إمبراطورا في
 (٩٦٢) . وقد أجبره على
 تجريد يوحنا ثانيا بعد هزائه
 ذلك البابا له . ولما تلم

(شكل ١٢٩) خريطة الإمبراطورية لأوتو الكبير

أوتو الأول مقابل سلطته الإمبراطورية ، لم يكن ذلك منه نظما على روما فلما كان
 إعادة للزواج القديم على السلطان بين البابا والإمبراطور إلى حالة تملأ الاحتفال
 والكرامة . وتبع أوتو الأول على العرش الثاني (٩٦٣ - ٩٨٣) ، الذي
 أعقبه أوتو الثالث (٩٨٣ - ١٠٠٢) .

وربما جاز لنا أن نشير هنا أنه ظهرت ثلاث أسر من الأباطرة في أوائل
 القرون الوسطى - هي السكسونية - من أوتو الأول (٩٦٢) إلى هنري الثاني ،
 وتنتهي في (١٠٢٤) ، والساليانية (٥) : من كوراد الثاني إلى هنري الخامس وتنتهي

(١) كلمة Salina مشتقة من سالو Salvo وهم كنهة إلى الحرب مارس Mars من علماء الرومان .
 والمقصود هنا من كلمة ساليان هو النسبة إلى قبيلة من قبائل الفرنجة يسكنون في الراين الأدنى . (انترجم)

قراية (١١٢٥) ، ثم أسرة هوفشتاوفن ، كونراد الثالث إلى فردريك الثاني :
وتنتهى في (١٢٥٠) . وكانت أسرة هوفشتاوفن سواية الأصل . ثم جاءت أسرة
هابسبرج ، مبتدئة برودولف الأول في (١٢٧٣) ، واستمرت حتى (١٩١٨) .
وإذا لتكلم عن الأسرات المالكة هنا ، وإن جرت العادة بإقامة احتفال عظيم
لا انتخاب كل إمبراطور عند توليه العرش .

وطبع للكفاح بين الإمبراطور والبابا على السيادة في الإمبراطورية الرومانية
المتفتحة موراً كبيراً في تاريخ التطور الباكر من القرون الوسطى ، وسنرى ذلك
من طورا مسودة تخطيطية لأدواره الرئيسية . ومع أن الكنيسة لم تلحق بعد ذلك
أولاً إلى مستوى يوحنا الثاني عشر ، فإن تاريخها يقلب بين أدوار من القوة
السيطرة والقوضى الضعيفة والمواضع الخاضعة .

ومع كل هذا فإن التاريخ للظاهري لعالم المسيحية ، ليس التاريخ الكامل
لذلك العالم ، فلما أن قصر الاتيان كان يضارع في الدهاء والحق والإجرام
معظم البلاطات المعاصرة له ، نشوء لا مناص من تسجيله . على أننا إن
أردنا أن نحافظ على التناسب التام لللازم في هذا السفر التاريخي ، فواجبنا
يحم علينا ألا ننسقط في توكيد ذلك . وينبغي لنا أن نتذكر أنه على أكثر
تلك المصور جيماً ، ظل ما لا حصر له من رجال وسماء لم أفرهم المسمى في
هذه الدنيا ، وإن لم يخلفوا من ورائهم أن أثر تسجيله صفحة المؤرخ .
أقول ظلوا يعيشون متأثرين بذلك الروح الصادرة عن يسوع الناصري التي بقيت
حية بل لن تبرح حية في لباب المسيحية وسوداتها ، يعيشون متأثرين بذلك تأثراً
حلهم على اتخاذ سبيل الحياة كرم في جلته يتطوى على مبادئ الموت ، كما دفعهم
لأن ذلك كل عمل يتجلى فيه الإسلام والعدم الأناية . كانت مثل تلك الأنفس
بركة تزيل من جو تلك المصور كل ما خلق به من أدوار ، ونعمة تتيح للناس
حالة أفضل . وكان ذلك على غرار ما كان في العالم الإسلامي حيث أنتجت روح
الإسلام جيلاً بعد جيل ثمارها من الشجاعة والأمانة والرفق

٩ - النورمانديون والعرب والمجريون والأتراك السلجوقيون

وبينما كانت الإمبراطورية الرومانية المقدسة وشعوب فرنسا وإنجلترا تظهر كما نرى في وسط الشرق السياسي البالغ الذي أصاب مدينة أوروبا الغربية ، فإن كلامنا هذه القليلة والإمبراطورية البيزنطية قد تعرضت لهجوم مثلث الجوانب : من دول الغرب ، ومن أهل دول الشمال ، ثم من شيء ثالث هو أبغظهما جميعاً تطوراً وأشدّها بأساً : من زحف جديد نحو الغرب قامت به الشعوب التركية خلال جنوب روسيا ، ومن آسيا الوسطى كذلك بطريق أرمينية وإمبراطورية بغداد .

لبعد أن سقطت الباسيون خلافة الأمويين ، تناقصت قوة الدافع العربي ضد أوروبا . لم يعد العالم الإسلامي متحداً : إذ كانت إسبانيا تحت حكم خلفاء أموي متفصل ، على حين أن شمال أفريقيا وإن كان خاصاً بالاسم للعباسيين ، كان في حقيقته مستقلاً ، وما لبثت مصر أن أصبحت في (٩٦٩) دولة منفصلة لها خلفاء شعبي خاص بها ، وهو وجعل إحدى الانتساب إلى علي وفاطمة « وأسس الخلافة الفاطمية » .



(شكل ٩٩٠ خريطة ظهور السلطنة)

وكان هؤلاء القاطمون المصريون ، وهم المسلمون ذوو القسطنطينية الأصغر ، متعصبين بالمشاركة إلى العباسيين ، ومعلواً الشيء الكثير لقتلوه ما بين الإسلام والمسيحية (١) من صلات طيبة . فاستولوا على بيت المقدس ، وتدخلوا في ريادة المسيحيين لفتح القدس . وكانت هناك كذلك في القنطرة الأخرى من الأملاك العباسية المتخلصة ، مملكة شيعية مقرها عارس . وكان أهم فتح قام به العرب في القرن التاسع هو صقلية ، ولكن ذلك الفتح لم يتم اجتياحاً على الطراز الرائع القديم أي في ستة أو ما يقاربها ، بل تم لإغصانها في جهد جهيد خلال قرن كامل من الزمان ، ومع نكسات كثيرة في كفة الحرب . وكان عرب إسبانيا يتنازعون في صقلية مع عرب إفريقية . وكان العرب في إسبانيا يهزمون ويحتلون عن أرضها أمام نهضة جديدة بلحا المسيحيون . ومع ذلك فإن الإمبراطورية البيزنطية وعالم المسيحية الغربية كانا ما يزالان من الضعف في البحر المتوسط بحيث استطاع المغربون والقراسنة العرب من شمال إفريقية ، أن يغزوا على جنوب إيطاليا والبحر اليونانية دون أن يمحوا أحد على نهجهم .

على أن قررة أخرى جديدة أطلت تظهر آنذاك في البحر المتوسط . وقد سبق أن أقرنا أن الإمبراطورية الرومانية لم تنسط قودها مطلقاً على شواطئ البلطيق ، ولا كان فيها قط القوة لدفع سلطانها إلى بلاد الدانيمرك . وتعلمت الشعوب الآرية النوردية في تلك الأقاليم المهمة الشيء الكثير من الإمبراطورية التي لم تستطيع لإغصانهم ، وقد استطاعوا أن أسلفنا الهونيين ضمن بناء السفن وأصبحو ملاحين ذوي إقدام ، فانتشروا عبر بحر الشمال غرباً ، و عبر بحر البلطيق وأعلى الأنهار الروسية إلى صميم ما هو الآن القروسيا . وكانت نوافسجورد الكبرى من أقدم مستعمراتهم فيها .

ولن دأوس التاريخ لا يضاً يجد في حالة هذه الشعوب الشمالية ما كان يقوله من المشقة والربكة لدى دراسته للإسكندريين في الأزمان القديمة ، والشعوب التركية

(١) أظفر هنا المؤلف القول على مواعده ، إذ لا يعرف حقيقة أن تسامح القاطمين مع الشرقيين والكنسايين كان مغرب الأفعال ، فقد اتفقوا من المسيحيين واليهود على الهدوء وذرته وكانوا أسراراً وتزجوا بهم ، وكان بعض عطفهم من أمهات كتابات . (المترجم)

المغربية في آسيا الشرقية والوسطى . فلها تظهر تحت هذه وغير من الأسماء ، كما أنها تشير ومختلفا . ففي حالة بريطانيا مثلا ، ترى أن الإنجليز والسكوتون والبلوت قد خروا معظم ما هو الآن بريطانيا في القرنين الخامس والسادس ، وجاء في أعقابهم في القرنين الثامن والتاسع الدانيمركيون وهم موجة ثانية من نفس الشعب تقريباً . وفي (١٠١٦) حكم في إنجلترا ملك دانيمركي ، هو كانوت الكبير ، ولم يقصر ملكه على إنجلترا بل تعداها إلى الدانيمرك والنرويج . وكان رعاياه يعمرون البحر بسفنهم إلى أيسلند وجرينلند وروما إلى القارة الأمريكية ، وجد حين من الدهر تبدلت في الآن فيه إبان حكم كانوت وأبنائه ، بوادر احتمال إنشاء اتحاد عظيم من أهل الشمال .

ثم انطلقت في (١٠٦٦) موجة ثالثة من نفس الشعب إلى إنجلترا ، من دولة « النورماند » في فرنسا ، حيث كان أهل الشمال مستقرين منذ أيام رولف العداء (٩١١) ، وحيث تعلموا أن يهكلموا الفرنسية . وأصبح ولم يبق نورماندي ولم يلبث (١٠٦٦) في التاريخ الإنجليزي .

وإذا نظرنا إلى هذه الشعوب من زلوية التاريخ العام ، وجدناها جميعاً تكاد تكون شعباً واحداً ، وألغياها موجات من أرومة نوردية (شالية) واحدة . ولم تكن هذه الموجات تنبع غرباً فحسب بل شرقاً كذلك . ولقد سبق لنا أن سجلنا حركة جد شائعة قبل هذه لتس الشعب تحت اسم القوط تنبع من البلطيق إلى البحر الأسود . وتبعها الفرع هؤلاء القوط إلى القوط الشرقية والقوط الغربية ، كما تأثروا الشجولات المليئة بالمغامرات التي انتهت لغز الأمر بتكوين مملكة القوط الشرقيين في إيطاليا ومديلات القوط الغربيين في إسبانيا . في القرن التاسع ، كانت لأهل الشمال حركة ثانية عبر روسيا في نفس الوقت الذي كانت فيه مؤسساتهم في إنجلترا ودوقيتهم في نورماندي قد أخذت تظهر إلى عالم الوجود .

ولاشك أن بين سكان جنوب اسكتلند وإنجلترا وشرق إيرلندة ولانندو ونورماندي والدول الروسية من العناصر المشتركة ما لا يكاد يحظر يائنا بحكم الإلف

والعامة . لهم جيماً من الناحية الأساسية شعوب قوطية ونوردية . وإن القرابة بين الروس والإنجليز تلاحظ حتى في موازين الطرفين ومكائيلهم . فإن لدى كل منهما البوصة والقدم النشالين (Norse) ، كما أن كثيراً من الكنائس النورماندية الأول في إنجلترا قد بنيت على مقياس بين استعمال الساجيى (وهو يعادل ٧ أقدام) وربع الساجيى : وهو مقياس نورسي (شمالى) لا يزال مستعملاً في روسيا . وكان أهل الشمال : الروسيون : هؤلاء يسافرون زمن الصيف ، مستعملين الطرق النهرية الوفيرة في روسيا ، وكاترا يحملون سفنهم على الأراضي القاصلة بين الأنهار المتجهة شمالاً وتلك التي تنساب جنوباً . وقد ظهروا على صورة قرصان أو مغيرين و تجار في كل من بحرى قزوين والأمود . وذكر المؤرخون العرب ظهورهم على بحر قزوين ، وعللوا أن يسموهم الروسين . وقد أهابوا على فارس ، وهددوا القسطنطينية بأسطول ضخم من القوارق الصغيرة (في ٨٦٥ ، ٩٠٤ ، ٩٤١ ، ١٠٤٢ م) (١) .

وفي عام ٨٥٠ م تقريباً نصب روريك أحد أهل الشمال هؤلاء ، نفسه حاكماً على نوفجورود ، واستولى خلفته الدوق أوليج (Oleg) على مدينة كييف وبذلك وضع أسس روسيا الحديثة . وسرعان ما قدرت القسطنطينية ما لدى الفيلك إمبر الروس من صفات حرية ، وكان الروم (اليونان) يسمونهم الفارانجيين (Varangians) ، وأنشؤا من هؤلاء الفارانجيين حرس إمبراطورى خاص . وبعد غزو النورماندين لإنجلترا (١٠٦٦) دُمج بعدد من الفانيسركيين والإنجليز إلى المنق فلهقوا هؤلاء الفارانجيين الروسين ، وواضح أنهم لم يحضوا إلا شيئاً لا يكاد يذكر من القوارق في اللغة والعادات يحول دون اختلاطهم ببعضهم بعض .

وفي نفس الوقت كان النورمانديون التازجون من نورماندى كذلك يكتشفون طريقهم إلى البحر المتوسط من الغرب . فهبطوا يادى* ذى يده مرتزة ، ثم مغيرين

(١) هذه التواريخ متولة من جيون بينا بعدما يرى ١٤٦٥ ، ٩٠٥ - ٩٠٧ ، ٩٣٥ ، ٩٤٤
(١٠٧١ - ٩٧٢) *History of Russia* مطبعة كلارندن . (الولف)

لحماهم انطاس ليا بعد ١ . ويحتمل أن تسجل هنا أن انتقام الرئيس لم يكن بطريق البحر ، بل في شراذم متناثرة بطريق البر . جملوا محترقين أرض الرافين وإيطاليا ، يبحثون من ناحية عن الخدمة الحربية والأصلا ب ، ومن ناحية أخرى بوصفهم حجاجاً . ذلك أن القرنين التاسع والعاشر شهدا إقبالاً عظيماً على الحج :

وحين بلغ هؤلاء النورمانديون مبلغ القوة ، تفهروا لأنفسهم وإذا بهم لصوص سلاويون ذوو بأس ، حتى لقد أرغموا الإمبراطور الشرق واللبا أن يبرما ضمتهم معاهدة ضعيفة غير فاعلة (١٠٥٣) . فغرموا البابا وأسروه ثم عما عنهم . ولجوا أنفسهم في كالابريا وجنوب إيطاليا والتزعوا صقلية من العرب (١٠٦٥ - ١٠٩٠) ، ثم هلعدوا الإمبراطورية البيزنطية نفسها (١٠٨١) تحت إمرة روبرت جويسكارد ، الذي هبط إيطاليا حاكماً مغامراً وبدأ حياته قاطعاً للطرق في كالابريا . كان جيشه يضم كتيبة من الصقليين للسليبي ، ضم به البحر من برنديزي إلى إبيروس (Epirus) في اتجاه مضاد لذلك الذي عبره الملك يروس لمهاجرة الجمهورية الرومانية ، قبل ذلك بثلاثة عشر قرناً (٢٧٣ ق . م) . فالتقى الحصار على مدينة دورالو البيزنطية المنيعه .

وفتح روبرت دودازو (١٠٨٢) . على أن خرج الحافة في إيطاليا استلحق عودته إليها ، ووضع حداً هائلاً لهذا الهجوم للنورماندي الأول على إمبراطورية بيزنطة ، مهياً بذلك فرصة لحكم أسرة آل كومنين (١٠٨١ - ١٢٠٤) . وحدث أن روبرت جويسكارد تمكن في أثناء منازعات أشد تعقيداً من أن يتبع لها المقام هاهنا - من محاصرة روما ونهبها (١٠٨٤) ، ولعله المناسبة يبه جيون للمدعى المسيحية في خطة والطمشان - إلى وجود تلك الكتيبة من مسلمي صقلية بين الناهبين . ثم حدثت في القرن الثاني عشر ثلاث هجمات نورماندية أخرى على الدولة الشرقية ، إحداها على يد ابن روبرت جويسكارد ، والأخريان من صقلية مباشرة بطريق البحر

ولكن لم يقض للعرب ولا للنورمانيين أن يلقوا الإمبراطورية المعجوزي بيزنطة

(١) انظر شترجم في مجموعة الآلاف كتاب ومكتبة المهدية كتاب الخدمة البيزنطية : تأليف سقيلن والسيان .

أر الإمبراطورية الرومانية المقدمة تلك الإمبراطورية الشيخة المصانية في الغرب =
بمثل تلك القوة التي جاءت بها الطغنة المزدوجة من المراكز الطورانية في آسيا
لوسطى ، التي يجب أن نتحدث عنها الآن .

لاحظنا لها سلف حركة الأفكار نحو الغرب والمجربين الأتراك الذين ترجموا
خطاهم . لقد أيام بين الأول فما بعدها ، كانت الدولة القرجية وما خلفها من
دول في ألمانيا ، في نزاع مع هؤلاء المجربين الشرقيين على امتداد أراضي الحدود
الغربية بأسرها . وقد صدم شرقان وأتزلهم التكال وأسس لنفسه ضرباً من
السيادة العليا بمنطقة امتدت شرقاً حتى جبال الكابات ، ولكن هذه الشعوب
عادت في فترة الضعف الذي تلا وفاة هرمان - وقد تحطمت عند ذاك تحطماً
يتراوح ريادة وتفصلاً وتسمت في الينانات التاريخية باسم المغناريين - عادت
فاستردت بقيادة المجربين حريتها كاملة غير متقوصة وأخذت تغير كل عام إغارات
كانت تصل أحياناً إلى نهر الراين ، ويذكر جيون أنهم دمروا دير القديس جاك
(Q) بسويسرا ومدينة برين بلأانيا - وكانت أعظم فترات طاراتهم بين ٩٠٠ =
٩٥٠ . كما أن أقصى جهد بذلوه هو الذي توغلوا به خلال ألمانيا إلى فرنسا ، ثم
ساروا من فوق جبال الألب ، عاكفين إلى وطنهم ثانية بطريق شمال إيطاليا وذلك
في ٩٣٨ ، ٩٣٩ . ولما كان هذا الشعب من القصور في خروج بلاده ، فقد كان
يستمع في موطنه بحرية عظيمة جداً . إذ يقال إنهم كان لهم في القرن العاشر دستور
يسمى قنلي مروت .

ولذا أن هذه لاضطرابات وأخرى مسلحتها من فورنا دفعت بالبلغار جنوباً -
فلزمهم وطنوا أنغامهم كما ذكرنا آنفاً بين الدانوب والقسطنطينية تحت إمرة كرموم
(Krum) . والبلغار شعب تركي الأصل ولكنهم منذ ظهورهم لأول مرة في شرق
الروسيا ، كانوا يصيغون بالتحليل المتكرر صفاتة غاماً في جنسهم ولقبتهم . وأقاموا
حل الولية حيناً بعد لستراهم الأول في بلغاريا . وقد أولم منكمهم يوريس
(٨٥٢ - ٨٨٤) اللواتم لمعوتين من المسلمين ، وبلوج أنه فكر في اعتناق الإسلام ،
على أنه تزوج كثر الأمر أميرة بيزنطية ، وحلم نفسه وشعبه للعقيدة المسيحية .

ومن أدب المغناريين والمجر حتى أخذوا يحرمونا الحضارة الغربية ببعض الشيء هنرى

القياد ملك ألمانيا المنتخب وأوتو الأول أول إمبراطور مسكونى في القرن العاشر. بيد أنهم لم يوطنوا النفس على اعتناق المسيحية حتى قرابة ١٠٠٠ م. وهم وإن تعصروا ، فإنهم احتفظوا بلغتهم التركوفونية (المجرية) ، ولا يزالون يحافظون عليها إلى يومنا هذا . واحتفظوا كذلك بقدر معين من الحرية تحت الملكية التي فرضت عليهم . ومسنودهم المكتوب « الخاتم الذهبي Golden Seal » يرجع تاريخه إلى ١٢٢٢ ، وهو حديث « شرق » (كما جئنا كارتا) أي العهد الأعظم الإنجليزي في تقيده لسلطة الملك المطلقة . واشترط الملك استيفان أول ملوك المجر عندما قبل المسيحية رسمياً ، أن المجر - على عكس يوحيميا وبولندا - يجب ألا تدخل في نطاق الإمبراطورية الرومانية المقدسة .

ومع ذلك فإن البلغار والمغارين ليسوا آخر الشعوب الذين كانت تحركاتهم نحو الغرب توام الزحف التركي عبر جنوب روسيا . إذ انتدفع الخزر من خلف المغارين والبلغار ، والخزر شعب تركي انحطت به لبة عظيمة جداً من اليهود المحرومين من القسطنطينية . فانحطوا بهم واجتلبوا إلى دينهم عدداً كبيراً منهم تحولوا عن الوثنية . ولدى هؤلاء الخزر اليهود يجب أن تنسب مستوطنات اليهود العظيمة في بولندا وروسيا . ثم جاء في أعقاب الخزر أيضاً غلبوا عليهم وعمرهم قدم هم اليهتسج (أو الهاتمانق) ، وهم شعب تركي متوحش نسج هم لأول مرة في القرن التاسع ، وقد كتب لهم أن ينحطوا ويخضوا كما فعل ذوو قرباهم المون قبل ذلك بقرون حصة .

وعلى حين كانت كل هذه الشعوب تسير غرباً ، فإن علينا عندما نفكر في سكان تلك الأقاليم الرومية الجنوبية ، أن نتذكر أيضاً غزو أهل الشمال ورواسهم بين البلطيق والبحر الأسود ، وتوحيص صلاتهم بالمهاجرين الأتراك توتق السدي بالهجمة ، وأن لا يهيب عنا أيضاً أنه كان هناك عدد ضخم من السكان القمالية ، ورتة وخطفاء الإسكيليين والسرمايين^(١) ومن شابههم ، الذين استوطنوا آنفاً تلك المناطق الخصبة

(١) *Sarmatians* كلمة تنسب إلى فصيلة تكلمت نفس اللغة التي كان يتكلمها الإسكيبون ، ويعتقد أنها انحلت من أصل ميدي ، وذلك ليس من الجنس الإيراني ؛ ولو أن بعض الباحثين يظن أنها تنسب إلى الجنس الأورالي *Ural-altaic* ويطلق الناس في حديثهم أحياناً كلمة سارماتو على البولنديين . انظر المجلد ص ٢٠٠ ط ٢ . (المترجم)

المضطربة المهرومة من كل قانون . انعطفت كل هذه الأجسام أحدها بالآخر
وتماثلت بعضها مع بعض . وبذلك انتشار الفئات العقلية (السلافية) انتشاراً عاماً
في كل مكان هذا بلاد المجر ، هل أن السكان ظلوا يغلب عليهم عنصر السلافي .
فلما ما هو الآن ورومانيا ، هل الرغم من تكرار مرور الشعوب ومن الغزو تلو الغزو .
ظلت تضاليد وراثت الولايتين الرومانيتين ماكيا وموسيا السفلى تحتفظ على بقايا لغة
وذكرات لانيية .

هل أن هذا التوغل للبشر للشعوب التركية ضد المسيحية في شمال البحر الأسود
لا يكاد في النهاية يبلغ في الأهمية درجة توغلهم عبر البالد في جنوبيه خلال دولة
الخلافة . وليس في إمكاننا أن نتناول هنا قبائل الشعوب التركية التركمانية وانقساماتها
ولا الأسباب الخاصة التي أبرزت إلى مكان العدوة القبائل التي كانت تحت حكم
البيطرة السلجوقية . ففي القرن الحادي عشر انطلق هؤلاء الأتراك السلجوقيون بقوة
لا يتقادم لا في جيش واحد ، بل في مجموعة من الجيوش ونحت إمرة أخوين ، -
وأطبقوا على الحطام المتداعي للإمبراطورية الإسلامية .

ذلك بأن الإسلام كف من زمن بعيد عن أن يكون إمبراطورية واحدة . فإن
الحكم العباسي السني انكشف حتى لم يعد يغفل إلا واحة الأرض التي كانت تسمى
« بابل » يوماً ما ، وحتى في بغداد نفسها لم يكن الخليفة إلا كاتماً يدين بمنصبه لحراس
قصره الأتراك . فإن تركيا ذات سلطان كسلطان « محالف القصر » كان الحاكم الحقيقي .
وللشرق من الخليفة في فارس وإلى الغرب منه في فلسطين وسوريا ومصر ، كان
في الحكم طوائف شيعية منزلة (١) .

وكان هؤلاء الأتراك السلجوقيون سنيين يأخذون بالفتيدة السنية ، فأطبقوا عند
ذلك على الحكام الشيعيين ومنصبهم السلطان ، وظلهم ، وأقاموا أنفسهم حاة الخليفة
البغدادى وقتلوا لأنفسهم سلطة « محالف القصر » الزمنية . وانزحوا لرميلية من
يد الروم في زمن مبكر جداً ، وإذا تهيأ لهم النفاذ من الحدود التي صمدت قوة الإسلام
لويعة قرون ، اندفعوا لغزو آسيا الصغرى إلى ما يندى أبواب القسطنطينية . فقد نتج

(١) لا إعمال السنيين يمدون الفتية من الكثرة ، إليهم الاحد بشر المسلمين ، وذلك لأنهم
في الواقع مسلمون يؤمنون بالله ونبيه ركبته . (الترجمة)

عن غزو أرمينية أنهم داروا من الشمال الشرق حول حاجز جبلية الجبل الذي طاماً صد جيوش المسلمين . ثم ما لبث الترك تحت قيادة ألب أرسلان الذي وسع في يده كل قوة السيلوق ، أن حطموا الجيش البيزنطي تحطياً تاماً في موقعة مازيكورت (Manzikert) أو ملازجورد (Malazgirt) (١٠٧١) . وكان تأثير هذه الحركة في أعنية الناس عظيماً جداً . ذلك أن الإسلام الذي بدأ عليه الانحلال البالغ والذي كان متصفاً على نفسه دينياً وسياسياً ، قد تبع الناس إليه فجأة ، وإذا به قد نهض ثانية من كبوته ، وكانت الإمبراطورية البيزنطية المعجوز الآمنة هي التي لاح أنها على شفا الانهيار .

كان قدان آسيا الصغرى سريعاً جداً . واستقر السلاجقة في غولية (Iconium) ، فيها هو الآن بلاد الأناضول . ولم يمضِ طويل زمن حتى آلت إليهم قلعة نيقيا المقابلة للعاصمة .

١. - كيف استغاثت القسطنطينية بروما

سبق أن تكلمنا عن هجوم النورماندين على الإمبراطورية البيزنطية من الغرب ، وعن معركة دوراندو (١٠٨٢) ، كما ألقنا إلى أن القسطنطينية كانت لا تزال هي ذكريات قوية وسعة عن الفترات الروسية البحرية (١٠٤٣) . لا جرم أن بلغاريا وروثمت وتضرت . ولكن حرباً ضرورياً غير فاصلة كانت تلور وحامها إليها وبين البشيق (البشاق) . وكانت بدا الإمبراطور ملتين بالمشاغل في الشمال والغرب . وما قد جاء من لشرق ذلك التهديد المطير الذي زاد الطين بلة . ولا بد أن تقلم الأتراك السريع في تلك البلاد التي طال بها العهد بأيدي بزنطة قد لاح لها في صورة التذير الهادي بكارثة قاضية . لذلك اتخذ الإمبراطور البيزنطي ميخائيل السابع تدافع هذه الأخطار التي تناوشته من كل جانب ، خطوة يرجح أنها بدت له ولروما على السواء ذات أهمية سياسية قصوى . لأن العالم اليوناني تطلع إلى أنيه اللاتيني الذي دب فيه ديبب الحياة من جديد . واتمس المساعدة من البابا جريجوري السابع . وما لبث خلقه

الكسوس كومنيتوس أن كرر ذلك الرجاء على البابا ليدان الثاني في مزيد من الإصلاح والاستحداث .

ولا بد أن هذه الاستغاثة بدت في أعين مستشاري روما تهزأ نادوة لتأكيد سياسة البابا على العالم المسيحي بأسره .

ولقد تبعنا في هذا التاريخ نموذاته الفكرة الناجمة إلى إنشاء حكومة دينية العالم المسيحية — ولبشر كافة من خلال عالم المسيحية ذلك — وأظهرنا كيف أنه كان من الأمور الطبيعية التي تقتضها الضرورة أن تجد تلك الفكرة في روما مركزاً لها بسبب ما اتخذت به من موارث التقاليد عن فكرة الإمبراطورية العالمية ، كان بابا روما هو البطريك الوحيد في الغرب ، وكان رئيساً دينياً لمملكة مترامية الأطراف ، لها في الثالثة هي الثلاثية ؛ فلما بطاركة الكنيسة الأرثوذكسية الآخرون بهم قوم يتكلمون اليونانية ، ولما كان صوتهم غير مسموع في كل أرجاء ممتلكاته ؛ فلما إلى أن إضافة عبارة « ومن الابن أيضاً Pater noster » إلى العقيدة اللاتينية أدت إلى فصل المسيحيين البيزنطيين بواسطة إحدى النقاط الدقيقة الخفية التي يتعلم منها كل توميني . (وفي الانفصال النهائي في ١٠٥٤) .

كانت حياة قصر اللاتيران دائمة التغير من كل نواحيها بصير شاغل كرسى القديس بطرس ؛ فكانت روما البابوية في بعض الأحيان مباءة فساد وفساد ، شأنها أيام يوحنا الثاني عشر ، وكان يظنها في أحيان أخرى سلطان رجال يفكرون تفكيراً روحياً ونبيلاً . على أنه كان من وراء البابا جمعية الكرادلة والقساوسة وعدد كبير من الموظفين ذوي التعليم الراق ، الذين لم يغيب عن أبصارهم قط حتى في أسوأ الأيام وأنظمتها ؛ تلك الفكرة المظلمة الفاضحة القاتلة بمملكة دينية مقسمة ، وبسلام من المسيح بعم أرجاء الأرض قاطبة ، وهي الفكرة التي ترجم عنها القديس أوغسطين . ظلت هذه الفكرة طوال المصور الوسطى هي فتوة للعالم التي توجه روما . أجل إنه حدث أحياناً أن سادها بعض العقول الخبيثة ، وعندئذ تلعب روما في شؤون العالم دور عجوز شرهه خنزون مأكرة مكرراً جنوباً ، وربما جاء في إثر ذلك دور رجولة

ودعاه خيوى كامل أو خور رجمة وعظمه ثم قد تأتى بين هذا وذاك فترة تمعيب أو تقعر وإدعاء العلم ، يوم يندو الانتهاء كله منصباً على الدقة المتعينة . لو وبما حدث انهيار خطى ، يصيح معه الاتيران حرشاً لأحد المستبدين بأمرهم المنسبين فى الملذات أو المخربين بالجمال المسعدين ليص كل ما تستطيع الكنيسة أن تقدمه من أمل أو شرف مقابل تقود ينفخها على الملذات والمظاهر ، ومع ذلك فإن سقبة الباجوة كانت على البعلة تسير فى طريقها ، ولا تلبث حتى تبرز بعد ذلك أمام الربيع ثانية .

وفى هذه الفترة التى وصلنا إليها الآن ، وهى مدة القرن الحادى عشر ، كانت وما تحت نفوذ شخصية سيماس عظيم نادر المثال ، هو هلبيراند (Hilberand) ، الذى لولى مناصب متنوعة تحت ريملة مجموعة متعاقبة من البابوات ، ثم أصبح آخر الأمر بابا باسم جريجورى السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥) . ولما نتجد أن الرقطة والتهوانى والفساد قد عمت بفضل من الكنيسة تماماً ، وأن طريقة انتخاب البابوات قد أصلحت ، وأن كفاً عظيماً قد استمر فيه مع الإمبراطور على مسألة ذات حيوية بارزة ، هى مسألة « التيينات » Investitures . فهل كان البابا أو للعاهل الرسمى هو صاحب القول الفصل فى تعيين الأساقفة على أبرشياتهم ؟ ولما لتدرك على وجه الحسن كم كانت تلك المسألة حيوية بالغة الأهمية إذا تذكرونا أن مايزيد من ربع الأراضى كان فى كثير من الممالك ملكاً لرجال الكنيسة . وكان رجال الكنيسة الكاثوليكية يستطيعون حتى ذلك الحين أن يتزوجوا ، ولكن البروتية غرخت آنذاك على جميع القسوس رغبة فى فصلهم فصلاً كاملاً عن العالم وجعلهم أداة طيعة فى يد الكنيسة على وجه أكل

على أن النزاع على مسألة « التيينات » حال بين جريجورى السابع وبين الاستجابة الفعالة لأول استصراخ جماعه من يزنطة ، غير أنه ترك فى شخص لوبان الثانى خليفة له ذا فضل وخطوة (١٠٨٨ - ١٠٩٩) ، فلما جادته رسالة أليكسيوس ، استسلت لوبان على القود بالفرصة التى هيأتها له لضم كل الأفكار والقوة فى أوروبا الغربية فى تيار واحد من المحبة والمهدف . وكان يرجو من وراء ذلك أن يقضى على « الحروب الخاصة » السائدة فى أوروبا ، ويجد المخرج المناسب الذى تنصرف إليه طاقة التورماندين

المثالة . ورأى فيها كذلك فرصة لنضجة الدولة والكنيسة البيزنطية من مكانتها .
ويست سلطان الكنيسة القلائية على سوريا وقلسطين ومصر .

وسمعت اقوال ميعوثى أليكسيوس فى مجلس كنسى دضى على جبل بمدينة يانشنزا
(بلانشتيا) . وفى السنة قتالية حقد إربان فى كلبرمونت (١٠٩٥) مجلاً عقلياً
ثانياً ، نظمت فيه كل قوى الكنيسة التى تجمعت فى بده للقيام بدعاية للحرب عامة
قصد المسلمين . وكان لازماً أن تقف الحرب الحصوية ويخمد كل ما بين المحبيين
من حروب ، حتى يطرد الكافرون [كذا ١١١٠ . . .] وتصبح أرض
القدر المقدس فى الأبدى المسيحية من جديد .

وإن حبة الاستجابة التى عولت بها تلك الدعوة لتكننا من أن نفهم ذلك للعمل
العظيم من التنظيم البناء الذى تم فى أوروبا الغربية فى القرون الخمسة السابقة . فلما فى
بداية القرن السابع ، رأينا أوروبا الغربية خطياً متنازلاً من الحطام الاجتاهية
والسياسة ، لا يجمعها فكرة مشتركة ولا أمل مشترك ، وأليناها نظاماً قد تعطل حتى
كاد أن يصبح درأت من أفراد لا يحدون إلا من أنفسهم ومصلحتهم . فلما الآن ،
ونحن فى عظام القرن الحادى عشر ، فبسرى بين الناس فى كل ناحية اعتقاد مشترك :
أم . فكرة جامعة ، قد يستطيع الناس أن يهوها أنفسهم ، وبها يستطيعون أن يصاوتوا
معاً فى معنى جماعى عام . وإنا نرى بأنفسنا هنا ما صنعه الكنيسة المسيحية بعملها
وجهدا ، بالرغم من وجود كثير من الضعف وعدم السلامة للذهنية والأخلاقية .
وإنا نستطيع أن نقدر الأدوار السبعة التى تردت فيها روما أثناء القرن العاشر وما حوت
من التضالجات والتجسبات والقتل والعنف ، — قدوها الحق إذا وزناها بميزان حلم
الحقيقة الجديدة . ولا شك كذلك فى أنه كان يوجد فى كل أرجاء العالم المسمى
تساوسة كثيرون من الكسالى والشريرين الحمقى ، ولكن من الذين أن عبء التعليم
والنصيحة لم يتم إلا بواسطة عدد صغير من القسيسين والرهبان والراهبات الذين كانوا
يعيشون عيش الصلاح . ذلك بأن حطناً عظيماً جديداً ، هو حطام العالم المسمى قد
ظهر فى هذا العالم ، وقام ببنائه آلاف من الأنفس المتصلة المجهولة .

ولم تقتصر هذه الاستجابة للدعوة لإريان الثاني على من قد نسبهم للصليبيين .
 فلم يكن الأمر مجرد فرسان وأمرأه يرضون وحدهم في الاغتراف في تلك الحروب
 الصليبية . ولدى حوار شخص لإريان يجب أن نضع شخص بطرس الثامنك ، وهو
 طراز من الرجال جديد في أوروبا ، ولد كان يذكرنا بعض الشيء بالأنبياء العبرانيين .
 قام هذا الرجل بدعوة للحروب الصليبية بين عامة الناس . وكان يقص على الناس
 - إن صدقاً وإن كذباً ، إذ أن ذلك أمر لا يكاد يمتدنا في هذا المقام - قصة حبه
 إلى بيت المقدس ، وعندهم عن التعمير المنطوق على الاستهانة البالغة ، الذي أنزله
 بالقبور المقدسة الأثرية المملوكة ، الذين أستولوا عليه في زمان ما يقارب (١٠٧٥)
 - (إذ ما يزال تاريخ هذه الفترة مهماً جداً) ، وعندهم عن شروب النصب والابتزاز
 البائس والظلم الوحشية والقساوت المصممة التي يزلونها بملجأ للبرجين إلى
 الأماكن المقدسة . طوف هذا الرجل ، حافي القدمين في ثياب خشن ومغطى حاراً
 وحاملاً صليفاً شخصاً ، أنحاء فرنسا وألمانيا ، وهو يجتلب في كل مكان جماع
 حاشدة في كنيسة أو شارع أو سوق .

وإذا لتبين أوروبا هنا وقد ألفت بينها لأول مرة فكرة واحدة وروح جامعة !
 وإذا للناس هنا استجابة عامة من النصب من قصة ظلم يقع في مكان محقق ، ونشهد
 تقههما مرهما خلف مشترك يجمع بين الفنى والفقر على السواء . وليس في طوتك
 أن تتصور حدوث ذلك الشيء في إمبراطورية أرغسطس قيصر ، ولا في أية دولة
 سابقة لما في تاريخ العالم . وربما كان شيء من هذا القبيل محكاً في عالم هيلاس ،
 الأصغر حيناً بكثير ، أوفى بلاد العرب قبل الإسلام : فأما هذه الحركة فكانت
 تؤثر في الأمم والممالك والألسن والشعوب . فمن أجل إذن أننا نطالع هنا شيئاً جديداً
 ظهر في العالم ، هو ارتباط جديد واضح بين المصلحة المشتركة وبين وهي الرجل
 العاصى من العامة .

٦١ - الحروب الصليبية

كانت هذه الحملة المتأججة غفلة منذ بدايتها بتأمر أخطر انضاماً . فقد كانت هناك الحملة الهائلة المضبوطة للتغدير التي رجمتها الكنيسة اللاتينية الطموحة الحرة لإخضاع الكنيسة البيزنطية الخاضعة للإمبراطور والحلول محلها . وكانت هناك غريزة النب الذي لا حده لدى التورماندين الذين كانوا يمزقون إيطاليا لذباً ويشربونها أشلاء . وسرعان ما حولت وجهتها آنذاك إلى عا مقام جديد أوغر نراه . وكان يجيم على الجميع التي ولت عند ذاك وجهها شطر الشرق ، سواء أعين في التكوين البشري من عاطفة الحب ، وأعني به الكراهية الناجمة عن الخوف تلك الكراهية التي أجهتها دعوات الدعاة الخائفة والمبالغة في فضائع وتساوات الكفرة [كلها : : :] تلوا حامية .

وكانت هناك فضلاً عن ذلك قوى أخرى تصل عملها ، فلك بأن السلاجقة وقاطمين غير للتساخين كانوا آنذاك عتبة كأداء في جبل تجارة جنوا والهندية صوب الشرق ، وكانت حتى ذلك الحين تسيطر بطريق بنناد وحلب أو بطريق مصر . فلم يكن بد من فتح هذه المسالك المظلمة حنوة ، إلا إذا احتكر طريق القسطنطينية والبحر الأسود التجارة الشرقية احتكاراً تاماً . وفضلاً عن ذلك فقد حدث في (١٠٩٤ : ١٠٩٥) وباء وبجاعة امتد من نهر التلث (Scheldt) إلى يوهيميا ، وترتب عليهما انحلال اجتماعي بالغ .

يقول المستر أرنست بارك : لا عجب إذن أن ينطلق نحو الشرق تيار من الهجرة ، شأن ما يحدث في الأزمنة الحديثة من انسياب الناس نحو منطقة اللعب حديثة الكشف - تيار يحمل في أمواجه العكرة أدواتاً كثيرة من المشردين والمفلسين ومنتهى المسكرات والباعة المتجولين والرهبان اللاجئيين والأشرار القاريين ، موسم بعض سمّة الخليلط للمسد الألوان ، ونفس حي الحياة ، ونفس التآرجحات بين التراء والإدفاع التي تميز الاندفاع إلى منطقة الذهب اليوم .



(شكل ١١١) خريطة الحرب الصليبية الأولى

على أن هذه كانت أسبابا ثانوية مساهمة . فأما الحقيقة ذات الأهمية البالغة لدى مؤرخ البشرية فهي هذه « الإرادة النازعة إلى شن حرب صليبية » المتجلية فجأة على صورة إمكانية جماهيرية جديدة في الشؤون الإنسانية

وقصة الحروب الصليبية مليئة بتفاصيل رومانسية رائعة الجسال يلتزم لقراءها كاتب معالم تاريخ أن يصر لقلعه إذا هو انصاب منه عند منقلب ذلك الميدان الجلاب . وكانت أول القوات التي سارت شرقا جاهل خفيرة من أناس غير متعلمين أكثر منها جيوشا ، وقد حاولوا أن يتخللوا من وادي الدانوب طريقا لهم ، ثم ينصرفوا جنوبا إلى القسطنطينية . وكانت هذه هي « الحملة للصليبية الشعبية » . ولم يحدث البتة من قبل في تاريخ العالم بأسره أن كان هناك مثل ذلك للشهد من الجماهير التي لا تملك لها أو تكاد والتي تحركها فكرة ، بيد أنها كانت فكرة بالغة السهاجة .

فلما أن أصبحوا بين ظهراني الأجانب ، لم يجد عليهم أنهم أدركوا أنهم لم يصلوا بعد إلى بلاد الكفرة (١) . وقد ارتكبت جماعتان عظيمتان من الفوضى . هما مقلدة الحملة ، من ضروب الخروج عن الاحتداد في بلاد المغرب (حيث كانت الثقة - لا ريب - قديمة مقهومة لهم) ما استكار المغربين (المختارين) إلى القضاء عليهم . فأعملوا عليهم السيف ذبحاً وتفتيلاً . وابتدأ شدد ثالث حمله بملبسة كبيرة أحملها في يهود أرض الرانين - فلك أن الدم المسيحي كان ثائراً - ثم تمزق ذلك الملح أيضاً في صغايا . واحترق حشدان آخران أوروبا بقيادة بطرس ووصلا إلى القسطنطينية ، وكم كانت معشة الإمبراطور أليكسيوس وجرحه بالعين ١١ . . ذلك أنهم دأبوا على طول الطريق ينيون وينهكون الحرمات ، فحملهم الإمبراطور آخر الأمر بالسفن عبر البسفور ، وهناك لم يزمهم السلاجقة قطع بل ذبحهم على بكره أبيهم (١٠٩٦) .

وعلا يؤسف له أن ظهور الشعوب ، لأول مرة كشعوب في تلوين أوروبا الحديث ، كان ظهوراً تأسفياً غير موفى ، وقد أعقبه مجيء القوات المنظمة ١٠٩٧ القصصة للحملة الصليبية الأولى . جاءوا من طرق شتى : - من فرنسا ونورماندى وويلاندر وإنجلترا وجنوب إيطاليا وصقلية ، وكان النورمانديون عصب الحملة وحزبتها ، فبروا البسفور واستولوا على نيقيا التي اختطفها أليكسيوس منهم قبل أن يتهربوا .

ثم واصلوا سيرهم على نفس الطريق الذي اتخذته الإكسكندر الأكبر في القالب عشرين البوابة القبلية ، فركبوا الأتراك في قونية غير مهزومين ، ومجتازين ميلان معركة لوسوس ثم مواصلين السير إلى أنطاكية التي استولوا عليها بعد حصار قارب السنة . ثم هزموا جيشاً عظيماً جاء من الموصل لتجديتها .

وخلال قسم كبير من الصليبيين في أنطاكية ، وقدمت قوة أصغر تحت قيادة جودفري البويوتق (نسبة إلى بويوتون Bouibon من أعمال بلجيكا) أماماً إلى بيت المقدس .

(١) حرب أن يشير الكاتب إلى المسلمين بالكفرة فإن كان ذلك منه متابة لأهل العصر القوي يكتب له لما كان أحراراً أن يترد نفسه من مثل حملات المهمل بالإسلام وأظه ، بأنهم يجهلون الله وحده فلا شرك ولا كفرا . (للمترجم)

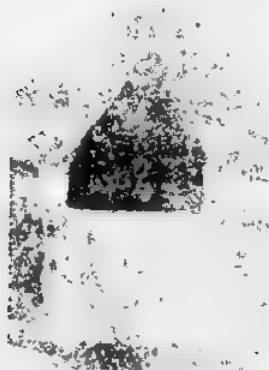
وبعد حصار دام أكثر قليلا من شهر ، استولوا على المدينة نهائيا (١٥ يولية ١٠٩٩) . كانت المدينة رهيبة ، وكان دم المتهورين يجري في الشوارع حتى لقد كان الرجال يصيهم رشاش الدم وهم ركوب . وعند ما أرغى الليل سلوه ، جاء الصليبيون وهم : يكون من قرط الفرح ، إلى الثلوس المقدس بعد حوصهم نيا أريق من دم مال كالخمر من معصرة السنب . ورفعوا جيعاً أيديهم الملطخة بالدماء يصلون شكراً . وبذلك انتهت الحرب الصليبية الأولى في ذلك اليوم من شهر يولية (١٥) .

وسرعان ما استحوذ رجال الدين اللاتينيون المرافقون للحملة على سلطة بطريرك بيت المقدس ، وبعد المسيحيون الأرثوذكس أنفسهم تحت الحكم اللاتيني في حال يكاد يكون أسوأ منه تحت حكم الأتراك . وكان أن تأسست إمارات لاتينية في أنطاكية وطرما Edessa ، واجتأ النزاع على السلطان بين خطف هؤلاء القروك والقصور ، كما أخفقت محاولة كانت غايتها جعل بيت المقدس ملكاً لابلان . على أن هذه أمور معقدة تخرجنا عما بين أيدينا من مجال .

ومع ذلك فلنقتبس فقرة عامرة بما يتميز به جيون من خصيصية : « وربما ملت في أسلوب أقل وقاراً مما يليق بالتاريخ ، إلى تشبه الإمبراطور أليكسيوس يان أوى ، الذي يقال إنه يتشب على الأسد ويلتهم ما يفضل منه . ومهما يكن مبلغ غلظه وعناقه أثناء مرور الحملة الصليبية الأولى ، فإنه قد جوزى عليها أوفى جزاء بما اجتناه بعد ذلك من وراء مغامرات الترنجة . فإن مهارته وبشغفه أتاحت له احتياز ثيقيا أوفى فخرهم ، ومن نقطة التهديد هذه اضطر الأتراك إلى إخلاء ما يحاور القسطنطينية من أوش .

« وعلى حين كان الصليبيون يشجعهم العمياء يتوغلون في داخل أنطاكيا ، انتهر البيوتاني للماكر القرصة الحواتية وأفاد من استدعاء القروك أمراء ساحل البحر ليقتلوا حول لواء السلطان . فدفع الأتراك من جزائر رودس ونيجروس ، وأحيلت سفن

إغنيوس وأزمير وسارديس وفيلادلفيا^(١) واللاذقية إلى الإمبراطورية التي وسع
أليكسيوس رقعتها من القدس بونت (الفرديل) إلى صفق نهر المياندر وإلى شواطئ
هامليليا^(٢) الصغرى . وعادت الكنائس إلى سابق أبنائها ؛ وأعيد بناء المدن وتحصينها ؛
وعُمر القطر القاحل بمسغرات من المسيحيين اللذين نقلوا برقي من التخوم
الثانية للخطرة .



(شكل ١١٢) قبر صلاح الدين

« وربما اغتربنا كل أعطاء أليكسيوس من أجل هذه الرحايات الأيوية ، إذا نحن
تأميننا خلاص النفوس المقدس ، ولكنه كان في نظر اللاتين موصوما بتهمة انجفاية
والظن القبيحين ! ! وكانوا أقسموا بيمين الولاء والطاعة لعرشه ؛ بيد أنه وحد

(١) فيلادلفيا : مدينة بالعظيم ، لها « القديم باسم السرى ، واسمها الحديث « الأديرة » . (الترجم

(٢) هامليليا : منطقة تقع بمجرود آسيا الصغرى . (الترجم)

بأن يساعدكم في معاربتهم بشخصه أو على الأقل بجنوده وأمواله ، فأحلهم بكومه للدفء من يمينهم ، وعدك صار السيف الذي أبلفهم دوا النسر ، هو الكفيل بيمان استسلام العادل عنه . ولا بدو أن الإمبراطور حاول أن يبعث من جديد مدعياته القديمة الباقية على مملكة بيت المقدس ، على أن هذه باستلاك حدود قيليقية وسوريا كان أحدث كما أنها كانت أقرب إلى دواحيه مثلاً . وكان أن أيد جيش الصليبيين الحرم أو تشنت ، وكان أن شعرت إمارة أنطاكية وأصبحت بلا رئيس ، بمباينة يوحنا وأخيه أسيراً ، وأبطلت القديمة كاهله بالدين ؛ ولم يكن لاتباعه الثورمانديين كثرة في العدد كافية لمنع عنوان الروم وفترك .

« وقد أضمر يوحنا أثناء هذه الحجة حزماً كريماً على ترك اللطاع من أنطاكية لقرية الخنصر تانكريد ، وعلى تسليم القرب ضد الإمبراطورية البيزنطية ، وعلى تنفيذ الخطة التي ورثها دوساً ومثلاً عن أبيه جويسكارد . وأحبط نزوله إلى السفينة بالكتان ، ولئن وثقنا بقصة ترويا الأميرة أنا ، لئنه مرّ في البحار العديدة غيباً انتباهه شديداً في تابوت . (وتضيف أنا كومنين^(١)) إلى ذلك أنه رحبة في أشكال الخلد ، أقبل عليه الثابت مع ذلك بيت ، ثم تقارول أنا لمصعب كيف استطاع المصعبى للتبرير أن يحصل الحبس وبيع الصن الرسمى . على أن هذه القصة السيئة مجهولة لدى اللاتين . واستقبل في فرنسا بمطاة لم يشها أى مساس وذلك بفضل حسن استقبال للشعب له ، وزواجه من ابنة الملك ، وكانت صوته جميلة ، إذ أن أشجع رجال النصر قد انضوا تحت إمرة العسكرية الكبيرة ؛ وعاد لمصر الأكراني على رأس خمسة آلاف من الفرسان وأربعين ألفاً من المشاة ، اجتمعوا من أقصى أرجاء أوروبا وغتلف أجوانها غير أن مناعة دورازو ، وحصانة أليكسيوس واشتداد الحياة والقراب للشاء فوت عليه آماله الملموحة ، وقد أمرى الروم حلفاءه من المرتزة على الخطى من رايه . وحضمت عاقبة سلام كانت خطأ مؤتة لخلاف الروم . »

عاجلنا الحرب الصليبية الأولى على هذه الشاكفة من التطويل لأنها تبين تديناً تاماً صفات هذه الحملات جيماً . وأعظت حقيقة التصال بين النظامين اللاتين

(١) أناكوسينا : (١٠٨٢) من ابنة الإمبراطور ألكسيوس ومزوجة حيث ، ولها أوله مزرعة في التابيح . (الترجمة)

والبرنطلي تنجبل للبيان شيئا فشيئا . وفي (١١٠١) وصلت الأعداد التي لمت فيها
أساطيل البسهوريتين النيجريتين البنغية وجوا دوراً بلوراً ، واعتد سلطاناً ملكة
بيت المقدس .

وشهدت (١١٤٧) حلة صليبية أخرى ، اشترك فيها كل من الإمبراطور كونراد



(شكل ١٨٢) كنيسة القديس مارك بالبنغية ، وقد شادها في القرنين ١١ و ١٢
ليكون منظمهم من الرومانيات والفرنسيين

الثالث والملك لويس الفرنسي . كانت حلة أكثر ضخامة وأقل نجاحاً وحماية من
سابقها . وكان النافع إلى لوسلغا هو سقوط الرها في يد المسلمين في (١١٤٤) .
وكان فيها نصبة ضخمة من الألمان حملت ، بدلاً من أن تنجبه إلى الأراضي المقدسة ،
إلى مهاجرة وإخضاع شعب الفوند (^(١) Wesend) شرق سبر الإلب وكانوا لا يزالون
وثنيين . فوائق البابا على ذلك واعتبره من الحروب الصليبية ، وكذلك كان شأن

(١) شعب الفوند أو الفند ، شعب من مجموعة الشعوب القسطنطينية كاثوليكين . ولشهم صليبية
وأجدهم لانهية الأصل منهم ١٥٠ ألفاً . ويحييهم اليوم ٥٥٠٠٠ ، ومع ذلك يحافظون الآن على تقاليدهم
ولشهم .
(المرفوع)

الاستيلاء على ثبونة ، وتأسيس القنصائل الإنجليزية والفرنسية لمملكة البرتغال المسيحية .

وقد (١١٩٩) أصبح مغامر كبرى اسمه صلاح الدين حاكماً على مصر ، فلكه القطر الذي قام فيه السليون بشدة أخفقت فرنسا [كلما] [الشجيرة التي أسسها الصليبيون بها . فوجد صلاح الدين هذا جهود مصر وبتدليل ودعا إلى « الجهاد » ، أي الحرب المقدسة ، أو للحرب الصليبية المضادة ، مستنهضاً جميع المسلمين على المسيحيين . وقد أثار هذا « الجهاد » في ديار الإسلام من المشرق القوية ما يثنى ما أثارته الحرب الصليبية الأولى في عالم المسيحية تقريباً . وفي الحال آنفد وإذا هو حاكم صليبي ينزل نظيراً له « صليبياً » (حسب تعبير المؤلف) ، ولمستعذبت بيت المقدس (١١٨٧) .

وأثار هذا الأمر الحرب الصليبية الثالثة (١١٨٩) . وكانت هذه أيضاً حلة فائحة وضع خطتها الإمبراطور فردريك الأول (الشهير باسم فردريك بربروسا) بالإشتراك مع ملك فرنسا وملك إنجلترا الذي كان يملك في ذلك الوقت كثيراً من أجل المقاطعات الفرنسية) . ولعبت البابوية دوراً ثانوياً في هذه الحملة ، مذ كانت في أحد أحوار الضعف ، وكانت هذه الحملة الصليبية أشد الحملات دمارة وفروية ورومانية . إذ خفت من حدة حرارة التصصب اللغني روح للشهامة القروسية التي تحورت كلما من صلاح الدين وريشارد الأول (قلب الأسد) (١١٨٩ - ١١٩٩) ملك إنجلترا . فما أجبر محبي الرومانس أن يتوجهوا إلى الروايات الرومانية الملهمة من هذه الفترة ليتنوقوا طعمها وشذاها . وقد أنقذت هذه الحملة إمارة الطائفة إلى حين . ولكنها أخفقت دون استرداد بيت المقدس . ومع ذلك فإن المسيحيين ظلوا سيطرين على موانئ فلسطين .

ولما وا زمان الحملة الثالثة ، كان عنصر العجيب والحر قد زالا من هذه الحركات زوالاً تاماً . فإن عامة الناس كانوا عرفوا خباياها . فلك أن الرجال كانوا يلحسون ، فلا يعود إلا الملوك والنبلاء فرادى مشردين ، وغالباً ما يكون ذلك بعد لفرض ضرائب باهظة على الناس بلجم القديلة اللازمة .

لقد ابتذلت فكرة الحروب الصليبية لكثرة ما استعملت وتلفاها ما استخلفت فيه .
 لكننا نتابع البياض مع شخص من الناس ، أو إذا شاء هو أن يضعف من قوة الإمبراطور
 الخطرة بتوجيه مجهوداته وراء البحار ، راح يدعو إلى حرب صليبية ، حتى لقد
 كتبت الكلمة عن أن يكون لها أى معنى إلا محاولة وصع شيء من الفكرة في حرب
 غير مستغاة الطعم ، فهناك حرب صليبية أعلنت على المراتفة في جنوب فرنسا ،
 وثانية على جون (ملك إنجلترا) ، وأخرى على الإمبراطور رودريك الثاني . فلم يكن
 الباباوات يفهمون أن الكرامة ضرورية البابوية . أجل أنهم دفعوا في صدورهم لعالم
 للمسيحية أوج الرفعة الخلقية . ثم أخذوا بعد ذلك يدعوتها شيئاً فشيئاً . ولم يقتصروا
 على اجتذاب فكرة الحرب الصليبية وتضييع قيمتها ، بل جعلوا ما في يدهم من قدرة
 هائلة على الحرمان (أى طرد الناس من الرحلات القلمية ، والآمال والسعادات التي
 يكفلها لهم الدين) - مثار السخرية باستعمالها في المنازعات السياسية البحتة . ولم يقتصر
 الأمر على إعلان الحرب الصليبية على رودريك الثاني بل إنه « حرم » أيضاً - دون
 أن يعود عليه ذلك بأى ضرر ظاهر - ثم حرم مرة ثانية في (١٢٣٩) ، ووجد ذلك
 المحكم أنومنت الرابع في (١٢٤٥) .

ولم تصل معظم الحملة الصليبية الرابعة إلى الأرض المقدسة بتاتاً . خرجت من
 البندقية (١٢٠٢) ، واستولت على زلزا وحسكوت في القسطنطينية (١٢٠٣) ،
 وأخيراً نهبته للثينة (١٢٠٤) . كانت الحملة هجوماً مشتركاً صريحاً على
 الإمبراطورية البيزنطية . فاستولت البندقية على شطركبير من شواطئ الإمبراطورية
 وجزرها ، وأقيم أمير لاتيني هو بلندون الفلاندرى إمبراطوراً بالقسطنطينية . وأعلنت
 وحدة الوحدة بين الكنيستين اللاتينية واليونانية ، وحكم أباطرة لاتين بوصفهم غزاة
 في القسطنطينية من (١٢٠٤ - ١٢٦١) .

ثم حدث في (١٢١٢) حدث رهيب ، هو « حملة صليبية للأطفال » . فلأن هياجاً
 لم يعد يستطيع أن يوتر بعد في البالغين السليبي القتل انتشر بين الأطفال في جنوبي
 فرنسا وفي حوض نهر الرون . فملأ جمهور مكون من آلاف كثيرة من الفلمان

الفرنسيين إلى مرسيليا ، فاستولم تجار الرقيق إلى النزول في السفن ، وبعوهم في مصر عبيداً . وسار أطفال أرض الرابين على أقدامهم حتى انحدروا إلى إيطاليا ، وهناك تشقوا بعد أن هلك منهم كثيرون في الطريق .

واستغل البابا إنوسنت الثالث هذه الحادثة العجيبة لصالحه أيما استغلال . فقال : « حتى الأطفال أنفسهم يلبسوننا ثوب الخزي والعار » . ثم حاول أن يستنير الحداثة بحملة صليبية حاسمة . وكان هدف هذه الحملة غزو مصر ، لأن بيت المقدس كانت عند ذاك في قبضة السلطان المصري ، وعادت البقية الباقية من هذه الحملة (١٢٢١) ، بحملة بالخزي بعد جلاء خير كرم من مدينة ديايط ، القمص الوحيد الذي نجت ، ومعها آثار من الصليب الحق بيت المقدس كنيسة جاد بها عليهم - على سبيل الجزاء - مدحوم المتصر ، ولقد سبق أن حفظنا ما مر بذلك الأثر الجليل قبل أيام محمد عليه السلام عندما حمله كسرى (الثاني) أبرويز إلى الداني (طيغتون) ، ثم استعاده الإمبراطور هرتل . ومع ذلك فإن أجزاء من الصليب الحق ، قد بقيت على الدوام في روما بكنيسة (سانت كروتشي جيروسالمي S. Croci-Gerusalemme) عند أيام الإمبراطورة هيلانة (أم قسطنطين الكبير ، التي تقول الأسطورة عنها ، إنها أحطت على عهده في رؤيا وأنها أثناء حجبها إلى الأراضي المقدسة .

ويقول جييون : « إن حراسة الصليب الحق الذي كان يعرض يوم أحد القيامة في جلال ووقار أمام أعين الناس ، كانت موكولة إلى أصف بيت المقدس ، وكان هو وحده الذي يرضى تقوى الحجاج المشوقين بأن يهديهم قطعة صغيرة منه ، كانوا يفيحونها في أوعية من الذهب أو البواهر ، ويحملونها إلى بلادهم ظالرين . ولكن لما لم يكن بد هذه السلطة للرجة من أن تنضب صريحا ، فقد وجد من اللازم إلزام بأن ذلك المنسوب الصحيح كانت له قوة إنبات غبية ، وأن مادته وإن كانت تنافس باستمرار إلا أنها تظل مع ذلك كلمة خير منقوصة » .

فلما الحملة الصليبية السادسة (١٢٢٨) طهرت حلة قاربت درجة السخف . ذلك أن الإمبراطور فردريك الثاني كان أقسم على القيام بحملة صليبية ثم نكث بقرره . أجل إله

شرح في الحملة شروعا زائفا ولكنه عاد أدراجه . والراجح أنه كان يتبرم من مجرد فكرة القيام بحملة صليبية . ولكن الثمر كان جزءا من الصفقة التي ضمن بها نصرة البابا إنوسنت الثالث له في انتخابه إمبراطورا . فتشغل بإعادة تنظيم حكومة مملكته الصقلية ، وإن كان أومم البابا أنه سيضلل عن هذه الممتلكات لو أصبح إمبراطورا ، وكان البابا تواقا إلى الحيلولة دون ما يقوم به الإمبراطور من تنظيم ممتلكاته للصقلية وإحكام تماسكها ، - بإرساله إياه إلى الأراضي المقدسة . ذلك أن البابا لم يكن ليغيب في وجود فردريك الثاني أو أي إمبراطور ألماني بأى حال في إيطاليا ، لأنه هو نفسه كان يرغب في أن يحكم إيطاليا . فلما أن طالع تخلص فردريك الثاني ، أصدر جنجوردي التاسع عليه قرار الحرمان وأعلن عليه حربا صليبية ، وقرأ ممتلكاته في إيطاليا (١٢٢٨) . وعند ذلك أقطع الإمبراطور بجيش إلى الأراضي المقدسة . وهناك التقى بسلطان مصر (وكان الإمبراطور يتكلم بطلاقة ست لغات من بينها العربية) ، ولقد يبدو أن هذين السيدين ، ولكل منهما آراؤه المشككة ، تبادلوا وجهات نظر متائلة متجاذبة وتناقشا أمر البابا بروح علمانية ، وتباحثا في انتفاع القول غربا ، وهر الأمر الذي كان يهددهما جميعا على السواء ، واتفقا أكثر الأمر على عقد معاهدة تجارية وتسليم جزء من مملكة بيت المقدس إلى فردريك .

فكان هذا لاجرم نوحا جديدا من الحروب الصليبية ، فهو حرب صليبية بالمعاهدات الخاصة . ولما كان هذا الصليبي المدهش محروما ، كان لازما عليه أن يتمتع بتبويب علماني بحث في بيت المقدس ، آخذا الحاج من المذبح بيديه ، في كنيسة كان كل رجال الدين قد انصرفوا منها . والراجح أنه لم يجد هناك واحدا منهم يريه الأماكن المقدسة . والواقع أن هذه كلها حظرها عليه بطريرك القدس ، وأمر بإقفال أبوابها . وواضح أن الروح هنا تختلف تمام الاختلاف عن الروح التي أوحى تلك للنبغة الدامية الحمراء في الحرب الصليبية الأولى . ولم يكن فيها حتى ذلك الإكرام الظريف الذي لقيه رباة الخليفة صر قبل ذلك بستمعة عام .

ورحل فردريك الثاني من بيت المقدس وهو وحيد تقريبا ، عائدا إلى إيطاليا من ذلك

النجاح غير الرومانسي ، وسارع إلى تنظيم شؤنه هناك ، وطرد الجيوش البابوية من ممتلكاته ، وأجبر البابا على أن يجله من حرمانه (١٢٣٠) . وفي الحق إن هذه الحرب الصليبية السادسة لم تكن نفيضا المقصود من الحروب الصليبية ودليلا غير مباشر على صحتها وأصلها فحسب ، بل وموقف الخرماني البابوي أيضا . وسنجد ذلك في قسم ثالث من فريدريك الثاني هذا ، لأنه كان طرازاً نموذجياً في تمثيله قوى جليلة بأحيائها ، أعطت تظهر في الشؤون الأوروبية .

ثم فقد المسيحيون بيت المقدس مرة ثانية (١٢٤٤) ، إذ استرجعها منهم سلطان مصر بناية السهولة عندما حاولوا أن يدبروا مؤامرة ضده . تسبب عن ذلك الحرب الصليبية السابعة ، وهي حرب القديس لويس ملك فرنسا (لويس التاسع) الذي أخذ في مصر أسيراً ثم أقتل (١٢٥٠) . ولم يحدث أن أُلقت بيت المقدس مرة ثانية من قبضة المسلمين حتى (١٩١٨) عندما سقطت في يد قوة عظيمة من الجنود الفرنسية والإنجليزية والبلجيكية .

والتقى بعد ذلك حملة صليبية أخرى ، وهي حملة على تونس قام بها نفس لويس التاسع ذلك ، الذي مات هناك بالحمى .

١٢ - الحروب الصليبية اختبار للمسيحية

تتجلى الأهمية بالحرورية للحروب الصليبية لدى مؤرخ البشرية في موجة العواطف وتوحيد الشعور الذين ألقوا الحملة الأولى بالبحرية الناطقة . ثم أخذت الحملات بعد ذلك تتجلى إلى منزلة العمليات الروتينية العادية ، وأخذت قبعتها تقل بالتدريج كالحملات لها أهمية حيوية . كانت الحرب الصليبية الأولى حدثاً ضخماً يماثل اكتشاف أمريكا ، على حين لم توجد الحملات التالية من رحلة اجتياز مائية للمحيط الأطلسي . في القرن الحادي عشر لا بد أن فكرة الحرب الصليبية كانت أشبه شيء بنور غريب رافع أضله في العماء ، فلما في القرن الثالث عشر ، فإن الإنسان يستطيع أن يتصور سكان المدن الأمناء وهم يقولون بصوت المنهج وماذا ؟ أحرِب صليبية أخرى ؟ ! ! ! .

ولم يكن ما لقيه للقيس لويس في مصر ، شيئاً يعدّ من قبيل خبرة جليلية اكتسبها البشرية ، بل هي أقرب شها بجولة جولف على ملعب معروف . . . جولة لاحضا سوء الطالع وهي مجموعة من أحداث لا وزن لها . ذلك أن منافع اهتمام الحياة قد تحول إلى انجذابات أخرى .

وتكشف بداية الحروب الصليبية عن أوروبا بأجمعها وهي متبعة بمسيحية صافية ، مستعدة في ثقة وبساطة لأن تتبع قيادة البابا . إذ كانت فضالغ قصر اللاتيران أثناء أيامه للثيرة تلك ، التي نعرفها نحن جيماً الآن ، مجهولة خلع روما أو تكاد . أجل أصلح جريجورى السابع ولريان الثاني كل ذلك وحوّض الكنيّة عما أصابها . ولكن تضامها في اللاتيران واللاتيكاني^(١) لم يكتفوا من الناحية السلبية والمخلفة كنفوا لما بين أيديهم من نهزات . وكانت قوة البابوية تقوم على الثقة التي أولاها الناس لإياها ، وهي ثقة استغلتها البابوية في غير حرص أو عناية حتى أوعتها . ذلك أن روما ظلت على هذا تطوى على قدر أكثر مما ينبغي من حصفلة الكاهن ، ومكره ، وعلى النزر اليسير من قوة النبي ، وروحه . ولذا فبينما كان القرن الحادى عشر قرن أناس جهلة قوى ثقة هيام ، كان القرن الثالث عشر قرن رجال حلفين غير متوحيين . كان عالم أكثر مدنية وأعنى تشككاً .

وكان الأساقفة والقساوسة والمؤسسات الدرية في علم المسيحية اللاتينية قبل أيام جريجورى السابع على شيء من الارتباط المتكك المرى تقريباً ، كانوا من حيث الكيف ولكنة غاية في الاختلاف والتفاوت ، ولكن من الواضح أنهم كانوا في المادة على أعظم درجة من المودة الخلاصة مع الناس الذين كانوا يمشون بين ظهرانيهم ، كما كانوا يتطوون على نصيب وافر من روح يسوع حتى ما برحت حية في شخصهم ، كانوا موضع ثقة ، وكان لهم نفوذ حائل ، على ضيائر أتباههم . وكانت للكنيسة بالقلوة إلى

(١) سكن القبابات قصر اللاتيران حتى (١٣٠٩) . عندما أقام بابا غريغوريوس في أنشوت . فلما عاد البابا إلى روما في (١٣٧٧) كان قصر اللاتيران قد تحرب أو كاد ، فأصبح قصر اللاتيكاني مقر البلاط البابوي . وكان ذلك القصر ، بالإضافة إلى ميزات أخرى ، أقرب كبراً إلى قلعة إنّه لقصور حصن البابوية . (المؤلف) .

حالتها فيما بعد ، واقعة بدرجة أكبر في قبضة القلايين المحليين والمحاكم المحل ، وكانت تنفصها الروح العالية للعامة التي صارت لها فيما بعد .

وقد أقضت جهود جريجورى السابع الفعالة في تقوية الكنيسة وتنظيمها نشيطاً يستهدف زيادة قوة روما المركزية ، إلى مصم كثير من الروابط الخفية بين القسيس والدير من ناحية ، وبين منطقة الريف التي من حولها من الناحية الأخرى . على قوى الإيمان والحكمة من الناس يؤمنون بأن الهرسة الحياكة كما يؤمنون بإخوانهم من الناس ، فأما المساومة حتى من كان منهم من أصراب جريجورى السابع نفسه ، فيحصلون في « الكنيسة » الزائفة التي يتولى عليها نظام مفروس على الناس . والنصى التزاع على مسألة « الصيغات » بكل أمير في عالم المسيحية إلى الاسترابة من أمر الأساقفة واعتبارهم عمالا للدولة أجنبية . وترت هذه الاسترابة حتى وصلت إلى مكان الأبروشيات^(١) . ولقد قضت مشروعات البابوية السياسية بأن يزداد الباباوات طلباً للمال على الأيام . وفاق بين الناس في كل مكان إبان القرن الثالث عشر يقول بأن رجال الدين ليسوا بالرجال القليين ، وأنهم لا يفتلون يتصيدون الأموال .

وفي أيام الجهاد الأولى كان الناس دائماً على أتم استعداد للاعتماد بأن طاعة الكهنوت الكاثوليكية طيبة حكيمه . وكانت بالفعل خيراً وأحكم نسياً في تلك الأيام . ذلك أنه وكنت إلى الكنيسة سلطات هائلة تتجاوز أعمالها للروحية - كما أيجت لها سريرات خطيرة لكل محتاد . فاستغلت هذه القوة أتم استقلال . وقد أصبحت الكنيسة في القرون الوسطى دولة داخل الدولة فكانت لها عماكها الخاصة ، التي لم تنصر على النظر في قضايا المساومة (رجال الدين) بل تناولت كذلك قضايا الرهبان والطلاب والقسيسين والأرامل واليتامى ومن لا يسمي لهم ، إذ يحفظ بقضاياهم للمحاكم الكنيسة . وحيثما كان لطقوس الكنيسة لوقوعها دخل في أى موضوع ، أدعت أن لها الاختصاص وتدخلت في مسائل من أمثال الرتبة والزواج والأيمان^(٢) ، وطبعا للشرطة والسحر والتجديف . وكانت

(١) الأبروشية . هي منطقة انحصار إحدى الأساقفيات (المترجم)

(٢) المقصود هنا من الإيمان حج بين زعم القسم (المترجم) .

هناك سجون كنسية عديدة ربما قضى للفقراء فيها كل حياتهم كاسفيين . وكان البابا هو المشرع الأعلى المسيحية ، حكته بروما هي محكمة الاستئناف النهائية الخاصة . وكانت الكنيسة تجبى الضرائب ؛ ولم يكن لها ممتلكات فيسيحة ولا دخل عظيم من الرسوم فحسب ، بل إنما فرضت ضريبة العشر (العشر) على رعاياها . وهي لم تدع إلى هذا الأمر بوصفه مملاً من أعمال الإحسان والفتوى ؛ بل طالبت به كحق . وأخذ رجال الكنيسة من الناحية الأخرى يدعون عند ذلك حتى الإطفاء من الضرائب العلمانية .

ولا شك أن هذه المحاولة منهم للالتجاء بنفوذهم الخاص في باباها والعصر من نصيحتهم في الأعباء المالية ، كانت عاملاً جدياً في السطوة المتزايدة على رجال الدين . وبصرف النظر عن كل ما يتعلق بالعدالة فإنه كان أمراً لا يتطوّل على الحكمة . كان أمراً يجعل للضرائب في أمين من عليهم دفعها ثلث عشرة أضعافها ؛ ويجعل كل إنسان يعرف الحس لئلا ما تستمتع به الكنيسة من حصانات

وثمة دعوى أخرى لدعوى الكنيسة كانت هي أيضاً أكثر مرفاً ويمتد من الحكمة هي قولها بأن لها حق الصلوة . ومعنى ذلك أن البابا كان يستطيع في كثير من الأحيان أن يهمل قوانين الكنيسة في حالات فردية خاصة ؛ فهو قد يأذن لأبناء العلم وأبناء الحال أن يزولوا ؛ وقد يسمح لرجل بأن تكون له زوجتان ، أو يجعل أي إنسان من نسله ولكن إثبات مثل هذه الأمور يتطوّل على أفرادها بأن القوانين التي تتصل بها ليست قائمة على أسس من الضرورة اللازمة والصلح القمري ؛ وأنها في الواقع إنما تتطوّل على التضييق والمضايقة . لأن مشرع القوانين للبشر قائمة ملزم أكثر من كل إنسان بالولاء للقانون . وهو دون الناس كلفة ملزم أن يصرف كأغنا لقانون سيف مسلط عليه قبل كل الناس . ولكنه ضعف الإنسانية عامة ذلك الذي يوحى إليها بأن تتخيل أن الودعة التي تسلم إلها لإدولتها إنما هي مما ملكت أيماناً .

١٣ - الامبراطور فردريك الثاني

بعد الإمبراطور فردريك الثاني خير مثال لطراز المتشكك الثمرد الذي استطاع القرن الثالث عشر أن يفتنه . وربما كان من الشاق أن تحدثك ليلاً عن ذلك الرجل الذي الساعتر . وهو ابن الإمبراطور هنري السادس الألماني وحفيد فردريك بربروسا ، وأمه ابنة روجر الأول ملك صقلية النورماندي . فووت حله المملكة (١١٩٨) وهو بعد في الرابعة من عمره ، وظلت أمه وصية عليه ستة أشهر ، فلما أن ماتت أصبح البابا إنوسنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦) وصياً على العرش وقياً عليه .

ويبدو أنه حظى بتعليم استثنائي في جودته عجيب في تنوعه ، وأكسبه مزاياه تلياً يتعلو على اللقي والإطراء هو « أحجوبة العلم » Stuber mundi . وكان من نتيجة جمعه بين النظرة العربية إلى المسيحية ، والنظرة للمسيحية إلى الإسلام ، أن أصبح يعتقد أن كل الديانات دجل ، وهو رأى ربما ذهب إليه كثير من نوى الرأى المكيوتي الألسنة في عصر الإيمان . - يد أنه تحدث دونهم جبراً عن آرائه ، ذلك بأن كثيراً من تجديده وإصلاحه ملوث مسجل .

وإذا أنه ترمح تحت حكم إنوسنت الثالث ذلك المخطرس الشامخ بأنفه ، الذي لا يأسو عليه أبداً أنه أدرك أن القاصر قد وخذ ، فقد تمت فيه روح تخلص فكية وكانت سياسة البابا أن يمنع قيام أي اتحاد جديد بين قوة ألمانيا وإيطاليا ، ويبادل هذا التصحيح من جانب البابا حزم فردريك على أخذ كل ما يستطيع الحصول عليه . فلما أن ميأت له الفرس للساحة تاج ألمانيا الإمبراطوري ، استطاع أن يضمن عون البابا له بأن وافق إن هو انتخب - على ترك ممتلكاته في صقلية وجنوب إيطاليا ، وأن يقف على ما في ألمانيا من الخاد . ذلك أن إنوسنت الثالث كان من أعظم البايوت ولماً بالاضطهاد ، كما كان رجلاً مقنعاً طبع على الجشع والميلوان . (كان بحبائه بابا ، صغير السن صغراً معزلاً ، إذ ارتقى عرش البايوتية وهو في السابعة والثلاثين) . وإنوسنت

(١) أصدرت اللجنة المصرية العامة التي ترعها لهذا الإمبراطور العظيم تحت اسم « اللجنة الأربعة » أنها جوزيف جانيه حين وترعها الأمانة أحد نقيب عالم . وهي سيرة رائعة تصطبغ من كل لافز عروء . (المراجع)

هو الذي حرض على شن حرب صليبية قاسية على المراهقة في جنوبي فرنسا ، وهي حرب صليبية اقبلت من فورها إلى حلة نهب وسلب ألفت معها الزمام من يده .

وما أن انتخب فردريك إمبراطوراً (١٢١٢) حتى ألح عليه إنوست بأن يرسل بالأيسان والوحد التي اشرعها من «قاصره» (الإمبراطور) التي ١١ وقد تعهد أن يرفع عن رجال الدين التشريع السلافي ويعفيهم من دفع الضرائب ، ووعد أن ينزل على الملاحقة (المراهقة) من ألوان المساوات ما يجعلهم عرة لمن عداهم . ولكن فردريك لم يتم بشيء من كل هذه الأمور . وكنا قلنا قبل ، لم يقبل حتى أن يتغنى عن صقلية . إذ كان يوتر المقام في صقلية ويفضلها على ألمانيا .

ومات إنوست الثالث وقد أصيب منه الجبل (١٢١٦) ، ولم يصل خفيه هونوريوس الثالث معه إلى أية نتيجة . ومات إنوست الثالث دون أن يوج فردريك ، ولكن هونوريوس فعل ذلك (١٢٢٠) . وجاء جريجورى التاسع (١٢٢٧) بعد هونوريوس ، والظاهر أنه تول حرش البابوية معزماً حزماً أكيداً مغيظاً اللجنة على ذلك الإمبراطور الشاب المثير . فحرمه على الظهور لنكوصه عن القيام بعملاته الصليبية الموعودة ، التي تأخر موعدها التي عشرة سنة ، ثم شهر برذالته وهرطقاته وذنوبه عامة في رسالة علنية نشرها (١٢٢٧) . فرد فردريك على هذه بوثيقة على درجة أكبر من الاحتلار ، إما أن يكون هو كاتبها أو أنها كتبت له . سوجهة إلى كل إمرأ لوردا ، وليقة ذات أهمية قصوى في التاريخ ، لأنها أول بيان واضح صريح عن النزاع بين ملهيات البابا في أن يكون الحاكم المطلق على عالم المسيحية بأسره ، وبين ملهيات الحكام العلمانيين ، وقد كان هذا النزاع يسرى على الدوام كالتار تحت الرماد . ولكنه كان يضطرم هنا على صورة ما ، ويتأجج هناك على صورة أخرى ، ولكن فردريك وضع الأمر الآن في عبارات واضحة عامة يستطيع الناس أن يتخلوها لئلا لا تتأجج بينهم بعض .

حتى إذا كان هذه القربة ، ارتحل في حربه الصليبية السلمية التي نحدثنا هنا من قبل . وفي (١٢٢٩) كان جريجورى التاسع يحرمه للمرة الثانية ، ويجدد حرب الشاتم

الطنية التي قاست منها البابوية الولايات من قبل . وانبثقت انحصورة من جديد بعد
ولادة هريجورى التاسع ، عندما أصبح إنيوسف الرابع بابا ، للمرة الثانية صدرت
عن فردريك رسالة قاضية كتبها ضد الكنيسة ، صابر لزاماً على الناس أن يذكروها
رسالة شهر فيها بكريه رجال الدين وانعدام الدين فيهم ، وعزى كل مفسد الزمان
إلى استكبارهم وثرائهم واقترح على رملاته الأمراء مصادرة أملاك الكنيسة مصادرة
عامة - لخبر الكنيسة نفسها . فكانت تلك من إشارة لم تبارح بعد ذلك أبداً أكلة
الأمراء الأوروبيين .

ولن نواصل الكلام عنه - سنواته الأخيرة ولا عن الكوارث التي شلت عن
علم أكتراه ، فالتقت على خاتمة ظلا من الإخفاق . ويدهى أن حداثته حياته
انحاضة أغل قيمة من جوها العام : ومن اليسور أن يمتنع الإنسان شتات صورة لحياة
بلاطه في صقلية . فإنه ليوصف - وقد دنت أكتراه - بأنه « أمر الوجه أصليع الرأس
ضعيف البصر » ، على أن قسامة كانت مليحة جذابة . وكان مرقاً في معيشته ،
مولماً بالأشياء الجميلة . وهو يوصف بالإغراق في الملذات . ولكن من الواضح أن
ذهنه لم يشعر بالانتعاش لما ملأه من الشكوك الدينية . وأنه كان رجلاً لوثى كوثقه
استطلاع ومحت فماتين للغة . وكان بلاطه يجمع بين الفلاسفة اليهود والمسلمين
والمسيحيين على السواء ، وبذلك جهداً كبيراً في سبيل إرواء الفتن الإيطالية بموترات
شرقية عربية . وعلى يده أعطت الأرقام العربية والجبر إلى الطلاب للسيجين ، وكان
من بين الفلاسفة للكثيرين في بلاطه ميخائيل سكوت ، الذي ترجم أجزاء من أرسطو
وتعليقات الفيلسوف العربي العظيم ابن رشد (القرطبي) عليها .

وفي (١٢٢٤) أسس فردريك جامعة نابولي ، ووسع مدرسة الطب الكبيرة .
بجامعة سالرنو أقدم الجامعات وأحدث عليها الأموال . كذلك أنشأ حديقة الحيوان .
ونترك كتاباً في التصقراً (١) يكشف فيه عن نفسه صغيراً بصادات الطيور ملاحظات
دقيقة ، وكان من أوائل الإيطاليين الذين كتبوا الشعر بالإيطالية . ولحق إن الشعر
الإيطالي قد ولد في بلاطه . وقد أطلق عليه كاتب مقنن اسم « أولو المحدثين » ، وهي

(١) التصقير : كما ورد في سيم فوسيط ، نصيب بالمتنوع . (لترجم) .

حياوة ترسم في براعة عما كانت عليه تواجبه الذعنة من استقلال وحياد في الرأي يرى من كل تحيز . كان ذا أصلية تامة من جميع نواحيها ، وقد وفق في إبان أزمة أحدثت بعض القصص في الذهب إلى إدخال عملة مصنوعة من الجلد المصنوع أو الرق ، تحمل وعداً منه بأن ينفخ قيمتها ذهباً ، وهو ضرب من (البكتوت) المصنوع من الجلد . وبذلك اجتثت طريقة للتدليس ، لم ير العالم منذ أيام قرطاجة ما نظيراً .

وبالرغم من سيل التشائم والسباب الذي أعقبت فيه فردريك ، فإنه ترك أعرق الأمور حيلة للشعب . ولا يزال جنوب إيطاليا يذكره بشكل يكاد يضارع في قوته ذكرى نابليون الأول لدى الفلاحين الفرنسيين ، وهو للسهم « فريدريهو العظيم » ويصرح العلماء الآن أنه بالرغم من كراهية فردريك الظاهرة لألمانيا ، فإنه هو ، وليس فردريك الأول ، فردريك بروسيا ، الذي ننسب إليه أصلاً تلك الأسطورة الألمانية وهي الأسطورة التي تمثل ملكاً عظيماً قد أعطاه للعالم في خاتمة حقبة ، وقد تمت لحبته حول منضدة حجرية ، انفتاحاً ليوم يُنتكش فيه العالم على يديه من وحدة افروخى بالغة إلى سلام شامل . ويبدو أن بطولة القصة نقلت لها بعد إلى الصليبي بروسيا جد فردريك الثاني .

كان فردريك الثاني طفلاً حبيب القياد على أمه الكتيبة ، على أنه لم يكن إلا مؤثلاً مهتد السيل وطليعة للكثيرين مع أمثاله من الأطفال للسرير . وكان الأمره والمتعلمون في أوجاه أوروبا كافة يقرأون رسائله ويبحثون فيها : فأما طلاب الجامعات الأقدم إقداماً ، فراحوا يلتمسون ويشخصون بأبصارهم بل ويهضمون : — كتب أرسطو العربية الأصل التي جعلها فردريك في متناول أبنيسهم باللاتينية . وألقت سالرنو على روما نوراً مبهكاً مؤثلاً . ولا بد أن الناس على اختلاف أسنافهم قد راصهم قلة غناء ما أنبال على رأس فردريك من ألوان الحرمان والهزلة عن الجماعه .

١٤ - معايير البابوية وتحديداتها

أسلفنا أن إتوسفت للثالث لم يبد عليه قط ما يملك على أنه أدرك أن القاصر
 فردريك الثاني كان يسر ورشد . ولا يقل عن هذا صدقاً أن البابوية لم يبد عليها
 أبداً أنها أدركت أن أوروبا كانت آتلة بلسباب الفضيحة والرشاد . ومن المستحيل على
 دارس ذكى عصرى التاريخ ألا يسلط على ما كان يحول في ضمير البلاط البابوى ،
 من فكرة تقول بوجوب قيام حكم عام للصلاح والبر يحفظ على الأرض السلام ،
 وألا يميز عناصر النيل المدينة التي دخلت في سياسة التآمران . فلا بد البشرية من
 أن تصل إن عاجلاً وإلا آجلاً إلى سلام عام واحد ، اللهم إلا إذا قصت على جنتنا
 البشرية قوته الزائدة التي تعود عليه من مخترعاته المهلكة ، ولا مناس لهذا السلام
 العلم من أن يتخذ شكل حكومة ، أو إمارة أخرى ، حيث نعلم القانون بطريقة
 دينية بأحسن ما في كلمة دينية من معان - حكومة تحكم الناس بواسطة التعليم الذي
 يخلق التماسك المعنى بينهم ويسلكهم جميعاً في تصور مشترك من التاريخ الإنساني
 والمصير الإنساني .

وهلينا الآن أن ننظر إلى البابوية على أنها أول محاولة واضحة واضحة القصد ترى
 إلى تزويد العالم بمثل هذه الحكومة . وما يجوز لنا أن نشط في الحملة والجد ونحن
 نقصص عن لقاءاتها وغروب عجزها ، إذ أن كل دوس نستطيع أن نستفيد منها ،
 إنما له بالضرورة أعظم القيمة لتجنا في تكوين فكرتنا عن علاقاتنا الدولية الحاضرة .
 ولقد حاولنا أن نشير إلى العوامل الرئيسية التي أفضت إلى انبثاق الجمهورية الرومانية ،
 ومن المناسب لنا الآن أن نحاول تشخيص الأسباب التي أدت إلى إضفاء كنية روما
 الكاثوليكية دون تجميع وتنظيم حسن نية البشرية وطواياها العلمية .

وأول ما يستمرى ابتداء الدارس هو تقطع جهود الكنيسة في تأسيس « لجنة الله »
 العالمية . فلم تكن سياسة الكنيسة سجهة بكل نوايا وغواها وباستمرار إلى تلك الثانية .
 فلم يكن يحدث إلا بين القينة والقبينة أن شخصية ما بمنسازة أو مجسوة ما من

للشخصيات الممتازة ، كانت تسلط عليها وتوجهها في ذلك الاتجاه . ذلك أنه منذ البداية تقريراً احتجبت مملكة الرب التي دعا إليها يسوع الناصري كما بينا آنفاً واستمرت وراء المبادئ والتقاليد الطقوسية الراجعة إلى عصر أنهم وإلى طراز أدنى عقلية . وقد كتبت المسيحية منذ بدايتها تقريراً عن أن تكون عنصر ديانة نبوية وعملية . إذ أنها أوقمت نفسها في شراك التقاليد المتينة الخاصة بالتصحية الإنسانية ، وبالتطهير العموي لدى « المثرائية »^(١) ، وبالكهانة القديمة فلم الجماعة الإنسانية وبمصاصيل التواصي للديانة لطيفة الإله . ومن عجب أن أصبح الحبر الإثروزي (الإترسكي) الأعظم الذهبية بالدم أصبحت الداعية المتشددة التي تؤكد للناس تعاليم يسوع الناصري ! وكذلك أيضاً أوقعت عقل الإفرنجي الإسكندري في أسبوسه بما جبل عليه من تعقيد ذهني . حتى إذا وقعت الكنيسة في معضات هذا التطلع الذي لا مفر منه بين هسله المتعارفات المتناقضة ، اضطرت أن تصبح إعتقادية (دوجمائية) تلعب بالمذهب الاعتقادي المحض^(٢) . ذلك أنها حين يلتفت من بلوغ حلول أخرى لخلافاتها الفكرية ، التفتت إلى الاستعداد النفسي .

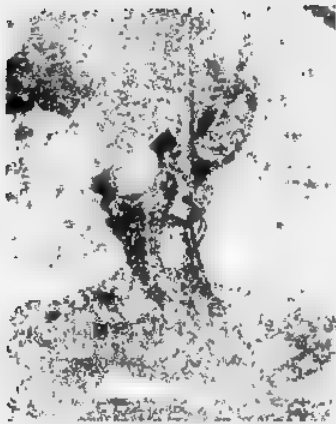
فأصبح قساوسها وأساقفتها على التصريح رجالاً مكثفين وفي مذاهب واعتقادات حمية وإجراءات مفررة ولابة ، حتى إذا ما آن لوان توليهم منصب الكراهة أو البابوات إذا بهم في العادة كهول قد ألفوا من الكفاح السياسي ذلك الضرب الذي يقصد إلى غاية قريبة مباشرة ، ولم يعودوا أهلاً لقبول آراء رحيية يشمل أعضاها العلم بأسره . ولم تعد لهم بعد رغبة في رؤية مملكة الرب موطدة في قلوب الناس . فقد نسوا ذلك الأمر ، وأصبحوا يرغبون في رؤية قوة الكنيسة التي هي أوتهم هم ، متسلطة على شؤون البشر . وكانوا في سبيل توطيد تلك القوة على أم استعداد للمساومة مع أي شيء حتى البغض والخوف والشهوات المستقرة في قلوب البشر . ونظراً لأن كثيراً منهم كانوا على الأرجح يسيرون الرؤية في سلامة بليان مبادئهم الضخم المحكم وصحة المظلة ، لم يسمحوا بأية مناقشة فيه . كانوا لا يحملون أسلة ولا يتساهلون في عاقلة .

(١) انظر المجلد ١٢ ص ٦٢٢

(لأثرهم)

(٢) الاعتقاد المحض أو القنن (Dogma) : مجموعة للمبادئ التي تعدها الكنيسة حسيمة تعجز

كل ربب وتلقم كل إيمان باعتنائها ولا تكيل فيها لتلقا . (لآثرهم)



(شكل ١٤٤) فاكوس للنكاد

لا لأنهم على ثقة من حقبتهم ، بل لأنهم كانوا غير واثقين منها . وكانوا يريدون من حولهم مواضعهم على رؤسهم لأسباب تتصل بالسيلة .

وقد قيل في الكنيسة عندما وافي القرن الثالث عشر ما يماورما من قلق قاتل حول الشكوك الشديدة التي تنخر بناء منحهاها بأكلهم وقد يجمعه أترأ بعد حين . لم تكن نستشر أي اطمئنان نفسي . وكانت تصيد المراقبة في كل مكان ، كما تبعك العجائز المرافقات - لها يقال - عن النصوص تحت الأسرة وفي الدواليب قبل المخرج في المراهين .

ولقد سبق أن أشرنا إلى مالى القارصى الذى سلب وسلب جلدته فى (٢٧٧) . وكانت طريقته فى تمثيل الكفاح بين الخير والشر تمثله كفاحاً بين قوة من نور ، كانت فى الواقع فى ثروة ضد قوة من ظلمة ملاهية للكون . وكل هذه المعينات المعينة تمثلها بالضرورة بعض الرموز والمباريات الشعرية ، ولا تزال أفكاره ماثلة فى تجميد استجابة لدى كثير من الأمزجة العقلية اليوم . ولربما سمع الإنسان المبادئ الماثوية من فوق كثير من المناظر المسجية . على أن الرمز الكاثوليكي الصحيح كان رمزاً مقابلاً .

انتشرت هذه الأفكار الماثوية انتشاراً واسعاً جداً فى أوروبا ، وخاصة فى إيطاليا وجنوب فرنسا . وكان القوم الذين يعتنقونها فى جنوب فرنسا يسمون الكاثوليين أو الألبينيين (Albigenses) . وكان اختلاف أفكارهم عن الأصول الجوهرية المسيحية من الفسالة بحيث جعلهم يحسبون أنفسهم مسيحيين عظمين . وكانوا كهيئة يسمون هيئة الفسيلة وطهري ظاهر فى عصر طافع بالعرف والقسوة والفسيلة . بيد أنهم أظهروا الشك فى صحة مبادئ روما وفى التفسير الصحيح للكتاب المقدس . وكانوا يرون فى يسوع ظاهراً على قسوة رب العهد القديم ، وليس ابناً له [كذا] .

ومن يرتبطون ارتباطاً وثيقاً مع الألبينيين طائفة أخرى تسمى الوالدونيون ، والوالدونيون هم أتباع رجل اسمه والدو ولكنه لم يكن يقل من الآخرين مضايقة الكنيسة لأنه كان ينهى على رجال الدين ثراهم وترفهم . ويخجل إلينا أن اللاهوت الذى كان يدعو إليه كان كاثوليكيّاً صحيحاً . وكان فى ذلك الكفائية لدى قصر الاعتبار ، ومن ثم نرى مثبلاً يدعو فيه إنوسنت الثالث وهو يحرض على حرب صليبية ضد هاته الشيخ الصبية ، ويأخذ لكل نذل زعيم أو متشرد أنهم بأن ينضم إلى الجيش وأن يعمل السيف والنادي واغتصاب الحرار ورتكب كل ما يمكن أن يصوره العقل من أنواع انتهاك الحرمات ضد أحد رعايا ملك فرنسا مسألة . ولقد قصص التى تروى عن هذه الحرب الصليبية تحكى لنا من أشرب الضاوة والنكال والبشع ما يتضاد لآله بخاصة قصة أى استشهاده

للمسيحيين على أيدي الوثنيين ، وهي فوق هذا نسب لنا رجلاً مضاعفاً لما هي عليه من محبة لا سبيل إلى الشك فيها .

كان هذا التصيب الأسود القاسي روحاً خبيثاً لا يجوز أن يخالط مشروع حكم الله في الأرض ، ولأنه لروح جباري تماماً مع روح يسوع الناصري . فاصعبنا قط أنه اعظم الوجوه أو عظم المعاصم لتلاميذه المخالفين له أو غير المستجيبين لدعوته ولكن البايوت كانوا طوال قرون سلاطنتهم في حق مقيم ضد من نعتته نفسه بأهون تأمل في كفاية الكنيسة الذهبية .

ولم يقصر تعصب الكنيسة على الأمور الدينية وحدها . لأن الشيوخ الحصفاء المؤمنين بالألوهة السريسي المياح المخلودين الذين من أجل أنهم كانوا الأقطاب المتسلطة في مجالس الكنيسة ، كانوا يضيفون قرعاً بأية معرفة هذا معرفتهم لا يتقون بأي فكر لم يصححوه وراقبوه . فنعصبوا أنفسهم للحد من العلم ، الذي كانت غيرتهم منه بادية للعيان . وكان أي نشاط عقل هذا نشاطهم بعد في نظرم نشاطاً زهواً . وقد عاشوا بعد ذلك بقليل معركة عظيمة مدلوها مسألة موضع الأرض من القضاء ، وهل هي لنور حول الشمس أم لا تدور . ولم يكن هذا في الحقيقة من شؤون الكنيسة بتاتا . وربما كانت تحسن صنفاً لو أنها تركت للعقل ما للعقل من أبور ، ولكن يبدو أن ضرورة داخلية كانت تسوقها إلى تغير ضمير الناس الفكري منها .

ولو أن هذا التصيب نشأ عن عمن يقين حقيقي لكان فيه من السوء ما فيه ، ولكن كان يصحبه عنصر لا يكاد يستمر من الاحقار لكاه ولفكرامة لفضيلة عند الرجل العادي يجعله أقل استساغة بكثير في عين تقديرنا العصري ، ولا شك أنه جعله أقل قبولاً لدى النظم الحرة في ذلك الزمان . ولقد سردنا بختي الملهو سياسة كنيسة روما نحو أعضائها المضطربة في الشرق . ولا شك أن كثيراً مما استعملته من الآلات والوسائل كان يضيفاً فقط . وذلك لتشهد في معاملتها لشعباً بالذات مسحة من السحرية الخلق . ولقد قصت على هيبتا بعد مراجعتها لتاريخها ذاتها الناعية إلى الصلاح والبر . وقد سبق أن تكلمنا عن نظام التهجئة . وكانت خاتمة حلقاتها في القرن السادس عشر مع « مذكورة النفران »

التي بها يمكن انتشاء الروح من حذاب المظهر بلطفه مألوه . هل أن الروح التي دفنتها آخر الأمر إلى هذه القفلة المتجسمة التي كانت نكبة عليها ، كانت واضحة ملحوظة من قبل في القرنين الثاني عشر والثالث عشر .

وقبل أن تثبت بذرة الفقد التي ازدهرها فردريك الثاني بزمان طويل في أذهان الناس ، وتوثق ما لا مناص منه من تمار العصفان ، كان يقيم على عالم المسيحية شعور واضح القوة يوحى إلى الناس بأن حال الجوارح الروحاني ليست على ما يرام . فابتدأت داخل الكنيسة الحركات - التي قد نسميها نحن اليوم بالحركات « الانعاشية » ، والتي تقصرق نفسها لفقد الكفاية طرائقها وتخطياتها القائمة أكثر مما تلتحق به . وعندئذ ألهل الناس يلتصقون أشكالاً جديدة من حياة البر والهدى خارج الأديرة وصفوف الكهنوت .

وهناك شخص جدير بالذكر هو القديس فرنسيس الأسيسى (١١٨١ - ١٢٢٦) . ولما يستطيع أن يخبرك ما هنا في أي تفصيل كيف أن هذا الشاب المترف الظريف قد نزل عن كل ما وهبه الحياة من معة ودعة وانطلق يطلب الله ، وليس استهلاك قصته يهيد الشبه عن تجارب جوتاما بوذا الأولى . إذ أصابه تحول فجائي إلى الهداية وسط حياة ناعمة بللمرة ولللغات ، حتى إذا نلر عيشة القناعة الشديدة ، وهب نفسه لحياة تشبه حياة المسيح ، ولحمة المرضى والباكين ويوجه أنص نخلة المصابين بالبلهام ، الذين كانوا يكثررون عند ذاك في إيطاليا .

وانضمت إليه جماعه صغيرة من الاتباع ، وهنا ظهر في عالم الوجود أول الرهبان في « حيد » الرهبنة القرونسكانية (أو القرونسكية) . وأقيم عند من النساء المحطات المنقصات إلى جوار حيد الأخوة الرهبان الأصل ، وبالإضافة إلى هذا ، ضحوا إليهم ألعاداً صغيرة من الرجال وانشاء ارتبطوا بهم كبردين ارتبطاً وصحباً بدوكة أقل . فأخذ يخط الناس في مصر وفلسطين مباشرة بدعوته لا يعترض للسكون عليه ، وهو أمر يجب ملاحظته هنا وتسجيله - وإن كان ذلك إبان الحملة الصليبية الخامسة . ولا تزال علاقاته بالكنيسة موضوع الأخذ والرد . وقد أقر البابا إنوسنت الثالث عمله ، غير أن عقد تشكيل الجماعة لمجد تكوينه وهو غائب يلاذ الشرق بصورة أقوى روح النظام ، وتجميل للريلة قات

السلطة الموجهة على الدافع الاستجلى . تألفت هذه التغييرات إلى تخليه عن ولاءها . وقد ظل حتى نهاية أيامه متمسكاً أشد التمسك بالثغر كفى أعلى ، ولكن لم يكذب بعض على وفاته أمد طويل ، حتى كان العقيد يحظر الأملاك من طريق القنطرة على الأوثان وبينى كنيسة عظيمة وديراً تقليدياً للذكراء في أسيوط ، هذا إلى أن النظم التي طبقت بعد وفاته على عطاياه وأرباحه المباشرين لا تكاد تفرق عن الاضطهاد في شيء ، فجلد كثير من أبرز المتحمسين للباطنة ، وسجن آخرون ، وقتل واحد أثناء محاولته للهرب ، وقضى الأخ برنار ، أول تلاميذه ، ستة في الثغبات والقتال ، وهو بطريرك مطاردة الوحش القصارى .

إن هذا النزاع الذى نشب داخل العقيد الفرنسكانى (الفرنسكى) ، نزاع شاق جداً . لأنه يندو بالمتحاب الضيقة التي كانت النصرانية مله عليها ، وقد ظل فريق من الفرنسكانيين يجاهد طوال القرون الثلاث عشر ضد حكم الكنيسة ، وفي (١٣١٨) أحرق أربعة منهم وهم أحياء في مرسيليا بوصفهم مراطقة لا يرجى لهم صلاح . ويبدو أن الفارق كان طفيفاً بين تعاليم القديس فرنسيس وروحه وبين تعاليم والده وروحه في القرون الثاني عشر ، وهو مؤسس طائفة الوالديين التي ولدت وقضى عليها . وكان كلاهما متوقفاً حاملاً لروح يسوع القصارى . ولكن بينما خرج والده على الكنيسة ، بل على القديس فرنسيس قصارواه لكي يكون ابناً باراً بالكنيسة ، ولم تكن نطقاته على روح المسيحية الرسمية إلا تلميحاً غسناً غير صريح . ولكن كلا منهما كان مثالا لتوران التمييز على السلطة المسيحية وعلى الإجراءات العادية التي تنبها الكنيسة . ومن الجلى أن الكنيسة اشتمت ربح العصيان في المثال الثاني كما احست به في الأول .

وكان القديس دومينيك الأسبانى (١١٧٠ - ١٢٢١) شخصية مثيرة جدلاً للقديس فرنسيس ، فقد كان قبل كل شيء تقليدي السقيمة . وكان ولوهاً بهلابة المراقبة عن طريق الجمال ، فندبه البابا إنفوسل الثالث للذهاب والتبشير بين الأليجيبين . وكان عمله يسيراً جداً إلى جنبه مع القتال والملايح التي تمت أثناء

الحملة الصليبية عليهم : فن لم يستطع دومينيك أن يهديهم إلى سبيل اللعن ، أعمل فيهم صليبيو إرنست السيف والشار ، ومع هذا فإن نشاطه ذاتها واعتراف البابا بقدر رعايته وتشجيعه إياه لشهد بتصاعد ميل الثالثة ، وباعتقاد الناس كافة بما فيهم البابوية نفسها بأن القوة ليست علاجاً الموقف .

وتطور حقد الرهبان السود أي الدومينيكان (الدومينيكان) - (إذ كان الفرنسيون هم الرهبان الشهب^(١)) بين لنا من سنة أوجه أن الكنيسة الكاثوليكية كانت وهي عند متفرق الطرق تدرى سلسلة رويدا في أعماق الاعتمادية الحبية (Dogma) المنظمة ، ويدا تقع في نزاع لا رجاء فيه مع ذكاء الإنسانية المتوحد وشجاعتها المثيرة . وبذلك تغيرت الكنيسة طريق التفسير والإجبار ، وهي التي وإسبها الأوحاد أن ترشد وتهدى . ولا يزال آخر حديث ألقاه القديس دومينيك إلى المراقبة الذين جهد أن يهديهم إلى الطريق السوي بقايا لنا إلى اليوم - وهو من صوي^(٢) التاريخ العامة . وإنه ليكشف لنا من رجل تولى مراحل خطفه القتال لأنه لقد إيمانه في قوة الصلوات نظراً لأن صلاته الخاصة لم ينصر .

قال : « قد نصحبكم سنين عديدة بلا جدوى . بالطف والموعظة والرجاء والبقاء . ولكننا تيساً للمثل القائل في بلادى : « حيث تفسد البركات من إتمام أي شيء ، فن الجائز أن تفيد النكات » - منبر عليكم الأسراء والأحبار الذين صوف - ويا للأصف ؟ ... يلعبون الأمم والممالك ضد هذه البلاد وهذا تفيد النكات حيث كانت البركات والطف غير ذات جدوى^(٣) »

شهد القرن الثالث عشر تطور منظمة جديدة في الكنيسة ، هي حركة المضيق البابوية . ذلك أنه جرت عادة البابا قبل ذلك الزمان بأن يقوم في بعض الأحيان بصحقات أو استعلامات من الإلحاد في هذا الإقليم أو ذلك ، ولكن إرنست الثالث

(١) الشهب : جمع أذهب وهو الرمادة اللون . (المترجم)

(٢) المسوة : بالمعنى سحر يكون عامة في الطريق : وجه صوي . (لترجم)

(٣) المروعة البريطانية - عامة دومينيك .

وبعد الآن في عقد الرهبان الموسيكيين الجديد أداة قوية للقمع ومن ثم نظمت
 حاكم القديس كأداة تحقيق مستدعة تحت إدارتهم . وجاهد الأداة نصبت الكنيسة نفسها
 لمهاجرة الضمير الإنساني بالنار والعذاب وعملت على إضعافه مع أنه منطأ أسلها الوحيد
 في السيادة على العلم . وقبل القرن الثالث عشر لم تنزل حقبة الإعدام إلا نادراً
 بالملأحة والكنار . فاما الآن فإن كبار رجال الكنيسة كانوا يقفون في مئة ساحة من
 سلحت الأموات في أوروبا ليراقبوا أجسام أعطتها - وهم في غالبية الأمر قوم فقراء
 لا وزن لهم - محترق بالنار ويحقد أنفاسهم بحالة عزلة ، وتحرق ويحقد معهم في
 نفس الحين الرسالة العظمى لرجال الكنيسة إلى البشرية فتصبح رماداً تلوه الرياح .

على أن بدايات القرنين السادس والسابع لم تكن إلا القصر من بين القوى الكبيرة
 الجديدة التي أخذت تنشأ في عالم المسيحية ، إما لمساعدة الكنيسة أو لتعطيلها حسبما
 كانت عليه عليها حكمها الخاصة . وقد تنظت الكنيسة بالفعل هذين «العقدين»
 (الميقتين) واستخدمتهما ، وإن كان ذلك مع قليل من العنف في حالة العقد الأول .
 على أن قوى أخرى كانت أصرح في قدما وخروجها على الطاعة . إذ ظهر بعد ذلك
 بقرن ونصف ويكيليف (Wycliffe) (١٣٢٠ - ١٣٨٤) . وكان قسياً ولاهوتياً
 حاداً في لوكسفورد ، واشتغل بالتدريس بكلية بالبول حيثاً من الفهر ، وتولى مناصب
 متوعدة في الكنيسة . ثم شرع وقد علت به قسن يومه سلسلة من اللقد للصرح إلى
 ما عليه رجال الدين من مفاسد وما عليه الكنيسة من الخبايا .

ونظم حلقاً من فقراء القملومة ، هم الويكليفيون للشر تراثه في كل أرجاء إنجلترا .
 ولكن بمحكم الناس بينه وبين الكنيسة ، ترجم الكتاب المقدس إلى الإنجليزية .
 كان رجلاً أوسع علماً وأكثر اقتداراً من أي من القديسين فرسيس لودوميليك .
 كان له مؤيدون من قوى المراكز الطالية ، وأتباع كثيرو للهد من بين أفراد
 الشعب ، ومع أن روما ثلثت حقاً عليه وأمرت بسجنه ، فإنه مات رجلاً حراً ،
 وهو ما يزال يقوم بالطوقس الدينية والأمرار للخدمة بوصفه قسياً لأبروشة لوتوروث

• (Lutterworth)

على أن الروم المنيعة القديمة التي كانت تسوق للكنيسة الكاثوليكية إلى حضنها لم تكن لتسمح لمظاهرة بأن تستقر في قبره . فيمقتضى قرار صادر من مجمع كونستانس في (١٤١٥) اتبعت مظاهرة وأحرقت ، وهو قرار قلده الأسقف الملحق في (١٤٧٨) بأمر من البابا مارتن الخامس . ولم يكن هذا الانتهاك لحرمة القابر من عمل متعصب عنفونه ، بل كان عملاً رسمياً أتمته الكنيسة .

١٥ - قائمة بأسماء البابوات المعظام

إن تاريخ البابوية حريك للقرى العادى لكثرة البابوات ووفرتهم . كانوا في الغالب يتولون منصة الحكم شيئاً قد تعلقت بهم السئون ، وكانت مدة حكمهم قصيرة على من ملئوا في المتوسط .

على أن من البابوات من يبرزون ويثبتون للدرس التاريخ تقاطعاً بارزة يستطيع أن يمسك بها ويحس أثرها . ومن أمثال هؤلاء جريجورى الأول العظيم (٥٩٠ - ٦٠٤) ، وهو أول بابا مترعب ، وصديق بندكت ، وصاحب الفضل في إرسال بعثة التبشير الإنجليزية .

ومن البابوات الآخرين الجديرين بالذكر ليو الثالث (٧٩٥ - ٨١٦) ، الذى توج شرملاً ، والثان من البابوات اشتهرا بالفضائح هما يوحنا الحادى عشر (٩٣١ - ٩٣٦) ويوحنا الثانى عشر (٩٥٥ - ٩٦٣) ، والأخير هو الذى علمه الإمبراطور لئون الأول ، ثم يحيى هاديراند العظيم ، الذى ختم حياته تحت اسم جريجورى السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥) ، الذى فعل الشيء الكثير بقضيه للزوية على رجال الدين ، ونفيته بسيادة الكنيسة على الملوك والأمراء ، لى يركز قوة الكنيسة في روما .

وحدث نزاع عظيم بين هاديراند والإمبراطور المنتخب هنرى الرابع على مسألة العصيتات . فحاول الإمبراطور أن يخلع البابا ، فحرم البابا الإمبراطور وأحلّ آيامه الأمراء من ولايتهم له . واضطر الإمبراطور أن يلجأ طلباً إلى البابا فى كاتونسا (١١٧٧) ، وأن ينظر الفران ثلاثة أيام متدوراً بالعيش ، وهو حلى القلمين فى

الطلع في غناه القلعة . على أن هنرى ما لبث أن عاد فيها بعد إلى فرض حقوقه وإيراز
قوة شبكته إذ أعانته أكبر النون هجمات قوية قام بها المفار التورماتنى دوبرت
جويسكود على ممتلكات البابا .

وكان البابا القلى خليفة جريجورى السابع هو لوبان الثانى (١٠٨٧ - ١٠٩٩) ،
وهو القلى الذى دعا إلى الحرب الصليبية الأولى .

وكانت الفترة من جريجورى السابع إلى ما بعده قرن ونصف من الزمان هى
الفترة السطى الكنيسة : فترة اشتداد طموحها وجهودها . وفيها بلغت المحاولات
الصادقة المتواصلة لتوحيد علم المسيحية بأجمه في ظل كنيسة مظهره جديدة التنظيم .
وإن في إقامة الممالك اللاتينية بسوريا والأراضى المقدسة على ملحق روما بعد
الحرب الصليبية الأولى ، علامة ملحوظة آذنت باستهلال مرحلة جديدة لتزود روما
للمسيحية الشرقية ، مرحلة وصلت إلى ذروتها أثناء الحكم اللاتينى في القسطنطينية
(١٢٠٤ - ١٢٦١) .

وفي (١١٧٧) رجع الإمبراطور فردريك بربروسا (فردريك الأول) البابا
اسكندر الثالث في مدينة البندقية واعترف بسيادته الروحية وأقسم بحسن الإخلاص
والولاء له . ولكن بعد موت اسكندر الثالث (١١٨١) ، تهيئ ضعف البابوية الراجع
إلى إحتلال وقوعها في أيدي كهنة عصمين . فإن خمسة من البابوات طُفوا إلى اللاتيران
مترنحين لكي يموتوا في مدى عشر سنوات . ولم يتبع للبابوية إلا في شخص لاونست
الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦) بابا قوى جديد يتناول بيلج السياسة المنظمة
« مدينة الرب » .

وفي عهد لاونست الثالث - الوصى على الإمبراطور لودريك الثاني ، الذى
سبى أن درساً بريحته - والبابوات الخمسة الذين خلفوه ، أصبح بابا روما
أقرب إلى ملك تعلم مسيحي متحد منه في أى زمن سابق أو لاحق . ذلك بأن
الإمبراطورية ضفت لما تشب فيها من مناقضات لدنطية ، على حين صارت
القسطنطينية في أيدي اللاتين ، ومن ثم صار البابا هو السيد الأعلى فيا بين بلناريا

ولإثباته وما بين الترويج وصقلية وبيت المقدس . ومع ذلك فإن سياحته هذه كانت ظاهرة أكثر منها حقيقية . ذلك أنه على حين كانت العقيدة كما رأينا آنفاً ، قوية أيام إربان الثاني في كل أوروبا المسيحية ، كانت البابوية أيام إنوسنت الثالث قد فقدت سيطرتها على قلوب الأمراء ، كما أن إيمان الناس وضميرهم كانا أخطئين في التحول إلى العداوة للكنيسة لا تنطوي إلا على السياسة والدوران (١) .

وكانت الكنيسة في القرن الثالث عشر أقوى وتبسط سلطتها القانونية في السلم وتحقق سيطرتها على ضوايق الناس . وكانت تفلسو أهل إقطاعاً وأكثر عنفاً . ولا يستطيع أي إنسان دعى أن يتحدث أو يقرأ من هذه العملية القاضية دون أن تتجابه مشاعر بالغة المضطرب . لقد آوت الكنيسة بين أحضانها أوروبا جديدة كونها بنفسها خلال المصور الطويلة من الظلمة والقوضى ، وكانت هي القالب الذي صبت فيه المدنية الجديدة . ولكن هذه المدنية الجديدة التكوين إنما دخلتها إلى انخراطها للقطرية للكنيسة ، فأما القالب (الكنيسة) فكان ينمعه القدر الكافي من قوة التسمية والتفسير . وكان الزمان الذي لا بد فيه من كسر هذا القالب يقترب حثيثاً .

وجاءت أول إشارة قوية لاختلال القوى الحية الداعمة للبابوية ، عندما حدث بعد ذلك نزاع بين البابوات وقوة الملك الفرنسي الثامنة . إذ حدث في حياة الإمبراطور فردريك الثاني أن وقعت ألمانيا فريسة للفرقة ، ولخط الملك الفرنسي يقوم نحو البابا بدور الحارس والمساعد والمتنافس ، وهو الثور الذي كان يؤديه إلى ذلك الحين أباطرة آل هوهنشتاوفن . واتبعت مجموعة متتالية من البابوات سياسة مناصرة الملوك الفرنسيين ، فنصب أمراء فرنسيون في ممالك صقلية وناپولي ومناصرة روما ومولقها ، ورأى الملوك الفرنسيون أمامهم فرصة سانحة لاستعادة إمبراطورية شرقاً وحكماً . ومع ذلك فإنه لما انتهت فترة علو العرش الألماني التي نشأت بعد موت فردريك الثاني آخر أفراد آل هوهنشتاوفن ، وانتخب رودلف الهابسبرج أول إمبراطور من آل هابسبرج (١٢٧٣) ، انحلت سياسة الاتيران كدليل بين فرنسا وألمانيا تبعاً لميول البابوات المتضادين .

(١) كانت الكنيسة في ذلك الحين قد تنسب عجماء في سهل المتباد (Church Militant) أو تستمر على فردود الدنيا ومسطرة في ملكوت السموات (Church Triumphant) . انظر مقال من جان ديك في كتابه « أعلام وأنكار » تأليف يوهان غولدينا ترجمة المترجم الهبلة المصرية للمؤلف .

ففى (١٢٩٤) تهاوى بونيفاس الثامن صمت البابوية . وكان رجلاً إيطالياً معادياً للفرنسيين ، وافر الإيمان بتقاليد روما العظيمة ورسالتها الكبرى . ضالغ الأمور حيناً من الدهر بقوة ولستبداد . وفى (١٣٠٠) عقد مهرجاناً للبريبيل واجتمع له جمهور حشد من الحجاج فى روما . « بلغ من عظم انشغال المال إلى غزولن البابوية ، أن ظل موظفان يصعدان بالمحاريب لمبات التى وضعت عند قبر القديس بطرس » (١) . حل أن هذا المهرجان كان نصراً سحافاً . فإن جمع جيش عظيم من الرعاة المنزعين أبصر كثيراً من جمع ثلة من الصليبيين . وتساوح بونيفاس مع الملك الفرنسي فى (١٣٠٢) ، وفى (١٣٠٣) ، بينما كان حل وذلك إصدار قرار الحرمان ضد ذلك الملك ، فلجأه ليلوم دى نوجاربه فى قصر لجداده الموروث بأفاجنى (Anagni) واعتقله . وقد دخل هذا للشوب عن الملك الفرنسي القصر سنة وصار حتى وصل إلى خنق البابا المراجع — وكان رائداً فى فراشه وبيده صليب — وأتى عليه ميلا من الوعيد والإهانة . وأطلق أهل المدينة صراح البابا بعد ذلك بيوم أو بئس يوم ، وأعادوه إلى روما ، ولكن اعتقله هناك ثانية بعض أفراد عائلة أورسني وسجنوه . ولم تقضى بضعة أسابيع حتى مات الرجل للشيخ الهرم مصحوقاً وقد وضعت عنه غشاة الخناع ، ففقد وهو لا يزال سجيناً فى أيديهم .

وقد غضب أهل أفاجنى بالفعل للاعتداء الأول وللورا ضد نوجاربه لتخليص بونيفاس ، ولكن أفاجنى كانت مستقر رأس البابا . والقنطة الهامة التى حلها ملاسيتها هى أن الملك الفرنسي ، كان فى هذه المعاملة انفضت لرأس المسيحية الأكبر ، يصرف بجلد استصمان شعبه ، فإنه دعا مجلساً من طبقات فرنسا الثلاث (النبلاء والكنيسة والعامّة) وغادر بموافقتهم قبل البدء فى الإجراءات المصرفة . ولم تبد أى من إيطاليا لوالانيا أو إنجلترا أدنى مظهر عام يتم على عدم الموافقة عن هذا التصرف الجريء مع الحبر الأعظم صاحب السيادة العليا . فقد انطقت الفكرة للناحية لتوحيد العالم المسيحي حتى أعمى سلطانها على حقوق الناس .

وقال الشرق استرد اليونان مدينة القسطنطينية (١٢٦١) من الأباطرة اللاتين ، ولم يلبث مؤسس الأسرة اليونانية الجديدة ميخائيل باليولوجوس أو ميخائيل الثامن ، بعد محاولات زائفة للصلح مع البابا ، أن انفصل عن مجتمع روما للكنيسة انفصالا نهائياً ، وبهذا الانقسام وسقوط الممالك اللاتينية في آسيا ، زال ما كان لبابوات من سيادة في الشرق .

ولم تعمل البابوية شيئاً طوال القرن الرابع عشر لاسترداد هيبتها المعتبرة . وكان طيفه البابا التالي ، وهو كلمنت الخامس ، وجلاً فرنسياً ، اختاره الملك فيليب الفرنسي . فلم يحضر إلى روما أبداً . بل أقام بلاطه في مدينة أفينيون ، ولم تكن عند ذلك تابعة لفرنسا ، بل كانت تابعة للكرسي البابوي وإن وقعت في صميم الأراضي الفرنسية ، وهناك أقام خلفائه حتى (١٣٧٧) ، عندما عاد البابا جريجوري الحادي عشر إلى قصر الفاتيكان بروما . ولكن جريجوري الحادي عشر لم يحصل معه حلف الكنيسة بأسرها . إذ كان كثير من الكرادلة فرنسيي الأصل وكانت عاداتهم ومعارفهم شديدة الارتباط بأفنيون . فلما أن مات جريجوري الحادي عشر (١٣٧٨) ، وانتخب إيطالي هو لويغان السادس ، أعلن هؤلاء الكرادلة للقسطنطين أن الانتخاب باطل ، وانتخبوا بابا آخر هو البابا المضاد كلمنت السابع .

ويسمى هذا الانقسام « بالصدع الكبير » . وظل البابوات في روما ، وبقيت كل القبول المهادية لفرنسا ، من الإمبراطور إلى ملك إنجلترا إلى هنغاريا وبولندا وشمال أوروبا ، موالين لهم . وذلك على حين استمر البابوات المضادون في أفنيون يناصرون ملك فرنسا وحليفه ملك إسكتلندا وألبانيا والبرتغال وأسراء ألمان مقننوهون . وكان كل بابا في الجبابرة يحرم أنصار منافسه ويلعنهم ، حتى لقد طردت المسيحية بأجمعها ملعونة أثناء ذلك قرمان أيضاً صهيحاً كاملاً بهذا للغير أو ذلك (١٣٧٨ - ١٤١٧) .

ومن المستحيل أن نبالغ فيما ترتب على هذا الانقسام من أثر عجز عن قوة تحملت العالم المسيحي . فلا غرو إذن أن رجلاً من أمثال ويكيليف شرعوا يعلمون الناس أن يفكروا لحسابهم الخاص ، عند ما كان معين للصدق بطاعن ويفرى يضمه بعضاً على النحو الذي نرى ! !

وفي (١٤١٧) التأم الصدع الكبير في مجمع كونستانس ، وهو نفس المجلس الذي اجتمع هناك وبكيليف وأحرقتها ، والتي تسبب كما سنبين فيما بعد في إحراق جون هس (Huss) . وفي هذا المجمع استقال البابا والبابا المضاد أو قلف هما جانباً ، وأصبح مارتن الخامس البابا الوحيد على عالم مسيحية موحدة رسمياً ولكنها مضطربة بادية الإحياء روحياً .

ولمنا بمسطين أن نفهم هاهنا كيف أن مجمع بازل (١٤٣٩) أدى إلى صدع جديد وإلى بابوات مضادين آخرين .

هذه نبذة موجزة عن قصة التتروا الطليحة لركة البابوية وتدهورها . وهي قصة الإنخراط في الوصول إلى تلك لفكرة التوبة الزائلة ، فكرة قيام عالم ديني موحد . ولقد أشرنا في القسم السابق كيف أن ميولاً من لاهوت مفرد قائم على الاعتقاد الختسي (Dogma) ، قد أثقل كاهل الكنيسة في مضامرتها للطلوحة هذه . كان لديها من اللاهوت ما يتجاوز للثابة ومن الدين ما دون الكفاية . على أنه ربما لا يكون من الضر الإثارة هنا إلى مدى ما ساهم به عدم الكفاية الشخصية لبابوات في انهيار خطة الكنيسة وكرامتها ، لم يكن في العالم فلكه للشرى الطليحي اللازم لتزويد سلسلة متعاقبة من الكرادلة والبابوات بسمة المعرفة ورحابة الأكف اللازمين لواجب الذي أغلوا على عاتقهم التهورس به ، فهم لم يظفوا الصليم الذي يكنى لقيامهم إدراجهم ، ولم جيداً إلا لتقليل منهم ، أن يناموا على هاته للقيمة بمس قوة البفيرة . وكما سبق أن نوهنا ، كانوا عند ما يصلون كغير الأمر إلى التزود والسلطان ، أمسن وأصعب من أن ينفروا على استخدامه . وقبل أن يمحكوا القبضة على الموقف الذي كان عليهم أن يبيعوا عليه ، يكون معظمهم قد فارق الحياة .

ومن الشائق أن يتساءل الإنسان كم كان للزبان يصح إلى جانب الكنيسة لو أن الكرادلة كانوا يقاتلون في من الخمسين ، أو حرم انتخاب أي إنسان لمنصب البابوية بعد من التمامة والخمسين ؟ كان ذلك لا جرم يطيل متوسط مدة حكم كل بابا ، وكان يزيد زيادة هائلة في استمرار سياسة الكنيسة . وربما كان من المحتمل

كذلك أن تُستَبطط طريقة أكثر كمالاً في انتخاب الكرادلة ، وهم أصاب القول
الفصل في انتخاب البابا وقدر الرأى والمشورة لديه . فإن القواعد والطرق التي
بها يصل الرجال إلى مناصب السلطان على درجة عظيمة جداً من الأهمية في الشؤون
الإحصائية . وإن ميكولوجية الحاكم لتعليم لا يزال على العلماء أن يدرسوه دراسة
صحيحة . لقد رأينا الجمهورية الرومانية تتسلم ، وما نحن زى الكنيسة تحقق في رسالتها
العالمية لسبب يرجع على الأغلب إلى طرائق انتخابية حكيمة .

١٦ - العمارة والفن القوطيان

هناك تطورات سارية وفنية خاصة تميز أواخر تاريخ المسيحية من العصر
الرومانسكى إلى عصر النهضة واضمحلال العقيدة الذى كان فرديك الثانى بشيره .
وقد حدث إقبال عظيم على بناء الكاتدرائيات في القرنين الحادى عشر والثانى عشر ،
وتطور سريع في العمارة الرومانسكية الغربية ، تحول بها إلى ما يسمى في أدق
معانيه باسم الطراز القوطى . فإن السقوف المنحدرة في الأبراج الرومانسكية قد
استطالت وأصبحت صائراً مستقيمة (Spire) ، وأدخل القفص القوس المضاعف الخشب .
وجرف العقيد المنحجب - الذى انتشر من قبل في الفن الفرنسى طوال مئتي سنة أو
تزيد - أمامه القفص المدور . وظهر مع هذه المظاهر تطور عظيم وتعميق كبير في
النوافذ وفي الزجاج الملون .

والمراجع أن نحو هيئات الأديرة وازدياد ثروتها هو الذى أطلق سراح نبض الطاقة
الفنية التي أحلت العالم كنيسة نوتردام بياريس مثلاً وكاتدرائية شارتر وكاتدرائية أبيان
والجباية المنحدرة التي تشهدنا في بوليه (Beauvais) . وظل للذائع الفن القوطى متواصلاً
طوال قرون عديدة . وعند القرن الثالث عشر أُنشئت النافذة ذات الحلق الحجرية
التشجيرية المنحدرة من أعلى تصل إلى أقصى درجات تطورها . وفي القرن الرابع عشر
أصبح الفن القوطى مزجاً بالحيرية فترة طويلة من الزمان ثم ارتد قاصداً جليلاً .
واشبع الإنجليز ما انحلوا لأنفسهم الطراز المرتفع للمعماريين .

والمسودي) (Perpendicular) (١). وانتقلت الأشكال القوطية سنة وكيفاً جديداً يستعمل للقبوب في مناطق متراصة الأطراف من شرق ألمانيا وشمالها حيث حبر البناء تدور أو بعيد المثال . ولقد ذوى فن العمارة القوطى مع بداية القرن الخامس عشر . ذلك أن أيام عظمة الكنيسة في أوروبا قد وُثِّت ، وكان لا يد لكثوف للاجتماع الجديدة من أن تعبر عن نفسها بطرائق جديدة . وما زلنا نجد الكاتدرائيات نكسة لم يستكمل بناؤها في بعض مدن بلجيكا وهولندا ، وإلى سوارها بناء البلدية عظيم سلب ما كان للكنيسة من موارد البناء ومواده . ففي إيزر (Vosges) مثلاً ، وقبل أن تمتد يد الحرب بالتخريب ، كانت قلعة و بورصة الأقمشة و المظلى تبرز للكاتدرائية إقناً وتضيقها بحالا .

وفي أسبانيا كان الفن القوطى يقفو المسيحيين من مقاطعة إلى أخرى لبناء أسرارهم شبه الجزيرة من الغرب . فالفن الغربى الفرنسى (Moresque) والفن القوطى الأسبانى قد تطورا كل في حدوده الخاصة . هذه أدوية تقوم فيها إلى جانب القصر الفرنسى للطرز المسى بالكازار ، كاتدرائية قوطية عظيمة ، وكان داخلها السامع يستشعر فرساً متفله التسة لما تم من لوز على الفزاة المقهورين .

ولم يعظف الفن القوطى في إيطاليا بلوحة كبيرة . وأبرز مثال له هو كاتدرائية ميلانو . على أن إيطاليا كانت أثناء الفترة القوطية في أوروبا الغربية ، ساحة قتال بين التقاليد الحقيقة والطرز المتنازعة . فإن كنيسة سانت ماركو البيزنطية للطرز و البندقية تضاهى بطرازها الطراز القوطى المحلى في كاتدرائية ميلانو ، وإن النورمانيين والغرب ليزجان روحهما بالروح الرومانية في مثل عياني كاتدرائية أمالني . وتشكل الكاتدرائية ومكان التصيد و برج الجرس الكبير في يزا مجموعة من أشد مجموعات المباني الإيطالية تعبيراً ، وكلها ترجع إلى حوالى القرن الثاني عشر تقريباً .

(١) طراز العمارة المسودي : طراز إيطالية ظهر من نهاية القوطية (أواخر القرن ١٥) إلى منتصف ١٦) ويمتاز بالملينات الحجرية المنقورة بأطل القنوط أو بالنقش الخاضق ذو القزوايا الأربعة بالاضافة ذات الملينات الحجرية المنقورة على شكل مروحة وبالطيران للزخرفة بالصدر (المترجم)

وظل الليل إلى فن التشكيل التمثيلي^(١) طوال العهد القوطي ، وهو الميل القوي المشوب في كل من الشعوب الآرية والحامية ، - يكافح كفنياً ظاهراً ضد الليل الغريزي إلى كنهه ، الذي ظهر في السلم الغربي بعد الانتشار الأول للمسيحية والإسلام . وينبغي أن يكون من المفهوم أنه لم تكن هناك حداوة سريعة عند الفن التشكيلي التمثيلي عند المسيحيين . وقد اخفى فن التصوير الروماني القديم من سراديب الدفن والقبور المسيحية للزخرفة . وظل قلدو معين من التصوير الجداري للمنطق لنوع يكافح خلال لقرون الوسطى ثم تكرر في القرنين العاشر والحادي عشر .

ومع زيادة أسباب الاطمئنان في الحياة جاءت الرغبة المتزايدة في تجميل الكنائس ومباني الأديرة . وانتشر التصوير منتظلاً من العمل الضيق المحدود لمن يعمل الكتب بالصور إلى الجدران والروحات العصرية . فأصبح القديسون الجالسون أكثر مرونة ، وأضيفت الخلفيات الظاهرة من ورائهم ، فأتاحت للرسم الحيال لإضافة التفاصيل الشخصية مع الطبيعة السطحية Naturalistic . فاما الروحة للصورة^(٢) التي كانت تصل في مكان ثم تنقل إلى آخر وتثبت فيه ، فكانت بغيراً وسلباً للصورة المستقلة . وانقضت فترة من الزمن في القرنين الثاني عشر والثالث عشر كانت فرنسا وألمانيا ساقطين فيها لإيطاليا في هذا الاضطراب لفن التصوير . وفي نفس الوقت كان نحاس أحجار البناء يفت في الحليات المصنوعة التي عليها الملائكة القوطية خيرية وروحاً ولقمية متزايتين . فهو يحول المزاج إلى رأس حيوان كالحرف الوجه عضك ، ويضع وجوهاً وأشكالاً ممدودة على تيجان القصد والأبراج المرتفعة النقية للأبنية Plaque . ويقل القديس المنحوت من الحجر البارز Rellé إلى التجسيد الصلب اللاتل (أي يحوله من نقش بارز مسطح إلى تمثال مجسّد) . وفي ذلك أيضاً كانت ألمانيا هي القائدة صاحبة المسبق . وهذا الانسلاخ إلى المحاكاة الطبيعية أمتنع حقيقة عامة في تاريخ العمور الوسطى القوي .

(١) فن التشكيل التمثيلي (Representative Art) هو التمثيل تمثيل آراء وصور الأبناء العلمية والكنائس العليا . (المترجم)

(٢) الصورة المصورة (Pencil) هي التي رسمها أهل الفن باسم القلم (Pannona) (المترجم)

ولقد سبق لنا أن لاحظنا من قبل انخضاد الهاكاة للطبيعة مشابهاً لها ، ثم ظهوراً جديداً لتلك الهاكاة في تاريخ الإنسانية . فالإنسان في أواخر العصر الحجري القديم كان يحضر الأشكال الواقعية ويرسمها بحبرة وقوة ولكن إنسان العهد المبكر من العصر الحجري الحديث لم يترك لنا رسوماً جيدة ولا نحاتت جيدة تمثل تلكائنات الحياة . ثم لم يكد فن التشكيل يظهر مرة ثانية حتى جاء عصر البرونز . وقد حدثت قصص هنا الأمر بالضبط وإن على مقياس أكبر بين الأيام العظيمة للإمبراطورية الرومانية وبين العصور الوسطى ، لاني خلال المسيحية لم يحسب بل في وحايه الإسلام كذلك . ولم يتم أحد قط بتقديم أى تفسير كامل مفتح لظهور هذه اللطال المتأوبة . فإن الفن تراجع من عاكاة الحقيقة والطبيعة وحسب نفسه على الإلتفات والتحقق الشكل . ومنذ ذلك التاريخ بدلت موجة عظيمة أخرى من روح الهاكاة المشرقة للطبيعة ، لها بلغت قوتها من أمد غير بعيد . ومنذ خمسين سنة كان كل من التصوير والنحت أكثر على الجملة اعتلاءً بروح هاكاة الطبيعة والتفيل لأشكالها ، وأقل رمزية وأدنى تلويحاً وإشارة مما هو عليه الآن^(١) . ولنا بمسطين أن تقدم هاهنا أى تفسير مرضى لهذه اللوحات التى نلم بالباحث فىنى السماء ، وأخى بها الترجحات للتأويه بين الحقيقة الجليلة القوية النقل والأداء وبين الترفع والازمت . وكأنها الروح الواقعية المفرطة والجلال القرمط بالجسم والحركة والافعال والتفصيل المرغوبة كانت تنهى آخر الأمر إلى إحداث رد فعل يجهه إلى عملية التجريد والفكرية ويسبب التجهل غريزياً إليهما .

١٧ - موسيقى العصور الوسطى

كانت تلم بالموسيقى مختبرات عظيمة في أيام الحروب الصليبية . إذ أن أى نوع من أنواع الانسجام (المرحوفى Harmony) لم يكن معروفاً حتى ذلك الأوان ، بل كانت الموسيقى شيئاً بسيطاً مكوناً من الإيقاع والصوت ، وقد اجتأ آنذاك لتطوير جديد تمام الجودة . كان في مبدأ الأمر غناء موزعاً من نوع بيتاني (Part-singing) ، ثم تطور فأصبح صيغة معقدة من الحان يزداد تناسجها على مر الزمان إسكناً وتفصيلاً . إذ جمعت الأصوات المختلفة

(١) انظر الترميم ، قاترية عن طريق الفن ، تأليف هيربرت روب (عنة الكتب والأجهزة العلمية) ، وقد هذه الفترة وغير الكتاب . لك ما غلب على فن القرن العشرين من روح صبرية تقتل في التعبيرية والبريدية والهيكلية والموسيقى والارتباطية وغير ذلك من أشكال الفن المعاصر . (للتوسم)

تتقى في نفس الوقت أنشأاً عظيمة يجمعها الانسجام للمرونى . وفي الحين نفسه
تطور تنوين القوة الموسيقية قلدر على التعبير عن الموسيقى الجديدة المتعددة الأصوات
البوليوفونية (Polyphonic) وتسجيلها . وكان التنوين ضرورياً لتطور الموسيقى الحرة ،
ضرورة الكتابة لتطور أدبه ، نام متنوع .

ويبدو أن البدايات الأولى لهذا التجديد في صوح الموسيقى إنما ظهرت في
أوروبا الغربية ، والراجع أن ذلك كان في ويلز ووسط إنجلترا . إذ نحن إنما نجد
هناك أول ما سجل لنا من حالات الغناء الموزع ، ولعله بدأ هنا في زمن مبكر
يرجع إلى القرن التاسع . ولكنه كان على التحقيق أمراً قائماً يحارمه الناس عند نهاية
القرن الثاني عشر . وهناك قطعة ممتازة من التسوين الموسيقي الإنجليزي الموزع ترجع
إلى حوالي (١٢٤٠) لا تزال موجودة حتى الآن . وهي الروتا (Rota) وسلمها
« Samerial - cunenim » . والراجع أن كاتبها هو جون الفوردنسي وهو راهب
مهاضر ، ويقول السير و . ه . هادوك^(١) : إن تنوين التوزيع فيها ملهش في صوته
ولرضائه النفس ، ومن الممكن مجاهد في الوقت الحاضر بسرور عظيم وهي
أول صوت في تطور فننا الغربي ، ما يزال يستطيع أن يجهشنا في نبرات صليقة
مألوفة .

وكانت تلك الأيام أيام المفاخرين الجوالين ، كما كانت أيام الموسيقى الطوالفة أيضاً .
فإن جماعات التروبادور كانت تتصل من قصر إلى قصر ، وكان ثمة كثير من المغنين
للتسوين ، وانتشرت فكرة الانسجام الموسيقي (المارموني) بأرجاء فرنسا وإيطاليا
وإلى أوروبا الوسطى . وكانت معظم الطنجينات غناءً متعدد الأصوات بوليوفونيا غير
مصحوب بموسيقى . حل أن تطور التوزيع الموسيقي على الآلات جاء فيها بعد مع
ظهور العود (Lute) والفرجينال^(٢) والفيول^(٣) وزيادة استخدامهم وبجبال الأرغن بصورة
تمشية مع الزيادة في مهارة صانعيه . وكان لا يزال على القصر والبلاط أن يصلوا إلى

(١) هـ السير وليم هنري هادوك ، (١٨٥٩ - ١٩٢٩) من كبار رجاله الغربية ومن أعظم علماء
علم الموسيقى وتحليلها والمصنفها وهو « تاريخ أكسفورد للموسيقى » (المترجم)

(٢) آلة وترية تدعى ذات مفاتيح .

(٣) ضرب نغم من الكمان .

تلك الذرى العالية من الزف والتميق التي لا بد منها لإنتاج موسيقى حلابة أرفع من هذه التي لا يتجاوز نطاقها هذه الموسيقى المصوبة والشمية المصرة . وفي مبدأ الأمر ، كانت أهم مهارة لإنتاج الموسيقى الجديدة هي جوقات (كورس) المرتلين والمغنيين والكاتدرائيات والأديرة . فهناك كافح الرؤساء المجددون لجوقات المرتلين (الكورس) ضد النزعات الدينية التقليدية المحافظة واتمسكوا بالقديم ، بل لقد كافحوا كفاحاً طويلاً بعيد المدى .

وكانت الصبغة الغالبة في أثناء طور الانسجام المارموني للموسيقى البحت هي المادريجال^(١) وكان الملحن الإيطالي بالسرينا (١٥٢٦ - ١٥٩٨) هو الأستاذ للمنى بلغت به تلك الفترة من الموسيقى الكورالية الجماعية قوتها . وفي القرن السادس عشر كان الصناع الإيطاليون قد صاروا فاعلاً بالكان (الليولينا) في سبيل الكمال ، وكان الأورغن الحديث في دور التطور النهائي ، فقد أخذت ظروف اجتماعية جديدة في الظهور ، وثمة مشاعر جديدة أخذت تبحث عن يترجم عنها ، وثم طرائق ومناهج جديدة أخذت في التطور فتسربها ظهور طراز من التطبيقات للموسيقية أرحب ألقاً وجب فيه حل فن التوزيع الموسيقي على الآلات أن يلعب الدور الأهم .

الكتاب السابع

الامبراطوريات المغولية صاحبة الطرق البرية والامبراطوريات الجديدة صاحبة الطرق البحرية

الفصل الثاني والثلاثون

چنكيز خان وخطاؤه وإمبراطوريتهم العظيمة

(عصر الطرق البرية)

- ١ - آسيا عند نهاية القرن الثالث عشر .
- ٢ - لغام الدول وانتصاراتهم .
- ٣ - رحلت ماكو پولو .
- ٤ - الأتراك القبليين والتتار .
- ٥ - لماذا لم ينتص الممراك المسيحية .
- ٦ - أسرتا يوان ونج في الصين .
- ٧ - المغول يرتدون إلى الروح القتالية .
- ٨ - إمبراطورية كاهان والعموموسكوليا (الروسيا) .
- ٩ - تيمورلنك .
- ١٠ - إمبراطورية الهند المغولية .
- ١١ - كاشغر (قصور) .

١ - آسيا عند نهاية القرن الثاني عشر

الآن نلاحظ من آخر وأصغر غارات نظام «البدوة» والترحل على مدنيات الشرق والغرب . وقد تلعبنا في هذا التاريخ تطور طريقة الفيش هاتين جنبا إلى جنبه ، وأشرنا إلى أنه كلما اتسعت رقعة المدنيات وتحسن تنظيمها ، كانت تحصن كل ذلك أسلحة المرحلين ولزوااد مرحة حركتهم وارتفاع مستوى ذكائهم . ولم يكن الترحل

أو الهوى مجرد رجل غير مدبّر ، بل كان إنساناً متخصصاً في طريقة حيثه لا يبرح تخصصه يعمق ويزداد . ومنذ بداية التاريخ فأنها ، كان المرحلون والمستقرون في قضايل دأتم . وقد سبقت الإشارة إلى غارات الساميين والعلاميين على سومر . ورأينا الإمبراطورية الفرية وكيف حطمتها مترحلو السهول السطحية ، ورأينا فارس تسقط في أيدي مترحلي بلاد العرب الذين يهزون بوزنة هذا . والعدوان المنفرد الذي ابتداء مع ابتداء القرن الثالث عشر ، بعد حتى الآن آخر غارة أعيد فيها حُرث الجياحة الإنسانية سروراً عظيماً .

ظهر المنول على مسرح التاريخ فجأة عابطين من غيايب المجهول قرب نهاية القرن الثاني عشر . وكان ظهورهم في القطر الواقع شمال الصين بأرض الأرومة الأصلية للهنود والترك ، وواضح أنهم ينحدرون من نفس سلالة ملين الصينيين . تجمعوا بعضهم مع بعض تحت لواء رئيس ما عن بمقتلن ذاكرة القارئ باسمه ، وما لبثت قوتهم أن تمت تحت قيادة ابنه جنكيز خان بسرعة خارقة للعادة .

ولعل القارئ لا يزال يذكر التفكك التدريجي الذي لَمْ يوحد الإسلام الأصلية ه فقد كان هناك عند بداية القرن الثالث عشر ، عدد من الدول الإسلامية المتفرقة المنتزعة في غرب آسيا . كانت هناك مصر (ومعها فلسطين وجزء كبير من سوريا) تحت حكم خلفاء صلاح الدين ، وكانت هناك الدولة السلجوقية في آسيا الصغرى ، وكان ما يزال هناك خلافة عباسية في بغداد ، وثمة إمبراطورية ضخمة تمت إلى الشرق من هذه أيضاً هي الإمبراطورية الخوارمية ، وهي إمبراطورية الأمراء الأتراك في عبوة الدين غزوا عدداً من الإمارات السلجوقية الصغيرة المتناثرة ، وحكموا الثقة المعتمدة من وادي الجانج (الكنج) إلى الدجلة . ولكن سلطانهم على السكان القروس والهنود كان غير وظيف .

وكانت الحضارة الصينية كقريبتها العربية على حال من لوهم تفرق بها أي طامح مقدام صاصر . ولعل القراء يذكرون أنه ألفتها على الصين في هذا التاريخ وأنها كانت في القرن السابع إبان السنوات الأولى من حكم أسرة تانج ، يوم كان ذلك الإمبراطور الأريب المقننر « تاي تسونج » Tai Tsung « يوازن بين مزاي كل من المسيحية

للسطورية والإسلام والبوذية وتعاليم « لاوتزى Lao Tzu » وعمل في جملة الأمر إلى
 الاتحاد بأن لاوتزى معلم يهبأرج في الفضل أي واحد من الآخرين . وقد وصلنا
 مستطاه الرحالة يوان تشوانج . وقصص كأي منتج مع جميع النباتات . ولكن
 كثيرين من خطاه أنزلوا بالمقيدة البوذية المضطهادات ، لا قد أنخلها رحمة « على أنها
 ازدهرت بالرغم من هذه الاضطهادات . ولعبت أدورها دوراً مشابهاً بغير الشبه
 للور الذي لعبه المنظمات الدورية المسيحية في الغرب في أنخلها بتأصر العلوم يادئ
 الرأي ثم في اعتيقلها سبيل العلم بعد ذلك .

حتى إذا وائى القرن العاشر ، كانت أسرة تانج القوية بلغت من الانحلال أقصى
 الملى . إذ استمرت حملة الاضمحلال المألوفة المسببة عن تعاقب مجموعة من
 التساق والعاجزين على عروش الإمبراطورية ، وانقسمت الصين مرة ثانية من الناحية
 السياسية إلى عدد متغير من الولايات المتطاحة في أثناء ما يسمى « عصر الولايات
 الضرا » وهو عصر من فرضى استمرت طوال النصف الأول من القرن العاشر . ثم
 نشأت أسرة جليدية هي أسرة صنج (Sung) الشمالية (٩٦٠ - ١١٢٧) التي
 نشرت في البلاد ضرباً من الوحدة ، ولكنها ظلت مع ذلك في حالة كفاح مستمر
 مع عدد من الشعوب الموحدة للرافعة من الشمال ، والمضاطعة جنوباً على امتداد
 الساحل الشرقى ، وجاء زمن تغلب فيه شعب من هؤلاء هم شعب الخيتان (Khitan) .
 ولم يلبث هذا الشعب أن تمضيح في القرن الثاني عشر وأنتل مكانه لإمبراطورية
 هونية أخرى ، هي إمبراطورية الكن (Kin) التي جعلت عاصمتها بيكين وحدتها
 الجنوبي المناطق الواقعة جنوب نهر هوانج هو .

وتقلصت خلال إمبراطورية صنج لعام إمبراطورية الكن هذه . وفي (١١٣٨)
 نقلت العاصمة من نانكين إلى أصبحت عند ذلك شديدة القرب من التجوم الشمالية ،
 إلى مدينة هان تشاو على الساحل . وتعرف أسرة صنج منذ (١١٢٧) إلى (١٢٩٥)
 باسم صنج الجنوبية . وإلى الشمال الغربي من أراضيها ، كان هناك عند ذلك إمبراطورية
 الحسا (Hsia) التارية ، وإلى الشمال إمبراطورية الكن ، وكان السكان الصينيون



(شكل ١٥٥) خريطة الهند وآسيا حوالي ١٢٢٠٠

في كلتا الدولتين تحت حكام ما تزال تقاليد الترحيل قوية الأثر فيهم . ومن ثم ترى أنه ما هنا في الشرق كذلك ، كانت الجمهورية الرئيسية للفترة الهيرية الآسيوية تحت حكام من غير بني جلدتهم ، كما كانوا على استعداد لقبول أي فاتح إن لم يبلغ بهم الأمر حد الترحيب به .

فأما حال الهند فكان كما سبق أن لاحظنا أولاً يجعلها القانعون عند مشهل القرن الثالث عشر . وكانت في مبدأ الأمر جزءاً من إمبراطورية حيوة ، ولكن حدث في (١٢٠٦) أن حاكماً مقامراً اسمه قطب (Kutub) - كان حيناً مملوكاً وارتقى حتى أصبح والياً على الولاية الهندية - أنشأ في حلي دولة إسلامية منفصلة هي الهندوستان . وكانت البرهمانية كما سبق أن ذكرنا ، قد طردت البوذية من الهند منذ أمد بعيد ، على أن المعتنقين للإسلام كانوا ما يزالون أقلية حاكمة في البلاد .

تلك عجالة وجزء من -الة آسيا السياسية ، عند ما شرع چنكيز خان يوطد

دولته بين الترك في القطر المحصور بين بحيرة بلكاش وبابكال عند مفتيح القرن الثالث عشر .

٢ - قيام المغول وانتصاراتهم

كانت سيرة لغوج جنكيز خان وخلفائه المباشرين ماثرة دحشة العالم ، ولعلها لم تقدم على أحد أكثر مما أدهشت هؤلاء الخانات المغول أنفسهم .

كان المغول في القرن الثاني عشر قبيلة خاضعة لحولاء الكن ، الذين فضوا شمال شرق الصين . وكانوا قبيلة من الفرمان للتركيين يعيشون في خيام ، ويعملون في طعدهم بوجه رئيسي على منتجات لبن الأفراس ولحمها . وكان الرعي والصيد عملهم الذي تدخل الحرب عليه شيئاً من الترويع . وكانوا عندما تلوب للتلوج يقتلون شيئاً انتجاعاً للرعي الصينية ، كما يقتلون مع الشتاء جنوباً إلى المراعي الشتوية على جاري حافة أهل السهوب . وابتدأ لغوجهم على الشؤون العسكرية بعصيان ناجح ففعلوا به على الكن . كانت موارد نصف الصين في قبضة إمبراطورية الكن ، وتعلم المغول أثناء الكفاح شيئاً كثيراً مما لدى الصينيين من العلوم العسكرية . وما انتهت نهاية القرن الثاني عشر حتى أصبحوا قبيلة مقاتلة من طراز ممتاز .

وقد اتفق جنكيز الأعوام الأولى من حياته العملية في التهور بملته الحربية وفي تحمل المغول والقبائل الخاطلة لم والمهيطة بهم وإدماجهم جميعاً في جيش واحد منظم . وقد وجه أول امتداد عظيم لسلطانه نحو الغرب ، وهناك استطاع الختان أن يضم قبيلتي القرخيز واليوغور (Uigurs) (١) التاتاريين (وما تولفان الشعب التاتاري في حوض التاريم) —

(١) يظهر اليوغور لأول مرة في القرن السادس ، حين كانوا يعملون باسم الكوكو (Kuo-Ku) أي القربان الشمالية وهم أحد فرعي الترك الرئيسيين في منغوليا الشمالية وما حولها . وتبقى مدة حكمهم واستقلالهم ما بين ٧٠٠ - ٨٥٠ م وهو زمان يتقابل دحشة وعند أسرة تانج الشهيرة .

وبلغ اليوغور مستوى ثقافياً عالياً جداً ، وأظهرت البحوث الأثرية لوجبة الحضارة مقداراً نسبياً من الأدب والفن المصور ، ومما يدل أن المسيحية والبوذية والمناوية كانت تمارس كلها في ملكهم ، إذ كانوا يراعون الصداقة للتسامح الديني على حين كانت المناوية هي دين الدولة . وكان اليوغور على قناعة عميقة من أشدهم

إلى جيشه من رغبة واحتياج لا من قهر وغلبة . وعندئذ هاجم إمبراطورية الكن
واستولى على ييكين (١٢١٤) . فانضم إليه شعب خيوان الذين أخضعهم الكن منذ
قريب وبذلك ضموا مقدراتهم إلى مقدراته ، فأصبحوا إليه بذلك معاونة عظيمة جداً .
فأما السكان الصينيون المستقرون فقد استقروا فيما هم فيه من بلاد بلور وحصد
المصايد والتبادل التجاري أثناء تغير السادة هذا دون الانضمام بعضهم لأى من الطرفين .

ولقد سبق أن ذكرنا الإمبراطورية الخوارزمية القريبة العهد التي شملت التركستان
وقازم وشمال الهند . كانت هذه الإمبراطورية تمتد شرقاً حتى قشغر ، ولا بد أنها
كانت بلور من أكثر إمبراطوريات زمانها عظمتاً وأملأ في المستقبل . وقد أرسل
چنكيز خان رسوله إلى خوارزم وهو ما يزال مشتغلاً بالحرب مع إمبراطورية الكن .
وأعلنت خوارزم على قتل الرسل - وهي محاولة لا يكاد يصحبها فشل - ذلك أن

جيران الصين الشماليين حصاراً ، ومع أن ملكهم صرخا (١٢٠٠) قبيلة تركية شمالية من عائلة
الفرير ، فإن بلور لم يخضوا من التاريخ على حال ، إلا أنها لا تخرج بعد حتى القرن الخامس عشر
لعدوات ومجاهدات يديونية مستمرة لتفاد ، على حين أنه أثناء المدة كلها كان اليهود يستمدون
بكترا في القضاء الإسلامي - ويقومون في مصالح الحكومة بالتركستان بنفس قهوجى لا يملكه
تحت حكم المغول في دلي وهايتالون أثناء الحكم البريطاني بالهند .

وتحدثنا مرة تاريخ قهرى التي تبدأ بظهور جنكيز خان في القرن الثالث عشر وتنتهى بفتح القسطنطينية
على يد الأتراك العثمانيين ، عن قيام وسلطنة عدد كبير من الأسرلت للتركية الحاكمة في آسيا الوسطى
والهند وقازم . ومن السبب أن هذه الأسرلت كان يؤسسها في معظم الحالات رجال وأولاد حياتهم
عائلك . وقد ورد هذا البياض القريب شمال من الأتراك في خطوط قازم لم يشر به ، يرجع إلى القرن
الثالث عشر .

من المعلوم الشائع أن جميع الأجناس والعائلات تكون سكرمة عثرة وهي مقيمة بين العراق
شعبها دى بلادها ، ولكنهم عندما يغادرون بلادهم ، يصحبون معهم أفلاك . وأتراك حل تقيس تلك ،
لأنهم عندما يغادرون دى ، يبقون جلدتهم ، يكونون مجرد قبيلة بين قبائل كثيرة ، ولا يستمدون على قوة
أو سيطرة خاصة . ولكنهم عندما يغادرون موطنهم إلى دولة إسلامية - (وكلما ابتعدوا عن بلادهم
وأقاربهم ، زادت قوتهم وعتة وقدرهم سواء) - يصحبون أسراهم وقاعدة الجيوش . ولم يحدث منذ أيام
آدم حتى العصر الحاضر أن أصبح ملوك مشرق بإفلال ملكاً قبل إلا بين الأتراك ؛ ومن الأحوال المألوفة
في أفريقيا (Afriyab) التي كان ملكاً على الترك وكان عازماً قسماً في حكمه وملكه أوله ؛
« التركي أقبح شره بلاؤلاً في سبيلها تحت أطيال المهاب » لا تسمح ثمة القدر حتى تعاد البحر وتزين
جدران الملوك وآذان القنواي .

الحكومة الخوارزمية - إن جاز أن نستعمل لغة اليوم السياسية - رأت ألا تعرف
 بجنكيز خان وسلكت حياله ذلك المسلك الجريء ، وعند ذلك (١٢١٨) اجتاح
 جيش الفرسان العظيم الذي ولد أركانه جنكيز خان ونظمه ، هضبة الهامير وهبط
 إلى التركستان . كان جيشاً حسن العدد والسلاح ، والرأبج أنه كانت معه بعض
 المسامع والبارود يستعملها في الحصار . ذلك أن الصينيين كانوا على التحقيق يستعملون
 البارود في ذلك الزمان ، وأن المغول تعلموا استعماله منهم . فسقطت قشعر وغرقت
 ونجاري ثم ممرقند عاصمة الإمبراطورية الخوارزمية . ومن بعدها لم يد شيء .
 بالإمبراطورية الخوارزمية يستطيع صد المغول ، فالتفموا خرباً نحو بحر قزوين
 ثم جنوباً حتى لاهور . وإلى الشمال من بحر قزوين التقى جيش مغولي بقوة روسية
 آتية من كييف . ونشبت بين الفريقين سلسلة من المعارك ، كسرت فيها الجيوش
 الروسية كسراً نهائياً ، ولشد خرنندوق كييف أسيراً . وهكذا ظهر المغول على
 الشواطئ الشمالية للبحر الأسود . وتولى اللحر القسطنطينية ، التي وجهت كل جهدها
 إلى إعادة بناء تحصيناتها . وفي نفس الوقت كانت جيوش أخرى تشغل بفتح
 إمبراطورية حسا في الصين فألحقت هذه بملك المغول . ولم يبق من إمبراطورية
 الكن سلباً غير منهور إلا الجزء الجنوبي . وفي (١٢٢٧) مات جنكيز خان في أوج
 حياة حافلة بالنصر بعد أن أصبحت إمبراطوريته تمتد من المحيط الهادئ إلى نهر
 الدنيبر . وفوق ذلك فإنها كانت إمبراطورية لا ترح رقبها تقمع بقوة .

على أنها ، شأن كل الإمبراطوريات التي أسسها المرحلون ، كانت قبل كل شيء
 إمبراطورية عسكرية وإدارية بحتة ، وكانت هيكلها وإطاراً أكثر منها نظام حكم .
 وكانت تتمركز حول شخصية الحاكم . وكانت حلاتها بكتلة الشعوب الذين تحكمهم
 مجرد علاقة ضرائب تجبي للإتفاق على القليلة . على أن جنكيز خان كان قد دعا
 لمعاونته سياسياً عظيم الكفاية من مدبري إمبراطورية الكن وجمع الخبرة عليها بكل
 تقاليد الصينيين ملماً بعلومهم . وقد استطاع هذا السياسي المصطنع يليوتشوازي
 (Yelchusai) أن يواصل إدارة شؤون المغول مدة طويلة بعد وفاة جنكيز خان ،
 وليس هناك أدنى ريب في أنه من أهم أبطال السياسة في التاريخ . فكم روض من شرسة

صافته ومهجتهم ، وأنفذ من يد التمييز مدناً لا تحصى ومشتجات فنية قيمة لا يحصر لها . ودأب على جمع السجلات والمخطوطات والقروش ، ولما أتمهم بالرشوة ، ظهر أن كل ما في حوزته من ثروة يتكون من الوثائق ومن بعض آلات موسيقية وربما جزأ أن ينسب إليه ، بقدر ما يرمى إلى جنكيز خان ، ما استعنت به الأداة الحربية للمغولية من كفاية . وربما جاز لنا أن نفيه الأدهان أيضاً أن آفاق كديا بأكلها كان يسودها إيمان حكم جنكيز خان أتم وأكمل أنواع التسامح للدين .

كانت عاصمة الإمبراطورية الجديدة عند وفاة جنكيز ما زال هي مدينة قرم ، فورم التجربة التنظيمية في منغوليا . وهناك اتخذت جمعية من زعماء المغول أوجداي خان ابن جنكيز خليفة له . فواصل المغول في عهده الحرب على بقايا إمبراطورية الكن ، حتى أخضعت إقطاعاً تداً (١٢٣٤) . وكانت الإمبراطورية الصينية التي تحت حكم أسرة سنج في الجنوب حوثاً المغول في هذا العمل ، وبذا عمروا حصنهم الوثاق الذي يمنهم من الغزاة القادمين أعلام الطرفين . ومن ثم سلطت الجيوش المغولية عبر آسيا إلى روسيا لا تلوى على شيء . (١٢٣٥) وهو زحف عسكري رائع يأسط بالألباب . فسمرت كييف (١٢٤٠) وأصبحت كل روسيا تقريباً تابعة للمغول وتبنت بولندا وبغريت وأبيد جيش مخطط من الهولنديين والألمان بمركة ليجنز (Legnitz) في سيليزيا السفلى (١٢٤١) . ويبدو أن الإمبراطور فردريك الثاني لم يتم بأي مجهود عظيم ليوقف ذلك السيل المنهر .

يقول بيروى في ملحوظاته على كتاب « اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها لجيرون » : « لم يحدث إلا في العصر الحديث أن أخذ العالم الأوروبي يفهم أن نجاح الجيش المنغولي الذي اجتاح بولندا وحل محل هنغاريا في ربيع (١٢٤١) قد تم بفضل خطط استراتيجية بالغة غاية الكمال وأنه لم يكن واجباً إلى مجرد تفوق حدى جوارفه . ولكن هذه الحقيقة لم تصح بعد من المعلومات الشائعة المعروفة للناس أجمعين . إذ لا يزال من الأفكار الشائعة بين الناس تلك الفكرة السوية التي تتسلل التتار في طريق الإحصائية »

صورة قبيلة ضارية متوحشة تجهز كل شيء أمامها بمحض كثرة العدد ليس غير ،
وتركض بنحوها خلال أوروبا الشرقية دون خطة استراتيجية مرسومة ، وتنطلق من
فوق كل حائل يعترض سبيلها وتغلب عليه بمجرد القتل المندى



(شكل ١٤٦) خريطة إمبراطورية جنكيز خان عام ١٢٦٧ م. (١٢٦٧)

وكم كان من المدهش أن تنفذ في الوقت المحدد وفي قوة تكبير فعالة - ترتيبات
المقاتلة في عمليات حربية تمتد من المستولا الأحق إلى ترانسكافيا . فقل هذه الحملة
كانت فوق طاقة أي جيش أوروبي في ذلك الزمان ، وكانت وراء أسلام أي قائد
أوروبي ولم يكن بأوروبا ، ابتداء من فردريك الثاني فما دونه قائد لا يعد من البطلين
الأهم في فن القيادة الاستراتيجية بالقياس إلى سوبوتاي (Subotai) . كذلك يجب
أن يلاحظ أن المغول قد ألدوا على هذا الأمر وهم على معرفة تامة بموقف أنجبر
(هغاري) السياسي وظروف بولندا - وذلك لأنهم كانوا مقدماً بصرف الأخبار
بواسطة هيئة من الجواسيس حسنة التنظيم . على حين أن المجرين والدول المسيحية ،
كانوا شأن المجرين الأقرب بالأطفال ، لا يكادون يعرفون من أعدائهم شيئاً .

ومع أن المغول انصروا قرب ليجنز ، لأنهم لم يواجهوا تقدمهم غرباً . وذلك لأنهم أغلوا يخطرون إلى لوانس غابات ومناطق تلال لم تكن لتوافق ما لديهم من تكتيك^(١) حربي . ولذا خرجوا جنوباً وأعدوا عدة الاستغراق في بلاد المجر ، وهم يذهبون المجرين ذوي قريتهم أو يمتثلونهم ، على طريقة تثنائي ما أحله هؤلاء من الفجيع والمثل من قبلهم في الإسكانيين والآفار والمون المظلمين . والرابع أنهم كانوا يتحرون أن يقوموا من السهل المنغولي بالثغرات غرباً وجنوباً كما فعل المنغوليون في القرن التاسع والآفار في القرنين السابع والثامن والمون في الخامس . عبر أن المغول كانوا في آسيا يحاربون أسرة صنج حرب خرو حيفة ، وكانوا كذلك يفترون على فارس وآسيا الصغرى ، ومات أوجداي موت القحط ، وسقط في (١٢١٢) نزاع حول ولاية العرش من بعده ، ودعاهم هذا الأمر إلى العودة إلى بلادهم . ولذا فإن الجيوش المغولية عبر القاهرة أنطت تلساب واجبة عبر بلاد المجر ورومانيا نحو الشرق .

ومن حين طالع أوروبا أن الخلاطات على العرش في غرة قورم دامت بضع سنين ، وبدأت على هذه الإمبراطورية القاطلة الجديدة بوادر الضعف . وأخيراً أصبح « مانكوخان » خاتماً أعظم في (١٢٥٩) ، حين أضاء قوبلاي خان حاكماً عاماً على الصين . وانضمت إمبراطورية صنج بأجمعها في يده ولكن في غير راحة ، وبخاصة في سهيل الإغصاح ، كان المغول القشقيون يصحرون أكثر فأكثر إلى صينيين في قلائهم وطرائق عيشهم ، وغزا ما هو بلاد التبت وأعمل فيها تلميحاً ، وغزت فارس وسوريا بمتهى البلد والممة . وكان على إمرة هذه الحرب الأخيرة أخ تيمر لانتو هو هؤلاء . فوجه جيوشه على الخلافة واستولى على بغداد ، وفي هذه المدينة تولدت ينداء بإعماله الخلع في سكانها برمتهم . وكانت بغداد ما تزال عاصمة الإسلام الجديدة . وكان المغول قد أصبحوا معادين للمسلمين عداوة مريرة ، وزادت هذه العداوة من أولو الخلاف الطبيعي بين التركيين وأهل المدن . وفي (١٢٥٩) مات مانكوخان وانتخب قوبلاي خاناً أعظم في (١٢٦٠) ، إذ أن جميع قادة المغول من أطراف هذه

(١) التكتيك ، أن أد لم تحريك الثغرات والعداوة بما في المعركة وثان مبادئ مقدرة .

الإمبراطورية المغالة من المجر وروسيا والسند والصين قد استغرق شطراً كبيراً من سنة كاملة . ولما كان قوبلاى من قبل عميق الاهتمام بالشئون للصينية . فإنه اتخذ يمين عاصمة له بدلاً من قره قورم ، وأصبحت فارس وسوريا وآسيا الصغرى ، سجنه ضللت حكم أخيه هولانكو . على حين أن قبائل المغول في أوروبا والولايات الآسيوية المجاورة لروسيا وجماعات صغيرة مغولية متنوعة في التركستان ، قد أصبحت أيضاً منفصلة تقريباً . ومات قوبلاى (١٢٩٤) ، وبموته زالت كل سيادة الختان الأكبر حتى الإسمية منها .

وعند موت قوبلاى كانت هناك إمبراطورية مغولية وهيبة عاصمتها بكين . تضم كل الصين ومنغوليا ، وثمة إمبراطورية مغولية عظيمة ثانية هي إمبراطورية القهجاك (Kiechak) في روسيا ، وتم إمبراطورية ثالثة في فارس ، وهي تلك التي أسسها هولانكو ، وهي الإمبراطورية الإيلخانية (Ilkhan) التي كان الأتراك السلجوقيون في آسيا الصغرى تابعين لها . وكانت هناك دولة سيديرة تقع بين القهجاك ومنغوليا ، ودولة أخرى منفصلة تركيا الكبيرة في التركستان . وما هو جدير بالملاحظة بوجه خاص أن الخلد فيما وراء البنجاب لم يفرها المغول أبداً أثناء تلك المدة ، وأن جيشاً بقيادة مصر حراً قاطعاً هولانكو في فلسطين حراً تماماً (١٢٦٠) ، وحال دون دخولهم إلى القريضة . وذلك أنه عند (١٢٦٠) كان حافع الغزو المغول قد انحط عن قوته . ثم يقع المغول من بعد في غمرات الفرقة والاضمحلال .

ودامت أيام الأسرة المغولية التي أسسها قوبلاى خان في الصين ، وهي أسرة يوان من (١٢٨٠) إلى (١٣٦٨) . ثم تجدد من بعد ذلك نشاط المغول في غرب آسيا مجدداً فقلوه أن يؤسس ملكية أوسخ قسماً وأطول عمراً في بلاد الهند . ولكن كان الأتقان في القرنين الثالث عشر والرابع عشر هم سادة شالي الهند وليس المغول ، وامتدت لهم إمبراطورية أفغانية حتى صميم منطقة الهند .

٣ - رحلات ماركو پولو

لا جرم أن قصة الفتوح المغولية من أعجب القصص وأجدها بالتنويه في مركب التاريخ بأكمله . وما تستطيع فتوح الإسكندر الأكبر أن تدانيها في العظم والاسراع

المضى . كما أن أثرها في نشر الأفكار بين الناس وتوسيع آفاقها وفي استعادة أنبيائهم كان هائلا ضخماً . فلك أن تسيا وأوروبا الغربية جميعاً أقامتا زماناً وهما تستمدتان بالاتصال الحر والاختلاط المباشر ، وفتحت كل الطرق الموصلة بينهما فصفا موقوتاً ، كما ظهر بمثلون لجميع الأمم في بلاط فرعون .

وأزيلت الحواجز الفاصلة بين أوروبا وآسيا وهي التي نهأت عن الاتصالات الدبلوماسية بين المسيحية والإسلام . وانتقلت الآمال الكبار لنداء البابوات في تحويل الخوف للدموع للمسيحية . وكانت ديانتهم الوحيدة حتى ذلك الحين هي الشامانية^(١) وهي ضرب بدائي من الوثنية . وكان البلاط الخوف مسرحاً انحطط فيه مبعوثون من المدن الباباوية وكهنة يوحنايون من الهند ، وحلفاء صناع باريسيين وإيطاليين وصينيين ، ونجار يزنطيون ولومين ، وموظفين من العرب وفلكيين ورياضيين من الفرس والهنود . وإذا لمسمع في التاريخ الشيء الكثير للمضي عن حلات الخوف ومذابجهم ، ولكننا لا نسمع القدر الكافي عن استغلالهم ورغبتهم في العلم . ولعل تأثرهم في التاريخ العالم لم يكن بالغاً جداً بوصفهم شعباً مبتكراً خلافاً بل بوصفهم نقلة المعرفة وحلة للمناهج والأساليب . فكل ما قد يستطيع المرء أن يحصل عليه من العلم بشخصية جنكيز وقوبلاي القامضين الرومانسيين يحلو بنا إلى أن نقر في أذهاننا الإطباع التي تقول بأن هذين الرجلين كانوا جاهلين قهيمين خلاقين بدرجة لا تقل عن الإسكندر الأكبر ذلك الشخصنة الوحيدة الأتالية ، ولا عن شعلان ذلك المبتعث للأفواج السياسية الدبلوماسية واللاهوت النشط والأي في نفس الوقت .

بدأت جهود البعثات التبشيرية التابعة البابوية في منغوليا بالشل والإخفاق . ذلك أن المسيحية كانت تفقد قدرتها على الإقناع . وما كان الخوف يصبرون المسيحية أي تحمل ، بل القواضح أنهم كانوا في بداية الأمر يفضلونها على الإسلام . حل أنه كان من الجلي أن البعثات التبشيرية التي حلت ببلادهم كانت تعمل ما استقر في

(١) الشامانية : هي المعتقدات والممارسات الدينية التي كانت عليها سكان آسيا الشمالية القديمة . وتقدم على فكرة أن الخبير والفكر يمكن الحصول عليها بواسطة الفكر . (الفرس)

نعلم يسوع من قوة شخصته في تزكية مدينيات البابا الجسام في السيادة الدينية . لنا
 لأن المسيحية - وقد ألفت حل تلك الشاكلة - لم تكن أقوى من عناصر الجحوة
 ما يعلها مقبولة لدى الذين المنول . وربما جاز أن نروهم فكرة جعل الإمبراطورية
 المنولية جزءاً من ملكوت الرب ، لا جعلها إقطاعاً تابعاً لجماعة من القساوسة
 الفرنسيين والإيطاليين ، الذين كانت مدينتهم ضعفة ، بمقتلوا كانت قلوبهم
 وآفاتهم ضعفة عزلة ، والذين كانوا آتاً من صنائع إمبراطور ألمانيا ، وآتاً من
 ينصبهم ملك فرنسا ، وآتة من غضابا أسقادم الصغيرة وغرورهم التله .

في (١٢٦٩) أرسل نويكي خان إلى البابا بطة كان من الواضح أن الهدف منها
 هو الوصول إلى وسيلة ما لتعامل المشترك مع المسيحية الغربية . فطلب أن يرسل البابا
 إلى بلاطه من رجال قوى علم ومقدرة ليضروا أسس التفاهم بين الطرفين . ولكن
 بطة وجدت عرض البابوية في العالم الغربي شامخاً وألقت منهكاً في إحدى تلك
 المنزخات التي يكثر فنتجارها في تاريخ البابوية حول وراثة الكرسي البابوي . وظل
 منصب البابوية شامخاً متيناً كاملتين لا يشغل أي بابا . ظمنا أن تقلد المنصب أحد
 البابوات آخر الأمر ، أرسل راجين من النوميليك ليتقلا إلى حكمه ودينه أقوى حولة
 في آسيا ! ! . وقد حال هذين السنين القاضيين ما كان ينتظرهما من بعد الشقة
 ومتاعب السراء ، وانتما منذ البداية الحاذير لتخلص من المهمة .

حل أن هذه البطة القيمة لم تكن إلا واحدة من بين عدة محاولات للاتصال ،
 ولكنها كانت حل القوام محاولات ضعيفة واحدة الروح ويعوزها ذلك المضاء الناري
 القاهر الذي كانت تلمح به البحات المسيحية الأولى . وقد أرسل إيمولت الرابع
 بالقليل بعض رهبان النومييل إلى قره قورم ، كذلك أرسل القسيس لويي الفرنسي
 البحوث والمخططات المقدسة بطريق فارس . وكان لدى مانكوخان عدد من التبصلي
 التساطرة يقيمون في بلاطه ، كما أن مرسلين البابا وصلوا إلى بيكين بعد ذلك
 فصلاً فلما نسمع من تعيين بعض القاضيين الرصولين والساقفة مطوعين في بلاد
 الشرق ، على أنه يلوح أن الكبيرين من هؤلاء كانوا يقدون شجاعتهم أو يفتقدون

حياتهم قبل وصولهم إلى الصين . فكان هناك قاصد رسول بايوى فى يمين فى (١٣٤٦) ، ولكن ياروح أنه كان مجرد دبلوماسى بايوى . ولما أن سقطت أسرة يوان المغولية (١٣٦٨) ذهب بقومها كل ما كان البعثات التبشيرية من فرص مثلية مضمحلة فعاباً لا رجعة له . وعطف بيت منج (Ming) بيت يوان ، وكان بيت منج أسرة شديدة التمسك بالقومية الصينية ، فأظهر فى بادئ الأمر عظيم المعاداة للأجانب كافة . ولعلهم أخذوا عليه أوصوا نفسها بالبعثات التبشيرية النصرانية . لذا لا تعود نسمع بعد ذلك حتى العهد المتأخر لأسرة منج (١٦٤٤) إلا القليل القليل عن المسيحية فى الصين سواء منها الكاثوليكية أو اللطوية . ثم بللت محاولة جديدة تكاد تكون أكثر توفيقاً من سابقتها للنشر المسيحية الكاثوليكية فى الصين قام بها اليسوعيون (الخزوت) ، على أن هذه الموجة الثانية من البعثات التبشيرية وصلت إلى الصين بحراً .

حدث فى (١٢٩٨) أن شبت معركة بحرية بين الجنويين والبانتقة ، انتهزم فيها الأخيرون . وكان بين الأسرى السبعة الآلاف الذين أسرهم الجنويون سيد من الهندية اسمه ماركو پولو . كان وحالة كبيراً معروفنا بين أصله عموماً بمشاة الميل إلى المياقة . وقد اشترك فى تلك البعثة الأولى التى أرسلت إلى قوبلاى خان ، غير أنه واصل السير على حين عاد الراهبان اللومبنيكيان أحدهما . وكان ماركو پولو هذا يقتل السام وهو حين فى جنوة ، بأن يضمن قصة رحلاته على مسامع كاتبه حين سمع اسمه وتستشارو (Ruellano) ، فلوها هذا الرجل . وما نحن بمخالفين هاهنا لك النجاة الكثرة للسلفه بمدى ما فى قصة ومستشارو من صدق المطابقة الواقع . ولنا تعرف على وجه التحقيق بأى لغة كتبت . ولكن لا يتطرق أى شك إلى الصدق العام الذى يكتشف هذه القصة السببية ، التى أقبل الناس عليها أياً قبلال فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ولا سيما كل من أوى الذكاء المتوقد من الرجال . وكتاب « رحلات ماركو پولو » من أعظم كتب التاريخ . فهو يفتح أمام عين خيالنا وتاج عالم القرن الثالث عشر - ذلك القرن الذى شهد حكم فردريك الثانى وديانات محاكم التفتيش - بخصها بصورة

لا يلبثها أي تلوين تاريخي سطره مؤرخ ، فإنه أدى بصفة مباشرة إلى اكتشاف أمريكا .



ر شكل ١٤٧) خريطة الولايات المتوحدت حول سنة ١٤٨٥ م ورحلات ماركو بولو

يبدأ الكتاب بالحديث عن رحلة تقولوبولو والد ماركو ومعه حاشيو پولو إلى الصين وكان هذان الرجلان تاجرين من البنادقة من قوى الزكاة يمشان في القسطنطينية ، وحدث في زمن ما يقارب (١٢٦٠) أنهما رحلا إلى بلاد القرم ومنها إلى طازان ، ومن ذلك المكان اتحلا إلى بخارى ، حيث صادقا جماعة من رسل قوبلاي خان في الصين مؤلفين إلى أشيه هولاكوي فارس . وألح عليهما هولاء المتوحدون أن يصحباهم لمقابلة الخان العظيم ، الذي لم ير قبل ذلك الزمان أي رجل من الشعوب اللاتينية . فواصلوا سيرهما ، ووافصح أنهما أحدا وقفا حسنا جداً لدى قوبلاي ، وملاً صدره بالاهتمام بمضارة النصرانية . فعملهما اتفاق تلك الرغبة المتطقة بطلب مئة من الذهب والفضة ، « يكونون رجلاً أذكيا مملعين بالفنون السبعة وقادرين أن يخوضوا حومات الجدل والنقاش » ويستطيعون أن يثبتوا بشكل يبين عبادة الأصنام ومن إليهم من أقوام ، أن شريعة المسيح خير الشرائع ، « وهو الأمر الذي أشرنا إليه من قورنا .

على أنهما عندما عادا كانت المسيحية في دور من القنوص لم يستطيعا معه إلا بعد سنتين أن يحصلا على القنوص بالرحيل إلى الصين ثانية في صبة عليين راهبين اللوموثيكيين اليابانيين . وأخذوا معهما ماركو الصغير ، وإلى وجوده وإلى ما حل به من الألم فيها عتب ذلك من أسره في جنوة ، يرجع الفضل في حفظ هذه اللكزيات والخبرات الممتدة وبقاتها لنا .

او تحمل أفراد أسرة بولو الثلاثة بطريق فلسطين وليس بطريق بلاد القرم ، فيمكثهم في الرحلة السابقة . وكانت معهم لوحة ذهبية وأمارات أخرى من الخان العظيم ، لا بد أن وجودها سهل عليهم رحلتهم أينما تسهيل . وكان الخان العظيم قد ما لهم أن يخلطوا معهم شيئاً من الزيت الذي يوقد في مصباح التناووس القنص بيت المقدس ، ومن ثم ذهب الجماعة إلى هناك أولاً ، ثم ساروا بطريق قيليقية إلى أرمينية . وقد أوغلوا شلالاً إلى هذا الحد لأن سلطان مصر كان يغير في ذلك الزمان على الممتلكات الإبلخانية^(١) . ومن أرمينية انحدروا في أرض الجزيرة حتى هرمز (Ormuz) على الخليج الفارسي ، كما أنما كانوا يفكرون في القيام برحلتهم بجراً . وأغوا في هرمز بجوار من الهند . على أنهم لسبب ما لم يسافروا بالسفن ، بل انجهموا بذلك شلالاً عبرتين الصحاري الفارسية ، ومن ثم بطريق يتلخ إلى قشمر من فوق الهامير ، ثم بطريق قوطان ولشب تور^(٢) (متوسمين بذلك خطى يوان تشوانج) حتى وادي نهر هوانج هو ومنه إلى بكين . ويسمى بولو مدينة بكين باسم (كامبالوك) ، كما يسمى الصين الشمالية باسم كائلي (خيتان) ، والصين الجنوبية حين أسرة متج السابقة باسم « باتري » .

وكان الخان العظيم في بكين ، فلقيت لهم وليلة تجل فيها كرم الضيافة . وسر قوبلاي من ماركو وخاصة ، إذ أنه كان صغير السن ذكياً ليقاً ، وواضح أنه أكثر اللسان الثوري إقبالاً تاماً . فأسند إليه منصب في الحكومة وأرسل في مهام عديدة ، وخاصة في الجنوب للفرق للصين . وللقصة التي رواها تصدقت عن مساحات

(١) الإبلخانية : أسرة مغولية سكنت فارس بين الهند والمراك وآسيا الصغرى في القرنين

١٢ و ١٣ م . (انظر)

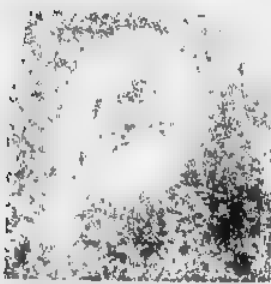
(٢) لب تور (Labour) مجموعة من الهجرات المنسقة في عصره ككلاسيكان بالتركستان الشرقية .

(انظر)

منطقة فسيحة من الأرض البساتنة البادية الرخاء ، حيث توجد على طول الطريق دور الضيافة للمسافرين ، ، وكرعات الأمتاب اليدوية والحقول والبساتين المروقة ، ، وعن أدرة كثيرة ، ، وعن دهبان بوفيين ، وعن صناعات قهال المصنوع من الحرير والذهب ، وكثير من الذهب (الثاغا) البديع ، وعن مجموعة لا آخر لها من المدن والبلدان الكبيرة وحلم بير ، ، غالوت في أوربا لأول وملة رنة من حلم الصين ، ثم ما لبثت أن لعبت خيالها على بكرة أبيها

ثم إنه تحدث عن يورما ، وعن جيوشها العظيمة الحاوية مئات من القيلة ، وكيف هزم نظبة (١) المغول هاته الحيوانات ، وكذلك حدثنا عن فتح المغول ليجو (Pegu) . وتحدث عن اليابان مياناً مياغة عظيمة في كية الذهب في ذلك القطر . وأدعى من هنا إلى العجيب ، حديثه عن المسيحيين وعن الحكام المسيحيين في بلاد الصين ، وعن شخص يمينه هو القسيس يوستا (Prester John) الذي كان ملكاً ، على شعب نصراني . فأما ذلك الشعب فإنه لم يره . والظاهر أنهم كانوا قبيلة من القتر القسطنطيني يسكنون متوليا . والراجح أن عاطفة يمكن إدراكها وفهمها غلبت على رستتالو فجعله يبالغ في تركيزه ما لا بد أنه

لاح في صتيه أعظم أعاجيب القصة بجاه ، ومن ثم أصبحت قصة ريسترجون (القسيس يوستا) من أعظم الأساطير إقارة للأذهان أثناء القرنين الرابع عشر والخامس عشر . وكان مما شجع روح الإقدام الأوربية نشيجاً هائلا زعمهم أنه يوجد في الصين تلك البلاد السحيقة البعد ، مجتمع من إنسانهم في الدين ، مفروض أنهم مستطون للرحيب بهم وبذل العون لهم وظل ماوكو متولياً حكم مدينة



(شكل ٦١٨) ماوكو يورما
(تصوير فليمان)

النج تشو (Yang Chow) ثلاث سنوات ، والرابع أنه لم يخطف كثيراً كأجنبي في نظر السكان الصينيين عن أي عتري آخر . ولعله لوفد أيضاً في بحث إلى الهند ، إذ تذكروا السجلات الصينية اسم شخص معين هو يولو تصفه بأنه ملحق بالمجلس الإمبراطوري في (١٢٧٧) ، وهو مصداق ثمين جداً حيث صفة قصة يولو بوجه عام .

استغرقت رحلة آل يولو إلى الصين زهاء ثلاث سنوات ونصف . وظلوا هناك قرابة ستة عشر عاماً . ثم أخذ الحنين إلى الوطن يداخلهم . فذك أنهم كانوا صنائع غويلاي وموضع حايه ، ولعلهم أحسوا أن إشارته لياهم بالرعاية وبما جر عليهم شيرة وخيمة العاقبة بعد مماته . فالتسوا منه الإذن بالرحيل إلى بلادهم فأبى عليهم ذلك ودعا من الزمان ، ثم منحت لهم بعد ذلك فرصة . فذك أن أرجون ملك فارس الإبدخاني وحفيد هولاكوشين غويلاي ، كان أرسل من زوجته المغولية ، ووعدها وهي على فراش موتها ألا يتزوج إلا مغولية من نفس قبيلتها . فأرسل السفراء إلى بكين واطبعت له هناك أميرة مراثة ، وهي فتاة السابعة عشرة . ولكي يجنيوها عناء السفر بالوقايل ، تقرر أن ترسل بطريق البحر مع الحاشية الثلاثة . وطلب النبلاء المكثفون بمرافقتها أن يستصحبوا معهم آل يولو لأنهم وحاة بحريون وحكاهم صيغون ، واختتم آل يولو حله النبهة التي تليح لهم ركوب الطريق المتجه إلى وطنهم .

أقمت البعثة من مرفأ ما في شرق الصين الجنوبية ، وأطالت المقام في حومطرة وجنوب الهند ، ووصلوا إلى أرض فلوس بعد رحلة ذات حولين . قتلوا الأميرة الشابة في سلام الله إلى خليفة أرجون - لواءة أرجون قبل وصولهم - وتزوجت الأميرة ابنة . وعند ذلك سار آل يولو بطريق تبريز إلى طرايزون ، ثم أبحروا إلى القسطنطينية وحادوا إلى البندكية قرابة (١٢٩٥) .

ويروي أن الرحالة الثلاثة وهم في ثيابهم البحرية حبل بينهم وبين النحول إلى منزلم . وانقضى بعض الزمان قبل أن استطاعوا أن ينجحوا شخصيتهم . وكان الكثيرون ممن سلموا بأشخاصهم ، ما زالون يميلون إلى أن ينظروا إليهم شراً بوصفهم جواسيس

حقراء ، ولكن يبدوا عن أذهان الناس مثل تلك الشكوك ألاموا وجمعة عظيمة .
وعندما كانت الوبئة قائمة حل ساق أرواحهم فم بدلاهم القديمة ذات البطان
ثم صرفوا الخدم ، ثم شقوا تلك الثياب ، وإذا بمجموعة لا يصدقها عقل من
الباثوث للعائى والياقوت الأزرق (Sapphires) والطبق الأحمر (البرمان) والزمرد
والاس ، تهال أمام أعين الضيفان المنبهين . وحدث حتى بعد هذا كله أن قويت
بيانات ماركو من حرم الصين وسكانها بشيء من السخرية الخفية . وأطلق عليه أهل
التفكة اسم المليون (11. Millions) لأنه كان قائم الكلام من الملايين من الناس
والملايين من البحيرات الشرقية .

تلك هى القصة بطلت للناس يحلفون بيمينهم دهشا ، فى البندقية يادى بده
ثم فى أقطار العالم الغربى كافة بعد ذلك . ويردد الأدب الأوروبى وخاصة قصص
الرومانس الأوروبى فى القرن الخامس عشر ، صدى الأسماء المذكورة فى قصة
ماركو بولو أمثال كاتى وكاسالوك .

٤ - الأتراك العثمانيون والقسطنطينية

لم تكن رحلات ماركو بولو هذه إلا مقدمة لاختلاط جسمه جداً بين الشعوب .
ومع ذلك ، إلا قبل أن نواصل وصفنا للاسراع العظيم الذى ألم بأفاق أوروبا الفكرية
والذى أخذت تباشره بدو ، والذي كان لكتاب رحلاته عليه فضل جوهري ملموس
جداً ، - نرى من المنسب أن لسجل هنا أولاً نتيجة جانبية غريبة تخففت عنها
القنوح المغولية العظيمة : تلك هى ظهور الأتراك العثمانيين على شفاف الشرق دليل ،
ثم نردف ذلك بأن نذكر فى عبارة جملة تقسيم إمبراطورية چنكيزخان إلى أجزائها
المعدة وتطورات كل جزء منها .

كان الأتراك العثمانيون فئة صغيرة من اللاجئين فروا نحو الجنوب الغربى أمام
غزوة چنكيز الأولى لبلاد التركستان الغربية . قطعوا ذلك الطريق المديد من آسيا
الوسطى ، مختبرين القنات والبحال ومارين بأقوام أجنبى عنهم لطهم يمشون على

أرض جديدة يستطيعون أن يستقروا فيها . يقول السيد مارك سايكس : « تلك صغيرة من رعاة أغراب يهيمون على وجوههم لا يرحم أحد ، عاصين بين الحملة الصليبية من ناحية والصليبية المضادة من ناحية أخرى ، وبين الإمارات والإمبراطوريات والقول . فأين كانوا يتجهون ؟ ، وكيف كانوا يصحرون ويحافظون على قطعانهم ورعائهم ؟ وأين كانوا يمدون الكلاء ؟ وكيف كانوا يحافظون على السلم مع الرؤساء المتنوعين الذين كانوا يهتفون بأصيحهم ؟ تلك أسئلة يحرق للإنسان أن يتساءلها صغيراً » .

وأخيراً عشروا على مستقر لم وهل جيران من ذوى قرياهم ومن يشاكلونهم في الطبيعة والشرب على طراب آسيا الصغرى بين ظهري الأرملة السلجوقيين . وكان غلب هذا القطر الذي هو بلاد الأناضول الصغرى قد أصبح آنذاك تركيا لغة سلا دينياً ، فيها عدا وجود نسبة كبيرة من الروم واليهود والأرمن بين سكان المدن ، ولا مزية في أن التبتات (١) المتنوعة الموروثة عن الحثيين والفرعجيين والپرواديين والبيديين والإغريق الآيونيين والفسريين والفلاطين والإيطاليين (من أزمان برجطة) كانت ما تزال تسرى في دماء الناس ، بيد أنهم تسوا من أمم بعد تلك العناصر السلفية القديمة . على أنهم كانوا في واقع الأمر نفس الخلط المكون من بعض البحر المتوسط الناكثين (٢) القدماء ، والآريين النورديين والساميين والمغول ، وهو الخلط الذي كان عليه سكان شبه جزيرة البلقان ، بيد أنهم كانوا يظنون أنفسهم شعباً طورياً خالصاً متوقفاً تنوعاً تاماً على المسيحيين في للصفة المقابلة من اليمنفور .

وازداد الأتراك المنيانيون أهمية شيئاً فشيئاً ، حتى آلت إليهم آخر الأمر السيادة على الإمارات الصغيرة التي عززت إليها الإمبراطورية السلجوقية أي إمبراطورية الروم . وظلت علاقاتهم مع إمبراطورية القسطنطينية المتضاربة علاقات صماء يثربها شيء من التسامح . فلم يقوموا بأي هجوم على اليمنفور ، ولكنهم انحلوا لأقطعتهم في أوروبا على التدويل موطناً ، فاستخدموا هذا الطريق - وهو طريق إيجرسييس وليس

(١) التبتة ، من الأصل والقبل والشرق . (الترجم)

(٢) الناكثين : وردت لغة الأيمن الناكثي في حاشية كثيرة هنا الكتاب ومعناها الذين

لا يرضى للشرب إلى السرة تليلاً ، الأسود الشعر والعيين . (الترجم)

طريق دارا - ثم هابوا يشقون طريقهم متوجهين في مقدونيا ولبيروس واليريا ويوغوسلافيا وبلغاريا .

وجد الأتراك في الصربين (اليوغوسلاف) والبلغار أمولاً شديداً شبه بهم في الثقافة ، كما وجدوهم فيها يرجع شديداً شبه بهم في جنسهم انقطعت عتصراً - وإن لم يترك أى من الطرفين ذلك ، مع غارق بسيط هو أن صاعم كان بخالطها من تبة البحر المتوسط الداكنة والتبة المغولية قدر أقل مما لدى الترك كما بخالطها قلوب أكبر قليلاً من العنصر القودى . بيد أن هؤلاء الشعوب البلقانية كانوا مسيحيين تفرق بينهم الانقسامات نفريقاً مبرراً . وكان الترك على التقيض من ذلك يتكلمون بلسان واحد ، وكان لديهم شعور أعظم بالوحدة وغيرهم أحداث المسلمين من عدم تناول السكرات والقصد من الطعام . كما كانوا في مجملهم جنوداً لفضل . لأنظرنا في دينهم الإسلامى كل من استطاعوا إخفائه من أفراد الشعوب التي غزوا ، وازعروا سلاح المسيحيين واختصوهم هون غيرهم بلطع القسرات . وما لبث الأتراك العثمانيون أن وطلوا شيئاً شديداً أركان إمبراطورية امتدت من جهال طودوس شرقاً حتى حدود هنغاريا ورومانيا في الغرب . وأصبحت أمة كبرى مدالهم . وأحاطوا من كل صوب بإمبراطورية القسطنطينية المقلصة . ولم تكن القسطنطينية في ذلك الزمان هي حصن أوروبا الوسطى ودعائها ، وإنما كانت الدعامة هي القبر ، لقد استوطنتها شبه تركى مسيحي دافع من أوروبا ضد الأتراك المسلمين .

وتظم الأتراك قوة عسكرية مستديمة ، هي الانكشارية (Janissaries) على أساس أشبه ما يكون بسلوك المالك الذين سيطروا على مصر . وكانت هذه الجيوش تتكون من مجتلة من الفتيان المسيحيين لا يرتفع صدم عن ألف في كل عام ، وكانوا يُقسمون إلى طائفة القراويش اليكتاشية ، ومع لهم كانوا في البداية لا يجبرون على احتناق الإسلام . فإنهم كانوا بأجمعهم يصيغون صبغاً قوياً بالفكرات الصوفية ومبادئ الأنسوة التي تحتها الجبابة الدينية التي كانوا يلحقون بها . هؤلاء الانكشارية الذين كانوا يتقاضون أجوراً عالية وينظمون تنظيمًا جيدًا

ويشكلون جماعة مبرقة مناسكة خيوة ، أملوا الدولة العثمانية الحديثة التكوين بقوة وطنية الفزعة من الجنود المشاة للتربين ، كانت تعد ثروة لا تُحصى بمال في عصر ساعدت فيه الراكية (الميلية) الخفيفة وقرق المرتزة المأجورة . . .

وكانت العلاقات بين السلاطين العثمانيين والباباوة قريبة في نوعها في تاريخ الدولة الإسلامية والمسيحية . فإن الترك قد أقنعوا في المنازعات العائلية وعائلات الأسرة المالكة في المدينة الامبراطورية ، كما كانت تربطهم بالعائلات الحاكمة وشائج دم وقرق . وكثيراً ما كانوا يقنعون الجنود للسلطان عن القسطنطينية ، وكانوا يستأجرون أحياناً فريقاً من جنود حاميتها ليساعدوهم في حملاتهم المتنوعة ، بل لقد بلغ الأمر أن رافق أبناء الباباوة ورجال القسيسة البيزنطيون الجيوش التركية في ميادين القتال ، ومع ذلك فإن العثمانيين لم يكفوا قط عن أن يلهثوا بممتلكاتهم الأرضية والممتلكات الإمبراطورية في كل من آسيا وراقيا . وكان هذا الاعتلاط السبب بين بيت آل عثمان والحكومة الإمبراطورية أثره العميق في كل من العنصرين : فإن الروم ازدادوا ضعة على ضعة وانحلالاً خطيقاً على انحلال بسبب تقلبات والحمل التي اضطروهم إلى الجوء إليها ضطهم السكوى حال جيرانهم ، ودب الفساد إلى الترك مما حوّلهم من جو أجي متبع بالولاءات والفتنات التي تمثلت إلى داخلية حياتهم . وكانت حادثة ذلك أن قتل الأخ لأخيه والإبن لأبيه وهما الجرمين اللذان غالباً ما لطخا تلويح القصر الإمبراطوري ، ما لبثا أن صارتا جزءاً من سياسة الأسرة المالكة العثمانية . فإن أحد أبناء مراد الأول ينخرط في مؤامرة أنطونيكوس ابن الإمبراطور الروم ليقتل كل منهما أباه .

وكان البيزنطي يجد التفاوض مع الباشا العثماني أسير من التفاوض مع البابا . وظل الترك والبيزنطيون أحراراً طوالاً يتزاوجون ويتزوجون معاً في تصديهم في مياه البحيرات المقفرة النيليومانية والمواترات . وكان العثمانيون قد حشروا البطارق والصرب في أوروبا بالإمبراطور ، على نفس النسق الذي أثار به الإمبراطور الأمراء الآسيويين على السلطان ، وكان الأمراء الملكيون (: أولياء العهد) من الأروام والأراكان يصاحلون فيما بينهم على أن يحفظ كل منهم بنفسه الآخر أسرى ودعائن ، والواقع أن

السياسة التركية والبيزنطية بلغت من التناكب والانحطاف بعضها ببعض حداً يصير علينا لمزاحمة أن نقول هل كان الترك يعملون الروم حلفاء لهم أو أعداء أوعاملاً . وهل كان الروم ينظرون إلى الأتراك بوصفهم الحلفاء للمسلمين بهم أو الممحرين لهم أو الخيالة ؟

وستطقت القسطنطينية أكثر الأمر بعد المسلمين في ١٤٥٣ إبان حكم السلطان محمد الثاني . فإنه هاجمها من الجانب الأوربي ، وبغوة عظيمة من المنطقة . فقتل الإمبراطور الروم وعظم الذهب وكثر اللهب ، ونهبت كنوز الكنيسة العظيمة كنيسة القديسة صوفيا التي بناها جستنيان الكبير (٥٣٢) ، وحولت إلى المقعد للمسيح . بقيت هذه الحادثة موجبة هياج شديدة تردد صداها في كل أرجاء أوروبا ، وبلغت بعض الجهود لتنظيم حرب صليبية ، ولكن أيام الحرب الصليبية كانت ولت .



(شكل ١٤٩) خريطة الإمبراطورية العثمانية قبل سنة ١٤٥٣

يقول السير مارك سايكس : « كان فتح القسطنطينية لدى الترك نعمة توجت مغرهم ولكنه كان إلى ذلك ضربة قاضية . فإن القسطنطينية كانت معلم الترك

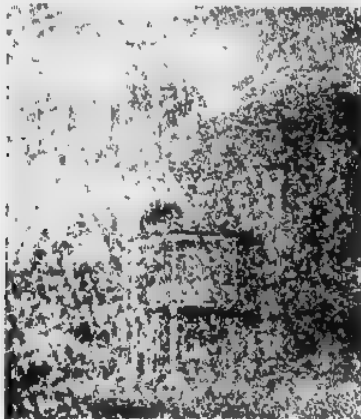
وميلهم . فطالما كان العثمانيون يستطيعون أن يستقروا العلوم والمعارف والفنحة والفن والتسامح من نبع المدينة جيش زانر بالحياة في جميع ممتلكاتهم ، لم يكن لهم (أرض) العثمانيين) القوة الوحشية بحسب بل القوة للخدمة أيضاً . وطالما كان للإمبراطورية العثمانية في القسطنطينية حرفاً حراً ، وسوقاً ومركزاً للمالية العالمية وجميع مركزي الذهب ومتبادل التجارة (بورصة) لم يهز العثمانيين قبل المال والعملة لكل . وكان عميد الثاني من عظماء رجال السياسة . فأن دخل القسطنطينية حتى شرح يحاول إيهاتف الأضرار التي سببها مصلحته ، فتلهم البطريك وأرضى الروم ، وبذلك كل ما في وسعه لتقل القسطنطينية كما كانت لعمد الأباطرة ولكن السلطنة القاطنة كانت تمت ، فإن القسطنطينية بوصفها مدينة السلاطين لم تعد هي القسطنطينية بأية حال ، إذ ماتت الأسواق وفرت الثقافة والمدنية وفوت المالية ذات العمليات المصنعة وتوارت عن الأبصار ، وقد ترك حكامهم وحشدهم القوي . ومن الناحية الأخرى استمرت مفسدة بزنطة ، فلما أهرق قرطانية والمسيحيين وحراس القصر والجواسيس



(شكل ١٥٠) خريطة الإمبراطورية العثمانية سنة وفاة سليمان القانوني سنة ١٥٦٦

والرشاة والوسطاء ، فإن المائتين انحدوا هؤلاء جميعاً لأنفسهم ، وظل هؤلاء جميعاً
أقوياء وآخرين بالحياة . لقد أصاب الأكراد بسلاطنتهم على اسطنبول كنزاً ثميناً
وأعطوا في مقابلته وياه ويلا

وما كانت أطباع محمد لطيف ضيق القسطنطينية . فإنه شخص يعصره كللك إلى
روما . فاصحى على مدينة أوتو الإمبراطورية ونهجا . وكان شبه الجزيرة مقسماً على
نفسه . ولما راجع أن ما أصدره من عدة قوية لفرضها كان سيكل بالبحاج ، لولا أن وافقه
منه في ١٤٨١ . اشترك أبناءه من بعده بزراع يقتل فيه الأخ أنساه . وفي عهد
خلفه بايزيد الثاني (١٤٨١ - ١٥١٧) حلت رعي الحرب إلى بولنتة ، وفتحت
معظم بلاد اليونان . فلما سليم (١٥١٢ - ١٥٢٠) أبى بايزيد ، فإنه وسع الدولة



(شكل ١٤١) داخل كنيسة سانت سونيا وقد حلت القنولون العربية للسياح الأصلية

التيانية بضم أرمنية وفتح مصر . وكان كثير الخلفاء الجباسين يعيش في مصر في رعاية سلطان الممالك ، ذلك أن الخلافة العاطمية كانت شيئاً أصبح في ذمة التصريح . فاشترى سليم قلب الخلافة من هذا العباسي الأخير المتكسر ، واستولى على قرابة القلعة وغيرها من الخففات الثبوتية . ولما أصبح السلطان الثماني أيضاً خليفة الإسلام كله . وخلف عليها ابنه سليمان القانوني (١٥٢٠ - ١٥٦٦) ، الذي فتح في الشرق بغداد وفتح في الغرب معظم بلاد المغرب ، وكاد أن يستولى على ليبيا ، وكانت المغرب قد صمدت أمام السلاطين ثلاثة قرون كاملة ، ولكن الكثرة التي أحاطت بهم في مراكش (١٥٢٦) وحل فيها ملك المغرب ، ألقت بذلك البلاد سريعة تحت قدي لانها . كذلك استولت عماراته البحرية على بلاد الجزائر ، وأوقعت بالبنادقة حزام كثيرة . وكان في أثناء معظم حروبه مع الإمبراطورية متحالفاً مع الفرنسيين . وولدت الثورة الثمانية في عهده لوج عظمتها

٥ - لماذا لم يعتنق المغول المسيحية

ننظر الآن نظرة موجزة حول تلك التطورات التي آلت بعد ذلك بالأجزاء الكبرى لإمبراطورية الختان الأعظم . ولم تنفع المسيحية قط في الاستيلاء على أنحية حاله الدول المغولية لأن المسيحية كانت في نور افلاس خطي وقهني ، لا يسع لثباتها البتة أي ولطم من إيمان ألوهية أو شرف ، وقد سبق أن أخبرتك حديث هلمين الراهبين اللومينيكين المحسنين لرحمدين اللذين بحث بهما البابا جواباً على طلب لوبلاي خان ، كما لاحظنا الإخفاق العام الذي ظل يصيب البعثات التي أرسلت برأ في أثناء القرنين الثالث عشر والرابع عشر . لأن تلك الروح الرسولية الحارة التي كانت تستطيع أن تفسم إلى ملكوت السموات شعوباً بأكملها قد ولت من الكثرة .

وفي (١٣٠٥) - كما سبق أن ذكرنا - أصبح البابا وهو المجر الأعظم ودية في قبضة الملك الفرنسي . فكان كل ما يلجأ إليه الباباوات من مخططات وما دبوا من سياسة في القرن الثالث عشر لاستعباد الإمبراطور من إيطاليا ، لم تنمض إلا عن جلال ملك فرنسا معه . واستمر الباباوات في التذبذب من (١٣٠٩) إلى (١٣٧٧)

واعتقد لم يكن الجهد الضئيل الذى بذلوه فى إرمال البعث التبشيرية ، إلا مجرد جزء من المخطط الاستراتيجي التي رسمها السياسة الأوربية الغربية . ولى (١٣٧٧) استطاع البابا جريجورى الحادى عشر أن يعود فعلا إلى روما وأن يبقى بها حتى آخر حياته ، ولكن الكرادلة الفرنسيين انشقوا عن إيمانهم عند انتخاب حلقه ، وكانت نتيجة ذلك أن انتخب اثنان من البابوات ، أحدهما فى ألبان ووالثانى فى روما . واستقام هذا الانقسام للمسمى بالصنيع العظيم^(١) من (١٣٧٨) إلى (١٤١٨) . وكان كل بابا يلحق الآخر ويضع الحرمان على كل أنصاره . تلك هي حال المسيحية يومئذ . . وهؤلاء هم حلة نعاليم يسوع الناصري ١١ كانت آسيا كلها ناضجة دائية القطف ولكن بدا لم تعد إليها لتجنى ثمارها .

حتى إذا عادت إلى الكنيسة وحدها أكثر الأمر وتجلدت فيها طائفتها على إرمال البطاط البنية بإنشائه جماعة الخويز ، كان أوان الهزة قد فات . ولى معه كذلك كل احتمال لتوحيد الشرق والغرب بواسطة المسيحية . ففحول الدول فى الصين وآسيا الوسطى صوب البوذية ، واعتنقوا الإسلام فى جنوب روسيا وتركستان الغربية والإمبراطورية الإيخانية .

٦ - أسرتا يوان ومنج فى الصين

كان المولى فى الصين متشبعين ألفا بالحضارة الصينية يوم احتل قوبلاى حرشه . بعد (١٢٨٠) تعالج كتب التاريخ الصينية قوبلاى بوصفه حاكما صليبا ، ومؤسسا لأسرة يوان (١٢٨٠ - ١٣٦٨) . ثم شبت حركة قومية صينية خطت هذه الأسرة المولية آخر الأمر وأقامت أسرة منج (١٣٦٨ - ١٦٤٤) ، وهى سلاله من أباطرة متقين قوى نزع فنية ، حكموا البلاد حتى نصحا شعبهم على ، هو شعب المانشو - وهم نفس شعب الكين الذين هزمهم جنكيز - وأسسوا أسرة مالكة لم تتخل عن السلطان لإلحكومة أهلية جمهورية فى ١٩١٢ .

ولأسرة المانشو هى التي أجبرت الصينيين على ارتداء ضفائر المانشو إشارة إلى

(١) تصدق العلم أو الاعتقاد العلم Great Schism . (الترجم)

المضجوع . وحل ذلك يكون الصينى ذو الشخصية شخصاً حجباً تمام الحداثة في التاريخ . ثم لم تعد الصفات إجبارية منذ عهد الجمهورية ، كما أنها اليوم مجهولة معنوية أو تكاد . .

إن هذه التغيرات السلبية التي حدثت بالشرق الأقصى والتي نرى لزماً علينا أن نسلطها بطل هذا الإيمان حادنا سارت في طريقها فوق سطح حياة نخل زائفة بالوفرة . وكان من تأب الفن الصينى على الدوام أن يخطر لوساطة (Media) حشة قابلة للقتل ، ولذا فليس في حوزتنا من المادة التي تشهد بالتضخم الفني الذي كان في زمن لمرى صنج ويوان ، روة ضخمة مثل تلك البالية عن فن أوروبا المعاصرة لها الذي كان أدنى في التطور كمياً . ولكن القدر الذي في أيدينا كاف لإقناعنا بالصفة الفنية المتأخرة لذلك العصر . ومع أن أسرة صنج تسجل عصر تراجع سياسى حدث نتيجة لضبط قوى التيطان والكن والسياسيا ، فإنها لفترة تعاط في عظيم . والناس يتحدثون بأن فن التصوير الصينى وصل إلى أعلى مستوياته في عهد أسرة صنج الجنوبية . كتب للستر لورنس فينون يقول : « إنها لفاترة في الفنون فائقة في الخلقة ، تلك اللذة التي نقت من آسيا في التاريخ موقف عصر برنكلين من أوروبا . . في حينما ككليم بالطبيعة لا يضارعه قط في أوروبا أي كلف حتى أيام ورمس ورت (١) ، صور لنا أسرة صنج جلهم بالجمال والاضباب والسيول الفاترة وطيران الأوز البرى من أحراش القصب ، وأحلام الحكماء سابحين في نجومهم تحت غيباء القمر في الغابات وصاها للسلك جالساً في زووقه على أمواه البحيرة أو الجبل . »

وظل دافع أسرة صنج في التصوير مستمراً بلا انقطاع ولا تغير جوهرى حتى نهاية أسرة يوان ، حتى إذا ابتداء حكم أسرة منج ظهر معه قلم مبدع من الضعف والخصيق . ونحن إنما نصل بظهور أسرة منج إلى فترة تخلقت لنا آثاراً ولبيرة . إذ يتبقى منها بكثير من الحفر على الخشب والنسيج ، وصلاطين حفر في الكهرياء الأسود

(١) ولم ورمس ورت (Wordsworth) : (١٧٧٠ - ١٨٥٠) شاعر إنجليزى مشق
الطبعة حتى بلغ هناك بما حده اللبادة . (المترجم)

حجر البشم) واللؤلؤ الصخرى وحدد وفيه من مصنوعات البرونز المطارة . وإن للشوارع المصقوفة بالفتايل الحجرية المائلة والمؤدية إلى قبور أسرة منج ، لمروفة خائفة الصيغ وإن لم تحتل بأى حال غير الحالات الصيفية . وما لبث فن الحفر الصيني أن غزته حل التصريح نوية من المبالغة فى التفتيش حتى احتشق آخر الأمر تحت وابل من الأفاعيل^(١) والأزاهير والأشكال الرمزية .

يقول ولم برنون : « ومع أن خزفاً ممتازاً جديراً باسم اليورسلان ، كان يصنع فى زمن يرجع فى قلمه إلى عصر أسرة نانج . لأن أقدم ما لدينا من خزف اليورسلان للصينى يرجع إلى عهد أسرة منج » . وقد شرع اليورسلان أن يتخذ طريقه غرباً مع الحرير ، ويسجل التاريخ أن صلاح الدين أرسل هدية من أربعين قطعة منه إلى سلطان دمشق . ومعنى أسرة منج نقت صناعة الخزف دافعاً متبهاً هو الرعاية الإمبراطورية المباشرة وتطورت فى نشاط ونجاح طريقين المتعاد . وأخذ الصناعات فى استغلال الحيل والمصنعة . وكان أن وصل الصينيون فى القرن الخامس عشر إلى أبهى أنواع اليورسلان الأزرق والأبيض . وثمة اليورسلان البديع (لداها لا يصدق ، وهو اليورسلان القرم ، واليورسلان الرائع ذو اللون الأحمر المغطى بالصقال (under glass red) ومما من بين مفاتيح هذا العصر ، الذى هو العصر الذهبى للخزف الصينى .

٧ - اللؤلؤ يرتلون الى الروح القبلية

حدث فى حضبة الهامير ، وفى قسم كبير من التركستان الشرقية والغربية ، وإلى الشمال من ذلك ، ان اللؤلؤ اعتدوا ثانية إلى حال البدوة القبلية التى رقصهم فيها جنكيز . ومن اليسير علينا أن نعتب إلى ما يكاد يندل زماننا هذا تقابول هان كبير من الخانات الصغار أثناء تملقهم على الملك ، منذ استقلوا فى غضون تلك الفترة ، وأسس القلموق إمبراطورية ضخمة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، ولكن

للتزعات بين أفراد الأسرة المالكة سطمت تلك الإمبراطورية قبل أن تتجاوز ريفها آسيا الوسطى . واسترد الصينيون منهم التركستان الشرقية قرابة (١٧٥٧) .

وزادت التبت ارتباطاً بالصين ، وأصبحت الخابطة العظيمة العقيدة البوذية والرحمانية البوذية . وما يزال التمييز القديم بين الرحل والمستقرين مستمرا إلى اليوم في معظم آسيا الوسطى الغربية وفارس وأرض الجزيرة . فإن سكان المدن يستولون على الترحطين ويفشتونهم ، كما أن الرحل يسعون إلى أهل الحضر ويحضرونهم .

٨ - إمبراطورية القيقاق وقيصر موسكويا (روسيا)

ظل مغول مملكة القيقاق العظيمة رحلا يرحلون ماشيتهم عبر السهول القصية في جنوب روسيا وغرب آسيا الغربية الخاضع للناظم الروسية ، وأصبحوا مسلمين غير ناضجين للإسلام محضين يبقوا كثيرة لشامانيتهم الممحصية القديمة . وكان خان الخندق الذهبي ، هو الخان الأعظم بينهم . ولكل القرب ولوق أجزاء عظيمة من الأرض البراج ، وعلى الأنس نيا يعرف الآن باسم أوكرانيا ، ارتد السكان القدامى الإسكيليون ، وهم من السقابة الذين يخاطبهم شيء من اللطم للغول ، إلى حياة ترحل مشابهة لهذه . فهؤلاء الرحل المسيحيون ، أي هؤلاء القوزاق ، كونوا على الحدود ضد التتر ضرباً من التتر القوي وبلغ من جاذبية حياتهم الحرة المطبقة للثقة بالمخاطرة واستهوائها لأفئدة غلامى بولندة وليتوانيا ، أن اضطرت الحكومات إلى إصدار القوانين الصارمة لمنع حدوث هجرة واسعة النطاق من أرض الميراث إلى أرض السهوب ، ولهذا السبب صار ملاك الأراضي أصحاب موالى الأرض (Serfs) في بولندة ينظرون إلى القوزاق بعين ملوثةا الطلوة والحقد ، وكثرت الحروب بين القروسية البولندية والقوزاق ، كثرت بين هؤلاء الأخيرين وبين التتر .

وبينما كان الرحل في إمبراطورية القيقاق كما بلاد التركستان إلى مايكاد يطل على البحر المتوسط ، يقربون في الأرض فوق متاعات غسبية ، كان هناك عدد من

المدن والأقاليم الزراعية التي يعيش عليها سكان مستقرون وينتفون في العادة الجزية
 تلان المرحبين . ففي مدن من أمثال كييف وموسكو وما إليها كانت حياة السكان
 المسيحيين للملنيين الموجودة قبل المغول لا تزال مستمرة تحت حكم حوفاث من الروس
 أو ولادة من التتار ، ممن كانوا يصنعون الجزية تلان والحشد للملني . و اكتسب
 خرافوق موسكو قوة التلان ، وارتفع شأنه شيئاً شيئاً تحت سلطان التلان حتى صار
 كثيراً من زملائه الأكياع . وفي القرن الخامس عشر نبذت موسكو تحت حكم
 غراندوقها إيفان الثالث وهو إيفان الكبير (١٤٦٢ - ١٥٠٥) ولماها للمغول وأثبت
 أن ترفع الجزية بعد ذلك (١٤٨٠) . ولم بعد خلفاء قسطنطين يتكون في القسطنطينية
 في ذلك الزمان ، فاستولى إيفان على القسطنطينية الذي للرأسين واتخذها شارة له .
 وادعى أنه وارث بيزنطة بسبب زواجه (١٤٧٢) من الأمبرة زوية باليولوجوس
 (Zoe Paleologus) وهي من السلالة الإمبراطورية . وحاجت هذه الترانوقية
 المسكونية الطموحة جمهورية أهل الشمال التجارية بتزويجهم إلى الشمال منها
 وأنضمها ، ولما أرسبت أسس الإمبراطورية الروسية العصرية ، وأنشئت حلقة
 اتصال تربطها بالبحر التجاري في بحر البلطيق . على أن إيفان الثالث لم يفتح ادعاه
 بوراثة حكام القسطنطينية المسيحيين إلى حد التخاذ القسطنطينية الإمبراطورية بل خطا هذه
 الخطوة من بعده خليفه ، إيفان الرابع (وهو إيفان القتب بالرهيب اتسلوه بالجنونية
 (١٥٣٣ - ١٥٨٤) . ومع أن حاكم موسكو وصل بذلك إلى القتب بلقب القيصر
 (Tsar) ، فإن تعاليد كانت في كثير من الأوجه تنافية أكثر منها أودية . كان
 مستقلاً على القسطنطينية الأسبوي المطلق السلطان ، وكانت المسيحية التي اتخذها هي
 الشرقية الأرثوذكسية التي يسيطر عليها البلاط ، والتي وصلت إلى الروميا قبل
 الفتح المغولي بزمان بعيد على يد مبشرين من البطار بطاموا من القسطنطينية .

ولم الغرب من ممتلكات التهجاني بخارج مجال الحكم للمغول قام في بولندا مركز
 لان لماسك الصفالبة أثناء القرنين العاشر والحادي عشر . أجل اكتمحت الموجة المغولية
 بولندا ، ولكنها لم تخضعها قط . ولم تكن بولندا أرثوذكسية بل كانت عقيدتها هي
 الكاثوليكية ، وكانت تستعمل أحرف الهجاء اللاتينية بدل الأحرف الرومية الغربية .

ولم يتخذ حاملها قط ممة الاستقلال المطلق عن الإمبراطور . والواقع أن بولنقة كانت من حيث أصولها قسماً أصلياً ناتئاً من عالم المسيحية ومن الإمبراطورية الرومانية القديمة . ولم تكن الروسية في أي يوم من الأيام شيئاً من هذا القبيل .

٩ - ييمورلنتك

ربما كانت طبيعة وتطور إمبراطورية أسرة إيلخان في فارس وأرض الجزيرة وسوريا وما ألم بتلك الإمبراطورية من تطورات ، أشوق قصص هذه الدول المغولية كافة ، لأن نظام الترحل في هذه المنطقة حلول بالفعل - ووفق في الحقيقة أيما توفيق - أن يقضى قضاء مبرماً على نظام مدن مستقر . فعند ما غزا بيكيز خان الصين في بداية الأمر ، حدثت - كما يخبرونا - مناقشة خطيرة بين الرؤساء المغول حول ضرورة أو عدم ضرورة تعمير كل المدن وزيادة السكان المستقرين ، لأن هؤلاء البسطاء المارسين لحياة الهواء الطلق ، كانوا يرون أن السكان المستقرين غاصسون متزاحون تنتشر بهم الرذيلة ويظلمهم التخلف وأنهم خطرون لا يمكن فهمهم ، وأنهم يفتحون جلدى إنساناً جدير بالزراية يعيش على سطح بلاد لولا وجودهم لكانت أرض رحي طيبة . فأما المدن فلم يكن من ورائها أي نفع لهم . ويلوح أن قداى القرنجة والأبجوسكون خزانة جنوبي بريطانيا ، كان يجول بخاطرهم نفس الشعور حيال سكان المدن . ولكن تلك الأفكار لم تجسد في صورة سياسة متعمدة إلا تحت ظل هولاسكو في أرض الجزيرة . لأن المغول هاجمت لم يقتصروا على أعمال السر والسيف لإحراقاً وتدميراً ، بل دمروا نظام الري الذي استدام ما لا يقل عن ثمانية آلاف سنة ، وبذلك قضى على المدنية الأم التي ولدت المدينيات المغربية جميعاً . ولقد ظلت هذه الأكاليم الخصبية منذ أيام الملوك الكهنة في سومر تزدهر زراحة مستمرة لا تنقطع ، وتواصل تجميع التقاليد ، وحشد عدد عظيم من السكان وإنشاء مجموعة مصالحة من المدن النشيطة العاملة : - منها إريطو ونيجور وبابل ونيوى وجليشنون (للملائكة) وبنداد ، والآن زال الخصب ، وأصبحت أرض الجزيرة أرضاً عجمية حشة وقاحل محلوة ، تحرى فيها ماء عظيمة نددا ، أو تفيض ، مما ضاعفها

مكتوفة بركا تمزح فيها الملايكا . ثم حدث لها بعد ذلك من الزمان أن انتصت ببلاد
والموصل انتماشاً ضعيفاً وصارتا مدينتين من الدرجة الثانية



(شكل ١٥٢) خريطة امبراطورية تيمورلنك

ولولا هزيمة قطعا قالة هولاكو ومقتله في فلسطين (١٢٦٠) لحل بمصر نفس
المصير : ولكن مصر كانت عند ذلك سلطنة تركية ، تعودها هيئة عسكرية هي
للماليك كان يؤصل أفرادها (شأن مقلتها الانكشارية بالدولة العثمانية) ، ونجده
قوتها ، بمقتضى الظمان الأرفاء وتدريبهم . لأن كان السلطان مفتعراً ذا كفاية أطاعه هذا
النوع من الرجال ، وإذا كان ضعيفاً أو شريراً عزلوه وتبطلوا به غيره . وظلت مصر
تحت حكمهم دولة مستقلة حتى (١٥١٧) ، عندما آلت إلى الأتراك العثمانيين .

وصرحان ما ضعفت القوة الممطرة الأولى لدى مغول هولاكو ، ولكن قامت
المرتدلين في القرن الخامس عشر نهضة أجنبية أشبه ما تكون بمصافقة هوجاه البعث
في التركستان الغربية تحت قيادة تيمور الأخرج أو تيمورلنك . كان نسبه من الناحية
النسائية (أمه) يتصل بجنكيزخان . فجعل قسبة ملكه في سمرقند ، ومد سلطانه على
التيهقان (التركستان حتى جنوب روسيا) وعلى سبيريا ووسطه جنوباً حتى حوض نهر

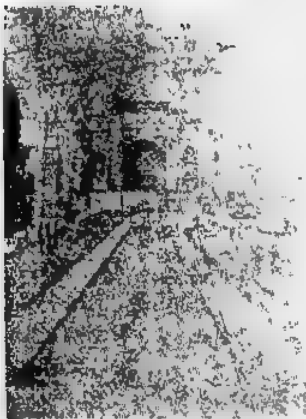
السند . وانتقل لضمه لقب الخان الأعظم في (١٣٦٩) . كان متحلياً بعت إلى المبرمة الوحشة بسبب . فأنشأ إمبراطورية تقوم على الخراب من شمال الهند إلى موريا . وكانت أقصى عملية معروفة لديه إقامة أهرامات من البهايم ، بعد أن فتح أصفهان أقام على حله لشاكلة هرمياً مكوناً من سبعين ألف بحجة .

وكان يلح في أن يستعيد إمبراطورية جيكيزخان كما يتصورها هو ، وهو مشروع فشل فيمضلاً تماماً . حل أنه بث الخراب والتمار في طول البلاد وعرضها ، وأدى إليه بغرية الأتراك العثمانيون . وكان ذلك قبل فتح القسطنطينية وقبل ألبانهم العظيمة . كما أقنأ إليه مصر . ثم أعمل في البنجاب تخريباً وعات فيها فساداً ، واستلمت له على . وبعد أن سلت المدينة أعمل السيف في أحوالها قتلا وتنجيحاً رهياً . وعلمنا حانت وفاته (١٤١٥) لم يبق له إلا القليل مما يشهد له بالقوة اللهم إلا اسم يقرن بالرب وإلا الخراب والأقطار الوحشة المقفرة ومملكة متقلصة للظلال قد غصها الإعمال والنور في بلاد فارس .

وبعد خمسين سنة قضى فوج آخر من المرحلين التركان على الأميرة المالكة التي أسسها تيمور الأخرج في فارس .

١٠ - إمبراطورية الهند المغولية

وفي (١٥٠٥) اضطر رئيس تركاني صغير ، اسمه بابر وهو سليل تيمور وبالنسبة جيكيز أيضاً ، أن يفر عابراً جبال الهندوكوش إلى بلاد الأفغان مع ثلة من الأتباع . بعد بضع سنين قضى في حرب لاله فيها بعض النجاح الموقوت - إذ وقعت في قبضة سمرقند ودحا من الزمان ، وهناك تزايد أنصاره ، ولصحب نفسه ميلاً على كابول . لحشد جيشاً وأكثر من جمع المدافع ، ثم ادعى لنفسه ملك البنجاب ، لأن تيمور كان هزاعاً قبل ذلك بمائة وسبعة من السنين . وتقدم ظاهراً إلى ما وراء البنجاب . وكانت الهند في حالة انقسام وهي مسئلة تمام الاستعداد للرحيب بأي فاتح يعطها السلام والنظام . والتقى بابر بعد تقبيلات عديدة في حظه سلطان دلي قرب بانيبات (١٥٢٥)



(شكل ١٥٢) تلج محل بأهرا

لأن تلج محل الخوي الأحمر لشبه جهات وزوجه المعروفة يعرف
الناس جميعاً بأنه أكثر أهمية فقام لتبناه الكمال. وهو يقيم من
الرخام الأبيض، ويقال إن طيرين أبيضاً من الرجال ظفرا
بمسكون فيه بلا انقطاع شبه مشرعاً

على معلقة عشرة أسيال شمال
للديعة، فاختصر نصراً كاملاً
ميتاً مع أنه لم يكن منه سوى
خسة وعشرين ألف رجل
ولكنهم مع تلك مزدودون
بالمنطق مقابل ألف خليل عند
أعدائه وحشد من الرجال
يضرع لربة أمثال حده،
والأعداد - هذه للنسبة -
كانت من تقديره هو. فكيف
عن تلقيب نفسه ملك كابول،
والتحق لقب إمبراطور
المشوسان. كتب يقول:

«إن هذا العلم يختلف اختلافاً
بيناً من بلادنا، إذ أنه وجد
حالا أجمل وأغصب وأخفى
غنى مطلقاً. ثم واصل التمتع

حتى البنغال، ولكن وفاته قبل الأوان (١٥٣٠) أوقفت موجة التمتع للخوي زهاء
رابع قرن، ولم يأخذ هذا التمتع يفيض من جديد إلا عند تولي حفيده أكبر
قهرش. وأضحى أكبر كل بلاد الهند حتى برار، وأصبح ابن حفيده أورانغزيب
(١٦٥٨ - ١٧٠٧) ميدياً لشبه الجزيرة الهندية بأكملها تقريباً. فهذه الأسرة
الخطيمة، للكونة من باير (١٥٢٦ - ١٥٣١) وهو مايون (١٥٣١ - ١٥٥٦)
وأ أكبر (١٥٥٦ - ١٦٠٥) وچيان جبر (١٦٠٥ - ١٦٢٧) وشاه چيان (١٦٢٨ -
١٦٥٨) و أورانغزيب، (١٦٥٨ - ١٧٠٧)، التي ظل فيها الاين يتخلف أباه
لعدسة أجيال مصاوبات، هذه الأسرة الخوية تسجل أزمى عصر يزغ فجرة على
الهند حتى ذلك الحين. وكان أكبر - ولعله لذلك الوحيد الجدير بأن يوصف

بأسوكا - من أعظم عيامل الهند ، وأحد القليلين من الشخصيات الملكية الذين يرضون إلى قريب من مرتبة العظماء بين الرجال .

ويجب أن نولى ، أكبر ، نفس الاهتمام الذى أظهرناه نحو شران أو مسطنطين الكبير . فإنه أحد الأقطاب التى يطور حولها التاريخ . ولا يزال الشيء الكثير من عمله فى سبيل توثيق الرباط وتوطيد النظام فى الهند ، بقياً إلى يومنا هذا . إذ تناوله البريطانيون وواصلوا العمل به عندما حصلت إليهم وراثته من ملك الأباطرة المغول ، والواقع أن العاهل البريطانى كان يتخذ لنفسه لقباً دائماً هو لقب الأباطرة المغول ، وهو لقب : قيصر الهند (Kaiser - of - Hind) . ولقد تبسدت جميع النظم الإدارية الكبرى التى أقامها حفنة جنكيزخان فى الروسيا وفى أرجاء آسيا الوسطى والغربية كلها ، وفى بلاد الصين ، حيث بادت منذ زمن بعيد وحلت محلها أشكال حكومية أخرى . والحق إن حكوماتهم لم تزد كثيراً عن كونها حكومات تفرض الضرائب ، وأنها نظام لم يجمع الإيرادات لتكون طعنة لمؤسسة الحاكم المركزية ، شأنه الحشد النحوى ، فى جنوب الروسيا ، أو للدينية الإمبراطورية بقره نورم أو ييكن . فأما حياة الشعب وفكراته فشيء كانوا يحملونه وينصونه جانباً ، فلا يمتون بطريقة مباشرة ما قام يدفع . فليس عجباً إذن أن يحدث بعد خضوع دام قروناً طويلة ، أن يعود كل جزء من أجزاء إمبراطوريتهم إلى ما بين يده ، فقوم من جديد موسكو وكيف مسيحيان وتحت فارس شجيرة وصين قامة الصبغة الصينية بعد أن زال عنهم كاهنوس المغول وانجحت غزتهم . بيد أن أكبر ، أقام صرح هند جديدة . ومنح أمراء الهند وطبقاتها الحاكمة بادرلت أو على الأقل تلميحات تشير ولو من بعيد ، إلى أن هناك مصلحة مشتركة تجمعهم . فلئن أصبحت الهند اليوم مكونة من شيء أفضل ولو قليلاً من مجموعة متناثرة غير مترابطة من الولايات والأجناس أشبه ما تكون بكيس مملى بالفرق الهائلة ، ولئن من أن تكون لرمة لكل صغير مرضى من الشمال ، فإن أعظم الفضل ذلك يرجع إليه .

وكانت سمته المبرزة هى انتفاع ذمته . فإنه نصب نفسه لجعل جميع أنواع الرجال المقترنين فى الهند ، مهما يكن جنسهم أو دينهم ، صالحين لأداء الخدمة

العامة الحياة القندية . وكان يتصف بسجية رجل للدولة الحق من حيث قلوه على
 جمع الشمل والتأليف بين محظف الناصر ، وما كان يرعى لدولته أن تكون إمبراطورية
 مسلمة ولا مغولية ، وما كان يرعى لها أن تكون راجهوتية ولا آرية ، ولا فراميدية
 ولا هندوسية ولا منتسبة إلى الطائفة العليا أو الطائفة الدنيا ، بل كان يريد ما مندبة .
 وأنيحت له أثناء منى تعريه فرص كثيرة أدرك فيها الصفات الطيبة والوفاء
 والإخلاص - وفي كثير من الأحيان - نبل النفس التي يتصف بها أولئك الأمراء
 الملوك ، الذين كان رجال حاشيته المسلمون يرون في قرارة أفعالهم أن مصيرهم
 هو العذاب الأبدي لأنهم من أتباع يوحنا . ثم إنه لاحظ أن هؤلاء الرجال وللرجال
 الذين يفكرون على شاكلتهم ويؤمنون بقيمتهم ، كانوا هم الأغلبية الساحقة من رعاياه .
 ولاحظ فضلا عن ذلك أن الكثير منهم - وكانوا أشدهم اكتساباً لفته - ظلوا مستمعين
 بينهم الخاص ، وإن تجلى أمامهم ما يعود عليهم من النافع الدينية إن هم اعتنوا
 دين البلاط . من أجل ذلك كان ذهنه المتفتح ، يرفض منذ البداية قبول للنظرية القائلة
 بأن الإسلام يجب أن يقتضيه الناس جميعاً بمجرد المصلحة التي يجلبه وهو الحاكم والقائم
 ولد مسلماً يؤمن بمحمد . وأعطت أفكاره تبلور شيئاً فشيئاً في هذه الكلمات : « متى
 كان لي أن أدعى لإرشاد الناس قبل أن أجد من يرشدينني ؟ » . ثم إنه كتباً أصغى إلى
 الصالح الدينية الأخرى وإلى العقائد الأخرى ، نوقر في نفسه ما كان يحول بها من
 شكوك شريفة ، وإذا ظل يلحظ في كل يوم ذلك الضيق المرير الذي عليه روح التشيع
 الطائفي ، مهما يكن شكل الديانة الذي ينتسب إليه ، ترايد نقطة يبدأ السامع
 مع الجميع .»

يقول الدكتور إميل شميت : « كان ابناً للإمبراطور مخلوع وقد ولد في الصحراء ،
 وترى في حبس أسير ، عفر الفلحة المريفة من الحياة منذ شبابه لما تلاه من سنين
 وسباه الحظ بهمس قوى ، دربه على أحوال أبعاد غايات الإجهاد . فكان القلريب
 الجلفاني لديه غراماً وكلفاً ، وكان مولعاً بالطراد ، وبخاصة بالانفعال البنيف المصاحب

لصيد الحصان الوحشي أو القليل أو ذبيح البر للخطر . وقد حدث ذات مرة عندما كان من الضروري إقناع راجاجودهوود بالصلح من أجله إلى إيجابو أرملة ابنه المتوفى أن تمثل حكومة التاراجانزية ، أن قطع أكثر من عشرين ميلاً في يومين على ظهر الليل . وكان يظهر في معترك القتال أقصى غاية للجحافة . فكان يقود جيوشه بشخصه في أخطر أوقات الحسالات ، تاركاً لقواده ما دون ذلك من واجبات إنهاء الحرب . وكان يبدى في كل خطر يناله إنسانية نحو المطلوب ، وعارض معارضة حامية في كل مظهر من مظاهر القسوة ؛ ولما كان بريئاً من كل أثر لذلك التحامل قللى يفرق المجمع ويخلق الخلافات ، متسامحاً مع ذوى المعتقدات الأخرى ، غير متحيز لإزاء من هم من أجناس أخرى ، مسواه أكانوا من الهندوس أم من الدرافيديين ، فإنه كان الرجل الذي خصصته الظروف تخصيصاً واضحاً لإيجاد التلاصق بين عناصر مملكته المتنازعة بعضها مع بعض وجعلها كلاً قوياً متأسكاً برغرف عليه الرخاء .

حس نفسه بكل ما أوتي من جد وقوة على قطعة السلام . وإذا كان محتلاً في كل مسرائه ، غير محتاج إلا إلى القليل من النوم ومعتاداً أن يضم وقته بأنفسه ، فإنه كان يجد فسحة من الوقت يكرس فيها نفسه للعلم والفن بعد فراغه من مهام دولته . فكانت الشخصيات المثابة للصيت والعلامة المشهورون الذين تردادهم العاصمة التي ابتناها لنفسه في فاتيهور سيكثري أصدقاء له في نفس الوقت ؛ فكانت تجتمع من هؤلاء حلقة في مساء كل خميس لتبادل المحادثات الفكرية والمناقشات الفلسفية . وكان أنصق أصدقائه به أشخاص أوتوا مواهب عالية مما يعنى وأبهر الفضل ، وما لبثنا طامحاً في الفكر (١) (Free-Thinker) . وكان أسن هلمين الأخوين حلاً ذائع الشهرة في الأدب الهندوكي ، وبمساعده وتوجيه أمر أكبر فترجت أهم المؤلفات السنسكريتية إلى الفارسية . فأما أبو الفضل ، وكان صديقاً حياً بوجه خاص لأبيهم ، فكان قائداً

(١) الفكر الحر الفكر : الشخص الذي لا يملك تفكيره في المسائل الدينية وغيرها مما تراعى

ورجل دولة مستظماً صاحب تلهر ، وإلى نشاطه تدنيس مملكة أكبر برابها وبثقلها .
التدخل يوجه خاص (١) .

وكان أكبر شأن شرطان وشأن لى تسخ يوجه إلى الأمور الدينية بعض حنايه
وقيم طبقات جدل مسببة مع البشرين اليسوعيين ما تزال تفاصيلها ملونة في السجلات .
(على تلك الشاكلة كانت الحلقة التي اعادت أن تكتم في قصور فاتيهور سيكرى
الى لا قطعاً مابها تسبح في ضياء شمس الهند المشرقة ، والتي أصبحت الآن خالوية
موشحة ، تلك أن مدينة فاتيهور سيكرى شأن مدينة أمبار ، أصبحت اليوم مدينة
ميتة . وحدث منذ سنوات للال أن قتلت أمي في أحد شوارعها الساكنة ابناً لأحد
الموظفين الإنجليز) .

وكان أكبر ، شأن كل الرجال جميعاً مهما عظم خطرهم أو هان أمرهم — يعيش في
حدود زمانه وفي دائرة أفكار حصره . وكان يوصفه تركائياً بحكم الهند ، يجهل
بالضرورة الشيء الكبير بما ظلت أوروبا تعلمه في ألف سنة بالأمم والعناء . كان يجهل
كل شيء عن نحوه الوعي الشعبي في أوروبا ، كما كان يعلم الشيء الذي لا يكاد يذكر
من تلك الإمكانيات والصلحية والرجية التي كانت تختبئها الكنيسة في القرب . إذ كان
مثل هذا الأمر يتطلب شيئاً أعظم من جدل عارض مع مبشر مسيحي . وجعلته تربيته
حل الإسلام وعبقريته الفطرية يعتقد اعتقاداً يئاً أن ليس في الإمكان ربط الهند في شعب
واحد عظيم إلا على أفكار عامة تقوم على أساطير ديني ، ولكن أنى له المعرفة التي
يمكن بها خلق مثل هذا القاسم والإيقاع عليه حياً بإنشاء المدارس العامة والكب
الرخيمة وإقامة نظام جامعي يجمع بين نظمي التنظيم وحرية الفكر ؟ وهي أمور ما تزال
القوة العصرية تنحس طريقها إليها حتى اليوم . لقد كان ذلك كله مستحيلاً عليه
استحالة المعرفة بالزوارق البخارية والطائرات . وكان شكل الإسلام الذي يجيد معرفته
هو ذلك الشكل للضيق الأفق الضيق في علم تسامحه ، إسلام الأتراك السليبي ، ولم يكن
المسلمون إلا أقلية بين السكان . وكانت المشكلة التي تواجهه في الواقع شديدة المآلة
للمشكلة التي واجهت قسطنطين الكبير . ولكنها كانت تتلوى على هبوبات لريدة

خاصة بها . ولعلنا نرى كل ما فعله أنه حاول أن يكيّف الإسلام تكييفاً يكفل له عند الناس قبولاً أوسع وأنشغل بأن يتبدل بهادق ولا إله إلا الله وعهد رسول الله ﷺ و لا إله إلا الله وأن الإمبراطور راجه^(١) الله ، إذ رغم أن ذلك سيكون دعامة عامة لكل ما حوت الهند من صروب العقائد والنحل . وربط بهذه العقيدة طقساً بسيطاً استلهمه من الزرادشتيين الفرس (وهم الفارسيين (The Parsees) ، الذين كانوا - ولا يزالون إلى اليوم - موجودين بالهند . ومع هذا فإن هذه الاديانة الرسمية الجليدية ماتت بوفاته ، إذ لم يكن لها حلول مستقرة في أذهان من حوله من الناس .

والعامل الجوهرى في تنظيم الدولة النافضة بالحياة ذلك العامل الذى أشعل العلم في إدراكه ، هو إنشاء نظام تعليمى . وذلك أمر لم يفهمه أكبر البقية . ثم إنه لم يترافق له طبقة من الرجال يوحون إليه بهاته الفكرة أو يمينونه على تنفيذها . فلم يكن المعلمون المسلمون في الهند بمعلمين فاسر ما كانوا حراً لتعليمهم محتاطين على تعصب دينى حاد ، فكانوا لا يرغبون في وجود حقبة مشتركة في الهند بل مجرد تعصب عام للعقيدة الإسلامية وعدم تسامح مشترك في الإسلام . وكان البراهمة الذين كان يعلم احكام التعليم بين الهندوك يتصفون بكل ما للبيئة ذات الامتياز الوراثة من غرور وتعاص . ومع ذلك فعل الرغم من أن أكبر لم ينشئ^{*} الهند أية خطة تعليمية عامة ، فإنه أنشأ عدداً من المدارس الإسلامية والهندوكية .

ولا تفرح البقايا الفنية والعمارة المتخلفة عن المفول وغيره جداً . وعندما يتكلم الناس عن القرن الهندى ، يكون تحديد ، فإنهم يحسون بذلك تلك القوة العظيمة . وفق تصوير ذلك الزمن ممتاز جميل ، وهو في طراده وصنعه وثيق القربى بالإنتاج الفادسى المعاصر له .

لأنما في المباني فقد كان من نصيب الهند حواشاً أن تستورد بلورة الأساليب العالية المتطورة وأن تفرغ عليها تعديلات وتنميقات من خيالاتها . ولم يتم لمن العبارة المجرى الانتشار إلا بعد الفتح الهائلى ، وإن انتشار الإستهوا^{٣٠} والنسب التذكارية والنسب

(١) راجه (Rajah) هو كتاب . (الترجم)

(٢) الإستهوا (Stupa) أثر أو مقصورة مقلدة بوقية حل مية رابية ذات قمة . (الترجم)

نظروا الإستهوا ج ٢

الأخرى في حكم أسوكا يشهد في كل مكان بوجود التناين للقرص والمظليين ،
وفضلا عن ذلك فإن الفن البوذي الذي عطف لنا مثل تلك البقايا العظيمة في منطقة
جنتهارا على الحدود الشمالية الغربية ، والراجع إلى القرون الأربعة للميلاد الأولى ،
يبدو فيه كل تلك الروح المظلية قوية واضحة . فبرى الإنسان واجهات بها العمود
الذكورنى العادى .

ولم يصبح لنا العمارة والنحت متوكلين بشكل طاهر بمنزلة صفة وكرامة تخصه
إلا في حكم أسرة جويها وفي القرنين الخامس والسادس الميلاديين . وسالت المؤثرات
الفراهمية الجنوبية دون انتشار المخطوط الرأسية ، كما أنها أوتمرت البناء بكراتيهل^(١)
(Mondhugs) باقية مع نزوع إلى طراز الأهرام المدرجة . والمهرم الأسود في كافانك
من أبدع المعابد المتوكلية وأشدما تمثيلا لطراز تلك المعابد قبل الإسلام .

واستقدم الفنون الإسلامية الأشكال الرئيسية للطراز العربى (Saracenic) وهى المنحطة
والقنطرة للمذهب ، وعلى هذا الأساس الخطيد اشغلت الهند في حصر بديع الإبتقان وأنتجت
التفريقات التشجيرية الزخرفية للتوالد (Window-tracery) والأستار الحجرية . والمسجد
الجامع بأحد آحاد (في القرن الخامس عشر) من أبدع المساجد الهندية ، ولكن لكل أبداع
مثال لكل فن العمارة المثلوى هذا وأشدما تمثيلا لطرازه هو « تاج محل » ، وهو القبر
الذى أبناه شاه جهان (١٦٢٧ - ١٦٥٨) لزوجه . ويصلون المعماريون الإيطاليون
والهنود في هذا البناء الرشيق .

١١ - الفجر (التور)

وهناك نتيجة جغرافية عجبة نشأت عن هذه الإضطرابات التى أحلها مغول القرن
الرابع عشر ، فحين كان يعمود لك رأسهم وقطب وحام - هى ظهور شرائف متقلبة
في أوروبا تتكون من شعب غريب شرقى لاجئ هو النجر . ظهوروا ببلاد اليونان في
زمان ما قريب من نهاية القرن الرابع عشر وأوائل الخامس عشر ، حيث زعمهم الناس
مصريين (Egyptians) ، (ومنها اشتقت كلمة Gipsy) التى يطلقونها عليهم في أوروبا ،
وهو اعتقادهم للناس جعياً وقبلوه هم أنفسهم ويثوه في كل مكان . ومهما يكن من
شئ ، فإن زعمهم كانوا يلقبون أنفسهم بلقب « كوليت آسيا الصغرى » .

(١) التكراتيد : هى سبعة (جمع صفة بقليد قبل) لدراب . (المترجم)

والراجع أهم ظواهر يقتلون في أرجاء آسيا الغربية قروناً عدة قبل أن يلصقهم ملابيح
 ثيودور ذلك إلى جوار (المسحونت) اللوحيل . وربما يلصقهم من أرض أرومهم الأصلية
 - شأن الأتراك العثمانيين - ذلك الطوفان العظيم الذي أحدثه جنكيز أوقى قبله .
 تغلوا في البلاد كما تغل من قبلهم الأتراك العثمانيون ، وإن كانوا أقل خطراً حتماً
 منهم . فانتشروا على مهمل متجهين غرباً عبر أوروبا : حطماً غربية من نظام
 الرحل في عالم قوامه المهرات والمدينة ، مطروحين من وطنهم القديم بسبب (بلخ)
 لازلين في أراضي الشيوخ الأوربية ، ويجوار الساجات المنسوبة حول المزارع وفي
 أراضي الغابات البرية والبقاع المهمة . مسلم الألمان باسم « المظاريين » و « التار »
 ومسلم القرميون « البوهيميين » .

ولا يبدو أنهم حافظوا على عقايد منتهى الحقة ، غير أن لهم لغة مميزة تشير إلى
 تاريخهم الضائع ، فإنها تحتوي على كثير من كلمات شمال الهند ، ويرجع أن
 تكون في أصولها هندية شالية أو باكستانية . وتحتوي لسانهم على عناصر غصية
 فارسية وأرمينية .

وذلك فتلصم الآن في كل أقطار أوروبا ، منهم المسكرى والبياح للجنود وتاجر
 الخيل ومنهم أصحاب دور الملاهي والبراقون والمسلون . ولقد بلغ كثير من ذوي
 الأخذاع الشيلية الخلافاً قوياً بمخباتهم القائمة على جانب الطريق ، وبياراتهم للداخلة ،
 وخيامهم المنورة ، ونحوهم القليلة وصحيح أطفالهم الصائحين الذين لوحث
 الشمس وجوههم .

والمدينة هي . يبلغ من حداته في التاريخ ، كما أنها ظلت معظم مهندسات صورة
 عليه بالغة ، بحيث لا يزال لزماً عليها أن تظهر غالب غرائزها وتمثلها في نطاق
 احتياجاتها . فإن حرق الهندوة والرحل للنفس في معظمها يتحرك في مويذات كلما
 مستاً السأم مما عليه المدينة من أوضاع ومعتقدات . وما نحن إلا أصحاب بيوت فارو
 الحامسة ، غير عظمين لمعتقدنا للزلية . ولطم الذي يسرى في حروقتنا له تمكن في
 بلاد السهوب كما تكون في أراضي المهرات .

ومن بين الأنواع الأخرى من البدوي التي حلها الفجر من قطر إلى قطر ، ذلك اللون

من الموسيقى الشعبية الذي أشاعوه في الأقطار التي مروا بها ، فلهم كانوا على الدوام موسيقيين متحمسين لقبهم وإن لم يكونوا مبتكرين خطوتين ، ذلك بأنهم حلوا إلى كل مكان حلوة به ضرباً من فن الإثراء الشعبي ، يقصون عليه نكهة وحيرة صادرة من ذات أنفسهم . ولطالما مرقوا ألحان الشعوب كما مرقوا في بعض الأحيان أطفالهم وجعلوا منهم أشجاراً . وهم لم يستعملوا البتة أى تدوين موسيقى « نوتة » ، ولكن تقاليدهم الموسيقية كانت على الدوام قوية ، وللأغنية الشعبية اليوم أحفاد كثيرة هي موسيقى هنغاريا وألمانيا والروسيا ،

الفصل الثالث والثلاثون

نهضة المدينة العربية

الطرق البحرية تحتل مكان الطرق البرية

- ١ - المسيحية والتعليم للفن
- ٢ - الفلاسون الكبار ويزوغ فيهر للفيرومية
- ٣ - بروستانتية الأسراء وبرتستانتية الشعوب
- ٤ - كيف حوّل الورق عقل الإنسان
- ٥ - العلم يستيقظ من سباته
- ٦ - النهضة الأدبية
- ٧ - الفكر الجديد للمدّة الأوروبية
- ٨ - النهضة الفنية
- ٩ - رأي ساكوتسكي في العالم
- ١٠ - أمريكا تدخل التاريخ
- ١١ - جمهورية سويسرا
- ١٢ - (١) حيلة الإحطوط ذلّك للفلس
(٢) بروستانتية لهذا ذهب الأمير في ذلك
(٣) التيار الفكري العقل المضاد

١ - المسيحية والتعليم الشعبي

إن نظرة إلى المراحل المذكورة آن القرون الثلاثة منذ بداية لثالث عشر حتى نهاية الخامس عشر كانت عصر تراجع للمسيحية . وكانت هذه القرون عصر للشعوب المنهولة . ففى إبانها كانت البهاوة : (الرحل) القادمة من آسيا الوسطى تسود العالم المعروف . وكان على معرق الدنيا ، وهذه الفترة في فروتها ، حكماء من الفلس المنهول أو ذى قرياه التركي ، يهضون بالحكم ومعهم تقاليدهم في كل من الصين والهند وفارس ومصر وإفريقيا الشمالية وشبه جزيرة البلقان وبناريا والروسيا .

ولقد بلغ الأمر بالتوكنى الممانى أن جنح إلى البحر ، وقايل الباندة على سطح بحرهم المتوسط نفسه . وحاصر الترك في (١٥٢٩) مدينة فيينا ، ولكنهم هزموا لأردهم البحر حل أعقابهم أكثر مما ردهم الفاتكون عنها . ودعت إمبرطورية شارل

الخامس المابيرية الجزية السلطان . ولم يحدث حتى معركة ليبانو (١٨٧١) ، وهي الحركة التي عقد فيها مرافقيز مؤلف دون كيشوت ذواحه اليسرى - « أن كسرت المسيحية (على حد قوله) ألفة الصائتين وكبرياهم ورفضت المشاة عن عبود العالم الذي كان يحد الأسطول التركي شيئاً لا سبيل إلى تهرده » .

وكانت البلاد الوحيدة التي تبوأ فيها المسيحية التقدم هي أسبانيا . ولو نبأ لرجل ذي بصيرة ثقافة أن ينظر إلى العالم في مفتتح القرن السادس عشر لعله كان يستنج أنه لن تمضي إلا بضع أجيال قليلة لا يلبث بعدها العالم أجمع أن يصبح منولياً - وربما أصبح إسلامياً ، على نفس الشاكلة التي يلوح بها أن معظم الناس يسمون اليوم بأن الحكم الأوروبي ونوعاً من المسيحية المنحرفة مقلود لها أن ينشأ ظلها فوق العالم أجمع . ويبدو أنه قل من الناس من يترك مبلغ حذارة هذه العظمة الأوروبية ، وربما فاته أيضاً أن يدرك كم هي وثنية عارضة . ولم تبد أي دلائل واضحة تدل على مبلغ الحيوية الحقيقية لأوروبا الغربية إلا عندما أخذ القرن الخامس عشر يذلل نحو نهايته .

ويقرب تاريخنا الآن من زماننا هذا ، ومن ثم تحول دراستنا أكثر فأكثر إلى دراسة للأشكال القائمة بيننا . كالنظام الأوروبي أو المصوغ بالصباغ الأوروبي الذي نمضي تحت ظلاله اليوم هو نفس النظام الذي نراه يتطور في أوائل القرن الخامس عشر بأوروبا اللادوية المتأخرة التي تجهلها المفسلون . وما كانت مشاكلها آنذاك إلا إيجنتين : مشاكل اليوم . ومن المستحيل علينا البحث في شئون ذلك الزمان دون البحث في شئون زماننا هذا . فترانا نخوض في السياسة بالرغم من أنفسنا . قال السورج . د . سيل (١) : « إن السياسة بلا تاريخ شجر لا جذوره والتاريخ بلا سياسة شيء لا ثمار له » .

فلندحاول الآن مستسكين جهد طاقنا بالحد من التحيز ، أن نستكشف تلك القوى التي كانت تفرق طاقات نشاط أوروبا بلداً وتتركها أثناء تلك الموجة العظيمة التي قامت بها الشعوب المغولية ، وأن نرى كيف يتيسر لنا أن نفسر تجمع الطاقة العقلية والجنائية التي لا شك أنها مضت في طريقها قلماً أثناء فترة التدهور الظاهرة هذه ، والتي اندجرت عند نهايتها على تلك الشاكلة الضخمة .

(١) مر السورجون دوبرت سيل ، التاريخ الإنجليزي (١٨٢٤ - ٩٠) . (الترجم)

فالموقف الآن كئيله في العصر الميزوزوي : فبينما كانت القروص في تكوي توده على ظهر البسيطة ، كانت هناك زوايا متزايدة منفردة تنمو فيها تلك الثدييات ذات الشعر وتلك الطيور ذات الريش التي تمكنت في نهاية الأمر أن تحمل تعلقاً على تلك المجموعة الحيوانية المائلة متبدلة بها أخرى أكثر مزايا ومقدرة ، وكذلك ترى في المناطق المحدودة مناطق أوروبا الغربية ، أنه بينما كانت الممالك المغولية تسود العالم من اللدانب إلى المحيط الهادئ ومن البحار المتجمدة الشبالية إلى مداسي ومراكشي والتيل ، كانت لوضع نفس القواعد الجوهرية في طراز السجصح الإنساني جديد أشد صلابة وأكثر كفاءة ، فهذا الطراز من المجتمع ، الذي ما يزال في دور التكوين لم يجاوزه بعد ، والذي ما يزال آتخلاً بأبواب القو ولا يزال بمرحلة التجارب ، قد نستطيع أن نطلق عليه اسم « الدولة المصرية » . ونحن ندرك دون أدنى ريب أن تلك العبارة مبعة ، على أن جاهدون أن نهت فيها شيئاً من الحق مع تقدمنا بحثنا هنا .

ولقد سبق أن سجلنا ظهور نواة الأفكار الأساسية لتلك الدولة المصرية في الجمهوريات الإغريقية وبخاصة في أينا وفي الجمهورية الرومانية العظيمة ولدين اليهودية والإسلام ، وفي قصة الكاثوليكية الغربية . وهذه الدولة المصرية ، كما نراها اليوم وهي تنمو تحت أمعاضنا وأبصارنا ، إنما هي بالضرورة مزج تجريبي بين فكرتين تلوحان متتلفتين في الظاهر ، وهما فكرة « مجتمع من العقيدة والطاعة » ، على غرار تلك المجتمعات التي كانت عليها ولا ريب المذنبات القديمة ، وفكرة « مجتمع من العزبة والإرادة » مثل التجمعات السياسية البدائية عند الشعوب النردية والحربية . ذلك أن الشعوب المتمدنة المستقرة ، وهم الذين ينتسبون في الغالب إلى المجلس القوقازي الأبيض الساكن ، أو إلى النورالديين السمر أو المغوليين الجنوبيين ، يبر أنها ظلت آلاف السنين تطوّر فكراتها ومبادئها على أساس العبادة والخضوع الشخصي ، كما يلوح أن المترحمين طوّروا ذكرائهم وعاداتهم على أساس الاتحاد الشخصي على النفس فضلاً عن الاتحاد بالذات . وكان من الطبيعي جداً في هذه الظروف أن تدأب الشعوب المترحلة على إعداد المذنبات بمحكم جديد وأرستقراطية جديدة . لذلك هو الإيقاع ، الذي لم يبق مستظلاً في كل أحقاب التاريخ المبكر . وبعد آلاف من السنين انقضت



(شكل ١٠١) خريطة أوروبا مع سقوط القسطنطينية

في تغيرات دورانية يتطور فيها الاقتصاد بفتح المرحلين للمدفنية فالأصمحلل ثم القمع بالحديد ، اجتأت العملية الخالية ، عملية المزج المتبادل بين النزعات المحضرة ، أى المعاصرة الكاسحة الطيبة ، وبين النزعات الحرة أى الأرستقراطية والمظاهرة ، مزجاً أنتج طرازاً جديداً من المجمع ، يتطلب منا الآن توجيه الباهتا إليه كما أنه قوام للتاريخ المعاصر لنا .

وقصونا في هذا « التاريخ » التطور البطيء لمجتمعات بشرية و « مدنة » أكبر فأصبح ، منذ أيام قبيلة المائلة البدائية بالعصر الحجري القديم . و رأينا كيف أن مزاياء الزراعة و ضرورتها والخوف من آلهة القبيلة والفكرات القتالة بالملك الكاهن والملك الرب ، لعبت دورها في توليد عرى الفلسف خلخل جماعات إنسانية متزايدة الحجم والقوة في مناطق بلغت أقصى غاية الخصب . وراقبنا التفاعل بين الكاهن (وكان في العادة

من الأهل) وبين العامل (وكان في العدة فاشاً) في تلك المدينت القديمة المبكرة ، كما رأينا تطور الكتابة والتقاليد المكتوبة وإطلاقها من السيطرة الكهنوتية ، وظهور قوى جديدة تليو أول أمرها حارسة طلقة ثانوية في ظاهرها ، وقد ميزتها « القطنة الحرة » و « الضمير الحر » البشرية ، وشهدنا حكم المدينت البدائية في دنيان الأتار يوسعون ممتلكاتهم ويملكون سلاطنتهم ، وشهدنا في نفس الوقت في الأراضي الأكل خصباً ما كان مجرد « صحبة » قليلة يتطور إلى « حالة ترحل » نزاد في كل آن انشاعاً وكفاية سياسية .

ودأبت البشرية على سيرها في أحد ملتين النهجين أو في الآخر . وظلت المدينت جماء عصوراً طويلة وهي تنمو وتتطور على أساس الملكية : أمهي لوق أساس من الملكية المستبدّة المطلقة ، وشهدنا كيف حدث في كل ملكية وأسرة مالكة أن الكتابة واللغة كانتا تحتلّان مكانهما الفرف الباذخ والثرائسي والاحلال ، كما كان ذلك ثمرأ لإضاحاً محتوماً لا مفر منه ، ثم رأيناها وقد خضعت آخر الأمر إلى أسرة أحدث منها قائمة من الصعولة أو السهوب .

وتتجسم قصة المدينت الأولى الزراعة ومعايها وإطلاقها الملكية ، ضمنية في التاريخ الإنساني ، على أنه من الكبير أن تذكر أن شهود هذه القصة لم يجاوز قط رقعة صغيرة جداً من سطح اليابس في الكرة الأرضية . في القسم الأكبر من الأرض وإلى زمن قريب جداً لا يجاوز الأقنص الأخيرين من القرن ، كانت الشعوب القبلية الأصلب عوداً والأكل حشداً التزلة في أراضي الغابات والأحراش الخفيفة ، والشعوب المرحلة ساكنة أراضي الكلا الموسمية تلزم طرائقها الخاصة بها في الحياة وتطورها .

ربما جاز لنا أن نقول إن المدينت البدائية كانت « مجتمعات طاعة » . فكانت الطاعة للسلوك الأرباب والملوك الذين في رعاية الأرباب هي القوة التي تشملهم بعضهم إلى بعض ، فأما نزعة للرحلين فكانت من الناحية الأخرى تنحج على القوام خطر طراز مختلف من الترابط سوف نسميه هاهنا باسم « مجتمع الإرادة » . إذ يجب في مجتمع جوال مقاتل أن يكون الفرد جاسماً بين الأعباد على الملأ وبين التزام النظام في الوقت نفسه . ويجب أن يكون رؤساء مثل هذه المجتمعات رؤساء يتبعون لا سادة يهبرون .

ومن اليسر تتبع أثر مجتمع الإدارة ، ههنا في تاريخ الإنسانية بأجمه ، فنحن نجد في كل مكان أن النزعة الأصلية للشرطين كافة : النورجين منهم والسامين والمغول سوله ، كانت من الناحية الفردية أكثر نزوحاً وإرادة وأشد ترسلاً وشبهة من نزعة الأنوام المستقرين . حببت الشعوب النوردية وإطاليا وبلاد الإفرقي تحت ملوك قادة ، ولم يستقبلوا معهم أية خطة معهد نظامية ، بل وجعلوا تلك الأشياء في الأراضي المغزوة ثم كيفوها حين استعملوها . ثم تحول الإفرقي وللاتين ثانية إلى تكوين الجمهوريات بغاية السهولة ، وكذلك فعل الآريون في بلاد الهند . وكان هناك أيضاً تقاليد للاختخاب في ممالك القرعجة والجرمان الأول ، وإن كان القرار يوضع في العادة على حضر أو أكثر من أعضاء طائفة أو عائلة ملكية . وكان للعلماء الأولون يتخبون ، وكان قضية بني إسرائيل وملوك قرطاجة وصور يتخبون ، وكذلك كان شأن الخمان الأعظم المملوك حتى أصبح في بلاد ملكاً سيبياً .

وحل نفس هذه المسألة من الاطراد والاستمرار نجد الفكرة المضادة في أراضي الاستقرار للسكونة ، لفكرة ريفية الملك غير الانتخاية وفكرة حق الطبيعة القطري في الحكم .

ولاحظنا في ثانيا تطور تاريخنا ظهور عناصر جديدة أدخلت التعقيد في قصة الجماعات البشرية ، ودينا أن المرحلين انقلبوا إلى وسطاء ، وبذلك ظهر التاجر ، ولاحظنا أهمية الفن وهي تنسوق العالم . ويلوح أنه لا منلوحة للرحلات والأستغفار من أن يجعل الرجال أحراراً في عقولهم وأفكارهم كما أن الاستقرار في داخل أقي ضيق يجعل الناس جبناء خائنين حل أنه بالرغم من كل هذه الأمور المقننة تجري الخصومة الإنجابية بين طريقة الطاعة ، وطريقة الإرادة ، عثرة حقب التاريخ حتى تصل إلى زماننا هذا . ولا يزال التوفيق بينهما ناقصاً غير كامل إلى يومنا هذا .

وقد جرت للندية على الدوام — حتى ما كان منها في أسط الصور — على سنة بلدي كثير من الأمور الجذابة المريحة البشرية والموائمة لطبيعتها . على أن بجانبنا ناحية فلكية غير مروضة تحاول على الدوام أن تنقل الندية من احتادها الأصل على الطلعة التي

لا مشاركة فيها ، إلى مجتمع من « إرادات متشاككة » . وإن سمة الترحل الكامنة في
 دماثنا ، وبخاصة في دماء الملوك والطغاة الأرستقراطية ، تلك السمة التي يرجع
 إليها ولا مرأه قسط كبير من فصل إنتاج الأجيال التالية ، لشيئاً يجب أن ينسب إليه
 ككفك تلك الرغبة الملحاح المستديرة التي تنزع بنا نحو توسعة المجال ومصطر كل نولة
 أن نوسع حدودها إن استطاعت ، وأن نعد مصطلحها إلى أقصى الأرض . ويظهر
 أن دوافع التفرح الترحلى ، التي تنزع إلى جلب كل الأرض تحت سلطان حكم
 واحد ، هي بذاتها الروح التي نجعل مراتب معطياتنا في ظل التوجيه والتضييق ،
 ونقتصد إلى أن نحاول « المشاركة » في أية حكومة تسمح بوجودها .

ظل هذا الكفاح الطبيعي ، هذا الكفاح المتمنى مع مزاج البشرية المادف إلى
 التوفيق بين المدنية والحرية ، - (ظل) حياً عصرأ بعد عصر بسبب الصعز
 المسمى والمسياسي في كل « مجتمع طاعة » وجد على ظهر البسيطة حتى اليوم . ومعنى
 أضرع الناس مرة للطاعة ، أمكن التقيض عنها بغاية السهولة ونقلها إلى العير ، وما
 عليك إلا أن تلقى البصر إلى الدور الصلي الذي لمبته مصر وأرض الجزيرة والهند :
 أرض الخوض الأصلية الفوجية و « مهاد المدنية » - وهي تتخلل من ميد إلى
 آخر . وما المدنية الخاتمة إلا دعوة مستديرة موجهة إلى الرجال الأحرار
 الملايين .

ولكن « مجتمع الإرادة » يحم صهر مواد حيرة بمضها في مصر ، وهو مجتمع
 إيماده أصعب كثيراً ، وأصعب من إيماده الإبقاء عليه . ولعلنا لا نزال نذكر
 أن قصة الإسكندر الأكبر تظهر مجتمع الإرادة القواد القلوبيين وهو بنوب شيئاً
 فشيئاً لقاء طلبه إليهم أن يمدوه . وما حادث مقتل كليثوس إلا دلالة طرازية
 على الكضاح بين التقاليد الحرة والتقاليد القبلية التي كان يجرى كلها وجد فأتع
 جعبد قادم من الأرض البراح والمولد المطلق نفسه متربهاً في قصر ملكية من
 الطراز القديم .

ويعدنا التاريخ في حال الجمهورية الرومانية عن أول « مجتمع إرادة » كبير في
 التاريخ أي أول مجتمع حرجمه أكبر كثيراً من حجم مدينة ، ويجزنا كيف دب الوهن
 إليه مع نموه وتبدعت قواد مع النتائج الذي أصابه ، حتى استسلم الأمر للملكية من

لنطراز القديم ، ثم نعمل سريعاً إلى مجتمع من أشد مجتمعات اللذة ضعفاً ، منهازاً السام حقة صغيرة من القراءة . ولقد أولينا في هذا الكتاب بعض انتباهنا إلى عوامل ذلك الانحلال ، لأن لها أهمية جوهرية في التاريخ الإنساني ، ومن أوضح تلك العوامل الانضمار إلى منظمة واسعة النطاق لتعليم وتبني عقول المواطنين العاديين على فكرة حكمة الجمهورية والارتباط بها ، أعني على الإقواء عليهم راعين في قوى إرادة ، وثمة عامل آخر هو غياب كل وسيلة للإعلام العام لتكفل نوام الأكسجين بين أوجه نشاطهم ، وتحكمهم من أن يصنعوا إرادتهم كهيئة واحدة وشخص واحد . ذلك أن القيود التي تعرض على إمكانيات مجتمع للمعرفة هي التي تحدد حجم مجتمع الإرادة . ولم يصبح تركيز الملكية والأموال في أيدي قليلة وإحلال الوثيق عمل العمال الأحرار ، في الإمكان إلا بسبب انحلال الروح القبلية العامة (Public Spirit) وتبديل الذكاء العام نتيجة لتلك القيود .

وفضلاً عن ذلك لم يكن هناك أية فكرة دينية ذات كفاية تستند إليها الدولة الرومانية ، فإن عقيدة روما الإثرووية (الإرمسية) المتنافسة الباحثة عن الكبد المظلم^(١) كانت لا تقبل في سوء تكيفها والاحتياجات السياسية في مجتمع ضخم ، عن الشائعية الشديدة للشبه بها لدى المفول . والواقع أن السرفا بلغته المسيحية والإسلام من الأهمية التاريخية الماثلة إنما يكن في أن كلاماً من المقيدين على طريقها المسيرة قد وجدت على الأكل أن عملاً لأول مرة في التجربة الإنسانية تلك القوة الواضحة في نظام الجمهورية الرومانية وفي تاريخ المرحلين ، وذلك بتقديم تعليم أخلاق مشترك لمسيرة من الناس وبنيوهم تاريخ مشترك للعاشق وفكرة مشتركة لهدف إنساني ومصير إنساني . وقد حشد كل من أفلاطون وأرسطو كما لحظنا أيضاً عند المجتمع المثالي في حدود بضعة آلاف من المواطنين ، إذ أنهما لم يستطيعا أن يتصورا أن في الإمكان أن يرتبط جمهور أكبر من هذا بفكرة مشتركة . إذ لم تكن لشيء أية خبرة بأي نوع من التعليم يتجاوز طرائق التعليم بواسطة المرفاه والمؤدبين المحصر صميم المتبعة في زمانها . ذلك أن التعليم عند الإغريق أو شك أن يكون تلقياً شعبياً (Viva Voco) مخففاً ، ومن ثم فجاءه لا يتبع إلا لأرسطراطية عدودة العدد . عل حين أظهر كل من الكنيسة للمسيحية

(١) الروح القبلية العامة . هي تلك الروح التي تلغ الأفراد إل عصبه المجتمع والمحافظة عليه عن طموحه ووجهه . (المترجم)

(٢) أنظر في ذلك المجلد الثاني من السام . (المترجم)

والإسلام علم سلامة ذلك التحديد وخطأه . وربما جاز بخاطرنا لهما قايما بوجهيهما في التعليم داخل مبادئ لربهما القسيسة قايما لهما أو سينا ، ولكن محور الاهتمام عندنا الذي يفتينا في هذا الشأن إنما هو مجرد قيلهما بهما العمل . فقد قام كل منهما بدهايات تكاد تملأ العلم حول الفكرة والإلهام . واعتمد كل منهما بنجاح على قوة الكلمة للكرية ، في ربط جماهير عظيمة من أناس متنوعين مختلفين للشرب ربطا ينسهم في مساع وجهود مشتركة .

ولما واني القرن الحادى عشر ، كانت فكرة المسيحية قد فُرضت كما سبق أن رأينا ، على ذلك الخليط المتقاتل في الإمبراطورية الغربية المهشمة للتأثرة وعلى أوربا ووله حدود الإمبراطورية بكثير ، بوصفها فكرة موحدة ملهمة . فكونت « مجمع لإدانة » ضحلا رقراقا ولكنه فعال ، فوق منطقة لم يسبق لها مثل في الاتساع ، وبين جهود من الكائنات الإنسانية لم يسبق له ضرب في العلم . وكان اليهود يربطون بالفعل شتان مجتمعههم بالتعليم النسق المنتظم في بداية الحقبة المسيحية على الأكل . ولم يخلت شئ . كلها لأى شطر عظيم من البشرية في أى عصر من عصور التاريخ إلا مرة واحدة ، وكان ذلك هو فكرة « مجمع السلوك الحسن » التي نشرها الأديبه (كلاطو) في كاتبة لوجاه الصين .

وقدمت الكنيسة الكاثوليكية ما كان يُعتَوزُ بالجمهورية الرومانية : وهو نظام من التعليم الشعبي العام ، وعدد من الجامعات وبعض طرائق التواصل اللغوى . وبهذا العمل البخليل مهدت السيل أمام الاحتمالات البديلة لحكم البشرى التي أصبحت الآن واضحة جليلة في هذه « العالم » ، وهى احتمالات ما تزال موضع الخشية من الناس كما نها لا تزال في دور التكرين في العلم القلى عيا بين ظهرانيه . وكانت حكومة أية دولة حتى آن ذلك ، إما أن تكون استبدادية بتولاها اتحاد مجمع بين الكاهن والمعلم لا ينظمه مستند ولا يصحاه مستند ، أو ديمقراطية لا تلتى تعليا ولا إعلاما ، وتصل وتتكسر حين تبلغ أى قسط جسيم من زيادة سوء الرقمة ، محطة إلى مجرد حكم قرحاع ورجال السجاسة كما فعلت روما وأثينا . ولكن عند ما حل القرن الثالث عشر كانت قد برغت أول إشارة للوح بمثل أهل الحكومات لا يزال إلى الآن يشق طريقه

بحوث التحقيق ، وهو المثل الأعلى المصري : المثل الأعلى القاضي بالثبات ، حكومة
 سطوية ، عالم أجمع ، لا يكون فيها الرجل العادي عبداً ملك مطلق ولا لنوالة يحكمها
 دهاجرج ، بل يكون عضواً في المجتمع بطى الإعلام ويوحى إليه ويستشار . ويجب
 أن يوجه التشديد والحفاة إلى كلمة « التعليمية » هذه ، وإلى الفكرة القائلة بأن
 « الإعلام » ينبغي أن يسبق الاستشارة .

وتحقق هذه الفكرة تحقيقاً عملياً ، وأخى بذلك أن التعليم وظيفة جامعة وليس
 حلاً خاصاً . نقطة أساسية يكن فيها أحد القوارق الجوهرية إلى تجزء الدولة المصرية و
 من أية دولة أخرى سبقتها . وقد شرع الناس أن يدركوا أن المواطن المصري يجب
 أن يلقى الإعلام أولاً ثم يستشار بعد ذلك ، فلا بد له قبل إعطاء صوته من اطلاع
 الأدلة والبيانات . ولا بد له أن يعرف قبل أن يمكنه أن يفصل . وليس يكنى أن تقام
 غرفات الانتخابات وصناديقها ، بل أن تؤسس المدارس وأن تجعل الكتب والمعرفة
 والأخبار في متناول الناس جميعاً ، حتى يفتح الطريق الذى يفتل الناس من للبودية
 والارتباك إلى تلك للدولة التعاونية بالإرادة والرضا التى هى المثل المصري الأعلى .
 للأصوات الانتخابية في حد ذاتها أشياء لا قيمة لها ولا وزن . قديماً كان الناس في
 إيطاليا أصوات في زمن أسرة جر اكوس (Gracchi) . ولكن أصواتهم لم تنفعهم
 بشيء . ذلك أن حيلارة الرجل للصوت الانتخابى تكون أمراً خطراً أو شيئاً لا فائدة
 تجنى من ورائه حتى يحصل الرجل على تعليمه . وليس المجتمع المثالى الذى نتجه صوبه
 « مجسماً للإرادة » وكفى ، بل هو « مجتمع معرفة وإرادة » يعمل على « مجتمع حقيقة
 وطاعة » . والتعليم هو المكيف الذى يعمل روح الحرية والاحترام على الذات عند
 للبلوى المرحل يستقيم مع ألوان التعاون ومع الثروة والأمن التى تستظل بها الحضارة .

٢ - أوروبا تشرع في التفكير لنفسها

لا جدال في أن الكنيسة الكاثوليكية بما اهتمت عليه من دعايات واستحكامات إلى
 الراى العام ومن مدارس وجامعات - فله هيات السبل لاحتال قيام الدولة التعليمية
 المصرية في أوروبا ، غير أن من الحق كذلك أن الكنيسة الكاثوليكية لم تعتمد قط

فعل ذلك قصداً . فهو لم يرسل المعرفة في صفة بركاتها ، بل هي أطلقت سرابها
 حقواً ومن خفة وتهاون . ولم تكن الكنيسة الكاثوليكية ترى نفسها وريثة
 الجمهورية الرومانية ، بل للإمبراطور الروماني . ولم يكن تصورهما عن التطهير هو
 إطلاق السراح له ، ولا الدعوة للمشاركة فيه ، وإنما هو إخضاع العقول . وهناك
 اثنان من كبار المعلمين في القرون الوسطى لم يكونا في الواقع من رجال
 الكنيسة بحتاً ، بل كانا ملوكين ومبشرين حولهما : شرلان ، والفريد الكبير
 ذلك الشهيرة ، اللذان استخدما صفة الكنيسة ومظلتها . ولكن الحق أن الكنيسة
 هي التي أبدتها بالمظلات . وكان كل من الكنيسة والملوك في صراعهما المتبادل
 على القوة والسلطان يستند بأفكار الرجل العادي . ومن ثم يظهر الرجل العادي
 استجابة لاحتكام هاتين المصنبتين إليه ، وهو الرجل الخارجي المستقل غير الموظف
 الذي يفتكر لنفسه .

ولقد رأينا فعلاً في القرون الثالث عشر للبابا جريجوري التاسع والإمبراطور
 فريدرىك الثاني مشتبكين في خصومة علنية عامة عنيفة . فكأنه كان هناك بالفعل
 إذن إحسان بأن قد ظهر في العالم حكم جديد أعظم من البابا والملكية جميعاً ، أي
 أن هناك قراءاً ورأياء عاماً . وأنفسى خروج البابوات إلى أفينيون وانقسامات
 البابوية واضطرابها أثناء القرن الرابع عشر إلى تنبيه ذلك ، الحكم المرفوع على
 السلطة في كل أرجاء أوروبا تنهياً حائلاً .

وابتداء الأمر بأن انصرف للنقد المتداول في شأن الكنيسة على أمور أخلاقية ومادية
 ليس غير . فإن ثراء كبار رجال الإكليروس وترفهم والفساد البابوية القادحة ،
 كانت رأس أسباب الشكوى . كما أن المحاولات الأولى التي بذلت لاستعادة البساطة
 المسيحية الأولى ، كتأسيس جماعة الرهبان الفرنسيسكان مثلاً ، لم تكن حركات
 شرقة وانفصال ، بل حركات نهضة واتصاف . ولم يتطور النقد فمخلو أكثر حقاً
 وأشد تعميراً إلا بعد ذلك بفترة من الزمان يوم أخذ يوجه سهامه إلى الحقيقة المركزية
 في تعاليم الكنيسة ، ومبررات أهمية الصوم وأهمى بها تقديم القرايين في الصلاة .

وقد سبق لنا أن دعوينا لك في صورة إحالة البدايات البكرة للمسيحية ، كما

بينما كيف أنه مرعان ما حدث لتلك الحادثة للصبرة الزمعة ، خاطرة ملكوت
 الرب التي كانت الفكرة المركزية في تعاليم يسوع الناصري ، أن خطي عليها اجساد
 الفكرة القديانية للنبوة . وهي في واقع الأمر مبدأ أصعب فهماً ، ولكن التوفيق
 بين وبين حاديات ومبول ونخروج الحياة اليومية في الشرق الأدنى أيسر وأسهل .
 ولحظنا كيف أن غرباً من تملؤج للعقائد (التيوكراتيا) حدث بين المسيحية واليهودية
 ومحنة السرايوم والمراية والنحل الأخرى المتنافسة ، وتم به تطعيم الديانة الناشئة -
 وهي بعد في مراحل التطور - بيوم الأحد المرقاني ، وفكرة اليهود من الدم بوصفه
 ضرورة دينية ، والأهمية التي ناطها الإسكندرانية بأمر الرب ، والقيس الخلق
 الصوام ، والزائد المطب لفضله ، وأمر أخرى كثيرة من الإيمان والطقوس
 والممارسة . فهذه التكيفات قد جعلت ولا شك الصالح أذنى كثيراً إلى الألفهام وأكثر
 قبولاً في مصر وسوريا وما أشبهها من بلاد . كانت أموراً تتشبه مع طريقة تفكير
 المجلس الأبيض الداكن في البحر المتوسط ، كانت موائمة لفطرة ذلك الطراز من
 الناس . ولكن هذه الأمور لم تجعل المسيحية ديناً أقرب إلى قلوب المرحطين
 العرب - كما سبق أن أظهرناك حل ذلك في قصة محمد (ص) - بل كانت تلك
 المظاهر تجعلها في رأيهم متفجرة كريمة . وكذلك أيضاً يلوح أن الراهب الخلق
 والراحة والقيس أثاروا شيئاً يقارب الطلوة الفريزية عند الجمع (البرابرة)
 النورجين في الشمال والغرب . ولحظنا الطلاء الغريب الذي أبداه الأيجلوسكون
 وأهل الشمال نحو الرهبان والراحيات . ويحتمل إلينا أنهم شعروا أن حياة هؤلاء
 المتجولين القاكين وعاداتهم كانت شاذة غير طبيعية .

ومما زاد كثيراً في أوار الصدام بين ما سميته العوامل واليهضاء الباكسة
 والناصر الأحداث منها في المسيحية ، أن البابا جريجوري السابع فرض التعزية
 على القسوس الكاثوليك في القرن الحادى عشر . وقديما حرف الشرق ورجال الدين
 القزواب منذ آلاف السنين ولكن الغرب كان ينتظر إليهم نظرة التشكك والريبة .

وفي القرن الثالث عشر والرابع عشر ، ولينا حقل الشعوب النوردية ذو الزعة
 الدنيوية أخذ بأسباب تحصيل العلم وشرع يتعلم القراءة والكتابة والتعبير عن النفس ،

وبينا هو متصل بما اجتمع للهن العرفي من مناقش منية ، نجد الكاثوليكية تتلى بداية
تقد أعظم قوة بكثير ، وعلقت هجومياً عقلياً على القسيس بوصفه قسياً ، وعلى
مراسم القداس بوصفه الحقيقة المركزية في الحياة الدينية ، هجومياً معسجراً بطلب
المودة لل تعاليم يسوع الشخصية كما هي مسجلة في الإنجيل .

أسلما إليك ترجمة ويكليفي الإنجليزية قرابة (١٣٢٠ - ١٣٨٤) وبينما كيف
ترجم الكتاب المقدس إلى الإنجليزية لكي يقيم سلطة متافضة لسلطة البابا . وقد شهِر
ويكليفي بمبادئه الكينية المتعلقة بالقداس ناعماً إياها بأنها خطأ درج ، وبخاصة تلك
التي تتعلق بالقالة بأن الخبز المقدس الذي يتناول في ذلك الطقس يصبح بطريقة ما مسحوراً
هو الجسم الفعلي للمسيح . ولم نحاول أن نتبع موضوع « استحالة المادة »^(١)
كما تسمى عملية التغير العرفي للعناصر في « القربان المقدس » - تماماً بتغلغل بنا إلى
دقائق عقائدها . فإن هذه أمور تترك للاختصاص في علم اللاهوت . ولكن من الواضح
أن ذلك المبدأ الكاثوليكي الذي يجعل تقديس العناصر « القربان المقدس » عملية
إعجازية يقوم بها القسيس ، ولا يجوز لأحد القيام بها إلا القسيس وحده ، والذي
يجعل « القربان المقدس » هو الضرورة المركزية في النظام الديني ؛ إنما يريد " أهمية
هبة التساوية زيادة هائلة .

هل أن وجهة النظر الأخرى - وهي وجهة النظر « البروتستانتية » الأساسية
القالة بأن هذا « القربان المقدس » إنما هو مجرد تناول الخبز وشرب اليبيل يتغلغلان
على سبيل الذكرى الشخصية ليسوع الناصري - لا بد أن تقضي آخر الأمر على كل
احتياج خاص إلى قسيس معكرس .

ولم يذهب ويكليفي نفسه إلى هذا الحد المطرف ، إذ أنه كان قسياً كما أنه بنى
كذلك حتى نهاية حياته ، وكان يرى أن الله حاضر روحياً إن لم يكن حضوره مادياً
في الخبز المقدس ، ولكن مبداء آثار مسألة دفعت الناس بقوة حتى أبعثتهم عن

(١) استحالة المادة Transubstantiation : تحول الخبز واليبيل أثناء قدس « فتناوله » إلى

جسد المسيح وحده . (الترجم)

وجهات نظره . وإذا نظرنا إلى الأمر من وجهة نظر المؤرخ رأينا الكفاح مع روما الذي بدأه ويكلييف سرعان ما أصبح كفاحاً ذاتياً بين ما قد نسميه الديانة العقلانية أو ديانة الرجل العلمي ، التي انحلت لتحكم إلى ما للبشرية من ذكاء حُرٍّ وضمير حرٍّ - وبين الديانة المنبذة التقليدية للطقوسية الكهنوتية . وكان الاتجاه النهائي في هذا الكفاح المطفئ هو تجريد المسيحية حتى تصبح كإسلام عادية تتلما من كل أمر من آثار الكهانة للحنيفة ، والانقلاب إلى وثائق الكتاب المقدس بوصفها حجة يستند إليها . ولكي استرجاع تعاليم يسوع الأصلية إن كان ذلك في الإمكان ، ولا يزال غالب ما أثير في ذلك الكفاح من حصومات قائماً لم يفعل فيه بين المسيحيين حتى يومنا هذا .

ولم تكن كتابات ويكلييف أعظم أثراً في أي مكان منها في يوهيميا . ففي قريب من (١٣٩٦) أتى حلم تشيكي اسمه جون هَسَّ : سلسلة من المحاضرات في جامعة براغ تقدم على مبادئ للعلم الألفوردي العظيم . وعين هَسَّ عميداً للجامعة ، وأثارت تعاليمه الكنيسة حتى أصحرت عليه قرار الحرمان (١٤١٢) .

كان هذا في إيان الصلح الكبير : قبل انعقاد مجلس كونستانس (١٤١٤ - ١٤١٨) للبحث فيما عرّدت فيه الكنيسة من فوضى شائعة . وقد حدث لك آنفاً كيف انتهى الصلح بانتخاب مارتن الخامس . وكان المجلس يطمح أن يبعد إلى المسيحية وحلتها إعادة كاملة . ولكن الوسائل التي حاول بها إعادة تلك الوحدة لا تروق وضميرنا المعزى . فإنه قضى بإحراق عظام ويكلييف . واستخرج هَسَّ حتى ذهب إلى كونستانس متخذاً بوجهه منهم ضمان سلامته . وعند ذلك قدم للمحاكمة بتهمة الزنثقة (الهرطقة) . وأمر أن يسحب بعض آرائه . فأجاب بأنه لا يستطيع أن يسحب شيئاً حتى يقتضوه بذلك . فألبسوه أن من واجبه أن يسحب أقواله إذا طلب ذلك إليه ورساؤه ، التفتع أم لم يقتنع . فلبى أن يقول هذا الرأي . وبالرغم من ضمان الإمبراطور لسلامته ، فإنه أحرق حياً (١٤١٥) ، فلهب فيه من جبل مبدأ معين ، بل من أجل ذكاء البشرية المعزى وضميرها الحر .

ومن المستحيل أن يعرف الإنسان الفراع بين القسيس وعند القسيس على صورة أوضح مما تجل في حكمة جون من هذه ، أو أن يوضح شيء أكثر منها الروح الشريرة المنجبة في أساليب رجال الكهنوت . وفي السنة التالية لحرق زميل لمن هو جيروم البراجي .

وتخضعت هذه الاعتداءات عن حصيان قام به أتباع من في يوهيميا (١٤١٩) ، وهو أول حلقة في سلسلة من حروب دينية تسجل لتقسام المسيحية . وفي (١٤٢٠) أصدر البابا مارتن الخامس مرسوماً يُعلن حرباً صليبية ، القضاء على جميع أتباع ويكيليف ومن وكل من حكام من المراقبة في يوهيميا ، واستهوت هذه الدعوة الجنود المزعقة للسلطين وكل وفد حافل من أمراء السوء المتجولين في أوروبا فأطبقتوا على القطر الشجاع من كل صوب . فوجدوا في يوهيميا تحت قيادة وصيها العظيم زيسكا ، معاصب أكثر وضالاً أقل مما يطمح الصليبيون أن يلقوه . وكان أتباع من يدبرون أمورهم على أسس ديمقراطية مطرقة ، وابتعثت الحملة متأججة ضراماً في قد البلاد جهلاء . وحاصر الصليبيون مدينة براج ولكنهم فشلوا في الاستيلاء عليها : ولقوا سلسلة من الخوادم انتهت بإرجاعهم من يوهيميا . وجرت حرب صليبية تالية (١٤٢١) لم تكن أكثر توفيقاً من سابقتها . وكذلك أخفقت حربان صليبيتان أخريان ، ثم حدث لسوء الحظ أن دب بين المسيحيين تريبب الخلافات الداخلية . وتضيق الصليبيون جهلاً للفراع لعبث الجنود قوة عامة (١٤٣١) بقيادة فردريك مارجراف ^(١) براندنبورج .

وكان جيش هؤلاء الصليبيين يتكون - حسب أكل التقديرات - من ٩٠ ألفاً من المشاة ، و ٤٠ ألفاً من الفرسان . ولما كانوا يهاجمون يوهيميا من الغرب فإنهم ألقوا الحصار أولاً على تاتخوف (Tachow) ، ولكنهم وقد فشلوا في الاستيلاء على تلك المدينة المثيرة للتحسين ، فحسوا حاجة مدينة موست الصغيرة ، ولها ولي القوي المحيط بها ، اتفقوا من الضمائم أنكرها ، مع سكان كان قسم كبير منهم برية تمام البراعة من التشجيع لأي لاهوت .

(١) مارجراف (Margrave) لقب لأمرأ، وأمرائهم في الدولة الرومانية القديمة . (التقويم)

وواصل الصليبيون توغّلهم في يوهيميا وهم يبررون سيراً بطيئاً ، حتى أصبحوا على مقربة من مدينة دومازليك (تاوس) . وكان أن حدثت في الساعة الثالثة من اليوم الرابع عشر من أغسطس (١٤٣١) ، أن تلقى الصليبيون وقد حُكروا في السبل الواقع بين دومازليك وهورسوف ثلثين - الأخبار بأن أتباع هس يقتربون تحت قيادة هرثوب الكبير . ومع أن البرهيمين كانوا ما يزالون على مبعدة أربعة أميال ، فإن جلجلة حرباتهم الحربية وأخذتهم : أيها المخاربون في سبيل الله - التي كان جيشهم المرمم يشهد بها بآجهم - كانت مبهمة واضحة للأعداء . عند ذلك ليخترت حماسة الصليبيين بسرعة مدعشة . ويصف لوتزو^(١) كيف أحلّ مطلوب اليابا وهورق سكوتيا تلا يستطيعان منه الاطلاع على الميدان . فرفقا من بواخده أنه لن يكون متراك قتال . ذلك أن المصكر الألماني كان في اضطراب تام . فكان انشغاله يتناولون منصرفين عنه في كل صوب ، وكانت جلجلة المركبات انشغالية وهي تساق خارج الميدان ، تكاد تغطي على ذلك الفناء الرهيب . وكان الصليبيون يتدخلون عن كل شيء حتى خناهم . وجعلت رسالة من مارغريوف براندنبيرج ينصح فيها بالحرب ، فلم يعد هناك من سبيل لك السيطرة على أي فريق من جنودهم . فكأنهم لم يبدوا الآن خطرين إلا على جانبيهم هم دون غيرهم . وقضى متعوب اليابا ليلة غير مريحة غدت منهم في النهاية . . . وهكذا كانت نهاية الحملة الصليبية البرهيمية .

وقى (١٤٣٤) نشبت الحرب الأهلية مرة ثانية بين أتباع هس وانتهت بجزية القسم المتطرف الأشد شجاعة ، وعقد اتفاق في (١٤٣٦) بين مجلس ياك وبين المستبين المعتدلين ، سمح فيه للكنيسة البرهيمية بأن تحتفظ بفرق معينة تميزها عما يمارسه الكاثوليك عامة ، وهي تسوية ظلت مارية حتى أوان الإصلاح الديني الألماني في القرن السادس عشر .

(١) كلف برهيمية لوتزو .

٣ - الطاهون الكبير ويزوغ فجر الشيوعية

كان الانقسام بين أتباع عس راجعاً في معظم أمره إلى اتجاه القسم المختلف منهم إلى اعتناق نوع بدائي من الشيوعية لزوج طبقة البلاد للشبيكين الأوفر ثروة ونفوذاً . ومن قبل ذلك ظهرت نزعات مشابهة لهذه بين أتباع ويكليين من الإنجليز . ويلوح أن تلك النزعات نجح كتنجبة جد طيبة لحادى "للمساواة والأخوة الإنسانية التي تبحث حيناً حدثت محاولة العودة إلى القواعد الأساسية المسيحية .

وبما ساعد على زيادة التطور في حالة التفكرات زيادة عظيمة كارثة هائلة اجتاحت العالم وكشفت عن أسس البهامة الإنسانية كشفاً قريباً جردتها تماماً للبيان . وهي وباء لم يسمح الناس بمثل فزاحته وقتكه . أطلق عليه الناس اسم الموت الأسود ، وقد أوشك أن يقتضى على البشرية أكثر من أى شر أصابها قبل ذلك . كان أشد فتكاً بكثير من طاهون ويكليين ، أو طاهون ملكوس لوريلوس ، أو موجبات الطاهون في أيام جستنيان وجريجورى العظيم التي مهلت السيل أمام القومبارد في إيطاليا . نشأ ذلك الوباء في جنوب لومباريا أو آسيا الوسطى ، وانتقل بطريق بلاد القرم وبوساطة سفينة جنوية إلى جنوة وأوربا الغربية . ومر من لومباريا إلى آسيا الصغرى ومصر وحملا أفريقيا . ووصل إلى إنجلترا في (١٣٤٨) . فات به كما يحدثنا لنا الطلاب بأوكسفورد ، ويقدر عدد من حلك به في ذلك الأوان بما يتراوح بين ربع ونصف سكان إنجلترا . وكان عدد الوفيات في كل أرجاء أوربا كافة يقارب هذا التقدير في معظم . ويقدر هيكتر مجموع الموتي بخمسة وعشرين مليوناً . وانتشر الوباء شرقاً إلى الصين حيث تقول المسجلات الصينية إن ثلاثة عشر مليوناً من الأخص حلتوا . ويقول التاريخ لك . مثالييراس : إن هذا الطاهون وصل الصين بعد ظهوره لأول مرة في أوربا بثلاثين أو أربعين سنة . وفيه ابن بطوطة لرحالة العربي الذي أقام في الصين من (١٣٤٢ إلى ١٣٤٦) - لأول مرة وهو في طريق حوخته إلى دمشق . وللموت الأسود هو الصورة للبشرية لمرض متوطن بين الفيرايين^(١) والتولوز الصغيرة

(١) فيروج ، دمية غير هائلة لكن ذنبه وأملله أشد لنا وديلاً ، لأول مرة من يده .
(للقدم)

الأحرى في المناطق المحيطة برأس بحر قزوين . وبلغ من شدة الاضطراب الاجتماعي المترتب عليه في الصين أن أهلت جسر الأنهار . فسمرت القيصانات العظيمة — نتيجة لهذا — الأراضي الزراعية المروحة بالسكان .

ولم يستن الإنسانية أن تلتفت قبل ذلك تحذيراً على مثل هذه النتيجة من الوضع يحلوها على طلب المعرفة والكف عن المتازحات وإلى الاتحاد ضد قوى الشرقي الطبيعية . وما كانت جميع مذابح هولاء وديمورثك تعد شيئاً بالقياس إلى هذا . ويقول ج . ر . جرين : إن فتكاته كانت أشد ما تكون خطراً في المدن الكبرى حيث كانت الشوارع الضيقة التي لا تصريف لمياهها تهيئ للجرام والحصى مياه لا يتصحب معها . ويقال إنه قتل أكثر من خمسين ألف شخص في الجبهة التي اشتراها السير والتر ماني بدائع القوى لسكان مدينة لندن ، وهي التي يحدد موضعها فيما بعد بموضع الشارتر هاوس (Charter House) . وهناك آلاف من الناس في نورويث (Norwich) على حين لم يستطع الأحياء الجديدة بريسول أن يبنوا الموقد إلا بطن الأنفس .



(شكل ١٥٥) معاهد من حياة الفلاحين متفرقة من أحد كتب الأديبة

د حل أن الموت الأسود قد انقضى على القرى بقوة تقارب في عهدها حاله في لندن والمعروف أن أكثر من نصف قوس يوركشير لقوا حتفهم ، وخلصت

مناصب ثلث الأبرشيات في أسقفية نورويتش فشنها آخرون : ولقد نظام العمل بأكمله . وصار من السير على صغار المستأجرين أن يقوموا بالخدمات اللازمة لأراضيهم أقله البد العاطلة ، ولم يحمل الفلاحين على الامتناع عن صهر مزارعهم إلا تنازل أصحاب الأراضي تنازلاً مؤقتاً من نصف الإيجار . وأصبحت الزراعة مستحيلة رجعاً من الزمان . ويقول معاصر : إن الأغنام واللحمة كانت تهم على وجوهها في الحقول والقمح لا تجد من يصدى لثقلها .

ومن هذه التنازلات نشأت حروب الفلاحين في القرن الرابع عشر . إذ حدث هناك نقص كبير في اليد العاملة ونقص كبير في السلع ، وكان الرهبان الأغنياء والأدوية الثرية الذين كانوا يملكون قدراً عظيماً من الأراضي ، والنبلاء والتجار المورسون ، من الجهل بالقوانين الاقتصادية بحيث لم يدركوا أنه لا يحسن بهم أن يضيقوا على العمال الكادحين في زمان هذه العلة ذلك . فرأوا أملاكهم تتدهى ورأوا أراضيهم بور ولا تزرع ، وأصلحوا التوائج القاسية لإجبار الرجل على العمل دون أي زيادة في الأجر ولنح فرارهم بحثاً عن عمل أفضل . وطبعي جداً أن يستعير منا « تمرقاً » جديداً على نظام عدم المساواة الاجتماعي بأكمله وهو الذي ظل حتى ذلك اليوم محمولا به لا يتأقنه أحد حساباً بوضع النظام الذي قضت به الإرادة الإلهية للعالم . ووجدت صبيحة الفقراء ترجعاً فظيماً هورنيسيس هورنيسيس من كنت « كما يسميه فروسلارد » (Froslard) المؤرخ (١٣٦٠-١٣٨١) - فلأن هذا التفسير ظل عشرين سنة يلتقي بالفلاحين الأشداء الذين كانوا يمتنعون في أقبية كتائس كنت ويحيد فهم جمهوراً يستمع لمواعظه التي تخدع بها الخمران اللعين والسهم . ومهما يكن مجنوناً ، كما كان أصحاب الأراضي يسمونه ، فلقد أصبحت إنجلترا لأول مرة في مواضع جون بول (John Bull) إلى إعلان بالمساواة الطبيعية وحقوق الإنسان وكان ذلك الواقعة يصيح : « أيها الناس الطيبون ، لن نقيم الأمور في إنجلترا ما ظلت السلع في غير محتال الجميع ، وطالما كان هناك حوقة وسادة (جنتلانية) . فأي حق يكون من نسبهم لوردة (١) أناساً أعظم منا ؟ وعلى أي أساس استحقوا ذلك ؟ ولماذا يضلون منا مولى للأرض ؟ وما لنا

(١) هوجان دوسلار (١٣٤٨ - ١٤١٠) المؤرخ الفرنسي ، الذي مثل فرنسا في التجارة ومعات قسماً لثمنها . (الترجم)

(٢) « الوردة » ، جمع لوردة ، كما أن البطاطية جمع بطاطان . (الترجم)

جيماً نحتو من لب واحد وأم واحدة ، من آدم وحواء ، فأق كان لم أن يقولوا
أويقيموا البرهان على أنهم غير منا ؟ إن لم يكن لأنهم يحطونوا نكسب لم
بكنتنا ما ينقونه في كبريائهم ؟ فهم يرتلون القطيفة ويستفتون بفرائهم وقائهم^(١)
الذين ، على حين لا يتر أبلاننا إلا الأسماك ؟ لم النمر والأفاويه والخبز الأبيض ،
فأنا نحن فأقرنسى الشوفان مطعماً وفوقش مرقداً والماء شرباً . ولديهم أوقات
الفراع والمتازل بلحيلة . ولدينا الأم والتصب والتسل ، والريح والمطر في الحقول .
ومع ذلك فنا وعلى أكتاف كسنا يحفظ هؤلاء الناس بما هم عليه من أبله . وثمة
فتم قتال نظام العصور الوسطى بأكله الطلق في أغنية شعبية قبلور مبدأ التسوية
اللى قال به جون بول وهو « عندما كان آدم يمزق الفيلان وتزله حواء انخيطان
من ذا كان الخيطان ؟ » .

واغتيال ، وات تيلر (Wai Tyler) زعيم العصاة الإنجليز على يد حملة لندن
بحضرة الملك الشاب ريتشارد الثاني (١٣٨١) فانهارت حركته .

وكانت الثانية الشيوعية في حركة ألباج عس لرحاً من تلك المجموعة من
الإضطرابات . وحدث فيل شوب الثورة الإنجليزية ، أن ثبت نار الجاكوى
الفرنسية Jacques (١٣٥٨) وهي ثورة الفلاحين الفرنسيين التي قاموا فيها
بإسراق القصور والبعث فساداً في نواحي الريف المحيطة بهم . وقد ارتضى ذلك
التنافع الملح أن يمتطح ألمانيا بعد ذلك بقرن من الزمان جازفا إياها في سلسلة من
حروب الفلاحين الدامية . وابتدأت هذه الحروب متأخرة في القرن الخامس عشر .
وكانت الاضطرابات الاقتصادية والدينية غلطة بعضها بعضاً في حالة ألمانيا على
صورة أوضح منها في حالة إنجلترا .

وعندك دور بارز لهذه الاضطرابات الألمانية هو ثورة التمرديين^(٢) . ظهرت
حياة التمرديين في وتيرج (١٥٢١) بريلة ثلاثة أنبياء ، وانقلبوا إلى عصيان

(١) القلم : طرله حيوان من فصيلة بنات حرس (الترجم)

(٢) التمرديون Anabaptists : طائفة دولية كانت تعتقد بوجوب التسيد بالدم الكامل في
الماء المقدس ، ووجوب إعادة التسيد عند من للشباب . (الترجم)

(١٥٢٥) . وظل العصاة بين (١٥٣٢ - ١٥٣٥) قابضين على مدينة مونستر (Münster) بمقاطعة ومغالبا ، وبلغوا تصارهم لتحقيق أفكارهم الخاصة بشيوعية دينية . فحاصروهم أسقف مونستر ، ودب في المدينة تحت ضغط ويلات الحصار ضرب من الجنون ، فيقال إنهم أكلوا لحوم البشر ، ونقض على السلطة شخص معين يدعى جون القيثني (Leysen) ، وأعلن نفسه خليفة للملك داود ، واحتلى بقنوة تلك العاهل الميتة بممارسته تعدد الزوجات . وبعد تسليم المدينة أمر الأسقف للظفر بزعماء القصبينيين لطهروا نعلنياً مريعاً جداً ، ثم أحلوا في ساحة السوق ، وعلفت جثثهم بعد التبريل بها في أنفاس مدلاة من برج إحدى الكنائس لتشهد أمام العلم أجمع أن الوفاق والنظام قد أحيانا إلى مونستر ١١

هذه الثورات التي قام بها الهالك الماديون في الأفكار الأوربية الغربية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، كانت أكثر خطورة وأطول أمداً من كل حاسبتها من أحداث التاريخ . وأقرب الأحداث السابقة شياً بها ، حركات إسلامية شيوعية حدثت في فارس . وقد حدثت ثورة الفلاحين في نورماندي غرابة (١٠٠٠ م) ، كما حدثت ثورات الفلاحين (باجوادي Bayouadi) في الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، ولكن هذه لم تقارب تلك في ضخمتها وشتاتها ، وهي كلها تظهر روحاً جديدة تنمو في الشعور الإنساني ، وهي روح عارفة تمام الطاقة ليلادة الإحساس للسلمة التي طبع عليها مولد الأرض والفلاحون في الأراضي الأصلية للمدينة ، لرحالة الأيام القوضوية لدى موانئ الأرض والأرقاء الهالك عند الرأسماليين الرومان .

كانت كل هذه من عصيات الهالك للكرة التي ذكرنا تصح بضلة بالغة ، بيد أن الحركة نفسها لم تحده قط إحداً تاماً . فنقد ذلك الحين إلى هذا الزمان وروح التمرد موجود في المستويات الدنيا من هرم المدينة . ثم كانت هناك أدوار عصيان ، وأدوار كبح ، وأدوار لغام ومسألة نسبية ، ولكن الكبح لم ينقطع قط انقطاعاً تاماً منذ ذلك الأوان إلى وقتنا هذا . فسوف نراه متدلاً أثناء الثورة الفرنسية في نهاية القرن

(١) الباجودي م . غلامت للفلاحين الذين ثابروا على دولة الرود الشرقية بين القرون العاشر والعاشر الميلاد . (لفرير)

القرن عشر ، ومنحلا مرة ثانية في منتصف القرن التاسع عشر وعند مفتتح الربع الأخير ، وראה يصل إلى نسب ضخمة في عالم اليوم . ولم تكن الحركة الاشتراكية في القرن التاسع عشر إلا صورة من ذلك التمرد المتواصل .

وقد حدث في بعض الأحيان أن حركة الهيال علمه انطلت في كثير من الأفكار كفرنسا وألمانيا والروميا مثلا خطة الهداء المسيحية ، ولكن لا مجال للشك أن هذا الضغط المستمر للزائد إحلالا قلبي يظهره الرجل الهادي في الغرب ضد حياة المشقة والتعب والتجوع الغير مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالعالم المسيحية . وربما لم تقصد الكنيسة ولا المبشرون المسيحيون أن ينفثوا مبادئ المساواة ، ولكن كان من وراء الكنيسة شخصية يسوع المسيح التي لا يمكن إحداد ثلثها ولا إخفاء ضيائها ، فالواضح المسيحي كان يجتلب معه وإن بالرغم منه ، بنور الحرية والمشيئة ، ولا بد لها إلا عاجلا أو آجلا من أن تنبت وتربو شيئا بغير .

ولاشك أن هذا الجوشان المتواصل المتورد الزيادة في نفوس الهيال ، وأعماله فيهم وحييا بأنفسهم كطيفة خاصة وبه فكرة مطالبة العالم في جعلته بمطالب عديدة ، فضلا عن كثرة وجود المدارس والجامعات وعن كثرة وجود الكتب المطبوعة ووفرتها ، وفضلا عن قيام عمليات البحث العلمي معطورة متوسعة ، هذه كلها أمور تفرق بين طراز مدينتنا الحاضرة « المدينية المصرية » وبين أمة مابكرة مرت بها الجملة الإنسانية ، كما أنها تسجل عليها أنها شيء موقوف غير متقن بالرغم من كل ما نالته من نجاح عارض جلد وليد الصدفة . فهي حين لم يتخلق بعد صورة موية أو لعلها شيء محوم عليه الموت . ذلك بأنها ربما استطاعت أن تحمل هذه المسألة المعقدة . مسألة التوفيق بين الكدح والسعادة ، وبذلك توفق بين نفسها واحتياجات الروح الإنسانية ، لو هي ربما فشلت وانتهت بكارثة شأن النظام الروماني . وربما كانت تور افتتاح لنظام الجملة البشرية أكثر اتزاناً وأوجب لرضى ، وربما كانت طريقة مقدرأ لها أن تنمق ، وأن تحمل عملها طريقة ما من الترابط الإنساني متبصرة بشكل عالته لهذا .

وربما لم ترد مدينتنا الراحة شأن مابقتها ، عن واحد من تلك المحصولات التي يزودها الملاحون لتحصين تربة أراضيهم بواسطة تبيت الأروث (التروچين) المستخلص من

المواد . وربما ثم - "تجسّد" تقاليد بأصنافها إلا لكي نحرث في الأرض ثانية طلباً
يطو ذلك من ليت أفضل منها . إن هذه المسائل إنما هي حقائق التاريخ العملية .
ومصلحتها في كل ما يطو هذا في صورة أكثر وضوحاً وأعظم أهمية حتى
تتهي في فعلنا الأخير ، كما تنهي أيامنا وأعمالنا ، باستمرار لأماننا ونحافظنا
- وبملاحظة استفهام .

٤ - كيف حرر الورق عقل الإنسان

كان ظهور الكتب المطبوعة حوثاً هائلاً لتطور البحث الحرفي أوروبا أثناء هذا
العصر المتروح بالثقلى والتضخم وكان استعمال الورق من الشرق هو الذى جعل في
الإمكان الوصول إلى طريقة الطباعة التى كنت كوناً طال أمده . وما يزال من
الصبر علينا تعيين صاحب شرف السبق إلى استعمال الوسيلة البسيطة ، وسيلة الطباعة
لكثير الكتب . وإنه لأمر ناله جرى حوله جدل طويل وحميم . على أن ظواهر
الأمر توفى إلى أن ذلك المجد أيّاً ما كان أمره من نصيب هولندا . إذ كان في
هولم شخص يدعى كوستر يطبع بمحروف متحركة في زمان ما يسبق (١٤٤٦) . على
أن جوتنبرج كان يقوم بأعمال الطباعة في ماينز (Mainz) في نفس ذلك الوقت
تقريباً . وكان هناك طابعون في إيطاليا في (١٤٦٥) ، كما أن كاستن أنقام
مطبعة في وستمنستر (١٤٧٧) . وتاريخ أول كتاب طبع في هنغاريا هو (١٤٧٣) .
على أنه كان يجرى قبل ذلك الزمان بأمد مديد استعمال جرفى للطباعة . فإن عثولات
ترجع إلى القرن الثانى عشر تظهر بها حروف في بطاقة الفقرات ربما كانت مطبوعة
عن أنعام مخفية .

وأهم من هذا كثيراً موضوع صناعة الورق . ولا يكاد يكون من المبالغة ، القول
بأن الورق جعل لإحياء أوروبا أمراً في حيز الإمكان . اخترع الورق في الصين ، حيث
يرجع استعماله في الراجع إلى القرن الثانى ق . م . وفى (٧٥١) قام الصينيون بهجوم
على العرب المسلمين في حرقند ، فصدّهم العرب وأسرّوا بعضهم ، وكان بين الأسرى
جماعة من مهرة صناعة الورق ، ومنهم تعلم العرب تلك الصنعة . ولا تزال هناك عثولات
على ورق حرقى يرجع إلى القرن التاسع لما تلاء . ودخلت الصناعة في البلاد المسيحية إما
بطريق بلاد الروم أو بالاستيلاء على مصانع الورق العربية (المغربية) لإبان استعادة المسيحيين

أرض ألبانيا . ولكن الإنتاج انط . خلال الأمان المسيحيين المخطأ عزنا . ولم يصنع الحديد من الورق في أوروبا المسيحية حتى قريبه من نهاية القرن الثالث عشر ، وعند ذلك كانت إيطاليا زعيمة العالم في صناعته . ولم تصل تلك الصناعة إلى ألمانيا إلا بعد القرن التاسع عشر ، ولكنها لم تصل إلا في نهاية ذلك القرن إلى الحد الكافي من الوفرة والرخس الذي يجعل من عملية طباعة الكتب حركة تجارية ناجحة . وصلت الطباعة منذ ذلك الحين سيرها الطبيعي القسري ، ودخلت الحياة الفكرية العالم في دور جديد أكثر قوة بكثير ، وكنت عن أن تكون ربحاً طفيفاً تفضل قطراته من عقل إلى عقل ، وأصبحت بضائعاً حياً ، تسام في آلاف من القول ما لبثت أن صارت - على الفور - عشرات آلاف ثم مئات آلاف .

وكانت هناك نتيجة مباشرة لهذا النجاح في مضمار الطباعة هي ظهور عدد موفور من نسخ الكتاب القاصر في العالم . وثمة أخرى هي جعل ثمن الكتب للمدرسة رخيصاً . وانتشرت الحركة بالقراءة انتشاراً سريعاً . إذ لم يقتصر الأمر على زيادة حظية في عدد الكتب في العالم ، بل إن الكتب التي أصبحت تصنع عند ذلك ، أصبحت أوضح قراءة وبذلك كانت أسرفها . وبدلاً من الغناء والكنس فوق نص حوص (مقرب) انط ثم التفكير في معناه ، أصبح القراء عند ذلك يستطيعون أن يفكروا وهم يقرأون - دون أن يعرفهم حائق عن التفكير . وبهذه الزيادة في سهولة القراءة ويسرها ، نما عدد الجمهور القارئ ، وكثف الكتاب عن أن يكون لعبة شديدة العزلة أو أحد الخلفاء التي يحيا علم من العلماء . وشرع الناس يكتبون الكتب ليقرأها الناس العاديون مثلاً يستمتعون بالنظر إليها .

ويؤخذ القرن الرابع عشر بمثابة التاريخ الحقيقي للأدب الأوروبي . إذ سرعان ما نجد أن اللهجات المحلية تحمل عليها الإيطالية المثل والإنجليزية القصصية والفرنسية المثل والألمانية القصصية ثم تبهر الألمانية المثل فيما بعد . وأصبحت تلك اللغات لغات أدبية كل في موطنها ، فويلت وجربت وصقلها الاستعمال وجعلها دقيقة قوية .

وأصبحت آخر الأمر على درجة من الكفاية القهوض بمصيده النقائص للفلسف متعاقلة
ما للإفريقية أو للاتينية من كفاية .

٥ - بروتستانتية الأمراء وبروتستانتية الشعوب

هنا نورد كلمة موجزة عن الحركة التي حدثت في أفكار الناس الدينية أثناء
القرنين الخامس عشر والسادس عشر . وهي مقدمة لا بد منها للتاريخ السياسي الذي
يقبض ذلك في القرنين السابع عشر والثامن عشر .

طير أنه لا بد لنا أن نميز تمييزاً واضحاً بين طريقتين مختلفتين كل الاختلاف
لعلمية الكنيسة الكاثوليكية . وهما تثابكان على مر الأيام نشايكاً يورث التبليل
والخبرة كانت الكنيسة تفقد سيطرتها على ضالار الأمراء وفوى اليسار والافتدو
من الناس ، كذلك شرعت تفقد إيمان عامة الناس بها وقنهم فيها . وكان من نتيجة
انفصاط سلطاتها الروحية على الطبقة الأولى أن جعلهم يتكبرون تتسلطها في شؤونهم
وقبوعها الخلقية عليهم ومدحباتها بالعبادة العليا قوتهم وادعائهم الحق في فرض
الضرائب وفي حل أو باطالت الولاء . لذلك كفوا عن احترام ما لها من سلطان
وممتلكات . ولقد ظل هذا الخروج عن الطاعة يصدر عن الأمراء والحكام طوال
الصور للوصلى بأكلها ، بيد أن الأمراء لم يشرعوا في التفكير جدياً في الانفصال
عن المذهب الكاثوليكي وإقامة كنائس جزئية منفصلة ، إلا عندما أعلمت الكنيسة
في القرن السادس عشر تنضم علناً لخصمها القديم : الإمبراطور ، عند ما قدمت إليه
التأييد وقبلت منه المساعدة لها في حملها على المرطقة . وما كانوا يقدّموا على ذلك أبداً
لولا أنهم أيقنوا أن سيطرة الكنيسة على أذهان الجماهير قد ضعفت .

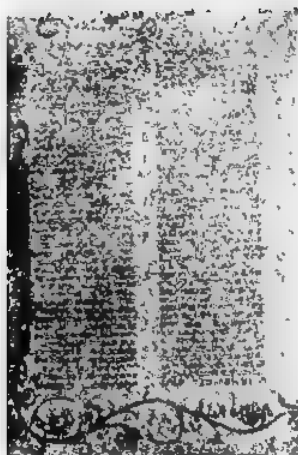
وكان تمرد الأمراء بالضرورة تمرداً لا دينياً على حكم الكنيسة الشامل للملم أجمع .
وكان الإمبراطور فرديريك الثاني هو الطليعة السابق لل ذلك يرسلاته إلى نظرائه
الأمراء . وكانت ثورة الشعب على الكنيسة من الناحية الأخرى ، دينية بالضرورة
كذلك . فلم يكن اعتراضهم على قوة الكنيسة بل على مساوئها ونواحي الضعف فيها .

وكانوا يريدون كنيسة شديدة الإصلاح والشجاعة لكي تبينهم وتنظمهم ضد شرود الأعداء . وكانت حركات تخدم على الكنيسة سواء أكانت في داخلها أو خارجها حركات لا يقصد بها التفكير من الرقابة الدينية بل طلب رقابة دقيقة آثم وأوفى . لم يطلبوا رقابة دقيقة أقل بل طالبوا بالزيد منها - ولكنهم أرادوا أن يحفظوا من أنها دقيقة وقد اعترضوا على البابا لأنه الرأس اللينى للعالم بل لأنه لم يكن كذلك ، أى لأنه كان أميراً نزيهاً دنيوياً بينما كان يجب أن يكون قائم الروسى .

من أجل ذلك كان النزاع في أوروبا منذ القرن الرابع عشر زملاً ذا ثلاثة أركان ، فالأمراء يريدون أن يستعملوا القوى الشعبية ضد البابا ، على ألا يسحقوا تلك القوى أن تقوى وتطحن على قوتهم ومجدهم وظلت الكنيسة زمناً مهيماً تنقل من أمير إلى أمير طلباً لحليف يحالفها دون أن تدرك أن الحليف المقصود الذى طلبها لن تسترده إنما هو توقيع الشعب لها .

ومن أجل هذا فرضع للتلاقي المنازعات الفكرية والمخفية التى تواصلت إبان القرون الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر ، فإن سلسلة التغييرات المترتبة عليها ، تلك التغييرات التى يعرف مجموعها في التاريخ باسم الإصلاح الدينى (Reformation) اتخذت وضعا مثلث الأشكال . فكان هناك الإصلاح الدينى كما يراه الأمراء ، الذين كانوا يريدون أن يقفوا أكتاف النفوذ لدى روما ، وأن يستولوا على السلطة الخلقية ، والنفوذ الصليبي ، وما للكنيسة من ممتلكات مادية داخل إماراتهم . وكان هناك الإصلاح الدينى كما يراه الشعب الذى كان يظن أن يجعل المسيحية قوة تناهض المفسوق وعدم التقوى ، وتناهض بخاصة فسوق أهل الثراء والقوة . وأخيراً كان هناك الإصلاح الذى كان القديس فرنسيس الأسيسى بشيراً به ورثناه ، والذي جهده في استرجاع صلاح الكنيسة وى استرجاع قوتها بوصالة ذلك الصلاح .

وانتقل الإصلاح الدينى حسبما يراه الأمراء صورة إحتلال الأمير ، بوصفه رأس القيادة والرقب على ضرائر شعبه ، عمل البابا ولم يكن يتألق الأمراء أية نية ولا فكرة من إطلاق سراح حقول وعالمهم كي يتولى الحكم على الأشياء ، وبخاصة وقد مثل أمام أعينهم



(شكل ١٥٦) صفحة من طبعة جون بيرج للكتاب المقدس

نموذج المسيح والمسيحيين بجماعة قويا ، فحاولوا أن يؤسروا كنائس قومية تعتمد على صاحب الحاج . ولما أن انفصلت إنجلترا واسكتلندا والسويد والنرويج والدانمارك وشمال ألمانيا وبرعيا من الارتباط بروما ، أظهر الأمراء وضربهم من التوراة أقصى جوانب القلق والأهتكام بحفظ زمام الحركة في قبضة أيديهم . ذلك أنهم كانوا لا يسمحون من الإصلاح إلا بالفكر الذي يمكنهم من فهم العلاقة مع روما . فاما ما تجاوز ذلك ، ولما أي اهتمام خطر بوجهه بالأفكار إلى تعاليم يسوع الالهية ، أو التفسير النقيح المباشر للكتاب المقدس ، فأمردوا كانوا يقاومونها . والكنيسة الإنجليزية

الرسمية مثال لولادة من أبرز وأنجح ما تربى على فلك من ثروات . وهي ما تزال كهنوتية قطب رحاما قميس متكرس ولدين بالقربان القديس^(١) . ولكن هبتها القسبية تركز في البلاط وفي قاضي القضاة . ومع أنه ربما صدرت عن الصفوف الدنيا لرجال الكهنوت فيها الأكل لراه^(٢) آراء هدامة - بل الواقع أن ذلك كان يحدث فعلا - إلا أن المشجّل عليهم أن يرفعوا كفاها حتى يصلوا إلى مناصب النفوذ والسلطان .

على أن الإصلاح اللدني حسب إراء الرجل العادي شيء ، والإصلاح لدى الأمراء شيء آخر مختلف جداً في روحه . وقد أسلفنا القول في المحاولات الشعبية في سبيل الإصلاح اللدني بكل من بروسيا وألمانيا . وكانت النفوذات الروحية القسبية للطائفة (أعني الشعبية) في ذلك الزمان أشرف نقساً وأشد اضطراباً وأثبت أثراً وأطول عمراً وأقل نجاحاً مباشراً عاجلاً من إصلاحات الأمراء . فقد قدر بين دوى الأرواح المتعينة من الرجال ، من بلغ من الجراءة أن يخرج على كل تعليم استبدادية أو يطلع من القصة أن يعترف بأنه خرج على ذلك النرج من التعليم ، وأنه أصبح يعتقد بحمد إلهاده كلباً على عنقه وخميره . فإن ذلك كان يحتاج إلى شجاعة فكرية عالية جداً . وكان الاتجاه العام للرجل العادي في تلك الفترة في أوروبا هو أن يخط من ذلك الشيء الذي أمره حديثاً ، وأعني به الكتابه القلم ، حجة وقوة مضادة للكنيسة . وكان هذا بصفة خاصة ، حال زعيم البروتستانتية الألمانية العظيم مارتن لوتر (١٤٨٣ - ١٥٤٦) . لأن الشيء كان يجري آنذاك في كل أرجاء ألمانيا ، بل في الواقع في كل أنحاء أوروبا الغربية ، أن الناس قد أكبوا على صفحات الحروف السوداء لكتاب القلم المنزج حديثاً والمطبوع حديثاً ، وعلى سفر اللاويين ونشيد الإنشاد لسليمان وروما القديس يوحنا الرموز - وهي كتب غريبة مخيرة - يكتوب عليها قدر ما يكون على سيرة يسوع البسيطة الملهية في الإنجيل ، وطبعي أنهم كانوا يستلجون آراء عجيبة وتفسيرات مضحكة

(١) ومن ذلك أنه ليس هناك تفرقة تقريباً بين الكنيسة الإنجليزية والكاثوليكية في الشبهة والمذهب والطقوس وإن اختلف الاسم والرتبة . (المترجم)

حرية ، بل إن مما يدهش له الإنسان أنها لم تكن عجيبة أكثر ، أشد إعجاباً وكأوغرابة . ولكن العقل البشري شيء عتيق ولا بد له من أن يخفق وينقث بالرغم من كل ما يقفد عليه القزم من تصميم . وقد أخذت جمهرة دلمسى للكتاب للقدس هؤلاء ما تستحقه ضلالمهم من للكتاب وتجاهلوا ألفاءه ومتناقضاته .

وفى كل أرجاء أوروبا ، وحبباً أقيمت كنائس الأمراء البروتستانتية : كانت تبنى البروتستانت الأقصاح بقية حبة فاشطة تألى أن تصاغ لما دياتها حل تلك للمشكلة . وكان هؤلاء هم « المقاتلون أو الملتصقون Nonconformists » ، وهم خطب من الشيع ، لا يصحهم جميع إلا مقاوسهم للديانة أصحاب السلطان الاستبدادية سواء أكان مصدرها البابا أم الدولة . فلما فى ألمانيا فقد قضى الأمراء على الاشتقاق والمشتقين قضاء تاماً فى معظم الحالات . فلما بريطانيا فإن حركتهم فيها ظلت قوية ومتنوعة الأشكال . ويلوح أن الكثير من الفوارق بين سلوك المثبيين الألمان والبريطاني يمكن تتبعها وإدراجها إلى ما تلقاه حرية الرأى وحرية إصدار الأحكام على الأشياء من كبت بألمانيا .

وكان جل هؤلاء للمثبيين ، ولكن ليس كلهم ، يستمكون بالكتاب للقدس بوصفه مرشداً سلالاً بالإلهام للقدسى جديراً بالأعتماد عليه بوجه قاطع . وكان موقفهم هذا موقفاً استراتيجياً لا موقفاً ثابتاً . والاتجاه المسمى للمثبيين يصعد يوماً بعد يوم عن تلك التروعة الأصلية إلى المخالفة فى إجلال الكتاب المقدس ، ووجهه نحو التركيز على تعاليم يسوع المانصرى المبرحة تركيزاً معتدلاً عنفناً ملوناً باللون الطاطى . وتوجد فى الحضارات المصرية فى هذه الأيام أيضاً وراء مجال الاشتقاق والمثبيين ووراء مجال المسيحية المعترف بها ، كتلة عظيمة ونامية من أقوام يؤمنون بالمساواة والتكافؤ بين البشر وتمثل نفوسهم بالدوافع القهرية ، كتلة لا شك أنها تدعى للمسيحية بروحها كما سبق أن أكدنا .

ونقل الآن كلمة عن الدور الثالث لعملية الإصلاح الدينى ، وهو الإصلاح الدينى داخل الكنيسة (١) . فقد بدأ ذلك الإصلاح فعلى القرنين الثانى عشر والثالث عشر بظهور جماعة الرهبان السود والذهب (الفصل ٣٦ القسم ١٤) . وظهور القرن

(١) مفسس أيضاً حركة الإصلاح الدينى المقاد Anti-Reformation (القرن)

السادس عشر دافع جديد من نفس النوع ، جاء والحاجة إليه أشد ما تكون . وكان ذلك الدافع الجديد هو جملة يسوع التي أسسها الإنجيلولوجيون ريكالدي الشهير في علم اليوم باسم القديس أغناطيوس لويولا .

استهل أغناطيوس حياته العملية شاباً ألبانيا بمجمع القوة عظيم الشجاعة ، كان ذكياً



حافظاً تعلقه الحمية على وصبراً على المكارمة ، وحباً للمجد في شيء من التضامير ، وكانت مغامراته الثرامية كثيرة خلافة ، وفي ١٥٦١ انزعج الفرنسيون من الإمبراطور شارل الخامس مدينة بايرون في ألبانيا ، وكان أغناطيوس أحد القادة عنها . لمهتت إحدى قتال الدافع ساقه ، أخذ أسيراً ، ورمت عظام إحدى ساقه على حطاً ، وكان لزاماً أن تكسر من جديد : وأوشكت هذه العمليات المقتدة

(شكل ١٥٧) مارتن لود
نقلا من صورة من عمل هولدين

الألمية أن تقضى على حياته ، حتى لقد تلقى السر القديس الأخير . ولكنه حين امتد به الليل بعد ذلك أخذ يحسن وما لبث حتى أصبح في دور الفناء ، ولما عرج يراجه مقلماً حياة ربما عاش فيها مقعداً على اللوام . فاجتهد أفكاره إلى خوض تجربة دينية . وتطيف بخاطره في بعض الأحيان صورة سيدة ما عظيمة ، ويحبل إليه أنه سيفوز بإعجابها بالفرح مما به من سوء حال ، يعمل رافع عظيم ، ويطلب به في أحيان أخرى أن يكون فارس المسيح بطريقة ما خاصة شخصية . وهو يحسب أنه بينا هو يسرب في أساس هذه الخيالات والمخيلات ، إذ استمرت انتباهه في إحدى القبائل وهو واقف في بقعة قامة سيده عظيمة جديدة ، وتحتل أمامه في الرؤيا العلو المبلوكة مريم وهي تحمل المسيح الطفل بين ذراعيها . وتعلو على القو كراهية عظيمة لما قد تمت يده

في حياته . فقد اتية على أن يهجر كل فكرة من تساء الدنيا ، وأن يحيا حياة
مفقة مطلقا وإخلاصا قام لأمر الرب . وقرر الإكتفاء من الجميع إلى غطف الأماكن
للقنسة وأن يتلو نفسه لحياة الرحمة .

والطريقة التي حلف بها بمن التزم تظهر أنه كان بمن ألقا وموافقا صديقا
للذين كيهوت ١١ فبعد أن استرد صانته ، خرج دائما على وجهه في أرجاء العالم
لا يكاد يكون له حلف معين ، جندياً مرتزقا مغلسا لا يملك من حطام الدنيا إلا
سلاحه والهيل الذي يركب ، فألقت للقادر في حصة أحد المغيرة (من حرب أسبانيا) .
وسأوا صا بجاذبان الحديث ، ثم تزلزا للقدور حل للذين . وكان المغربي أحسن
الرجلين نمليا ، فأدغم صلحه في الجبل ، وتقوه ببوارات جراحة من العلولة
مريم وجد من الصير أن يرد عليها ، ثم المرق عن أفطايوس فرحا بطوزه عليه .
وكانت قصص القباب فارس « مولانا مريم » نقل خيلا وسخطا . فردد بين أن
يقدر المغربي وينقله ، وبين أن يواصل ما عقد عليه العزم من حج . ولكنه ترك
الأمر ليهله عند ملقصب الطريق فكان في ذلك نهاية للمغربي .

ووصل إلى المدير البلطكني في موثق سيراث بالقرب من ماريسا ، وهناك قلد
البطل الذي لا نظير له ، أماديس دي جول (١) بطل قصة للظاهرة الرمانية في
القرون الوسطى ، وظل طول ليلة ساعرا أمام ملجج العلولة المباركة . ثم أعطى
بنقله القدير ، وأعطى ثيابه القنوية لأحد المتولين ، ووضع سيفه وحجره على
المنح وارتدى ثيابا مغطاة من قماش الجواني وحذاء من الخيش . ثم حل نفسه
إلى إحدى التكايا حيث استسلم لضروب جمة من الصليب والقشدة . واستمر
أسبوعا كاملا وهو صائم صوما مطلقا ، ثم نهض ليحج إلى الأراضي المقدسة .

وظل يضع سنوات يجول على غير هدى ، وهو مستغرق اليه بفكرة تلميس
حقد جديد من القروسية الدينية ، دون أن يدري كيف يبدأ هذا المشروع . وأخذ
يزداد إحسانا بأنيته وجهله . وحظرت عليه عاظم التفتيش (Inquisition) -
وقد أنشئت ثم تم تصرفاته - أن يحاول تطعيم الآخرين حتى يقضى ما لا يقل عن أربع

(١) أماديس دي جول أو (أماديس القائل) : قصة رومانية تعود للقرون المظلمة في قرون
١٢ و ١٣ في أسبانيا أو جبرتل . (الترجم)

سنوات في الدراسة . وإن التاريخ لبقي حل كامل محاكم الضيق من موفور
التساوت وعدم التسامح ما يلد لنا معه أن نسجل أنها في معالجتها أمر ذلك
المحصن الشاب العبد الواسع النبال ، أظهرت نفسها بمظهر اللطاف عليه
الآثر في الصرف . ذلك أنها أدركت قوته وما يرجى منه من نفع ، ورأت
أخطار جهاته . فجدت في الدرس والتحصيل في سلامتها وباريس وغيرها .
ونصب قيسا (١٨٣٨) ، وبعد ذلك سنة عاصمت جميعته التي طالما
حلم بها تحت اسم : جمعية يسوع . وقد رأت - شأن جيش الخلاص في
المنارة العصرية - اتهاج أقرب السبل لوضع التقاليد الكريمة لطريقة تفكير
الجيش ونظامها في خدمة الدين .

كان عمر هذا الرجل إغناطيوس لويولا مؤسس جمعية بلوزيت
(اليسوعيين) : سبعا وأربعين سنة ، وكان أبدا ما يكون وأشد حكمة
وأثبت روية من ذلك الشاب الأحن الذي قلد أماديس دي جول تقليد
الفرقة وقام قبل كله في دير مازيسا ، وكانت الهيئة التبشيرية والتعليمية التي
أنشأها آنذاك ووضعها تحت تصرف البابا من أقوى الرسائل التي نبأت للكنيسة .

كان هؤلاء الرجال يقدمون أنفسهم بكليتها بخاطر لتستخلصهم الكنيسة . وكانت
جماعة اليسوعيين (البلوزيت) هي التي حلت المسيحية إلى الصين للمرة الثانية بعد
سقوط أسرة منج ، وكان اليسوعيون أهم لإرساليات المبشرين لليسوعيين في الهند وأمريكا
الشمالية . ولسوف تشبه من نورنا إلى ما بذلوه من جهود لتشر الحضارة بين ظهراني
الهند في أمريكا الجنوبية ، ولكن أبدا ما قاموا به من عمل بنحصر وضعهم مستوى
التعليم عند الكاثوليك . فأصبحت مدارسهم - وظلت زمانا طويلا - خير المدارس
في العلم المسيحي . يقول النوردي فيريولام (السيرفرائيس باكون) : : فلما عن
الناحية الهندوسية (البروتية) فارتفع إلى مدارس اليسوعيين ، إذ لم يمارس في
التعليم شيء أحسن منها . رضوا مستوى الذكاء ، وأثثوا ضمير أوربا الكاثوليكية
بأعضائها ، واستكثروا أوربا البروتستانتية إلى بذل الجهود لها في تعليمهم في مزارع العلم .

ولمنا نشهد في أحد الأيام جمعية جديدة اليسوعيين ، ممن ينكرون أنفسهم
لا لخدمة البابا ، بل لخدمة البشرية .



(شكل ١٥٨) ليدلا

وفي نفس الوقت وبإزاء تلك
الموجة العظيمة موجة اليهود الصليبي ،
تصلح نشأة الكنيسة وسعيها إصلاحاً
عظيماً بفضل ما قام به مجلس ترنت من
تنقية المبادئ وما أدخله من إصلاحات
في هيكلها ونظامها . كان هذا المجلس
يجمع بين القبة والفتية إما في ترنت
ولما في بولونيا بين سنتي (١٥٤٥)
و (١٥٦٤) ، وكان عمله يضارع
في الأهمية عمل الميزوت في إيطاليا

المزائم والأعطال التي كانت تحمل الدولة على الانفصال عن مجمع
الكنيسة الكاثوليكية . والتغيير الذي أدخله الإصلاح الديني داخل كنيسة روما
يضارع في عظمه التغيير الذي حدث في الكنائس البروتستانتية التي انفصلت عن
الكنيسة الأم . فليس هناك منذ ذلك التاريخ أية فصائح علنية ولا أي صراع ولا
انقسامات يسجلها التاريخ . ولكن مهما يكن من شيء فإن ضيق الألق في
مبادئ الدين قد تشدد ولم تعد أدوار انهيار القوى الناشط التي يمثلها جريجوري
الكبير ولا تلك المجموعة من البابوات المرتبطة بجريجوري السابع ولويان الثاني ،
أو المجموعة التي اجتذبت بالوسف الثالث ، تفسر قصة التاريخ لمبادئ
الحادي . واستقرت الكنيسة إلى ما هي عليه اليوم بوصفها هيبة دينية
متمثلة عن السياسة ، وهيبة دينية بحثة كثيراً من المبادئ الدينية .
لقد وحل الصويغان من روما .

٦ - العالم يستيقظ من سباته

ينبغي ألا يظن القارئ أن النخذ الملمر الذي وجه إلى الكنيسة الكاثوليكية والمسيحية
الكاثوليكية ، وأن طبع الكتاب المقدس ودراسته ، كانت المنشط الفكرية الوسيطة
في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ولا هي كانت أهم عمليات النشاط الفكري .

لأن ذلك كله لم يكن إلا الناحية الشخصية البارزة بقوة في الانعاش الفكري في ذلك الزمان . إذ كانت تجري هناك خلف ذلك التيقظ البارز الشعبي الذي أُلهم بالفكر والبحث تطورات عقلية أخرى أقل استرخاء مباشراً للأفكار ولكن أهميتها النهائية أعظم . وسندل إليك الآن بضاعة موجزة عن اتجاه تلك التطورات . فلها ابتدأت قبل طبع الكتب بزمان طويل ، ولكن الطاعة هي التي تفضت عنها غاشية الظلمات وكشفتها للأفكار .

ولقد أسفنا لك كلمة عن ابتلاء ظهور الذكاء الطليق أو القطة الحرة : روح التحري والاستعلام ، والإدلاء الواضح المبرح بالرأى - في الشؤون الإنسانية . وهناك اسم يعد أساساً في سجل تلك المحاولة الأولى الرامية إلى جمع المعرفة للثقلة ، وهو اسم الفيلسوف أرسطو . وهناك أيضاً كما لحظنا آنفاً ذلك الدور الموجز للإنتاج العلمي الإسكندرية . ومنذ ذلك الحين حانت المنازعات الاقتصادية والسياسية والدينية المقددة في أوروبا وآسيا الغربية ، كل تنضم فكري آخر . لأن لك المناطق كما رأينا ، وقعت أمد عصور طويلة تحت سلطان الملكيات ذات الطراز الشرق وسلطان التقاليد الدينية الشرقية . وقديماً جريت روما في الصناعة نظاماً عماده الرقيق ثم حادت قبلته وفيها تطور أول الأكتمة الرأسمالية ، ثم مزقه القوض بسببه ما جبل عليه من ميوب متاملة . وارتدت أوروبا إلى حالة عامة من علم الاستقرار . وثار الساي على الآوى ، وأحلت ثقافة عربية محل المدنية الفارسية في كل أرجاء آسيا الغربية ومصر . ثم وقعت آسيا الغربية كلها ونصف أوروبا في قبضة الحكم المغولي . ولم يحدث إلا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر أن للذكاء الأرى شرع يكافح من جديد التماس التعبير الواضح الصحيح عن ذات نفسه .

وإذا لنجد عند ذلك في جامعات باريس واكسفورد وبولونيا ثمانية عشر ألفاً من الباحث الفيلسفي . ومن حيث الشكل كان الطالب على ذلك البحث هو الموضوعات المنطقية . والأساس الذي قامت عليه هذه الأبحاث إنما هو جزء واحد من تعاليم أرسطو ، وهو منطقته فحسب وليس مجموع ملخف من كتابات . ثم زادت معرفة الناس فيما بعد بتواليقه بواسطة الترجمات اللاتينية المنقولة عن النسخة العربية التي طبع عليها ابن رشد . وفيها هنا هذه الترجمات لأرسطو - وكانت كلها رديئة الترجمة إلى

أصبح حد - لم يكن الناس يفرأون في أوروبا الغربية حتى القرن الخامس عشر إلا النذر الطفيف من الأدب الفلسفي الإغريقي .

ولم يكن الناس يعرفون شيئاً من أفلاطون ذي العقيدة المبكرة الخلافة المخططة علماً عن أرمطو ذي النزعة السلمية . فكان أوروبا كانت تلك القند الإغريقي دون الروح والذائع الإغريقي . أجل إن بعض كتاب الفلسفة الأفلاطونية الحديثة كانوا معروفين بها ، ولكن شتات بين الأفلاطونية الحديثة وبين أفلاطون ، إذ أن شقة الخلاف بينهما كشفت الخلاف بين العلم في البلاد المسيحية وبين العقيدة المسيحية نفسها .

د. سهرت عادة الكتاب الحديثين بالتفسير بالأبحاث الفلسفية لطاء القرون الوسطى للدراساتيين برميها بالإملاط وحكم القضاء . ولكنها لم تكن كذلك بأي حال . وإنما كان لزماً عليها أن تحفظ يقابل في شديد الجحود ، لأن كبرو جاك الكنيسة ، وهم على ما هم من الجهالة وعدم التسامح ، كانوا على أمة القرب لأية يادوة للزندة . لهذا ، كان يوزعها ذلك الصفاء الحلو الناشئ من التفكير الذي لا يوقه خوف . وكثيراً ما كانت تلك الأبحاث تلمح إلى ما لم تكن تجرؤ أن تقول حراساً . على أنها كانت تصالح موضوعات جوهرية الأهمية ، وكانت كفاً طويلاً ضرورياً لا بد منه لتصفية وإصلاح حيوب معينة متأصلة في العقل البشري ، وإن الكثير من الناس اليوم لينظفون أفضل الأخطاء بسبب إهمالهم للمسائل التي كان علماء القرون الوسطى للدراساتيين يتناقشون فيها .

وهناك ميل طبيعي في العقل البشري إلى الميلانة في هروق وأوجه الشبه التي تتبين عليها عملية الترتيب والتصنيف ، وإلى الظن بأن الأشياء ذات الأسماء المختلفة متماثلة مخلفة . وأن الأشياء المسماة بنفس الاسم ، تكاد تكون متطابقة . وحتى من البيان أن هذا الميل إلى الميلانة في التصنيف يشجع الفلاسفة وعلم . في مجال التسمير (Race) أو القومية (Nationality) مثلاً ، كثيراً ما يعامل « الأوربي » أممته « الآسيوي » كأنما هو حيوان مختلف ، على حين تراه يميل إلى اعتبار « أوربي » آخر كأنما هو يحكم الضرورة معادل له في القفضية والروعة . وإنه ليصعب لياً لهذا إلى الله وسين ضد الأمييين . ولكن ، الواقع - كما يجب أن يكون ذلك قوياً - هذا الكتاب -

هذه التواريخ التي يدل عليها التضاد بين تلك الأسماء أمر لا وجود له . وإنما هو طيف فارغ خيالي تطلعه وجود الاسمين .

وكانت المصنوعة الكبرى في القرون الوسطى قائمة بين الواقعيين (Realists) والاسمين (Nominalists) . ومن الضروري أن نقب القارئ أن كلمة « الواقعي » في أبحاث المصور الوسطى لها معنى يكاد يكون مضاداً حل خط مستقيم للفظ « الواقعي » في استعمالنا في اللغة العادية للتد العصري . فذلك « الواقعي » العصري إنما هو من يصير على



(شكل ٧٥٩) كاتدرائية مرس (مارس)

مئذنة رافع فكتاتس القوطية الكبرى التي بنيت في القرنين ١٢ و ١٣

للفصائل المادية ، بيا كان « الواقعي » في القرون الوسطى أقرب كثيراً إلى ما قد نسميه اليوم « بالخطي » ، وكان احضاره لفصائل المعارضة شليداً وعميقاً . وكان الواقعيون أشد

الناس نمسكاً بملك الملل البشرى الشائع إلى المبالغة في أهمية الصنف *Species* أو الطبقة . وكانوا يعتقدون بأن هناك شيئاً في الاسم (أى في التسمية العلمية) له بالضرورة ظل من الحقيقة . مثال ذلك أنهم كانوا يؤمنون بأن هناك «أوربياً» ثورجياً ، «أوربياً» مثالياً ، وجوده حقيقى أكثر بكثير من أى لوربى فرد ، ومن ثم يكون كل لوربى حبة حبة ونكوصاً ظاهراً ، وابتعاداً عن تلك الحقيقة الأكثر عمقاً إن صح هذا التعبير . ومن الناحية الأخرى ، كان الإسميون أصحاب المذهب الاسمى يرون أن الحقائق الوحيدة في الأمر إنما هي الأوربيون الأفراد ، وأن الاسم «أوربى» إنما هو مجرد اسم ، ولا يتجاوز أن يكون اسماً ، يطلق على كل حالة الأفراد .

وليس هناك شيء أصعب من ضبط واختصار المجلدات الفلسفية التى هي بطبيعتها ضخمة الحجم متنوعة ، كما أنها مصطبغة بالصباغ القلبي لمجموعة متنوعة من العقول . والقارىء المصرى غير الملهم بالأبحاث الفلسفية ربما جنح — وقد قلنا له القارق بين الواقعيين والإسميين على هذه الشاكلة الساذجة بالجرءاء — إلى التولوب من فوره إلى تأييد رأى الإسميين . ولكن ليس الأمر من البساطة بحيث يكفى مثال واحد لحكم عليه ، وقد تعددنا هنا اختيار مثال متطرف . ونختطف الأسماء والتصنيفات في قيمتها وحقيقتها . فبينما ترى أنه من السخف أن يظن الناس أن هناك حقاً كبيراً في القارق المعنى بين رجاء اسمهم قوامس وآخرين اسمهم ولیم ، أو أن هناك مثلاً أعلى أو خلاصة نقية لقوامس أو لولیم ، إلا أنه قد تكون هناك من الناحية الأخرى فوارق أعين بكثير بين رجل أبيض وبين زنجى من المولودت ، فضلاً عن أخرى عميقة بين الإنسان العاقل (*Homo Sapiens*) وبين الإنسان التيانثروپال . وكذلك بينا التمييز بين صنف الحيوان المدلل وصنف الحيوان النافع يحدد على تولوق طفيفة في العادات والتطبيقات ، فإن القارق بين القط والكلب من المعنى بحيث يستطيع المهرر (المكرومكوب) أن يشغره ويكتشفه ولو في قطرة دم أو شرة مفرقة . وبينما تكون بعض التصنيفات نافعة ، إذا بالبعض الآخر جوهرى حقيقى . فلذا نحن تأملنا هذه الناحية من المسألة أمكننا أن نفهم كيف أن الاسمية و«الأسميين» اضطروا في النهاية إلى التخلي عن الفكرة القائلة بأن الأسماء تعادل في قلة أهميتها بطلقات الزيجاجات ، وكيف أن تفقيح المذهب الاسمى وتصحيحه تمحض عن الملوطة الكثيفة للعود على التصنيف «الحق» — أحد التصنيفات أهمية وأصلها فائقة — للأشياء والمواد وهو الذى يسمى بالبحث العلمى .

ولسوف يقارب هذا في الموضوع أنه بينما ميل الواقعيين والمذهب الواقعي الذي هو الميل الطبيعي لكل عقل غير متحيز ، كان متوجهاً إلى الاتحاد الحسي (Dogma) والخصائص النفسية الفجة والأحكام الخشنة الساذجة والمواقف والاتجاهات الخالية من كل تعامل ، فإن ميل المذهب الاسمي والاصمين القلبي والمتأخرين كان متوجهاً نحو الأحوال المحددة بالأوصاف ، ونازحاً نحو اختبار الأمثلة الفردية ونحو البحث والاستعلام والتجربة والتشكك .

وعلى ذلك فإنه بينما من في الأسواق والحياة العامة من الناس يشككون في أخلاق رجال الدين وصلاحهم ومدى إخلاصهم في عزويتهم وصدق قيمهم فيها ونقاء سيرتهم بها ، ويمتنع العدالة فيما يفرضه البابا من ضرائب ، وبينما تشغل أذهان من في الدوائر اللاهوتية بمسألة الامتناع ومسألة قسمية أو عدم قسمية الخبز والتبيل في القداس ، كان يصدر عن دور الدراسة وقاعات المحاضرات نقد أوسع على لطوائف التعليم الكاثوليكية العادية .

وليس في استطاعتنا أن نقدر في هذا المقام مبلغ الأهمية التي اجتمعت أثناء تلك العملية لأشخاص من أمثال بطرس أيلارد^(١) (١٠٧٩ - ١١٤٢) ، وألبورتس ماجنوس (١١٩٣ - ١٢٨٠) ، وتوماس أكويناس (١٢٢٥ - ١٢٧٤) . فإن هؤلاء الرجال حاولوا أن يبنيوا بناء العقيدة الكاثوليكية على أساس عقل أسلم ، فاجتهدوا صوب مذهب الاصمين . ومن بين أبرز قنادم وخطائهم دنز سكوتوس (٩ - ١٣٠٨) ، وهوراهب فرنسكي من اكسفورد ، لن يشك القارئ في أنه اسكتلندي فح لو اطلع على إيشاده في التفكير وخطاه عباراته المتصدة ، ومن بينهم كذلك ألكام وهو إنجليزي (٩ - ١٣٤٧) .

وقد ألام كلاهين الأخيرين - شأن ابن رشد - حداً فاصلاً يميز بين الحق اللاهوتي والحق الفلسفي ، فوضعوا اللاهوت من فوق قبة عالية ، ولكنهما وضعاه حيث لم يستطع أن يعترض بعد ذلك طريق البحث : فأعلن دنز سكوتوس أن من المستحيل أن يثبت المرء بالتفكير العقل وجود الله أو وجود الخلود أو إمكان تصديق عملية الخلق ، وكان ألكام أشد إصراراً على فصل اللاهوت من الحق للعقل - وهو فصل ما أطلق مراجع البحث العلمي إطلافاً بينما من تحكم الاتحاد الحسي (Dogma) . ولكن خلف من صدهم جبل تال

(١) أنظر ، المترجم ، كتاب أسلام والتكفير (المرة السادسة والثلاثون) . (الترجم)

لأنه وقد أخذ يستفيد من الخريجات التي حلفت إليها جهود هؤلاء الرواد ، إدراك العلم بمصادر حريته - فبلغ من كثرائه بالجميل أن يتخذ من اسم سكوتوس رمزاً للعباد ، ومن ثم نشأت كلمة (Dance) الإنجليزية التي معناها النبي مشتقة من اسمه (Dance) . يقول الأستاذ درينجل باتيسون (١) : « إن أحكام اللقي كان مع ذلك عالماً مدرساناً (٢) ليعطينا التبرير المدرساني للروح التي استولى بالفعل على روجر باكون ، والتي قلده أن يتنصع ويستكمل نموه في أثناء القرنين الخامس عشر والسادس عشر . »

وروجر باكون هذا بقى وحيداً بارزاً لما له من صبقية مميزة (قرابة ١٢١٠ - ١٢٩٣) وكان كذلك إنجليزياً . كانوا ألباً فرنسكياً من أكسفورد ، كما أنه في الواقع رجل إنجليزي نموذجي حقاً ، إذ هو صريح المهام مقترح شريف حبيب العقل . وكان سبق عالمه بقرنين من الزمان . يقول عنه أ . هـ . ١ . ٨ : « تأملوه (٣) :

« كانت حياة باكون مأساة ذهنية ، تطابق الأصول القديمة لفن اللقي : القاضية بأن تكون أخلاق البطل كريمة نيفة ، وإن لم تحل من الصيوب ، وذلك نظراً لأن النهاية القاضية المحتومة يجب أن تصدر من المطلق ، وألا تحدث نتيجة الصدف . ومات شيخاً في سن عالية . وكان في شيخوخته ذاته في صباه محباً لعلماً للمعرفة الملموسة . وكان طلبه المعرفة التي لا تصل إلى مرتبة العلم بمحتاه التام ، بل هي اعتراضاً من تلك الميخ التي انتمى إلى عضويتها وكان فيها عضواً تصاً لاراً ، كما أضربه من الناحية الأخرى ، أن ما حصله من منجزات قد تحرفه من المداخل المبادئ التي تقبلها نقلاً من حصره . ولكنه يعد مستولاً من قبوله للآراء السطرية ، واستكاثرت آراؤه شكوك لإنوائه الرهبان ، كما جر عليه عكسه التصني للشعوس عدامهم . لأن القسرة حل الإلتصاق والبالقة شرطان ضروريان لمن يرغب في التأثر بمثل هذه الآراء البعيدة حل

(١) الموسوعة البريطانية ، الطبعة الثانية عشرة ، مادة المدرسية Scholasticism .

(٢) كلمة المدرسان تطابق على معنى القرون الوسطى وحل كل فيسوف متعلق ، بلفظة المصرد الوسطي التي تسمى أيضاً باللفظة المدرسية أو الإسكولائية . (للتعريب)

(٣) The Medieval Mind تأليف هنري أوسورد تايلور .

أثراته ، أولئك شاء القرار في القرن الثالث عشر من الاضطهاد لإخائه وإياها
 فقد هاجم باكون قوى الكنيسة والفضل من الرجال ، الأسياء منهم والأموات
 في غير حكمة ولا حذر وفي حيلة ونزق . ولا تكاد نعرف شيئاً عن حياته البقية ،
 اللهم إلا من إداراته إلى نفسه وإلى الآخرين ، وهي إشارات لا تكفي
 لتكوين صورة طفيفة متصلة للحظات لحياته . ولد ودرس في أكسفورد ،
 وذهب إلى باريس ودرس وأجرى التجارب ، ثم عاد إلى أكسفورد ثانية ،
 وأصبح راهباً فرنسيسكياً ، وتابع دراساته ثم تولى التدريس وأصبح عند جماعته
 بمنزلة الفطنة والرياسة ، ثم يُنسبُ به ثانية إلى باريس ، ويوصف تحت الرقابة ،
 ويطلق رسالة من البابا ، ويكتب ، ويكتب ، ويكتب - مؤلفاته الثلاثة
 الأبعد شهرة ، ثم يعود المثاب فتنشئ حياته ، وإذا هو يسجن سنوات كثيرة
 ويطلق سراحه ويموت ، يموت كل الموت بهمه وبشهرته على السواء حتى يبعث
 بعداً جزئياً بعد ذلك بخمسة قرون . »

والمادة الرئيسية في عمله : المؤلفات الثلاثة الأبعد شهرة : إنما هي هجوم لاذع
 الصادرة يكون في الأحيان منعماً بالسباب . ولكنه هجوم عادل تماماً على ما يرمي على
 حصره من جهالة ، يخاطبه مجموعة ثورية من المقترحات لزيادة المعرفة . وإن روح
 أوسلو لتبلى فيه حجة من جديد في إلحاحه الحار على الحاجة إلى التجربة ولكل جمع
 المعارف . فلقد كانت لصيحة التي طلائاً حملها روبر باكون على عاتقه هي
 « التجربة ، التجربة » .

ومع ذلك فإن روبر باكون انخضم لأوسلو نفسه وهماجه . اختصه لأن الرجال
 بدل أن يواجهوا الحقائق في جرأة ، كانوا يميلون في حجرات ويكون على
 الترحام اللاتينية الرديئة التي كانت عند ذاك كل ما استطاع للوصول إليه من « العلم » .
 كتب يقول بلبهجه غير المعتلة : لو كان الأمر بيدي . . . لأسرقت كل كتب
 أوسلو ، لأن دراستها لا يمكن أن تؤدي إلا إلى مضيق الوقت وإنتاج انطباع وزيادة
 الجهالة ، وهو إحساس ما كان أوسلو في الراجع إلا ليرده لئلا يراه عاد إلى عالم لم
 تكن فيه مؤلفاته تقرأ قسراً ما تُعبد - وكان ذلك التدريس كله موجهاً لهذه الترحام
 غير الجديرة تماماً بأية ثقة كما يمتن ذلك روبر باكون .

دروجر ياكون في كل موثقاته متكرر بعض التفكير بسبب ضرورة ظهوره في كل أموره يظهر من يطلن بين آرائه وبين العقيدة السلفية الصحيحة خشية السجن أو ما هو شر من السجن ، لذا كان يصيح بالإنسانية من وراء هذا التفكير والعقيدة « أن كفى من أن تحكلك الاقتصادية (الوجها) والسلطات الاستبدادية ، والنظري إلى العالم » .

ولقد شمر بأربعة أسباب للجهل هي : احترام السلطة ، والمعرفة والعادة ، وروح الجمهور بالاحمال ، وما عليه ميولنا من علم قابلية التعلم تلم بالتورود والكبرياء . فلو نفلب الناس على هذه وحدها لانفتح أمامهم علم من القوة . فإن في الإمكان أن توجد آلات للملاحة البحرية تشير السفن من غير عيدين ، بحيث أن سفناً ضخمة تنسب لبحر والبر جميعاً ، ويقودها رجل فرد ، يمكن أن تشير بسرعة أعظم مما لو كانت فاصلة بالرجال . وعلى هذا النحو يمكن أن تصنع العربات التي تتحرك بلاحوان يحركها (cum impetu inextinguibili) ، شأن العربات ذات المتاجل التي كان يحارب عليها الأكفوسون لها يقال . وفي الإمكان استحداث الآلات الطيارة ، حتى أن الرجل يستطيع أن يجلس في وسطها يدبر آلة ما فتضرب الهواء أجنحة اسطوانية على مثال جناحي الطائرة .

وإن أحكام دروجر ياكون هما البشيران الياكوران بحركة عظيمة في أوروبا بنيد . المذهب الواقعي (Realism) وتنتجه إلى الواقع (Reality) . وانقضت فترة من الزمن اعتد لها الصراع بين المؤثرات القديمة وبين الطبيعة (١) ، عند أصحاب المذهب الاسمي الجليلد . وفي (١٣٣٩) حرمت كتب أحكام وحدود قرار جدوى ونقد باستنكار المذهب الاسمي ونفسه . وبذلت في عام (١٤٧٣) ، محاولة مثيرة فاشلة ، لحمل معلمي باريس على تدريس المذهب الواقعي بقمم يقسمونه . وفي القرن السادس عشر ابتدأ طبع الكتب وزاد الذكاء . وعندئذ أصبحت حركة الانتقال من مذهب التجريد (Absolutism) إلى التجريب حركة ضخمة ، وأخذ الباحثون يتناولون بعضهم مع بعض .

(١) طبيعة أو طبيعانية Naturalem في مذهب جاراء الطبيعة ومطابقتها . (انظر ص)

وكان التجريب على الأغذية المأهية كغذاء بأسباب الزيادة طوال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، فأخذ الرجال يفوزون بكميات متنامية من المعرفة ، ولكن لم يكن هناك تقدم تعاوني يقوم على العلاقة المتبادلة بين رجال العلم ، بل كان العمل يتم بصورة انفرادية متدايرة وغفية غير كريمة . فقد أُلغيت أوروبا عن الحرب تقاليد البحث للتعزل ، وكان هناك قدر كبير من الأبحاث العلمية التي تم بشكل خاص وسري والتي يقوم بها الكيماويون القناني (Alchemists) الذين يمنح الصربون إلى الميلفة في احتقارهم إلى حد ما . على أن هؤلاء الكيماويين القناني كانوا على اتصال وثيق بصناع الزجاج والمعدن وبأصحاب صناعة الأعصاب والعقاقير وصناع الأدوية في زمانهم ، وقد تلسوا في أسرار كثيرة لطبيعة ، ولكن كانت نفوسهم مشبعة بضمرة « للنافع العملية » ذلك أنهم لم يكونوا يطلبون المعرفة ، بل القوة . وكانوا يرغبون في أن يصطنعوا الذهب من المواد الأزهد منه ثمناً ، وأن يجعلوا الناس من أهل الخلود بواسطة إكسير الحياة ، وما إلى ذلك من الأحلام السوفية المبثلة . وحدث أنهم عرفوا عرماً أثناء أبحاثهم ، الشيء الكثير من السموم والأصبغ وحلم المعادن وما إليها ، واكتشفوا مواد متنوعة تسبب لكسار الأشعة ، وشفقوا طريقهم صوب الزجاج الصافي ، ومن ثم إلى المسحات والآلات البصرية . ولكن الواقع كما يجبرنا رجال العلم على التوأم ، وكما لا يزال الصليبيون ورجال الأعمال يرفضون أن يصلحوه - هو أن المعرفة لا تحبو خدمتها جهات خالية وحطايها غير متوقفة في أي قدر من الوفرة إلا عندما تتطلب المعرفة من أجل المعرفة نفسها .

وما يزال عالم اليوم أمليل كثيراً إلى اتفاق المال على البحث التقني العملي (التكنيكي) منه على العلم البحت . وما يزال نصف من في معاطنا ونعتبر أننا العلمية من الرجال يحملون باهترعات المسجلة (Patents) والعمليات السرية . ونحن إنما نعيش اليوم في معطم أمرنا في علم الكيمايين القناني بالرغم من كل عزتنا بذكراهم . وما يزال ورجل الأعمال في عصرنا هذا يفكر في البحث بوصفه ترويحاً من الكيمياء القديمة .

وللنجمون الذين كانوا يرتبطون بالكيماويين القنناء ارتباطاً وثيقاً ، كانوا هم كذلك فئة تطلب « المنافع العملية » فكانوا يدوسون للنجوم لينجروا الناس بطولهم ،

وكان يعوزهم ذلك الإخلاص والضمير الأوسع أمّا الفلاسف يحملان الناس على مجرد دراسة النجوم في حد ذاتها .

ولم تشرح المفكرات التي ترمح عنها روبر باكون في أن توثق ثمارها الأولى من المعرفة الجديدة والنظرة الشاملة والأفق المتسع إلا في القرن الثامن عشر . ثم حدث على حين بدت مع بزوغ فجر السادس عشر ، ومع قيام السلم من كبوته في حاصفة القرن الاجتاحتها التي أحبت أوبة القرن الرابع عشر ، أن تجمعت أوروبا الغربية عن مجموعة من الأصحاء الكلامة كسفت بصيانتها أصحاب أبعد الناس صيتاً علمياً في أزمنة عبور الإغريق . وأسهمت في ذلك كل الشعوب تقريباً ، كما سوف يلتقط القارئ ، وذلك لأن العلم لا يعرف القومية .

ومن أبكر أفراد هذه المجموعة الكلامة من الكواكب ، وأعظمهم جلالاً ، ذلك القاروسى ليوناردو دافنشى (١٤٥٢ - ١٥١٩) ، وهو رجل تكاد تكون له « بالهفية » بصورة إحصائية . كان عالماً بالطبيعة والتاريخ الطبيعى وعلم التشريح ، وكان مهتماً ، كما كان فناناً عظيم الشأن جداً ، وهو أول رجل عصرى أوصف الطبيعة الحقة للسحريات ، فأنشأ مفاتيح مذكرات ملأها بملاحظات ما تزال تدخل ألباننا إلى اليوم ، وهو يظهر القضاة بإمكان الطيران الميكانيكى بإمكاننا علمياً . وثمة اسم عظيم آخر هو اسم كوبرنيكوس وهو بولندى (١٤٧٣ - ١٥٤٣) ، قام بأول تحليل واضح لحركات الأجرام السماوية وأبان أن الأرض تتدور حول الشمس . وقد رفض تلك الفكرة لبيغرامى (١٥٤٦ - ١٦٠١) وهو دانمركى كان يشغل في جامعة براج ، ولكن ملحوظاته عن الحركات السماوية كانت على أقصى غاية القيمة لخطاه ، وبخاصة للألفانى كبلر (١٥٧١ - ١٦٣٠) . وكان جاليليو جاليل (١٥٦٤ - ١٦٤٢) هو مؤسس علم الديناميكا . فكان الاحتقاد السائد قبل زمانه أن وزناً يكبر عن وزن آخر مرة يسقط أسرع من الثانى بمدة مرة ، فأنكر جاليليو ذلك . وبدلاً من أن يناقش الأمر بالمعادلة على طريقة الفلاسفين والاحتلامانية في عصره ، وضعه تحت الاختبار التجريبى الخشن بإسقاط كتلتين ضوئيتين من طابق علوى من برج بيزا المائل - مثبداً بذلك التوحاشيا في قلوب كل الرجال اللوذعيين من علماء عصره .

وأنشأ جاليليو ما يكاد يكون أول مرصاد (تلسكوب) ، وكذلك طور آراءه كوبرنيكوس، الفلكية ، ولكن الفكتية قروت - وهي تكافح النور بشجاعة ١١ - أن الاعتقاد في أن الأرض أصغر من الشمس وأدنى منها مرتبة ، لا يصل للإنسان والمسيحية وزناً ، ولذا حمل جاليليو على التراجع عن هذا الرأي ، وعلى إرجاع الأرض إلى مكانها الأول كمرکز ثابت لتكون لا يصحرك ١١١ . . . وقضى عليه صبة من الكرادلة بالسجن مدة من الزمان ، وأمر بتلاوة مزمار النسم السبعة مرة كل أسبوع طوال سنوات ثلاث .

ولد نيوتن (١٦٤٢ - ١٧٢٧) في السنة التي توفي فيها جاليليو . فاقم باكتشافه قانون الجاذبية ، لإزاحة السطح تماماً عن عالم النجوم الذي بين أيدينا اليوم . حل لن نيوتن يحلنا إلى صميم القرون الثامن عشر . فهو يحلنا إلى ما يتجاوز مدى الفصل الحالي كثيراً .

ومن بين أقدم الاعتقاد اسم المذكور جيلبرت (١٥٤٠ - ١٦٠٣) من كولستر



(شكل ١٦٠) جاليليو

الذي يعلو خالداً أبدياً . كان روجر باكون قد بشر بالتجريب ، وكان جيلبرت من أوائل من مارسوه . ولا يصل إلى الشك في أن عمله ، الذي كان موجهاً في حل شأنه إلى الفئاضلية ، ساعد على تكوين أفكار فرنسيس باكون ، لورد فيريلام (١٥٦١ - ١٦٢٦) ، وهو قاضي القضاة في عهد جيمس الأول ملك إنجلترا ، ولقد مي فرنسيس باكون هذا باسم « أي الفلسفة التجريبية » ، ولكن ما أثير

حول نصيبه في تطوير الجهد العلمي كان أعظم من حقه^(١) . يقول لوبر و . ا . جريجوري

« لم يكن المؤسس الطريقة العلمية بل الرسول للبشر بها » . وكانت أعظم خدمة أتاحها العلم ، كتاباً خيالياً حقيقياً ، هو كتاب الأطلانتيس الجديد (The new Atlantis) . ورئيسها يكون في كتابه الأطلانتيس الجديد يسمي في لغة كثيرة القزخرقة حافظه بانطوال شيئا ما ، خطة قصر للاختراع ، ومعبود عظيم للعلوم ، حيث ينظم طلب المعرفة يصبح فروعها على أسس ومبادئ في الثورة العليا من الكفاية .

وعن ذلك العلم اليوناني التالي نشأت الجمعية الملكية في لندن (١٦٦٢) ، التي تفتت مرموما ملكياً من شارل الثاني ملك إنجلترا في (١٦٦٢) . والقائمة - بل للزرة - الجوهرة هذه الجمعية كانت وما تزال « نشر العلم وإداعته » . ويسجل إنشائها خطوة محددة تنقل بالعلم من البحث المنزلي إلى العمل التعاوني بين العلماء ، ومن أبحاث الكيمياء إلى القياس السري المتفرقة إلى التقرير الصريح ، والبحث الجهرى ، الذى هو مصعب الحياة في الطرائق العلمية الفسرية ، ذلك أن المنهج العلمى الحق يقوم على : - ألا يفترض أى فرض لا ضرورة له ، ألا يقبل أى خبر أو بيان من غير تحقيقه ، أن تحضر كل الأدباء بأشد دقة مستطاعة ، ألا يحفظ بأى أسرار ، ألا يحاول لحد أى احتكار ، وأن يقلم الإنسان خبر ما لديه في تواضع ووضوح ، وألا ينضم إليه غاية أخرى غير المعرفة .

وأنشئ هارفى (١٥٧٨ - ١٦٥٧) علم التشريح الذى طالع نعلمه ، كما كشف اللبوة الدموية . وما لبث الهولندى ليفهوك (١٦٣٢ - ١٧٢٣) أن استكمل أول جهاز (ميكروسكوب) صانج في الكشف عن الدقائق الخفية للحياة .

وما هؤلاء إلا قليل من كثير من أسطع النجوم في ذلك الجمع للزايه من الرجال الذين نهضوا منذ القرن الخامس عشر إلى زماننا هذا ، بهمة ولادة وتشايط تعاوني لإحسانى لم يرحا بتزايدان على كثر الأيام - نهضوا لإزالة المكون أمام إصباولا ، وزادوا من سيطرتنا على ظروف الحياة .

٧ - القوي الجديد للمدن الأوربية

قد توسعت في معالجة تجميد نشاط الدراسات العلمية في العصور الوسطى ، كما له من أهمية قصوى في القرون الإنسانية . ولا شك أن دوسر يكون كان في جملة أمره أعظم أهمية الجنس البشري من أي ملك في زمانه . ولكن العالم للماصر ظل في معظم أمره لا يعرف شيئاً من ذلك النشاط المتقد تحت الرقاد في حركات البحث وقصصات المحاضرات ومطعم الكياوين القديس : ذلك النشاط الذي ندر له أن يغير كل أحوال الحياة . والواقع أن الكنيسة أدركت ما كان يجري ، ولكن لم يكن مرد ذلك إلا تحويلها عنهم احترام قرواتها الممثلة . لأنها كانت تفرح أن الأرض هي مركز خليفة الله ، وأن لباسها هو حاكم الأرض الذي لديه البناء لهذه المهمة . وقد أصرت الكنيسة على أن ذكوات الناس من هذه النشاط الجوهرية ، يجب ألا يتعرضوا أي تعليم يناقضها . ومع ذلك لمّا ما كانت تهرب جاليليو عن القول بأن الأرض لا تتحرك حتى تمت بذلك وضعت . والظاهر أنها لم تكن تدرك أن الأرض يرمم كل ما تبذل كانت تتحرك فعلاً وأن موقفها من تلك المسألة كان تدر ثبور عليها .

ذلك أن أوروبا الغربية كانت مسرحاً لتطورات اجتماعية عظيمة جداً وأخرى فكرية في كل هذه الفترة من العصور الوسطى المتأخرة . ولكن العقل البشري يفهم الحوادث بصورة أوضح كثيراً مما يفهم المتغيرات ، كما أن الناس وصلوا آنذاك كتحلهم اليوم . انفسك بتقاليدهم الخاصة بالرغم مما يلم بما حوكم من المناظر من تغيرات وتقلبات .

ومن الحال علينا في كتابنا هذا أن نكلم أحداث التاريخ الترامسة التي لا تبين بوضوح العملية الرئيسية لتطور الإنسان ، مهما بلغت من برقي وجمال . ولا بد لنا من أن نسجل القوي المتواصل للمدن كبيرها وصغيرها ، واتساع قوة التجارة والقود ، وعودة القانون والعرف إلى لصاحبها شيئاً فشيئاً ، وانتشار الأمان ، والقضاء على الحرب الخاصة التي دامت في أوروبا الغربية في الفترة بين الحرب الصليبية وبين القرن السادس عشر .

وهناك أشياء كثيرة ، تراثنا كالمسألة في تروايغنا القومية ولكننا سنضرب عنها صفحاً

وليس لدينا متسع نذكر فيه قصة المحاولات المتكررة التي بلغها الملوك الإنجليز لتتبع
اسكتلندة وتنتصب أنفسهم ملوكاً لفرنسا ، ولا من كيف استقر الإنجليز النورمانديون
في لوندنة استقراراً غير وطيد في القرن الثاني عشر ، وكيف ألحقت ويلز بالنابج
الإنجليزي (١٢٨٢) . وقد توأصل كفاح المجترة مع اسكتلندة وفرنسا طوال العصور
الوسطى جميعاً . وجمدت أزمان بها أن اسكتلندة قد انصهت إعصافاً نهائياً ،
وحدث إيمانها أن ملك المجترة كان يملك ق فرنسا من الأرض أكثر من حاضيتها
الإممية . وغالباً ما تصور كتب التاريخ الإنجليزية هذا الكفاح مع فرنسا في صورة محاولة
حاولت فيها المجترة بمفردها أن تظهر فرنسا وكادت أن تبلغ التوفيق . والواقع أنها
كانت مشروعة مشتركة قامت به جمعة مع الظلمة والباريين أولاً ، ثم بعد ذلك
مع ولاية برجنديا الفرنسية القوية لغزو تراث ميوكايت وإتسامة . . .

ولسا على أن نحدك من نشيت حمل الإنجليز على يد الاسكتلنديين في باتوكبرن
(١٣١٤) ولا عن ولیم والأس ودويرت بروس الطليان الوطنيين الاسكتلنديين ،
ولا عن معارك كريس (١٣٤٦) وبواليه (١٣٥٦) وأجيتكود (١٤١٥) في فرنسا ،
التي بشرق ضلوعها في لياك الإنجليزي ، وهي معارك صغيرة قام بها رماة نبال
أقوياء للرأس في بعض الساعات المشرفة بالزوال حزبة منكرة بالهرمان الفرنسيين في
دروعهم السابقة ، ولا عن الأمير الأسود^(١) وهنري الخامس ملك إنجلترا ، ولا عن
كيف دفعت فتاة ريفية هي جان حارك ، حنراه أورليان ، الإنجليزية مرة ثانية من وطنها
(١٤٢٩ - ١٤٣١) - فلن يقص هذا الكتاب عن ذلك كله شيئاً . ذلك أن لكل قطر
مثل تلك الأحداث القومية التي يعتز بها . فهي طائفة التاريخ التي تعلق القزبة
والزخرفة ، وليست جزءاً من البناء بأي حال . فإن راجعونا أو بولندة والمجر
والروسيا وألبانيا وفرنس والعصين نستطيع كلها أن نلاري أو نؤلف قصص ما حار على
مسرح التاريخ الأوروبي الغربي من مغامرات رومانسية يظهر فيها فرسان لا يفلون من
الأوربيين مغامرة ، وأميرات لسن أقل من الأوربيات اللئيماً ، وقبلا وصيناً لا يقل
قوة شكيمة في هذه عن تلك .

ولن نخلطك في أي تفصيل كيف أن لويس الحادي عشر الفرنسي (١٤٦١ - ١٤٨٣) ،

(١) حر إهراد : الأمير الأسود (١٣٢٠ - ٧٦) ابن إهراد الثالث ملك إنجلترا .
(الترجمة)

والذين شاول السابع صديق جان هاروك ، ألك بروجنديا ووضع أساساً للأكية مركزية
 بورتسا . إذ أن القديسنا أكثر من ذلك أنه حدث في القرنين الثالث عشر والرابع عشر
 أن البرود ، تلك الحجة للغوية ، وصل إلى أوروبا ، فاستطاع بتفعله للملك (بها
 فيهم لويس الحادي عشر) وللقانون - محملين على نصرة الملك الثامنة ، أن يعطوا
 فلاح القرمسان والبروتات الصوص نصف المطلقين في العصور الوسطى الأولى وأن
 يحسروا في أيديهم أكتات سلطان أشد تحركاً .



(شكل ١٦١) خريطة الطرق التجارية الرئيسية لأوروبا في القرن الرابع عشر

وحتى نيلام وقرمان الفترة المصيبة المقاتلون من التاريخ في بعله أثناء تلك
 القرون ، ذلك أن الحروب الصليبية استلصحتهم ، كما أفتهم أيضاً أمثال بحروب الموحدين
 من الحروب بين الأسر المالكة ، فكانت الأسهم المرسلة من أقصى الإنجليزية الطويلة

تقلد من أجسامهم ناشية لها وراحم يارعة ، وكان للشاة المملوون بهذا التورم ،
عطوئهم ويقلعون بهم إلى ميادين المزرعة ، فأخذوا يروضون أنفسهم على التعب ،
وغيروا من طبعهم . وانحسروا من الوجود وزال كل أثر لم إلا وجود اسمي في حرب
وجنوب أوروبا . قبل أن ينحسروا من ألمانيا . وذلك أن الفارس في ألمانيا ظل علواً
حصراً حتى صميم القرن السادس عشر .

وحدث إبان الفترة المنصرمة بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر في أوروبا
الثغرية ، وبخاصة في فرنسا وإنجلترا ، أن نشأت كاتدرائيات باقة كبيرة من المباني
والكاتدرائيات والأديرة وما إليها طرازها شديد التميز والجمال وهو فن العلية القوطي .
وقد سبق أن أشرنا إلى أهم خصائص ذلك الطراز . ويسجل هذا الأثر المعماري البديع ظهور
حيث من أبواب الحرف ترتبط بدايات نشوئها ارتباطاً وثيقاً بالكنيسة ، وشرح العالم
لمرة الثانية في إيطاليا وألبانيا كذلك ، يكثر من تشييد المباني بوفرة وجمال . وفي
بداية الأمر كانت أموال الكنيسة ولزوتها هي التي تقوم بمصنع هاتيك المباني ، ثم أقبل
الملوك والنبلاء أيضاً على البناء . ومن ثم ظلى جوار الكنيسة والقلمة يظهر القصر
الرفيع والمنزل

وقد حدثت في كل أرجاء أوروبا مع زيادة الثخلة ، انتشار كبير في حياة المدن
منذ القرن الثاني عشر فثلاثة . ومن أبرز هذه المدن البندقية ولبنتها راجوزا
وكورنر ، ثم جنوة وفرونا وبولونيا ويزا وطرورنسا ونابولي وميلانو ومرسيليا
ونابولي وبرشلونة ونابولي ونور واورليان وبوردو وباريس وخت وروجر وبولوني
ولندن وأكسفورد وكبريدج وسوتنجتون ودور ومانتوب وهورج وبرين وكولونيا
وماينس ونورمبرج وميونخ ولينينج وبلينج وبراغوسين ونايزج وكوتنيزج
وريجا وبيسكوف ونولجورود وويسبي وبرجن -

وكانت المدينة بألمانيا الثغرية بين عامي (١٤٠٠) ، (١٥٠٠) تضم كل ألوان
التقدم التي اكتملت للناس في ذلك الأوان ، وإن كانت - من وجهة النظر القصرية -

يوزها الشيء الكبير . . . فكانت معظم الشوارع ضيقة ، غير منتظمة الماني . وكانت
 للثقل بقي في الغالب من الخشب ، على حين كاد كل ما كن من سكان المدينة يحفظ
 بماله في منزله ، كما أن لطيف الخنازير الذي يسوقه في كل صباح راعي المدينة إلى
 للرعي كان جزءاً لا يتجزأ من حياة المدينة . . ويذكر شارلز ديكنز في كتابه
 « مذكرات أمريكية » أن الخنازير كانت موجودة في بروكساي ونيويورك في منتصف
 القرن التاسع عشر . وذلك بينما كان القانون يحرم ، في فرانكفورت على نهر المين بعد
 (١٨٨١) ، تربية الخنازير في المدينة اللدبة (Altbau) . ولكن هذه العادة ظلت قائمة
 في المدينة الجديدة (نويسباد) وفي ساكسهاوزن - كالمز هاديحت . ولم تتمكن
 السلطات من حسم حظائر الخنازير في المدينة الداخلية في ليبزج إلا في (١٩٤٥) بعد
 محاولة فاشلة قامت بها في (١٥٥٦) . وكان سكان المدن الأغنياء الذين كثيراً
 ما كانوا يشتركون في شركات التجربة العظيمة من أصحاب الأراضي الواسية الثراء ،
 وكانت لهم أبنية ضيقة بها أجران كبيرة داخل أسوار المدينة . وكان أوسعهم ثراء
 يملكون تلك البيوت الضخمة الفاخرة التي ما تزال تعجب بها إلى يومنا هذا .

« ولكن جل بيوت القرن الخامس عشر قد الدثرت حتى في المدن القديمة نفسها ،
 ولم يجد ياتياً إلا بناء هنا أو هناك يجعل فيه الخشب والطواقي البارزة بعضها فوق
 بعض ، كما في مدينة بخاراخ (Bacharach) لوفلنبرج ، وهي تذكرنا بطراق
 العمارة المألوفة آنذاك في بيوت سكان المدن . فأما الأغلبية الغالبة من الطبقة الدنيا من
 السكان ، الذين كانوا يعيشون جيش القبول ، أو يحصلون على معاشهم بممارسة
 الصناعات الدنيا ، فكانوا يسكنون أكواماً قليلة خارج المدن . وكثيراً ما كانت
 أسوار المدينة هي الدمامة الوحيدة لهذه الباني المسنة . وتعتبر تنظييات ومرافق المنزل
 الداخلية حتى عند السكان الأغنياء ، ناقصة ومبينة جداً من وجهة النظر العصرية ،
 كما أن الطراز القوطي كان مكيفاً بشكل رائع لبناء الكنائس وقاعات البلديات
 بقدر ما كان أقل الطرز صلاحية لإبراز التفاصيل الصغيرة في وسائل الترف . على أن
 عصر النهضة أعاد الشيء الكبير من وسائل الراحة إلى البيوت .

« وشهد القرنان الرابع عشر والخامس عشر بقاء عدة كنائس المدن وقاعات البلديات (١) لحرطية الطوائف في كل أرجاء أوروبا ، ما تزال في كثير من الحالات مختم الغرض الأصلي للنفوذ منها . ولا أدل على قوة المدينة ورمطها من هذه المباني والتحصينات ، بما حوت من أبراج قوية وبوابات ضخمة ، وما من صور للمدينة في القرن السادس عشر أو ما بعده من تهرؤ إلا وتظهر بشكل بين هذه النماذج الأسيمة المبينة لحماية المدينة وتشرطها .

« وكانت للمدينة تتولى أشياء كثيرة تقوم بها الدولة في زماننا هذا . فكان إدارة المدينة كانت تتولى المسائل الاجتماعية أو يتولاها ما يقابل ذلك من مجالس بلدية . وكان تنظيم الحرف من اختصاص للبلديات بالاتفاق مع المجلس ، على أن الثانية بالفقراء من شأن الكنيسة ، على حين كان من واجب المجلس وقاية أسوار المدينة والحماية بفرق الطوائف المنظمة للضرورة والأهمية . وتلقا من المجلس إلى حناجه بواجباته الاجتماعية ، فانه يشرف على مله غارة المحبوب التابعة للبلدية ، لكي يكون لديه الطعام اللازم في سنوات الفتح . ولم تحمل مدينة واحدة من هذه المفازن تقريبا إبان القرن الخامس عشر ، ولم ينقطع قط صدور تعريفات لأمطار بيع السلع كلها ، وهي على درجة من الارتفاع تكفل لكل صانع ماهر أن يكتب رزقا طيبا ، وتضمن المستوى جودة صنف السلطة . وكانت للمدينة كذلك هي للممول الرأسمالي ، وبالاتزامها بيع المراتب السنوية على الحياة وعند الميراث ، أصبحت تقوم بعمل البنوك وتحمل بقاء لا حد لها . وكانت تحصل مقابل تلك التسهيلات على المال اللازم لاقتناء التجهيزات أو للحصول على حقوق السيادة من يدى أمير مقلد » .

« وكانت هذه المدن الأوروبية في معظم شأنها جهويات أرمستراطية مستقلة أو شبه مستقلة . وكان معظمها يعترف بسيادة طليا مبهمة من جانب الكنيسة ، أو الإمبراطور أو أحد الملوك . على أن بعضها الآخر كان جزءا من ممالك ، أو حتى حواصم

(١) قاعة البلدية Town Hall ، من عام يحصل لاجتماع مجلس المدينة ولأملاك أخرى .
(التاريخ)

دوقات أو ملوك . وفي مثل هذه الحالات كانت حرياتنا الداخلية مكفولة الاستمرار بأمر ملكي أو إمبراطوري . وفي إنجلترا قامت على نهر التيمز مدينة وصنعت الملكية ملاصقة تمام الملاصقة ولذا مساوية لمدينة لندن المسورة ، التي كان الملك لا يدخلها إلا بإذن ومراحم خاصة .

وحسبت جمهورية البندكية المستقلة إمبراطورية من البحار التابعة والغزيرة التجارية ، على طريقة قنارب طريقة الجمهورية الأينية . كذلك كانت جنوا منفصلة وحدها .

وكانت المدن الألمانية في منطقة البلطيق وبحر الشمال من روسيا إلى ميديبرج في هولندا وبرغولد وكولونيا متحدة اتحادا كاتدراليا مفككا ، هو الاتحاد مدن الهانزا ، تحت رعاية هامبرج وبريمن ولوبيك ، وهو اتحاد كان ارتباطه بالإمبراطورية أضعف واشد تفككا . وقام هذا الاتحاد الذي يحوي على أكثر من سبعين مدينة في مجموعها ، والذي كانت له مسودحات في نوفيغورود وبرجس ولندن وبروج ، يملأ الجهد الكثير للاحتفاظ بالبحار الشمالية خالية من القرصنة ، تلك القصة التي تكب بها البحر المتوسط والبحار الشرقية .

وكانت الإمبراطورية الشرقية إبان دورها الأخير بأكمله ، منذ الفتح الثاني لأراضيها الأوربية هاليقان في القرنين الرابع عشر وأوائل الخامس عشر حتى سقوطها في (١٤٥٣) ، تكاد تقتصر على مدينة القسطنطينية التجارية ليس غير ، فكانت من ثم دولة مدينة وحل جنوا أو البندقية ، لا يفرقها عنهما إلا وجود بلاط إمبراطوري فساد برهقها وطفل كاهلها .

وقد بلغت حياة المدن تلك في الصور الوسطى المتأخرة ، أعلى قوى تطورها وخصائصها في إيطاليا . فبعد انقراض أسرة هوهنشتاوفن في القرن الثالث عشر ، خضعت قبضة الإمبراطورية الرمانية المتخمة على همال ووسط إيطاليا ، وإن ظل الأباطرة الألمان - كما ستذكر فيما بعد - جويجون ملوكاً وأباطرة لإيطاليا حتى زمان شارل الخامس (قرابة ١٥٣٠) . ونشأ عند من حول مدن شبه مستقلة ، إلى الشمال

من روما العاصمة الباهية . ولكن جنوب إيطاليا وصقلية ظلتا مع ذلك تحت السيادة الأجنبية . وكانت جنوة ومثالبها البندقية أكبر الموانئ التجارية في ذلك العصر ، وما تزال قصورها الفخمة وقصورها الفاخرة تغطي بإحسانها . واتسعت كذلك ميلانو عند مدبح بحيرة جواردا فازت بالزهور والفتوة . ولعل أسطع المدن ضياءً في كل تلك المجموعة من النجوم الإيطالية ، مدينة فلورنسا ، وهي مركز تجاري عالمي ، حظيت بمصر كعصر ، بريكليس ، تحت حكم عائلة ميديشي شبيه الملك في القرن الخامس عشر . على أن فلورنسا انتهت قبل زحان هؤلاء الكبراء ، الميديشيين المتفلسفين ، الكثير من آيات الفن الجميل . لأن برج جيوتو^(١) (١٢٦٦ - ١٣٣٧) ومبنى ديومو (الذي حله بروناتسكو ، ١٣٧٧ - ١٤٤٩) كلاهما موجودين قبل عهدهم . وقد أصبحت فلورنسا قرب نهاية القرن الرابع عشر ، مركز اكتشاف فنون القلعة واسترجاعها وهماكتها . على أن نهضة الفنون التي قامت فيها فلورنسا بدور عظيم كبير ، من الأوفر أن نتكلم عنها في قسم تال .

A - النهضة الأدبية

يرتبط هذا النيقظ العام الجليل الذي لم بالكاه الأوربي الغربي انفجار عظيم في الأدب الانساني الخلاق . ولقد سبق أن لحظنا ظهور الأدب في اللغة الإيطالية بفضل مبادرات الإمبراطور فريديك الثاني . وفي نفس الوقت كان الفيلسوف الروماني^(٢) في كل من شمال فرنسا وبرولانس^(٣) يفكرون الفهم إلى نظم الشعر بالهجات الشعبية والبغوية ، ومما أغنى الحب والأغاني القصصية وما شاكلها . وقد انضجرت هذه الأمور جميعاً ، إن صح لنا هذا التعبير ، كتيار سفلي يجري تحت ميل إلى كتابة اللاتينية وقرائنها . وكان صلورها عن النقل الشعبي وعن النقل المهنون المرسل على مسجته وليس عن النقل المتعلم . وولد بفلورنسا في (١٢٦٥) ، دانتى أليجييري ، الذي انتهى أمره إلى

(١) برج جيوتو (Giotto) : هو برج الحبر بتقديرة فلورنسا .

(الترجم)

(٢) فلورديادور : مفكر جرافون في القرون الوسطى ينسب إلى الأدب . (الترجم)

(٣) برولانس : قسم إيطالي من فرنسا للطل على البحر المتوسط . (الترجم)

الحق بعد نشاط سياسي حثيف ، ثم كتب بين ما كتب من أعمال ، قصيدة وصيغة جولة في شعر إيطالي مُقتفى ، هي « الكوميديا » ، وهي وفي من الإشارات الرمزية والأحداث المخلطة غير المترابطة والبحث الدقيق . وهي تصف زيارة الجسم والمظهر والفردوس . وما يتوحد بملاتها بأدب الأجداد اللاتيني اتخذ داني من لرجيل دليلا يهديه في المناطق السفلى (أعلى الجحيم) . وهي في ترجمتها الإنجليزية المختلطة تسبب القارئ ضللا وسمة ، ولكن أهل الفكر الذين أوتوا من العلم ما يسمح لهم بالتغيب في الموضوع لا يكادون لشرط إصجابهم يستطيعون أن يصروا عما يحسونه لزاء الجهل الرابع ، واللغة والحكمة التي تدبلي في الأصل . وقد كتب داني أيضا باللاتينية في المسائل السياسية وفي الدفاع من حق اللسان الإيطالي بأن يد له أدبية . فوجه إليه نقد لاذع لاستعمال اللغة الإيطالية ، وأنهم بعدم القدرة على كتابة الشعر باللاتينية .

وبعد ذلك بزمان وجيز أنط بترارك (١٣٠٤ - ١٣٧٤) كذلك يكتب الأهازيج (Sonnets)^(١) والقصائد الغنائية Odes باللغة الإيطالية بما أفارحية يجمع من بلغ من الثقافة حتما يمكنه من التأليف بها . مثال ذلك ما كتب جون أدينجتون سيمونلنسي : « إن الغنائية في قصيدة حياة المادونا لورا وولتها (Vita e Morte di Madonna Laura) لا يمكن أن يتقدم عليها العهد مهما طال الزمن ، وذلك لأن الصيغة السروضية البالغة حد الكمال قد قرنت فيها إلى الألفاظ المختلطة لخاصية » . على أن القصائد عثرتنا في ذلك من أمر وجود المادونا لورا ، وكان بترارك أحد جماعة من الإيطاليين الذين تأثروا بجامعين في استرجاع أبعاد الأدب اللاتيني . وإن كتاب معالم تاريخية كهنا قد لا تستطيع فيه هذه الأبعاد أن تبلغ حد السمو التي لاحت به في حين جعل من الإيطاليين أهل يفتح صيته ثانية على ما لجمال الأدبي من روعة جز الأنفس . ثم خوت عملية الكتابة بالإيطالية ردها من زمان انتهى أثناءه تأليف باللاتينية . فكتب بترارك ملحمة باللاتينية هي « أريفا » . وظهر محصول ضخيم من الكتابة الكلاسيكية الكاذبة (Pseudo-classical) ، وهي ملاحم ومآسي (تراجيلديات) زائفة ومهازل (كوميديات) زائفة باللاتينية ، لاشك

(١) الأمازيج أو السونينات : ضرب من القصائد الأثرية مكون من ١٤ بيتا وله بحر خاص . (المترجم)

في شبهها الكبير بالأمطار واكثر الليالي الممتلئة التي يصدر في الإنجليزية من بعض اللوهويين من شباب الخنود . ولم يحدث أن عاد الشعر الإيطالي من جديد إلى رفعة وتميزه إلا بعد ذلك زمن ، يظهر بوياردو ثم كروستو (١٤٧٥ - ١٥٣٣) . ولم تكن قصة آريوستر الحياة (أورلاندو فوريوسو) إلا الآلة المثيرة لعند هم من القصائد الرومانسية القصصية التي كلفت لتدخل البهجة إلى قلوب قراء عصر النهضة التعليل الاطلاع . وكانت هذه القصائد القصصية تعترف على الدوام بالفضل للويه بإشارتها ومحاكاتها بشكل ما لتقاليد الملحمة الفرجية المصطنعة ، التي هي في حد ذاتها عمل جليل يتطوى على المحاكاة وموغل في الاطلاع . وتتكون كتلة هذا الأدب من الكوميديات والقصيدة القصصية ، والقصائد القصيرة في أشكالها المتنوعة . ولم يبلغ الشعر من التكلف والعمالة الدرجة التي تحيطه موضع استعصان القناد .

وكذلك رأت على تيقظ الحياة الأدبية في المجمع الناطق بالفرنسية ذكريات للأدب اللاتيني . وكان هناك بالفعل أدب من الأغاني المرحية كتب في فرنسا ببلاتينية القرون الوسطى ، وهي أغاني الحان والطريق (وهي ما يسمى بالشعر الجولياردى في القرن الثالث عشر) ، وظلت روح هذه الكتابة الأصلية تعيش في الأشعار الصادقة التعبير لشعراء مثل فيلون Villon (١٤٢١ - ١٤٦٣) ؛ ولكن اهتمام الدراسات اللاتينية انقل من إيطاليا وفرض التكلف على الناس عامة اللهم إلا أصحاب أقوى العقول ، وتأسس أسلوب حكم فيه شيء من جلال للباقي المجردة الأثرية . وأندقت قصائد ظاهرة وروايات تمثيلية كلاسيكية قصصها إلى استكارة إعجاب التكلف (الأجيال التالية) أكثر من إدخال السرور عليهم . ومع هذا فإن حصرية الحياة الفرنسية لم تنصير اهتماماً تاماً على هذه الممارسات الرفيعة ، فإن نراً يتصف بالامتياز والبرودة قد ظهر . وكتب مونتيني (١٥٣٣ - ١٥٩٢) ، وهو أول كتبي المقالات ، كتابات لطيفة عن الحياة وكربة من السلام ، واتهم رابليه (١٤٩٠ - ١٥٥٣) كسبل من الحسم المروق للصالح المضحك ، لتضجر محطاً ما للعلماء المتحللين في حصره عن مظاهر الكرامة واليالة .

لماذا في ألمانيا وولادة فإن الدواغم الفكرية الجديدة جاءت في نفس الوقت تقريباً التي تجلت في الآثار السياسية والدينية الفخمة للإصلاح اللوثي ، كما أنها أنتجت أشكالاً روسها الفنية أقل نقاء . يقول ج . أدينجتون ميونس : إن ليراموس (ليرازم)

هو المثل العظيم لعصر النهضة في هولندا مثلاً كان لورن ألتاي ، ولكنه لم يكتب بالهولندية بل باللاتينية .

وحدث في إنجلترا انفجار في النشاط الأدبي يرجع إلى القرن الرابع عشر . فأتبع جفري شوسر (١٣٤١ - ١٤١٠) شعراً قصصياً متمماً نهج فيه بشكل ظاهر نهج النماذج الإيطالية ، على أن قدراً كبيراً من الشعر القصصي الرومانسي كان موجوداً من قبل . ولكن الحروب الأهلية وحروب الوردتين والوباء والمنازعات الدينية قضت على هذه البداية الأولى ، ومن ثمة لم يدخل الأدب الإنجليزي مرحلة الحياة القوية إلا مع استئصال القرن السادس عشر بعد عهد هنري الثامن . فحدث في سهل الأمر انتشار سريع للدراسات الكلاسيكية وسيل من الترجمات عن اللاتينية والإغريقية والإيطالية بحث الخصب في الأنهار . وظهر محصول فجائي من الكتابات الإنجليزية الممتازة . وأخذ الكتاب يداهبون اللغة الإنجليزية ويختبرونها ويصقلونها . وكتب مهنر قصصه (القبري كمين) ، وهي عمل رمزي عمل له جمال زخرفي عظيم . ولكن الدراما في أيام الملكة إليزابيث ، كانت المضمار الذي وجدت فيه للمعبرية الإنجليزية خير مجال للتصير من نفسها . لم تخفص قط تقاليد الكلاسيكية ، بل كانت الدراما في عصر إليزابيث شكلاً ثو قالياً أدبياً جديداً أنه اكتمالا وأتم تحرراً وأعظم قوة وأفضل بالسمعة الطبيعية الثامة . ووجدت في شكسبير (١٥٦٤ - ١٦١٦) خير من يجلبها إلى أقصى حد ، وهو رجل كان لديه لحسن الحظ ، القليل من اللاتينية والأقل من الإغريقية ، وكانت أجزل قرائه وأفضلها بالراحة مستقاة من الحياة المتواضعة بل حتى السوق ، كان رجلاً ذا فكاكة حادة وحلاوة ذهنية عظيمة ، يحول كل جملة يكتبها لحناً شجيلاً ، وولد ملتون (١٦٠٨ - ١٦٧٤) قبل وفاة شكسبير بثمانية أعوام . وقد أسبغت دراساته الكلاسيكية الأولى في صباه على كل من شعره ونثره سمعة مختلفة من الكبرياء والسخامة لم تزل منهما قط زوالاً تاماً . رحل إلى إيطاليا وشهد دوائع التصوير في عصر النهضة . ورسم تصاوير والمنازل ومبشيل انجلو شعراً إنجليزياً ذاقاً دونه في ملحنيته العظيمة ، الفردوس المفقود ، والفردوس المستعاد . ومن حسن حظ الأدب الإنجليزي أن شكسبير جاء ليوارن ملتون وينقل قدراً كبيراً من الروح الجوهرية لذلك الأدب من التشبع بالروح الكلاسيكي .

وأنتجت البرونزال بلصة نالتها من النهضة الأدبية ، ملحمة الويسادة التي وضعها كاميوتس (١٥٧٤ - ١٥٨٠) ولكن كان من حسن حظ أسبانيا - شأن إنجلترا - أن وجدت رجلا ذا حقيرة فائقة ، لا يضل فرط العلم كملعه ، يبرها عن روحها . فرانز لانغ (١٥٤٧ - ١٦١٦) تناول بسخرة الفكاهات والسخرافات التي آثارها في رأس رجل هزيل قهير نصف مجنون ، نزاع نشب بين تقاليد القروسية في العصر الوسيط وبين احتجاجات الحياة السوقية وواقعها . وإن بتقليدته دون كيشوت وسانكويزا - شأن بطل شكسبير السير جون فالستاف وبطله خوسر زوجة باث ، وبطل رايبله جارجتوا - ليقصان كرامه الأديب للشكل القديم وبطلاته مدحليين عليها الحرية والضحك . وإنهما ليقصان خلالها كذا انتم روجر باكون والرجال القليبيون علم السلاء المدرسين المحدث على الكعب وحدهما ، وكذا انتم للمصورون والمثالون الذين متكلم عنهم فيما بعد ، القيود والتضيقات الزخرفية والزام الاحتكام للنقش في فنون المصور الوسطى . ولم تكن الحقيقة الجوهرية التي اجلبها عصر النهضة هي الروح الكلاسيكية بل إطلاق السراح وتخليص القيود ، ولم يكن إحياء العلوم اللاتينية والإغريقية إلا إسهماً في القيم الإيجابية لعصر النهضة ، لا تلك القيم من تأثير عصر التقاليد الكاثوليكية والقومية والإمبراطورية .

٩ - النهضة الفنية

لا شك أن ما يجاوز مجالنا وحيدونا أن ننظر النهضة المتعددة في الفنون الحلية والزخرفية في هذه الفترة العظيمة من الانعاش البشري العام ، وأن نقبل كيف كَيْفَ الفن القوطي للشمال إلى الفن البلديات والمباني العامة ، ثم كيف أدخلت عليه التعديلات ، واستبدل إلى حد كبير بأشكال مستقاة من الفن (الرومانسكي) الإيطالي ، ومن إحياء التقاليد القديمة في إيطاليا . ولم يحدث قط أن مالت إيطاليا إلى الفن القوطي الذي اجتاحتها من الشمال ، أو إلى الأشكال العربية التي دخلها من الجنوب . وفي القرن الخامس عشر تم اكتشاف الكتابات اللاتينية التي ملأها قروفيوس (Vitruius) في من المأزق ، وكانت منها قوياً زاد في عمليات التغيير التي كانت تجري فعلاً .

فالتفكرت المؤثرات الكلاسيكية القديمة التي كانت تهيمن في الأدب بقوة ، متفلة إلى علم الخلق والابتكار الفني المنفرد بالنشاط آنفاً .

ولكن كما أن الاتصال الأدنى قد سبق إحياء الدراسات الكلاسيكية (إحياء العلوم القديمة) ، فقد جرى كذلك أن البهجة الفنية بلغت أقصى مراتب تقدمها قبل اتجاه الأنظار إلى الفن التمثيلي (١) الكلاسيكي . فإن أوروبا أخذت تهتم فيها على الترويج منذ أيام شرلمان بروث الميل إلى المحاكاة التمثيلية للطبيعة وإظهارها على الفن الخزفي . فحدثت بألمانيا إبان القرنين الثاني عشر والثالث عشر تطور قوى في فن التصوير ، وأضحى به تصوير أحياء حقيقية على الخشب . فلما في إيطاليا - حيث كانت الأشكال المعمارية تلج لأهل الفن براحاً أرحب عما يليقها الفن القوطي ، فإن أهمية التصوير على الباطن كانت تزايد . وقامت أول مدرسة عمدة التصوير الألماني في مدينة كولونيا (١٣٦٠ فالتألف) . وبعد زمن غير كبير ظهر في هولندا الأخوان هوبارت وجمان فلان آيك (قرابة ١٣٨٠ - ١٤٤٠) . ويمتاز عملهما بالإسراف والتفرد والبهجة وهو يشبه ما في كتاب القديس (ليو لاجي) من تصويرات . ولكنها حرة تنفخ الهواء على السطوح الأرحب لوحات الصورة (Panels) .

وكان تشابريه (Cimabue) يصور في القرن الثالث عشر ، وهو أستاذ جوتو (١٢٦٦ - ١٣٣٧) ، الذي يبرز بوصفه الشخصية الرئيسية المبكرة في تلك المرحلة الأولى من مراحل نهوض الفن إلى صافي عهده . وهي مرحلة بلغت ذروتها في شخص فرا أنجليكو دا فينولي (١٣٨٧ - ١٤٥٥) وختمت به .

وعند ذلك ابتدأ في إيطاليا وبخاصة في فلورنسا ، بحث علمي بالمعنى الدقيق في الوسائل الفنية للفن التمثيلي الواقعي . ولا حاجة بنا أن تؤكد بقوة أن جوهر التغييرات التي كانت تحدث في الفن والنحت في أوروبا في عصر النهضة هو المختل عن الاعتبارات الجمالية والامتصاص بالاعتبارات العلمية ، وهي حقيقة نجاهلها على الدوام

(١) على التمثيل Representative art : هو مجموعة فنون الرسم والتصوير والتكوير ونسج والتفصيل لأنه يمثل الطبيعة والحياة . (للتفصيل)

جميع الكتب التي تبحث في القنود . فلما في مكان عصبم الحليات وصوغ أشكال الزخارف بما فيها من شكلية وفهردي وجمال ، بحث وولد الواقع كان في غير أحواله جرياً بديعاً وغالباً ما كان عشقاً صريحاً إلى حد موت . فعلى الجدران والأحجار ظهر من جديد ما للجسم الإنساني في هيئة الساذجة من تماس ولذوة حركة يمسد أن نفس حليها الفن الغربي وجعلها الفن البيزنطي . لقد أعطت الحياة تلب تلبية في الفن وأعطت من نورها لنفسه وتصورك وتصيب عرقاً ونزقى الإشارات المعبرة . ودعوت مشاكل المنظور ووجدت لها الحلول ، وشرح للمسودون لأول مرة مع التمكن والاطمئنان في أن يمثلوا « العشق » في الصورة . وأخذ الفنانون يدرسون الحكيم التشريعي البدن دراسة استقصاء مدققة . وقد ظل الفن فترة من الزمان محلاً سكره خمر التفتيل التفكيك . فأقبل المسودون حل التفاصيل يظهرونها إظهاراً دقيقاً صادقاً - الزهور والجواهر ، والفنيات في التفاه والانسكسات في الألبام الشغافة . ووصل الفن إلى دور من الجبال للزخرف المتطرف وتجاوزة .

وليس في إمكاننا أن نتقونها النص المتواصل لهذه النواحي المبتدعة خلال المداوس المختلفة بمدن إيطاليا وجمال ألمانيا ، ولا أن نتأثر التفاصيل المتبدعة بين جامعات المسودين الفلمنكيين والفنورنسيين والأمبريانيين^(١) وغيرهم . ومنقصر فقط حل ذكر أسماء بعض كبار أمثلة القرن الخامس عشر الفلورنسيين ، فيلهيولبي وبوتشلي وفرنساچو ، والأمبريانيين : سلودلي وبروجيو ومانتيا . فلما ماتيا (١٤٣١ - ١٥٠٦) زاله بزم جيماً لأن الإنسان يلسط في عمله وحده أكثر من أي معاصر له ، روح الفن القديم الكلاسيكي المنرجعة . ولأنه في غير أحواله لصراحة لا تتجلى .

وظهر مع القرن السادس عشر ليوناردو دافنشي (١٤٥٢ - ١٥١٩) الذي أسلفنا لك القول في آرائه الطمعية . وكان هناك في نورمبرج شخص فودوح قريبة من روحه هو ألبريخت دورر (١٤٧١ - ١٥٢٨) . ولوقوع فن البنتقية إلى فورة مجده ،

(١) الأمبريانيون (Umbrians) : نسبة إلى أمبريا وهي منطقة بوسط إيطاليا .

بفضل كل من تبيان (١٤٧٦ - ٢ ١٤٧٦) وثورنتو (١٥١٨ - ١٥٩٤) وويل
فيلوليزي (١٥٨٢ - ١٥٨٨) . ولكن ليس معنى القارئ في كثير ولا قليل أن تقوم
بسرود الأسماء له ، ولن تستطيع أجود صور مستنسخة لم ، نفعها للقارئ ، أن تقدم
إليه إلا إشارات قليلة من دكة وكيف وهؤلاء الأمثلة ، وما تستطيع بواسطة المطبعة
إلا أن تذكر حلاتهم العامة بالفن والحياة بوصفهم عوامل في اتجاه جديد نحو الجسم
والأشياء المموصلة . ولا يد للقارئ الدارس من الرجوع إلى صورهم الأصلية يطلب
فيها بنفسه إحراكاً واثباتاً لمهامهم المميزة . وربما أشرنا له إلى صورة تبيان المعروضة
بالاسم غير المطابق لها ، وهو الحب الطاهر والحب الدنس ، أو إلى مختلف
صور السمات (Sfadya) وإلى «خلق آدم» التي رسمها مايكلا نجلو على سقف كنيسة
السين ، بوصفهم من أهدح أزاخير تلك الروضة فتة وجالا ، وانتقل من التصوير
إلى انجذرة على يد هانز هولبين الألماني (١٤٩٧ - ١٥٤٣) ، وذلك لأن انجذرة قد
بلغ بها التفرق في الحرب الأهلية حداً لم تستطع معه أن تظل في كتفها أية مدونة للفن ،
كل شيء مجرد زبارة طابرة . بل إن عصر الملكة إليزابيث نفسه - وناعيك
بتراته في الأدب وبخصبه في الموسيقى - لم يفتح أى تصوير أو تحت يمكن أن يقرأ
بمباشرة في إيطاليا وفرنسا . ولم تلبث الحروب والشغب السياسي أن عوقت من ألمانيا
عن التذمم ، ولكن المدافع الثقى الفلمنكى استمر إلى رويسز (١٥٧٧ - ١٦٤٠) ،
ورامبراندت (١٦٠٦ - ١٦٦٩) ، وإلى حدود عظيم من مصوري البلوى (١)
البهيج والمناظر الطبيعية البرية الذين أنتجوا صوراً زينة في غرب أوروبا الأقصى ،
والذين كان إنتاجهم فيها في روحه وموضوعه شها عجيباً بطائفة من اللام
الصور الصيفية دون أن يكون هناك أى احتمال لوجود علاقة أو نقل أو
عكاسة . وربما كان هذا القائل واجبا إلى وجود تماثل ما قامض في الظروف
الاجتماعية .

وألحقت حفلة مصوري إيطاليا تنحلو ونخبو منذ نهاية القرن السادس عشر . الموت
حلمة الناس ولحسانهم بطرارة تصوير الجسم الإنسانى المنور بالضياء بكل ما يحتمل أن
يحتويه من ثبات ، ومن امتداد ومن التضمير الأماي (Extension & Foreshortening)

(١) بلوى (Genre) . لوح وطوال من تصوير مناظر الحياة العامة . (المدرج)

بين أحضان خلفيات (Backgrounds) لما نصاحه وإشراق بفوق ما الطيبة من إشراق .
 كما أن مبررات اعتماد النحت والأماطير (الميثولوجيا) الكلاسيكية موضوعات لقائيل
 التي تمثل الترميزات الجيائية قد استكشفت أغراضها إلى حد كبير . ولم تعد تستثير العقول
 الأصلية الصور التي تقوم بممثل الفضائل والرخائل والفنون والعلوم والمثلن والأهم
 وما إليها بأشكال نسائية مكشوفة كشفاً حراً ومقدمة في هيئ تسرا الأعين ؛ وظهر
 طراز من المترفين أقل ميلا للاجتهاد ولغند في ممارسة الفن قائماً بتصوير صور كانت
 في خبر أحوالها مجرد مطلولة لصور موجودة من قبل . فأما فن النحت الأوربي الذي
 تطور ببطء بطيخ طبيعية في ألمانيا وفرنسا وإيطاليا منذ القرن الحادى عشر لما
 أحقه من قرون ، والذي كان أنتج أعمالاً ممتازة من أمثال ملائكة الكنيسة المقدسة
 بيليس ، تمثال القورس لكان جراندى في فيرونا ، وتمثال كُبورى في البندقية (اللى
 صنعه فيرونشيو وليوناردى) - فلم يلبث أن جوفته أمامها المحاولات التي أنفقت
 لإحياء الصفات الخاصة التي تتأخر بها صناعة التماثيل الكلاسيكية التي كان الناس عند
 ذلك قد استخرجوها من الأرض ولعلوا ينظرون إليها مصيبن . فأنج مايكلا نجلو
 وهو مسكران بنشوء هذا الإلهام أعمالاً بالغة الطرورة في القوة والكرامة مع تمكن في
 تكوينها للتشريح لا يفتى له خباروهى أعمال أدخلت خلفاه ودفعتهم إلى التقليد .
 فأوردهم ذلك موارء القصور . ومع تقدم الزمن بالقرن السابع عشر أخذ فننا التصوير
 الأوربي والنحت يتفخنان لنفسهما ممة الرياضى الذى أفرط تحريراً حتى بلغ حد الإحياء ،
 أو العودة إلى أفرط في التفخيم .

على أن ساجات الخاص للمادية تقدم فن المهارة عند ما تضمحل الفنون الأكل منه
 ضرورة ، ولذلك تواصل إبان القرنين السادس عشر والسابع عشر إنتاج مستمر
 منوع لمبان دقيقة جميلة في كل أرجاء أوروبا . وفي نذكر لك إلا اسم بالاديو
 (١٥١٨ - ١٥٨٠) ، الذى تملأ أعماله مدينة فينيزا مسقط رأسه ، وهلى نشرت
 كتبه وتعاليمه في كل أنظار أوروبا تقريباً أسلوبه الكلاسيكى المبث حياً . وإنه ليحاكى
 بنوعاً عظيماً فيض بالانكسار المهارية . ولما يستطيعنا هاهنا أن قص أثر الترميمات
 والتغييرات المعلقة التي آلت بمجارة عصر النهضة والتي استمر تطورها استمراراً طبيعياً
 ومعاصلاً حتى زماننا هذا .

ولم يكن فن التصوير في إسبانيا باباً أصيلاً في أراضها كما كان حاله في شمال
ألمانيا وإيطاليا . فإن المصورين الإسبان كانوا يهتمون بإيطاليا للدراسة ثم يعودون بها
بمنهم . ولكن حدث في النصف الأول من القرن السابع عشر ، في البلاط الإسباني
المخلص الذي كان ما يزال عضلاً بآرائه ، أن أودع التصوير الإسباني شخص
ليلاسكويز (١٥٩٩ - ١٦٦٠) العظيم الأصل . فكانت له إلى الأشياء نظرة غماز
بالطرافة والتعبد للباشر إلى الغاية ، وكانت في مرفأه قوة جديدة ، فهو - وبشاركه
في ذلك رامبراندت الهولندي - يبرز متفوقاً على بقية مصوري عصر النهضة في الروح
والكيف كما أنه يسير في طريق أقوى ما أنتجت آخريات القرن التاسع عشر وما أخرج
زماننا هذا من أعمال .

١٠ - أمريكا تدخل التاريخ

سقطت التسلطانية في (١٤٥٢) كما أسلفنا إليك القوم . وظل الضغط التركي
على أوروبا طوال القرن التالي تقريباً لا ينقطع . فإن الحد الفاصل بين المغول والآري ،
الذي كان يمتد في مكان ما شرق مضيق البلب في أيام هريكليس ، تراجع عند ذلك
إلى هنغاريا . وتحولت التسلطانية رداً طويلاً من الزمان إلى مجرد جزيرة من
المسيحيين تحيط بها شبه جزيرة البلقان التي يحكمها الترك : وأغشى سقوطها إلى حرفة
التجارة مع الشرق إلى حد كبير .

فلما مدينة البحر المتوسط المتناقصان جنوة والبندقية ، فكانت الأخيرة منها على
وجه الإجمال أحسن حلاقة بالترك من الأولى . لذا كان كل ملاح جنوى ذكي مستاءً
من احتكار البندقية - حجارة في البحر المتوسط ، ويحاول أن يستلب طريقة لاختراق
قطاع ذلك الاحتكار أو للدوران من حوله . وظهرت عند ذلك شعوب جديدة كثيرة
هويت التجارة البحرية ، ومالت إلى البحث عن طرق جديدة تؤدي إلى الأسواق
البعيدة ، وذلك لأن الطرق المقيمة كانت مغلقة - وجوهم .

فكان البرتغاليون مثلاً يطردون تجاراتهم بإزالة شواطئ المحيط الأطلسي .
ولما أغلقت ذلك المحيط يستيقظ من جديد بعد مدة إهمال متراصة ترجع إلى ألوان « مقتل »

قرطاج على يد الرومان . ومن السير علينا الفصل فيها إذا كان الأوربي الغربي يتطلع إلى المحيط من ثقافته أم كان يطمح الأثر إلى فعله ، وهم الذين كانت لهم السيادة في البحر المتوسط حتى يوم معركة ليبانتو (١٥٧١) . فإذ السفن البندقية والبحرية كانت تتسلل بمحاذاة الشواطئ حتى تبلغ انطورب (١) ، وكان ملاحو مدن ألمانيا أدخلوا ينحدرون جنوباً ويوصفون بجاهلهم . وحدث أثناء ذلك تطورات ضخمة في فنون الملاحة وبناء السفن ، ولا يخفى أن البحر المتوسط بحر قواصم (٢) وملاحة ساحلية . ولكن المحيط الأطلسي وبحر الشمال ، أكثر ريفاً ، وأشد موجاً والشواطئ فيها في كثير من الأحيان مصادرة أكثر منها كمتاحي به . فاستلحت البحار العالية وجود السفينة القراصية للضخمة ، ومن ثم يتم ظهورها في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، ونحتر البحر مسترشدة في طريقها بالبوصله والنجوم .

وكان لبحار ألمانيا عندما وافى القرن الثالث عشر يقطنون بانتظام عبر البحار الجارية الشبهاء ، من يرجن إلى أهل الشمال مكان أيسلندة . وعرف الناس من أيسلندة خبر جرينلندة ، وكان الرحالة المغامرون قد وجدوا من زمان مدينة أرضاً أخرى غطتها ، هي فيلندة ، حيث المناخ لطيف مطبل وحيث يستطيع الناس أن يزلوا ويستقروا إن آثروا أن يقطعوا الصلة بينهم وبين بقية الجنس البشري . وفيلندة هذه إما أن تكون لوقاسكوتشيا أو ، نيوانجلند (٣) وهو الأرجح .

وكان المتجولون البحارة في كل بقاع أوروبا في القرن الخامس عشر يقفون الفكر في شأن طرق جديدة تقضي إلى الشرق . وكان البرتغاليون يسيطر على جرحالين بأن للفرحون نحاو قد حل المشكل قبل زمانهم بمصور مدينة : : أليس في الإمكان أن يصل الناس إلى الهند بالنوران حول ساحل أفريقيا ؟ . وأثبت سفهم (١٤٩٥) نفس الطريق الذي سلكه هانوا إلى رأس هرمدي ، فانتقلوا في البحر غرباً ووجدوا جزائر الكاناوي وماديرا والأزورس . وكانت تلك خطوة طويلة نوعاً ما عبر الأطلسي . يقول السير هاري جونسون متحدثاً عن هذه المغامرات البحرية في المحيط الأطلسي الشرق وبمحاذاة الشاطئ الإريقي الغربي : : إن البرتغاليين قد سبقهم في القرنين

(١) وهي بالفرنسية أقروس ، وتقع الآن في بلجيكا . وكانت لها أهمية تجارية عظيمة . (الترجم)
 (٢) القاصم أو القلون Galley : طراز قديم من السفينة القراصية الكبيرة فانتاجليليل . (الترجم)
 (٣) هو الاسم الذي يطلق على المنطقة الشمالية الشرقية من الولايات المتحدة ويسمى ولايات : هاين وودشير ومارمونت وماشاوستس ، وود - آيلند ، وكوليكيت . (الترجم)

الثالث عشر والرابع عشر وأوائل الخامس عشر كل من النورمان والقطالونيين والجنوئين. ولكن نشاط البرتغاليين سمى إلى الثروة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، ومهما يكن الأمر فهم وحطم اللين ثبوا المكتشفات ، وركزوها بعد أن كالت حتى ذلك الحين مجرد زبورات مهمة عارضة . فكانوا رواد علم القارة البحرية . وفي (١٤٨٦) أعلن برتغالي اسمه برنولوميو دياز أنه دار حول جنوب أفريقيا . وبذلك افتتح السيل أمام مظلة فاسكودا جاما الكبرى بعد ذلك بإحدى عشرة سنة . وقبل أن يحجبه الأسبان إلى الغرب كان البرتغاليون يشغلون طريقهم إلى الشرق فعلا .

وبشرع حتى اسمه غرستوف كولبس يحسن في التفكير فيما نجده . الآن مشروعا واضحا وطبيعا جدا ، ولكنه مشروح أجهد خيال القرن الخامس عشر إلى أقصى حد ، وهو الإبحار نحو الغرب مباشرة عبر الأطلسي . ولم يكن أحد يعرف في ذلك الزمان بوجود أمريكا بوصفها قارة منفصلة . كان كولبس يعرف أن العالم كروي الشكل ، ولكنه أخطأ في تقدير حجمه ، فزعم أقل من حقيقته ، وذلك لأن رحلات ماركوبولو أدلت إليه بفكرة مبالغ فيها عن مدى اتساع آسيا ، فظن تبعا لذلك أن اليابان بما لها من صيت بعيد في ثروة عظيمة من الذهب كانت تقع عبر الأطلسي في ما يقارب موقع المكسيك . وقد قام برحلات صنوعة بالخيال الأطلسي ، ووصل إلى أيسلندة ولعله سمع هناك شيئا عن فينلندة ، وهو أمر لا بد أنه شجع في نفسه فكراته تلك ، وأصبح ذلك المشروع ، مشروح للسفر إلى مغرب الشمس المذهب الأسمى للسياسة على حياته .

كان رجلا علقا ، تقول بعض الروايات عنه إنه كان مفلسا ، ولم تكن أمامه من وسيلة الحصول على سفينة إلا أن يحمل أحد الناس على أن يسند إليه قيادة سفينة . فذهب بادئ ذي بدء إلى الملك جون الثاني البرتغالي ، فأصغى إليه وأقام في سبيله الصعاب ، ثم دبر أمر رحلة تقوم بغير علم منه ، وتكون رحلة برتغالية صرفة . ولتفقت هذه المحاولة للفرقة في « الدبلوماسية » الملتوية والتي قصد بها استراق السبق إلى السفر بحرية من رجل بحري أصيل ، ويحق ما أتممته ، لأن الملاحين تمردوا ،

وقد الربان شجاعته وعاد أدواجه (١٤٨٣) . عند ذلك اتجه كوليس إلى البلاط الإسباني .

ولكنه لم يتمكن في بادئ الأمر أن يحصل لا على سفن ولا على تموين . وذلك لأن أسبانيا كانت تهاجم غرناطة ، أكثر مقل المسلمين في أوروبا الغربية . وكان المسيحيون قد استردوا معظم أسبانيا إلا أن الفترة بين القرن الحادي عشر والقرن الثالث عشر ، ثم تلا ذلك فترة توقف ، فلما أن أصبحت كل أسبانيا المسيحية كتلة واحدة بزواج فرديناند الأرونجي من إيزابلا القشتالية ، نهضت لاستكمال الفتح المسيحي . حتى إذا غلب اليأس على نفس كوليس من مساعدة أسبانيا له ، بعث بأخيه يارثولوجيو إلى هنري السابع ملك إنجلترا ، ولكن المفامرة لم ترق في حين ذلك للملك الخلق . وأخيراً سقطت غرناطة (١٤٩٢) . وعيّن طيف من التوحيش عن فقدان المسيحية للجنة القسطنطينية قبل ذلك بجمسين سنة . وما هم كوليس أن حصل على سفاته بمساعدة بعض تجار مدينة فالوس ، وهي ثلاث سفن لم يكن منها إلا واحدة ذات سطح حى ، « السافاماريا » وحولها مئة طن . وكانت السفينتان الأخريان زورقين مكشوفين لحما نصف الحمولة .

وانخرزت الحملة الصغيرة - وكان مجموع عدد أفرادها ثمانية وثمانين رجلاً - جنوباً إلى جزائر الكنارى ، ثم انطلقت تعبر للبحار المجهولة ، في جوجيل ونحت دبح مواتية .



(شكل ١٦٢) خريطة العالم تبين رحلات الاستكشاف البرتغالية إلى سنة ١٥٢٢

ولا بد القارئ من أن يقرأ بالتفصيل قصة تلك الرحلة الجليدة الشأن التي دامت شهرين وتسعة أيام حتى يقترها قتلها . كانت نفوس البحارة تفيض بالخوف والتشكوك ، فكانوا يشتبهون أن يظلوا يسرون في البحر إلى الأبد ، ولكن رؤيتهم بعض الطيور وحورهم على غصيب من الخشب له آثار بعض الآلات ، وحل شخص يحمل بعض ثمار خريبة أدخلت للطماينة حل أنفسهم . وفي الساعة العاشرة من ليلة ١١ أكتوبر ١٤٩٢ آنس كولبس أمامه نوراً ، وفي الصباح التالي شوهدت الأرض ، وفزل كولبس والصبح ما يزال يفتس ، إلى أرض العالم الجديد في ثياب فخرية وهو يحمل داية أسبانيا الملكية .

وعاد كولبس إلى أوروبا في سبتمبر (١٤٩٣) ، محملاً معه ذهباً وفضةً وحجراتاً وطيوراً غريبة وعتيقين هائجين متوقفي الجسم ما لبث أن عملهما في الكنيسة ، وزعم أنه لم يجد اليابان ، بل وجد الهند . ولذلك سميت البحار التي اكتشفها باسم جزر الهند الغربية . وفي نفس السنة رحل مرة أخرى مصحبه حملة عظيمة من سبع عشرة سفينة وألف وخمسة زجل ، بإذن خاص من اليابا بأن يعمد تلك الأراضي الجديدة لتاج الأسبان .

ويضيف بنا المقام من الحديث عما مرّ به من المحاولات وهو حاكم هذه المستعمرة الأسبانية ، ولا عن كيف عُرِّل وكبل بالأصفاد . ولم يمض زمن طويل حتى كان حقد من المغامرين الأسبان يرتادون الأراضي الجديدة . ولعل من الشاق أن نسجل أن كولبس مات وهو يعلم أنه اكتشف قارة جديدة . فإذ ظل يحصد حتى يومه الأخير أنه حار حول العالم إلى آسيا .

وآمدلت أخبار اكتشافاته هزة عظيمة على كل أرجاء غرب أوروبا . وحفزت البرتغاليين أن يبلدوا محاولاتهم الوصول إلى الهند بطريق جنوب إفريقيا . وفي (١٤٩٧) أُلْقِ قاصدوها بجأفا من لقيونة إلى زنجبار ، ثم سار من هناك بهلابة دليل عربى فاستغرق المحيط الهندي إلى قابقوط في الهند .

وأصبحت البرتغال (١٥١٥) سفائق في جواهر وجزر مولوكا (١) (ملاكيا) . وفي

(١) جزر مولوكا أو جزر البهارات ، مجاميع من الجزر البركانية تقع في اندونيسيا الشرقية . وتشتهر بالناريل .
(المترجم)

(١٥١٩) سار ملاح برتغال اسمه ماجلان ، يعمل في خدمة ملك أسبانيا جنوباً
مخاضاً لشاطئ أمريكا الجنوبية ، فاجتازه مغتبط ماجلان ، للظلم القبيح ، وهنا
وصل إلى المحيط الهادئ الذي سيقه إلى مشاهدته المكتشفون الأسبان الذين عبروا
برزخ بنما .

وواصلت بعثة ماجلان سيرها مُدْبِماً إلى الغرب عبر المحيط الهادئ . وكانت تلك
رحلة يتجلى فيها من آيات البطولة قعر أوق كثيرأ مما في رحلة كولمبس ، إذ دخل
ماجلان ، تسعين وعثمانية من الأيام ، سيرة سفاته غير هيب ولا متردد حل أمواه
فلك المحيط المائل لتلال الترابى الأطراف ، دون أن يرى فيه شيئاً إلا جزيرتين
صمراويتين صغيرتين . ونشئ مرض الإسخريوط وعمل عمله في البحارة ، ولم يبق
إلا القليل القاسد من الماء والتالف من البسكوت . وكان البحارة يصيدون القتران
بلهفة شديدة ويفرضون جلود البحر ويقهون نفاذة الخشب لكي يقيفوا حضات
الجوع في أمتعتهم . وصلت البعثة إلى جزائر اللادون وهي على مله الحال البقية
فماكتشفوا جزر القلبن ، وهناك قتل ماجلان أثناء عراك مع الأهلى . وعقل كذلك
كثير من الرابطة . وقد خرج ماجلان في أغسطس (١٥١٩) بخمس سفن عليها مئتان
وثمانون رجلاً ، ولكن لم يمه منها إلا *Vittoria* الليغوريا في يولية (١٥٢٢)
وعلى البقية الباقية وعددها واحد وثلاثون رجلاً . عادت مصعنة في المحيط الأطلسي
إلى موساه قرب رصيف أشيلية في نهر الوادئ الكبير - وهي أول سفينة دارت
حول هذا الكوكب .

لأما الإنجليز والفرنسيون والهولنديون ونوبى مدن اللانسا ، فإنهم هبطوا إلى
ميدان بغامرة الارتباد هذه متأخرين نوعاً ما . إذ لم يكن يحلهم نفس الاهتمام للشهيد
بالتجولة مع الشرق . فلما أن انحدروا إلى الميدان خلا ، انجبت أوائل جهودهم إلى
المسير بسفهم حول همالى أمريكا ، مثلى سار ماجلان حول جنوبها ، وإلى الأنجار
من حول همالى آسيا ، كما أبحر لاسكودا بطما حول جنوب أفريقية . ولكن طبيعة
الأشياء قضت على هذين للشروعين بالإخفاق التام . فسبقت كل من البرتغال وأسبانيا
في أمريكا والشرق ، إنجلترا وفرنسا وهولندة بنصف قرن .

ولم تبدأ ألمانيا قط : ذلك أن ملك أسبانيا كان إمبراطوراً على ألمانيا في تلك السنين الخامسة : وكان البابا أعطى احتكار أمريكا لأسبانيا إلا أنه لم يمنحها لأسبانيا نفسها بل لملكها قشتالة ، وبسبب أن يكون هذا الأمر أثراً في احتياق كل من لثانيا وهولندا باديء يند عن النزول إلى ساحة المظاهرات الأمريكية . وكانت مدن الهانسا شبه مظلة ، فلم يكن من خلفهم ملك يحملون على مسانئته ، ولم تربطهم وحدة تستطيع النهوض بالشروعات الكبيرة كعملية إرتياد المحيطات مثلاً . ومن سوء حظ ألمانيا ، بل لعله من سوء حظ العالم أجمع ، أن استقطبت قواها عاصفة هوجاء من الحروب : كما ستبين ذلك من غورنا ، حل حين كانت الدول الغربية بأجمعها تتطلق إلى المدرسة المفتوحة حديثاً وراء البحار العالية^(١) ، تعلم فيها التجارة والإدارة .

وأخذ طالع قشتالة للخال للميون يتكشف في سنة إبان القرن السادس عشر أمام عيون أوروبا المنيرة . ذلك أنها اكتشفت عالمًا جديدًا ثريًا بمولود ذهبه وقضته حافلاً بصيبي احتمالات استيطانه والمقام فيه . كان كله ملك يمينها ، لأن البابا قال بذلك . وكان بلاط روما وهو في إحدى نوبات أريجته قد قام تحف به الفخامة والجلال ، يضم حاتم الأراضي العجيبة الجديد ، الذي كان يتبدى آنذاك أمام التحيال الأوربي ، بين الأصبان الذين جعل لهم كل الأراضي الواقعة غربي خط يقع على ٣٧٠ فرسناً غربي جزائر رأس لمردي . وبين البرتغاليين الذين منحوا كل شيء يقع إلى الشرق من ذلك الخط .

وفي باديء الأمر كان الناس الوحيدون الذين لقبهم الأسبان في أمريكا متوحشين من الطراز شبه المغولي^(٢) . وكان الكثير من هؤلاء للمتوحشين من أكلة البشر . ومن سوء حظ العلم أن كان أول من بلغ أمريكا من الأوربيين ، هم هؤلاء الأسبان القليلو الاستطلاع ، المجرعون من آفة رغبة علمية والفاشون إلى الذهب ، والمشمعون بروح التمسك العمياء للراغبة إلى حرب دينية قريية العهد . لم يصدر عنهم خبر ملاحظات

(١) البحار العالية : ساحتها من البحر التي الإقليم الساحلية للدول . (الترجم)

(٢) في المنوك (Mongols) : انظر ج ١ ص ١٧٥ من العالم ط ٢ (الترجم)

قليلة ذكية من طرائق هذا الشعب البدائي وفكراته . وقد أحلوا فيهم السيف ، وسرقوهم لروائحهم ، واستعملوهم وعدوهم مسيحين ، ولكنهم لم يدركوا إلا قليلا من الفهم والمبادئ والأفكار الأصلية التي تغيرت وانقضت أمام مجتهدهم . كانوا في تنميرهم وحلم مبالأهم وقلة تفكيرهم أشبه شيء بالنزولين البريطانيين الأوكر في سيبيريا ، الذين كانوا يطلقون الرصاص عند رؤيتهم رجال العصر الحجري القديم الذين كانوا ما يزالون باقين مثلك ، ويقضون لهم اللحم مسما بأكلوه .

وكانت مساحات عظيمة من الأراضي النائية في أمريكا أرض براري ، كانت قبائلها الرحل الفيزية فيها تحصد في معاشها على قطعان ضخمة من (البيزون) الجاموس البري الذي انقرض الآن أو كاد . وكان هنود البراري هؤلاء على نشاطه عظيم في طريقة حياتهم ، وفي لباسهم المشقوق وفي استعمال الصياخ وفي صوام خصالهم الفيزية ببرجال العصر الحجري القديم في عهد التاني الأخير للآل من عاشوا في العصر السولوثري بأوروبا . ولكن لم تكن لديهم خيل . وطوح أنهم لم يتقدموا تقدماً يذكر عن تلك الحالة البدائية ، التي يرجع أن تكون هي الحالة التي وصل إليها أجدادهم إلى أمريكا . ومهما يكن من شيء فقد كانوا على علم بالمعادن . وبصفة خاصة على استخدام كبير لتحاسن الحديد ، ولكنهم لم يعرفوا الحديد .

وبينا كان الأسبان يتوغلون في القارة ، وجنوا بأمريكا حضارتين متضخمتين ومتطورتين لها جوها واتجاهها وقضوا عليها ، ولعلها تطورا بمنزل تام عن المذنيات القائمة في العالم القديم . وكانت إسطمبا سفينة المكسيك الأرتيكية ، والأخرى حضارة بيرو . ولعلها نشأتا عن مرحلة « قبل المدنية » للعصر الحجري الحديث ، التي انتشرت عبر المحيط الهندي من جزيرة إلى جزيرة ، خطوة خطوة ، وعصراً بعد عصر ، مبتدئة من أرض أرومتا الأصلية حول البحر المتوسط وبالقرب منه . لقد سبق أن ذكرنا يضع نقاط مشوقة في ملين الصلادين القريتين في نوعهما . ومما يأخبران عن بلاد المشرق والبحر المتوسط بألاف السنين . وقد بلغ ملان للشبان الأمريكيان للشخصان دلرجين في طريقهما خلاص مربة تولوى موزلة محشة ، ثقافة

مصر قبل الأسرات وثقافة المند السومرية الباكورة . وكانت هناك قبل الأزيك والهيروزين (أى أهل يرو) بدايات حضارات أقدم منها ، إما أن عظمهم دمروها ، ولما أن تكون أخضت وذبحت من نلقاء نفسها .

ويبدو أن الأزيك كانوا شعباً غامضاً أقل تمدناً ، يتسلطون على جميع أكثر منهم مدينة ، شأن الآريين في تسلطهم على بلاد الإفرنج وشمال الهند ، وكانت ديانتهم نظاماً بدالياً مقدداً وغامضاً ، كانت القرابين الإنسانية وأكل لحوم البشر أثناء الطقوس تلعب فيها دوراً كبيراً . وكانت غملاً حضورهم فكرة الخطيئة والحاجة إلى استرضاء الآلهة بسفك الدماء . فكانت ديانتهم أشبه شيء بصورة كاريكاتورية لطيفة كاملة للديانات العالم للقديم البائدة ذات القربان .

وقد حورت الحصار الأزيكية حلة عسكرية جهادة كورتيز . كانت لديه إحدى عشرة سفينة وقوة مكونة من أربعين أوربي ومئتين هندي وستة عشر حصاناً وأربعة عشر مدفعاً . ولكنه الضغط من يوقطن رجلاً أسبانيا شارفاً . ظل قصيراً لدى المنود بضع مئتين ، فسلم إلى حكام حلة لغات هندي . وعرف أن الحكيم الأزيكي كان مثار إعجابهم لدى الكثيرين من رعاياه . وبشأنه مع هؤلاء الحلفاء نظم كورتيز لحوق الجبال حتى دخل وديان المكسيك (١٥١٩) .

لأنما كيف دخل إلى المكسيك ، وكيف قُتل مونزوما وعيسها وقلائدها في الحرب على يد مواطنيه لمالأنه الأسبان ، وكيف حوَصر كورتيز في المكسيك ، ثم هرب مخلفاً وراءه حلفائه وخيله ، وكيف استطاع بعد تفهقر رهيب إلى السهل أن يعود ويضع البلاد بأكملها ، - قصة رومانسية جميلة لا نستطيع حتى أن نحاول أن نقصها عليك هاهنا . وما يزال اسم الهندي يظل على مكان المكسيك إلى يومنا هذا ؛ ولكن اللغة الأسبانية حلت هناك على اللغات القومية القديمة ، غير أن الثقافة الموجودة الآن ثقافة كاثوليكية وأسبانية .

لأنما دولة يرو الأدهب شأناً لقد ونحت فريسة بين براثن مغامر آخر هو يزارو . فإنه أُقِلع من يروح بها في ١٥٣٠ ، ومعها حلة مكونة من ١٦٨ أسبانيا .

فقطا لم يكره تزيان ألاك من الاختلافات الناعلة بين الأهالي وضمن بذلك الاستيلاء على تلك الدولة المتكوفة الخط . وحل فرور ما قبله كورتيز أيضاً حين أخذ مونتزوما أسيراً وألمرية في يده ، فإنه قبض على « إلكا » (١) يرو بالهندية وحول أن يحكم البلاد باسمه .

وهنا أيضاً لا نستطيع أن نوفي الأحداث الحققة التي تلت ذلك ، حقها من الإفصاح ، أو تسبب القول في الفن الفاضلة السيرة التدبير التي قام بها الوطنيون ، وصول مند أسباني جديد من المكسيك ، ثم تحويل الدولة إلى مقاطعة أسبانية . كذلك لنا بمقتضى أن نزيد يأتنا عن انتشار المغارين الأسبانين انتشاراً سريعاً فوق بقية أمريكا خارج منطقة البرزيل التي كان البرتغاليون يحفظون لها لأنفسهم . وكانت قصص كل منها تكاد تكون في كل الحالات قصة مغارين وقساوة وتعب واستلاب . وكان الأسبان يسيرون معاملة الأهالي ، ويتشاجرون فيما بينهم ، وذلك لأن قانون أسبانيا ونظامها ، كانا منهم بمثابة سمكة سموراً بل سنوات ، فلم يفضل دور العنف والفتح إلى دور حكم واستقرار إلا بداية البطء . ولكن قبل أن يستتب النظام بزمان مديد في أمريكا ، أخذ قبض متواصل من الذهب والفضة يهمر عبر المحيط الأطلسي إلى الأسبان حكومة وشعباً .

وبعد ما انتهى طور استيلاء الكونز قسيف الأول ، جاء طور الزراعة وفتح المناجم ولذلك نشأت أول المشكلات المالية في العالم الجديد . فاستعبد الهنود بادئ الأمر في شيء كبير من الوحشية والظلم ، ولكن مما يشرف الأسبان أنهم لم يذهبوا الموضوع يرب بلا اعتقاد . فوجد الوطنيون أنصاراً يطفون عليهم ، أنصاراً عامرة أفتنهم بالشهامة ، في هيئة الرهبان التومينيكيين وفي شخص قيس علياني هو « لاس كاساس Las Casas » الذي قضى رسماً من الزمان يشغل مزارعاً ومالكاً لرقيق في كوبا حتى ونخره ضميره . واجه أيضاً استيراد العميد الفروج من أفريقيا الغربية في وقت مبكر جداً من القرن السادس عشر . وبعد فترة غير طويلة أختلعت المكسيك

(١) إلكا ، لقب ملك يرو قبل أن تصابها الأسبان . (لاه . م)

والبرازيل وأمريكا الجنوبية الأسبانية تحول إلى بلاد مالكة للصيد متبعة الثروات ،
ولنا بمقتضى أن نعلمك هنا كما نشئ : عن الجهود الحثيثة المتتالية التي
قام بها في أمريكا الجنوبية ، ويوجه أنقى إلى الوطنيين ، الرهبان الفرنسيون ثم
اليسوعيون (اليسوعيون) الذين هبطوا أمريكا في النصف الثاني من القرن السادس عشر
(بعد ١٥٤٩) .

كما أن سكانها المسيحيين ظفروا في كشاف مستعمر مع العرب ، ثم حدث بطريقة تكاد تشبه الصلصة الهضبة أنها أحرزت الوحدة في أنسب الأوقات بلحني أول ثمار اكتشاف أمريكا . وقبل ذلك الزمان ، كانت أسبانيا على الدوام خطراً قديراً ، وهي ما تزال حتى اليوم خطراً قديراً ، وتكاد تكون ثروتها الوحيدة متحصنة في مناجمها . ومهما يكن من شيء فإنها ظلت قرناً من الزمان صيدة العلم بسبب احتكارها للحب أمريكا والغصتها .

وكانت ظلال رايات الأكراد والمغول ما تزال ترغرف على شرق أوروبا وجنوبها وتهدهدها ، وكان اكتشاف أمريكا في حد ذاته نتيجة الفتح التركي . وإلى الاختراعين المغوليين ، البوصلة والورق ، وإلى الأكراد لبخه الراجح إلى الرحلات في آسيا ، وإلى العلم المزاييد ، بثروة آسيا الشرقية وحضارتها - يرجع الفضل الأكبر في حدوث ذلك الضخم (التاج) للمعش في الطلائع العقلية والجنائية والاجتماعية التي تأججت على حافة المحيط الأطلسي . ذلك أن فرنسا وإنجلترا دخلتا الميدان حقيب دخول البرتغال وأسبانيا مباشرة ، ثم تلتها فنزور هولندية ، فقامت كل واحدة من الثلاثة في حينها بدور التوسع وتكوين إمبراطورية وراء البحار .

وحينئذ ينتقل مركز الاهتمام في التاريخ الأوروبي الذي كان محصوراً في بلاد المشرق Levant ، مشحولاً من جبال الألب وبحر المتوسط إلى المحيط الأطلسي . والقضت بضعة قرون انحدرت فيها الإمبراطورية التركية ، والروسيا وآسيا الوسطى والصين إلى منزلة ثانوية نسبياً على المسرح حتى أهلها للوزخ الأوروبي ولم يجد يسلط عليها أنواره الحاجة . ورغم هذا فإن مناطق العالم المركزية هذه تظل مركزية على الدوام ، وتظل رعايتها ومشاركتها ضرورتين لسلام البشرية الدائم .

١١ - رأى ماكيافلي في العالم

الآن سنلقي نظرة إلى النتائج السياسية المترتبة على هذا التحول الهائل ، وهذا التوسع الضخم العقلين لنا بالفكرات الأوروبية إبان القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، نتيجة للتطور الجديد للعلم ، وارتقاء العالم والانسجام العظيم للمعرفة بواسطة الورق

والطباخة ، ولا تنهار نهالت جديد على الحرية والمساواة . فكيف كان تأثير تلك الحال في حقبة البلاطات والملوك التي كانت تدبر الشؤون الرسمية البشرية ؟ لقد سبق أن أريناك كيف أخذ الضعف يذهب إلى قبضة الكنيسة الكاثوليكية على ضيائر الناس في ذلك الأوان . ولم يبق أحد على أى سط كبير من الجملة فكنيسة إلا الأسبان ، وذلك تقرب العهد بغزوهم من حرب دينية طويلة انتهت أكثر الأمر بالنصر على الإسلام . وكان من آثار الفرج التركية مع زيادة واتساع القدر المعروف من العالم أن حرمت الإمبراطورية الرومانية من كرامتها الخليفة التي أضحت عليها صفة التتول العاطية ، ذلك بأن نظام أوربا العقل والحلق القديم كان قد شرع يتحطم . فإذا كان يحدث للوقوات وأمرء وملوك النظام القديم إبان عصر الضير هذا ؟

في إنجلترا كما سنخبرك فيما بعد ، كانت هناك نزعات حقبة وشائعة جداً تلغح بالناس صوب طريقة جديدة في الحكم ، هي طريقة الحكم البرلاني ، التي غلب لها أن تتكسر فيها بعد في كل بقاع العالم تقريباً . ولكن العالم في جملة لم يكن يحس بوجود هذه النزعات في القرن السادس عشر .

وقل من الملوك من تركوا لنا يوميات تتجلى فيها الصرامة والإخلاص ، فإن الملكية والصرامة أمران لا يمتعان ، والملكية في ذاتها « وضمة » (١) تتخذ . ومن ثم فالنورخ مضطر إلى أن يعمل فكره حلياً وتحميماً فيما يحويه الرأس التي تلبس النتائج بتقار ما يستطيع . ولا مراء في أنه سيكولوجياً للولك تغيرت تغيراً كبيراً مع تقدم العصور . ومهما يكن الأمر ، فإن لدينا كتابات رجل من رجال ذلك الأوان بالغ غاية الاختصار تصب نفسه للدراسة وبسطه أساليب الحكم الملكي ، على ما كانوا يفهمونه في أواخر القرن الخامس عشر .

ذلكم الرجل هو الفيلورنسي البعيد الذكر نيقولو ماكيافيلي (١٤٦٩ - ١٥٢٧) ، نشأ في أسرة طيبة وتربى في مجبوبة معقولة من العيش ، ودخل الخدمة العامة للجمهورية وهورف الخامسة والعشرين . وظل يعمل في الوظائف الدبلوماسية الفيلورنسية ثمانية عشر عاماً ، فأسند إليه عدد من السفارات . وفي (١٥٠٠) أرسل إلى فرنسا لينفاهم مع الملك

(١) الرضة : Pace كما في التصوير ، وضع حاس يتخذ الناس لأقسام ، وكثيراً ما يكون حكتفاً . (المترجم)

القرنيس . وفل من ١٥٠٢ إلى ١٥١٢ اليد اليمنى (الرئيس فلورنسا مدى الحياة)
 سودري (Soderici) . وأحد ماكياللي تنظيم الجيش الفلورنسي ، وكتب الخطب
 الرئيس مدى الحياة (goelomier) ، وكان في الواقع هو لذلك الميستر على الشئون
 الفلورنسية . وعند ما غلبت أسرة مديشي التي كان الأسبان يتأسرونها على سودري
 الذي كان يعتمد على معاضدة الفرنسيين ، حاول ماكياللي أن يحول خطمته إلى
 الفلورين ولكنه حُذِبَ على الخطاة (١) ، ثم طرد من الخدمة . فالتحق نفسه مقاماً في
 قهلا على مقربة من سان كاستانو ، تبعه عن فلورنسا التي حشر ميلا تقريباً ، وهناك
 أخذ يروح عن نفسه من ناحية مجمع وتأليف الأناشيد الشهيرة الناعرة لإرسالها إلى
 أحد أصدقائه في روما ، ومن ناحية أخرى بكتابة كتب في السياسة الإيطالية ، التي
 لم يجد يستطيع أن يقوم فيها بدور . وكما أننا ملينون بكتاب وحلات ساركوبولو إلى
 نفسه ، فلما ندين لكتب ماكياللي « الأمير - والتاريخ الفلورنسي - وفي الحرب »
 إلى عزله وإلى شعوره بالسآمة والمثل في سان كاستانو .

وتتجهر القبة اللداعة هذه الكتب في الفكرة الواضحة التي تعرضها علينا من نوع
 القول التي كانت تحكم ذلك العصر ، والتحليلات التي كانت تغلفها . فإن جوها كان جوه
 الذي فيه يعيش . فإذا كان أدخل ذكاء حاداً مفرطاً إلى محيط أعمالهم ، فإنه لم يزد
 من مجرد وضعها تحت شياء أسطع .

وقد تأثر ذهنه الحساس تأراً عظيماً بمكر سيزلو بورجيا وقساوته وجبراته وأطباعه ،
 وهو ذوق فالتيتير الذي قضى ماكياللي في مسكره بضعة شهور مبعوثاً من قبل مولاه
 حضور ذلك الشخص الباهر في صورة مثالية في كتابه « الأمير » ، وينبغي القارئ أن
 يفهم أن سيزلو بورجيا (١٤٧٦ - ١٥٠٧) كان ابن أباها إسكندر السادس : وروميرو
 بورجيا (١٤٩٢ - ١٥٠٣) . وربما دهش القارئ من وجود بابا له ولد ، ولكن
 لا يد لنا من تذكر أن هذا البابا كان من البابوات السابقين على الإصلاح
 اللدبي . وكانت البابوية في ذلك الأوان في حال تواضع خلت ، ومع أن إسكندر ،
 كان بوصفه لسياساً قد نل أن يعيش أحزب ، فإن ذلك لم يمنعه من أن يعيش صراحاً

مع نوع من الزوجة بلا زوجية ، ومن توجيه موارد العالم المسيحي لرفع شأن حالته . وكان سبزار شاباً قوى الطموح والجرأة ، بدرجة تكاد تتجاوز طاقة الزمان التي عاش فيه ، وقد دبر منذ وقت مبكر مقتل أعبه الأكبر ، وكلما زوج نفسه لوكريشيا ، والواقع أنه غدر بعدد من الناس وظلمهم . وأصبح بمساعدة والده دوقاً على حقة كبيرة من وسط إيطاليا حيث زاره ماكياغالى . ولم يظهر إلا الشيء القليل من القدرة العسكرية ، وإن أبدى مهاراة فائقة وقلرة إدارية جيئتين . وكانت عظمته من ذلك النوع العارض غير المستديم إلى أقصى حد . فإ أن مات والده حتى اتهاوت كما تنهار ككرة مضغوطة وغزها دهرس ، ولكن ماكياغالى لم يقبل ما كان يصم تلك العظمة من ضعف وعدم سلامة . والحق أن أعظم دواشى اهتماما سبزار بورجية ينحصر فى أنه حقق أعظم مثل أعلى ارتآه ماكياغالى عن أمير فائق ناجح .

وقد كثرت للمؤلفات التي حاول كتابها أن يبينوا أن ماكياغالى كان يرى من وراء كتاباته السياسية إلى مقاصد حريضة الأفاق شريفة الأهداف . بيد أن كل أمثال هذه المحاولات التي يقصد بها رسله إلى موضع النبل ، تحرمه من تحسس واهتمام تقارى' المتشكك المصغر على قراءة السطور ذاتها فى سفر ماكياغالى بدل قراءة أشياء خيالية بين السطور ، ومن الجبل أن الرجل لم يكن يؤمن للينة بأى قوى ولا صلاح ، ولا يخافه أى اعتقاد فى إله يحكم العلم ولا وجود رب فى غلوب الناس ، ولا أى فهم لقوة الضمير وسلطانه على الرجال . ولم يكن بمن يؤمنون بروى النظام الإنسانى اليونانى السلى العام ، ولا بأية محاولات لتحقيق « مدينة الرب » . فإنه لم يكن يريد مثل هاته الأشياء . وكان يلوح له أن الحصول على القوة ، وإلباع رغبات المرء وحاجاته الجنسية وأحفاده ، والترنج بنشوة الظفر فى العلم ، يجب أن تكون الحاج الذى يكفل الرغبات الإنسانية جميعها . ولا يستطيع أن يحقق مثل هذه الحياة تحقيقها الكامل إلا أمير . وواضح أن مسمة من الجبن ، أو إحساساً بمقدارة مدياته للشخصية ، جعله يتخلى عن مثل تلك الأحلام بالنسبة لنفسه ، ولكن لعله يأمل على الأقل أن يخدم أحد الأمراء ، وأن يعيش على مقربة من المجد ، وأن يشاركون فى الغنائم والسلب والذلمات الجنسية والزهات للفريرة المشعة . ولعله يستطيع أن يجعل

من نفسه شخصاً لا يستغنى عنه : ومن ثم تعبت نفسه لطلب الحق والخبرة في فن الإمارة ، فساعد سويدي حتى أوردته موارد القتل ، فلما مضى المديثيون في المطامعة وابتكروا ، وانقطع به ما بقي لديه من أمل حتى ق أن يكون في البلاط طفلياً ناجحاً ، كتب هذه الكتب الصغيرة الدائرة حول القضاء ليظهر أى نظام ماهر فقدته بعض الأمراء . ١ - والفكرة للسيطرة على عقله ، التي هي مدار مساهمة العظيمة في الأدب السليم ، تلخص في أن الالتزامات الخلقية على الرجال الناصيين ، لا يمكن أن تقيد الأمراء .

ومن الناس من يميلون إلى نسبة فضيلة الوطنية إلى ماكيافلي ، لأنه شكر في أن إيطاليا يجوز أن تتحد وتطوى ، - وهي التي كانت ضعيفة مضطربة على نفسها إذ خزاها الأكرام ولم يتصلها من قوتهم إلا موت السلطان محمد الثاني ، كذلك التفتت على املاك أرضها باليوش الفرنسية والأسبانية كأنها كانت شيئاً غافداً للحياة ، ولكنه لم يرق هذا الاحتمال إلا فرصة عظيمة نتاج لأجبر . ولم يطلب بوجود جيش قوى إلا لأنه رأى طريقة الإيطاليين في القيام بالحرب وبساطة استئجار رجال من المرتزقة الأجانب ، طريقة لا يربح من ورثتها غير . فإن الجند في مثل هذه الحالة قد تقتل إلى سيد يزيد لها في أمانياتها ، أو هي قد تقرر انتهاء الدولة التي في حماها . وقد أثرت انتصارات السويسيين على أهل ميلان في نفسه تأثيراً عبقاً ، ولكنه لم يسر قط سر الروح الحرة التي مهدت السبل لتلك الانتصارات . وأنشفت الميليليا للفرنسية التي أنشأها إعفاناً تلماً . وكان في رجلا ولد ضريباً وحيث حيناه عن الصفات التي تجعل الشعوب حرة والأم عظيمة .

ومع هذا فإن هذا الرجل الضرب من الناحية الأخلاقية ، كان يعيش بين ظهراني حلم صغير كل رجاله سم وعيان من الناحية الخلقية . وواضح أن أسلوب تفكيره ، إنما هو أسلوب تفكير كل بلاط في أيامه : فقد كان هناك في كل مكان من حلفه أمراء الدول الصغيرة التي تبكت عن تحطم الإمبراطورية وعشل الكنيسة ، مستشارون وسكريتريون ووزراء مومنون من الطراز الماكيافلي . فإن لوماس كروموي ملا ، وزير هنري الثامن الإنجليزي بعد انفصاله عن كنيسة روما ، كان يعد كتاب ماكيافلي في الأمير : زينة الحكمة السياسية . فإذا كان الأمراء أنفسهم على درجة كالية من الذكاء

مبكر يرجع إلى القرن الثالث عشر ، اعتزم الفلاحون الساكنون في لوديان الثلاثة الجاورة لبحيرة لوسرن ، أن يستقروا عن كل ميد يسودهم ، وأن يدبروا شؤونهم الخاصة ، على طريقتهم الخاصة . وكان أكبر مصنف لثأبهم منجات عائلة نبيقة في وادي الآر ، هي أسرة هابسبرج . وفي (١٢٤٥) أسرق رجال شويتز (Schwyz) لعة هابسبرج الجديدة ، التي كانت أقيمت قرب لوسرن لإزاحتهم . وما تزال أطلالها باقية هناك إلى اليوم .

كانت عائلة هابسبرج هذه عائلة ثافية مبالغة إلى زيادة عظمتها ، فكانت لها الأراضي والممتلكات في كل أرجاء ألمانيا ، وفي (١٢٧٣) بعد اقتراف بيت هوهنشتوفن ، انتخب وولف آل هابسبرج إمبراطوراً على ألمانيا ، وهو ابتاز أصبح آخر الأسر وراثياً في حالته . ومع ذلك فإن رجال أوربي (Ulrich) وشويتز وأثرالدين (Unter Walden) صموا على ألا يحكمهم أي هابسبرجي ، فكونوا فيما بينهم حلفاً دائماً في (١٢٩١) ، ثم صعدوا بين الجبال منذ ذلك الزمان إلى يومنا هذا ، فكانوا في بادئ الأمر أعضاء لحرراً في الإمبراطورية ، ثم أسبحوا اتحاداً كوفندراياً مستقلاً مستقلاً مطلقاً . ويضيق بنا المقام هنا عن ذكر أسطورة بطولة ولهم قل ، كذلك ليس لدينا متسع لنصب فيه اسماح الاتحاد الكوفندراي تدريجياً إلى حدوده الراحنة . ولم تثبت أن أضيفت القوروديان تتكلم بلرومانشية^(١) والإيطالية والفرنسية إلى هذه المجموعة اليهودية الصغيرة البسلة . وقد أصبح حلم الصليب الأحمر وهو حلم جنيث رمز الإنسانية الدولية في معصان الحروب . وصلت مدن مويسرا المشرقة لتناحمة تعد على القوام ملتباً لرجال وملاذ الأحرار القارين من جميع أنواع المظالم والاستبداد .

١٣ — (١) حياة الإمبراطور شارل الخامس

إن معظم الشخصيات التي تبرز في التاريخ ، إنما يتم لها ذلك بسبب إحصائها ببعض الصفات الشخصية الامتكانية ، سواء أكانت حصة أم سيرة . وهي التي تجعل لهم وزناً يرجع وزن قرنائهم . ولكن ولده في غنى من أعمال بلجيكا في (١٥٠٠) رجل عادي المقدره سوداوي المزاج ، أمه امرأة ناقصة العقلية ، تزوجت لأغراض سياسية ،

(١) لرومانشية هي اللغات المزدوجة في أماله نور الراين . (الترميم)

وقد له - ولم يكن ذلك نتيجة خطأ منه ولا فضل له - أن يصبح عظم أبصار أوروبا وأن توضع على كاهله متاعها المتكسدة . والمزوج ملزم أن يعبره حفلة عارضة لا يستحقها بأية حال ، وأن يضعه إلى جوار أفراد نابين مرموقين من أمثال الإسكندر وشرلمان وفرديريك الثاني . ذلك هو الإمبراطور شارل الخامس . وقد ظل زماناً ولجوه الذي يحيط به يوحى بأنه أعظم من تولى الملك في أوروبا منذ أيام شرلمان . حتى أن الواضح أنه هو وعظمته الوهمية ثمرة سياسة الزواج التي انتهجها جده الإمبراطور مكسيميليان الأول (١٤٥٩ - ١٥١٩) .

وذلك بأن يعض المائلات بلغت الجهد قتالاً ، كما دبرت بعضها الأخرى للمؤامرات للوصول إلى السيطرة النهائية ، أما أسرة هابسبورج لأنها شقت طريقها إليها زواجاً . ابتداءً مكسيميليان حياته بمراث هابسبورج الكون من النمسا واستيريا وجزء من الأكراس ونواح أخرى ، فتزوج الأراضي المنخفضة وبورجنيا - إذ أن اسم السيدة لا يكاد يحنينا . ولكن أملت من معظم بورجنيا بعد وفاة زوجها الأول ، على أنه احتفظ بالأراضي المنخفضة . ثم حاول أن يتزوج (١١) بريتاني ولكنه لم يوفق . وتولى الإمبراطورية بعد أبيه فرديريك الثالث (١٤٩٣) ثم تزوج دوقية ميلانو . وأخيراً زوج ابنته من الضميمة السقل ابنة فرديناند وإيزابلا ، وهما فرديناند وإيزابلا اللذان عرفناهما مع كولبس ، واللذان لم يحكما فقط أسبانيا الجديدة الموحدة ، وسردينيا ، ومملكة الصقليتين بل أصبحا - بحكم المنح البابوية لأسبانيا - حاكبين على كل أمريكا غربي البرازيل . وهكذا اتفق أن حفيده شارل ورث معظم القارة الأمريكية . وبين ذلك ونصف ما لم يستول عليه الأتراك من أوروبا . ومات والد شارل في (١٥٠٦) وبذلك مكسيميليان قصاره ليضمن انتخاب حفيده لعرش الإمبراطوري .

وتولى شارل حكم الأراضي المنخفضة في (١٥٠٦) ، وأصبح بالفعل ملكاً على الممتلكات الإسبانية المراهية (لأن أمه كانت بلهاء) عند مات توفى جده فرديناند في (١٥١٦) . فلما أن مات جده مكسيميليان (١٥١٩) ، انتخب في (١٥٢٠) إمبراطوراً وهو ما يزال في العشرين تلك السن القليلة نسبياً .

واحترض على انتخابه إمبراطوراً الملك الفرنسي الشاب الذي ترنيس الأول ،

اللى قول الفرنس التزمى فى (١٥١٥) وهو فى الحادية والعشرين . وكان بعضه
فرنسيس فى ترشيحه البابا ليو العاشر (١٥١٣) ، الذى يقتضى منا أن نلقبه
بقلب الفدى هو أيضاً . كان ذلك العصر فى الحق عصر ملوك أذكىاء . فهو عصر
بار (Baber) فى الهند (١٥٢٦ - ١٥٣٠) وسليمان القانونى فى تركيا (١٥٢٠) ،
وكان كل من ليو وفرنسيس يمشى تركر مثل هذا القدر الفسح من القوة لى يذرجل
واحد ، الأمر الذى ينذر به انتخاب شارل . وكان الملك الآخر الوحيد الذى ينمو
خابال فى أوروبا هو هنرى الثامن ملك إنجلترا ، الذى آل إليه الملك فى (١٥٠٩) وهو
فى الثامنة عشرة . وقد رشح نفسه هو أيضاً للمنصب الإمبراطورى . وسعج القارئ
الإنجليزى الناشط الخيال أن يسلى نفسه باستنتاج العواقب التى كان يحتمل رتبها على
ذلك الانتخاب .

واتسع مجال النشاط الدبلوماسى بين هذا الثلاث الملكى . وقد خرج
شارل وهو فى طريق هودته من ألمانيا إلى ألمانيا على إنجلترا واستطاع
أن ينال مساعدة هنرى ضد فرنسيس بتقديمه الرشوة لوزيره الكردنال ولزى .
وكذلك قام هنرى بظاهرة عظيمة للصدقة بينه وبين فرنسيس ، فأدبت
بفرنسا المكاتب ، وأقيمت ألعاب الفروسية وما إلى ذلك من صروب الشبهات
اللى أكل عليها الدهر وشرب ، فى نزعة ملكية يبرنها المؤرخون باسم « ميدان
القبائل الذهبى » (١٥٢٠) . وكانت القروسية قد أخذت تصبح تعصفاً جيلانى القرن
السادس عشر . وما يزال مؤرخو الألمان يسمون الإمبراطور مكسيميليان الأول باسم
« أمير القرمز »

ويجدر بنا أن نلاحظ أن انتخاب شارل إنما تم بعد بئس قدر عظيم من الرشى .
وكان أكبر مناصره ودافعه ، حلو الأعمال الألمانية العظيمة التابعة لأمره فاجبار .
ذلك أن المعالجة القواسمة لقطاع لشون المال والامتنان ، وهى التى نسبها باسم
« نالاية » ، وهى ولت من الحياة الأوربية السياسية مع انهيار الإمبراطورية
الرومانية ، قد أخذ يذب فى عروقها آتلك ديب القوة . ولا شك أن ظهور
آل هاجر ، اللذين كانت ديارهم ومصدرهم نيز ما للأباطرة من ديار ومصور ، -



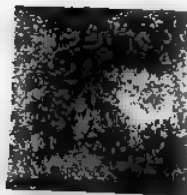
(شكل ١٦٥) أوروبا في عهد شارل الخامس

يسجل حركة إلى أهل أقوى جديدة ابتدأت قبل ذلك بقرنين أو ثلاثة بكنهور في فرنسا وغلورنسا ومدن إيطالية أخرى. وتعود النقود والتجود العامة ، والظقل الاجتماعي والتحرر ، إلى الظهور على مسرحنا الصغير ، في هذه المعالم . ولم يكن شارل الخامس إمبراطوراً هابسبورجياً قديماً ما كان فاجارياً

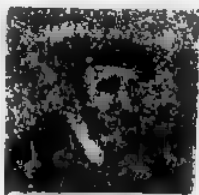
وظل هذا الشاب الأكثر الذي لا يملو عليه سواه فلاكاه الكبير ، واللواء له شفة حلياً غليظة وذقن طويل فيسبح ، ودعاً من الزمان العربية في أبدى ووزارته إلى حد كبير . فإن رجلاً مقتدرين طبعوا على غرار ما كانوا في البداية برشدونه ويوجهونه في فنون الملكية ، وأساليبها ثم أنشأ يظهر ذاتيه بطريقة بطيئة ولكنها فعالة وكان أول ما واجهه بالانبا عند بداية حكمه الحملات المربكة الضخمة في المسيحية . فإن الثورة على الحكم البابوي التي لم تنقطع منذ أيام هنس وويكيليف ، قد أجيح فيها من عهد قريب الثورة من جذوره إلى بيع سكوك الفيران يماً تتجلى فيه

الاستهانة والحرارة المفرطة ، وذلك لجميع المال لإتمام كنيسة القديس بطرس في روما .
 فإن راحياً اسمه لوثر ، تكرر نسباً ، وحكم على الكتاب المقدس بضوئه ،
 قد انزعج أيما انزعاج عند زيارته روما لبعض شئون طائفته لا رآه من حقبة البابوية
 ويلحقها الدنيوى ، فانبرى في وقتئذ (١٥١٧) ، ينهى باللائمة على هذه الوسائل
 التي ياجأ إليها البابا رافعاً فيها علم الخصومة شارحاً بعض المباحث الدينية ،
 ونشبت نتيجة لذلك معركة جارية ذات شأن .

وقد خاض لوثر في بادئ الأمر تلك الخصومة بالغة اللاهوتية ، ثم انقلب لوقته
 إلى الأخلاقية ، وسرعان ما دخل للشعب كله في وطيس الحومة . وأثنى شارل هذا
 النزاع متأججاً عندما عاد من أسبانيا إلى ألمانيا فدعا إلى عقد (ديت) Diet) أي
 جمعة إمبراطورية جديدة ودرس على نهر الرلين . واستطاع لوثر إلى مجلس الداييت
 هذا ، وكان البابا ليو العاشر طلب إليه أن يسحب آراءه تلك أن جعل ذلك . فحضر
 إلى المجلس ، ولكنه « في نفس روحه هي تماماً » إلى أن يسحب آراءه ، إلا أن
 يقنع بمخطئه بالمناقشة العلنية أو سلطان من الكتب المقدسة . ولكن حاله من الأمراء
 كانوا أقوى من أن يصيحه ما أصاب جون هس .



(شكل ١٦٧) فرانسيس الأول
(صورة تيراك)



(شكل ١٦٦) الإمبراطور شارل الخامس
(صورة تيراك)

وكان في ذلك موقف غير للإمبراطور الشاب ، وهناك أسباب تجعلنا على الظن



(شكل ١٦٨) هنري هيلين
(تصوير مولون)

أنه كان في بادئ الأمر ميالا إلى نصرة لوتر على البابا . فلكي أن لير العاشر كان من المتضررين على انتخاب شارل ، وكان على صلة بوه مع منافسه فرنسيس الأول . ولكن شارل الخامس لم يكن مائلا للبابا مائلا مائلا ، كما أنه اكتسب في أسبانيا قلداً جديداً من الإخلاص للدين . لذلك

وقف ضد لوتر . فالضم إلى المصلح اللغوي كثير من الأمراء الألمان وبخاصة منتخب سكسونيا . واختار لوتر

عن الأقطار تحت حماية المنتخب السكسوني ، وألقى شارل نفسه أمام بدايات المصلح الذي قدّر له أن يشق المسيحية إلى معسكرين متناحرين .

وجاء على أثر هذه الاضطرابات ، والراجع أنه كان قاصداً بها عصيان ولمع الانتشار بين الفلاحين في كل أرجاء ألمانيا . على أن هذه الاضطرابات ملأت هرواد لوتر بالخوف الشديد . إذ هاله ما رأى فيها من إسرار القتل والعنف . ومنذ ذلك الحين كف الإصلاح اللغوي الذي كان يدعو إليه عن أن يكون إصلاحاً بوساطة الشعب وأصبح إصلاحاً بوساطة الأمراء . وذلك أنه قدّم نفسه في ذلك الحكم الحر الذي قام يناضل عنه بوجولية نامة .

وفي الوقت ذاته أدرك شارل أن إمبراطوريته الضخمة كان يحرق بها خطر عظيم جداً من تجميعها الغربية والشرقية . فكان إلى الغرب منه منافسه الناشط القوى فرنسيس الأول ، وكان الترك إلى الشرق يحطرون هتاريا وقد تعاقبوا مع فرنسيس ، وأخطوا يطالبون صليبيين بمؤتمرات من الجزية على الممتلكات النمساوية . وكان جيش أسبانيا وأمواها رهين إشارة شارل ، ولكن كان من أعسر الأمور عليه أن يحصل على أي عون مالي فعال من ألمانيا . وقد أنشأ بعده جيشاً من المشاة الألمان على الطراز السويسري ، يذهب عليه الأصول التي يسطها كتاب ماكيافلي ، فن الحرب ، ولكن كان لا بد لهذه الجنود من الأعطيات ، وكان لا بد لمرورده الإمبراطورية من أن

تستكمل بقروض يغير ضمانات ، وترتب عليها آخر الأمر أن جرت نصرانه آل فلانز
إلى وحدة الإخلاص .

وحدة القول أن شارل قد وفق بتحالفه مع هنري الثامن ، إلى التظلم على فرنسيس
الأول والأترال . وكان متروكهما للرئيس هو شيال إيطاليا ، واتسمت القيادة في كل
من الجانبين بالغباء ، فكان ما يقوم به الطرفان من التقدم والتهجر متوقفاً في أعظم
حالهما على وصول الأمداد ، واجتاج الجيش الألماني فرنسا ، وأنضق ، دون الإميللاء
على مرسيليا ، ثم تولد إلى إيطاليا ، وعصر ميلان ، وحاصر في بافيا . وضرب
فرنسيس الأول على بافيا حصناً طويلاً الأمد لم يكمل بالنجاح ، ثم قطعت السيل على
قوات ألمانية جديدة وهزمت وجرحه وأخطه أسيراً ، فأرسل إلى زوجته الملكة
يلفها ، أنه قد كل شيء ، إلا الشرف ، وعقد صلحاً مهيئاً ثم تقضه بمجرد أن
أصل مراحه — فكان خلاص الشرف نفسه لم يكن إلا شيئاً وثقياً

وعند ذلك انضم هنري الثامن والبابا — حلا منهما بقواعد الأسراتينها الماكياكالية
إلى بجانب فرنسا ، لمنع شارل من أن يصل إلى حد بالغ من القوة . أما الجيوش
الألمانية في ميلان تحت إمرة كونستابل بوربون ، فإنها لما لم تسلم أطيافها ، قامت على
روما بغاوة كانت فيها أدنى إلى دفع قائلها أمامها منها إلى السير تحت إمرة . فتصوا
المدينة قسراً وأعملوا فيها انتهاكاً (١٥٢٧) . واحتصم قبايا بقلة سان أنجلو بينا كان
التهب والقتل يصلان عليهما في الناس . واشترى رجل القوات الألمانية آخر الأمر
بنفع أربع مئة ألف دوقية . ودلت تلك الحروب اسحقه للمريكة عشر سنوات ،
فمادت على أوروبا كلها بال فقر والحرمان وخلفت الإمبراطور وويله ميلاتور . وفي
(١٥٣٠) توجه البابا في بولونيا ، وكان آخر إمبراطور ألماني توجه قبايا . ولايسع
المرء إلا أن يفتكر في ذلك الوجه الأشقر الذي تباو عليه مسحة من القباء ، بما ركب
فيه من الشفة الغليظة والذقن الطويل ، والذي يصل الصبر القوي لتعب من يتجمله
لإداء مراسم مربية وإن جاز أن تكون شريفة .

وفي الوقت ذاته كان الأترال يشقون طريقهم في بلاد المجر بقوة عظيمة ،

للمهم كانوا حزموا ملك المير في (١٥٢٦) وكتلوه ، واسموا على منبجى بوداوت
في (١٥٢٩) ، وكما ذكرنا آنفاً أوصلك سليمان القانونى أن يستولى على ليبيا . وقلق
الإمبراطور قللاً عظيماً لهذا التقدم ، وبذلك نصارى جهده لصد غائلة الأتراك ، ولكنه
لم يعظم الصحوة في حل الأمراء الألمان على الاتحاد ، حتى وحدا العدو المرحب
على أبوابهم .

وظل فرنسيس الأول ودعماً من الزمان حاقلاً حاقلاً ، ثم شبت حرب فرنسا
أخرى ، ولكن شارل استطاع في (١٥٣٨) أن يفوز بحمل مناسه على أن يتخذ موقفاً
أقرب إلى المودة بإعماله الذهب والصليب في جنوب فرنسا . وعندئذ عقد فرنسيس
وشارل بينهما عفاقة ضد الأتراك ، ولكن الأمراء البروتستانت ، وهم الأمراء الألمان
الذين قتلوا الحرم على الانفصال من روما ، كانوا فيما بينهم عصبة على الإمبراطور ،
في العصبة الشياكلية (نسبة إلى مدينة شياكلاند الصغيرة من أعمال ميس ، التي
وضع فيها دستور العصبة) ، وبدلاً من أن يقوم شارل بحملة لاسترداد المير إلى أعضان
المسيحية ، اضطر أن يوجه فكره إلى الكفاح الداخلي الذي أخلت بوائده جميع في
ألمانيا . بيد أنه لم يشهد من ذلك الكفاح إلا حرب الافتتاح . كان كفاحاً ثوامه مناقشات
دموية حمقاء بين الأمراء ، الذين كانوا يطلبون لأعضهم لارفة والمجد ، وكان يتدلع
آنفاً حرباً وندميراً ، ويتصل لونة إلى المؤامرات والديلاء أسيات النتيجة ، وكان فيما جرباً
ملياً بأفهم السياسات الماكياكلية التي غدرنا أن تواصل تلويها حتى صميم القرن التاسع
عشر ، وأن تهر النصار والخراب على أوروبا الوسطى مرة بعد أخرى .

والظاهر أن الإمبراطور لم يدرك قط القوى الحقيقية التي كانت تعمل في حله
للمعاب المتجمعة . كان بالنسبة لزمانه ومرجه رجلاً طياً طيبة استثنائية ، ويبدو أنه
كان يعتقد أن الخلافات الدينية التي كانت تحرق أوروبا بدد إلى مصكرات مخالفة .
إنما هي خلافات دينية حقا . فطعن يجمع الديانت بعد الديانت والجلس إثر المجلس
في محاولاته غير الخيرية لإصلاح ذات البين . ونظرت من جديد قوانين الإيمان
والاعترافات . ولا بد لدروس التاريخ الألماني من أن يكب على دراسة تفاصيل

للمصلح الديني الذي عقد في نورمبرج ، والقسوة التي تمت في ثابت راتسبون وحصل
توحيدها وما إليها . ولن نتطاول هنا حد ذكرها بوصفها تفاصيل في حياة الموم
والقلبي التي كان يجيها ذلك الإمبراطور الفاضل الجليل .

والواقع أن أحداً من هذه الكثرة الكبيرة من الأمراء والحكام في أوروبا لا يبدو
أنه كان يصل بنية صحيحة وبخلاص . فقد كانت الاضطرابات الدينية الفضيحة المنتشرة
في العلم ، ورغبة عامة للناس في الصدق والمصالح الاجتماعية ، والعلم الآخذ في الانتشار
في ذلك الزمان ، كانت كل هذه الأشياء تعد في حيلة الأمراء ودبلوماسيتهم مجرد أهداف
تتابعهم العلماء . واتسم هنري الثامن ملك إنجلترا الذي ابتداء حياته العملية بكتاب كتبه
متابعاً الطريقة ، والذي كانه البابا بأنهم عليه بقلب ه ساي الدين ، إلى جملة
الأمراء البروتستانت في (١٥١٠) ، لاهتمامه بإطلاق روجه الأولى لنفسها ، وشكلاً
عنه بشابة مرحة اسمها آن بولين ، ولرغبته كذلك في الانقلاب على الإمبراطور والانحياز
إلى فرنسيس الأول ، وأن ينتهب ثروة الكنيسة المائلة في إنجلترا . وكانت السويد
والدانمارك والنرويج ، انضمت من قبل إلى الجانب البروتستانتي .

ونشبت الحرب الدينية الألمانية في (١٥٤٦) بعد موت مارتن لوتر بضعه شهور .
وما نحن بحاجة إلى الإتيان بأحداث الحملة وتفاصيلها . لقد هزم لوتريش البروتستانتي
السكسوني هزيمة منكرة في لوتشاو . وقضى على فليب أمير هنس (Hesse) الخصم
الأكبر الباقي للإمبراطور بطريقة تقارب لكث العهد ثم سجن ، واستبد بشيخ الأركان
بلحق بجزية سنوية . وفي (١٥٤٧) مات فرنسيس الأول فأراح الإمبراطور راحة
عظيمة . ولذا فإن شارل وصل ق (١٥٤٧) إلى نوع من التسوية ، وقام ببلد آخر
جهد لديه لإنشاء سلم حيث لا سلم ولا سلام .

وفي (١٥٥٢) عمت الحرب كل أرجاء ألمانيا مرة أخرى ، ولم يقد شارل من الأمر
إلا هربه سريعاً من إنسبروك ، وجاءت معاهدة پاسكو (Passau) فأوجدت البلاد
توازناً غير مستقر . وكان الترم بمناعب وضخامة الإمبراطورية ، قد بلغ بنفس شارل
نهاية المقصود ، فإنه لم تتوفر له في أي يوم من الأيام بنية كاملة للسلامة ، وكان يطعمه

كسولا مترعياً ، وكان يقامى عظيم الألام من القفرس . فتضحى عن العرض ، وتقل كل حقوة الملكية في ألمانيا إلى شقيقه لريديتاند ، وتنزل من أسبانيا والأراضي المنخفضة لولده فيليب . ثم تقاعد في أحد الأديرة في بوست وفي قلبه نوع من الحقد القديم للقنسر ، بين غابات البلوط والقضطل في التلال الواقعة إلى الشمال من وادي الناجه ، وهناك توفي (١٥٥٨) .

ولقد أكثر الكتاب من الكتابة في نعمة عاطفية من هذا التقاعد ، تلك الاحتزال للعالم الذي اتجه إليه ذلك البحار المنتخب للقنسر ، الذي سُم العالم ، وأخذ يطلب سلامه مع الله في وحدة تشفى صارم . ولكن تقاعده لم يكن بالمتزل ولا المصنف ، إذ كان معه ما يقارب المئة والخمسين من الأتياع ، وكان مقامه يحوى كل ملذات البلاط دون عظمه ، ونشلا عن ذلك لأن فيليب الثاني كان ابناً باراً ، تصالح إليه لديه لوامر واجبة الطاعة . فأما تشفته وزهده فخير شاهد عليها هو برسكوت حيث يقول : « لا يكاد يوجد في المراسلات اليومية تقريباً المتبادلة بين تاهيه كويكسادا أوجاز ثلوثين الوزير المقيم في بلد الوليد ، رسالة لا تتعد قليلاً أو كثيراً حول طعام الإمبراطور أو مرضه » . ويلوح طبعياً ، أن يبنى أحد الأمرين كأنما هو نظير مستمر على الآخر . ويندر في التاريخ أن تكون مثل هاته الموضوعات توام مراسلات تبادل مع إدارة الدولة . ولا بد أنه لم يكن من الذين على الوزير أن يحافظ على وقوه أثناء تلاوته الرسائل التي كانت فيها السياسة وفن الطهي والمائدة مخططين معاً يمثل تلك للدرجة . وأمر السامى القادم من بلد الوليد إلى لشبونة أن يملك طريقه بحيث يمر على بلدة جارايدلا ، ليحضر المؤن للمائدة الملكية . وكان عليه في أيام التمهيس أن يحضر السمك لتقديمه في « يوم الصيام » *Journalgre* ، الذي يطوه وكان شارل يرى أن سمكه النقطة في المنطقة المبلورة صخير جداً ، ولذا كان من اللازم أن ترسل أسماك أخرى ذات حجم أكبر ، من بلد الوليد . وكانت الأسماك على اختلاف أنواعها تروقة وتلده ، وكلها كل شيء يقارب السمك في طبيعته وعاداته . ومن ثمة احتلت ثماين البحر والصفادح وأم الخطول مكاناً طلياً في قوائم طعام الإمبراطور وكانت الأسماك

المحفولة وبخاصة المشوجة تلى مع قبولاً كبيراً ، وأبدى أسفه لأنه لم يحضر منه من الأواني المنخفضة شيئاً أجمود ، وكان مشغولاً بوجه خاص بفعلورة لبنان المأثمة .

وحصل شارل في (١٥٥٤) على مرسوم من البابا يوليوس الثالث ، بمنحه إعفاء من الصيام ، ويسمح له بأن يضطر في بكرة الصباح حتى ولو كان يتولى أن يتناول القريان .

ولما أن شارل لم ينس مطلقاً وهو في پوست قوة ثيابه ، فلم يمكن استئجاره من الحقيقة الواقعة ، وهي أن دولاب ثيابه لم يكن يحتوي أقل من ستة عشر ثوباً من الحرير والقطنية المبطنة بخمرو القاقم أو زغب البط ، أو الشعر القاتم لغز القبريري (١) . فأما أثاث جناحه الخاص وتجهيزه - وكما يجب ألا نتحدث على الشائعات المتداولة هنا في غير محفل - فلم يمكن إدراكه بنظرة واحدة إلى قائمة مقلواك التي أنشأها كويكسانا وجازتلو ، بعد وفاة سيدها . فنجد من بينها أبطحة وسجاجيد من بلاد الترك والكاريز (Alicoro) (٢) وسفلات من القطنية وما مائلها من ألحمة ، وأسطراً من القماش الأسود البديع ، التي اختارها منذ وفاة أمه لجمرة لومة بلطاسة ، بينها كانت الشقق الأخرى مفروشة بما لا يقل عن خمسة وعشرين طاقماً من طنانيس المنطقة من نسج مناولي فلانلو ، وهي موشاة قوسية ثينة بأشكال الحيوانات وصور المناظر الطبيعية .

وإنما لنجد فيما نجد من الأطباق مجموعة صنعت من الذهب الخالص ، وأخرى ملحوظة بصفة خاصة لغزابة صناعتها . ولما كان عمله حصراً ليرقع فيه فن صناعة المعادن النفيسة إلى أقصى درج الكمال ، فليس لدينا غلبة شك في أن كثيراً من أبدع الأبراج صنماً كانت ملكة عيون الإمبراطور . وينراوح وزن جميع الأطباق بين اثنتي عشرة ألف وثلاث عشرة ألف لوقية (٣) .

(١) نقل عن تيلوير بسكوت حل كتاب روبرتسون : تاريخ شارل العاشر .

(٢) اسم القبريري أي المنزج بمراسي بلاد القبر . (المرسوم)

(٣) الكاريز . حاشية بأهبالها . (المرسوم)

(٤) نقل عن تيلوير بسكوت حل كتاب روبرتسون : تاريخ شارل العاشر .

ولم يكتسب شارل قط عادة القنطرة ، ولكنه كان يستمع إلى قارئ يقرأ عليه أثناء تناوله طعامه على طريقة شرلمان ، وكان يملأ بما يصفه أحد الرواة بأنه « تطبيقات حلوة مستوية » . كذلك كان يسلي نفسه باللعب القنبية وبالاستماع إلى الموسيقى أو المواظ ، وبالانخراط إلى الفنون الإمبراطورية التي كانت ما تزال توارث عليه ، وجاءت وفاة الإمبراطورة ، التي كان متعلقاً بها عظيم التعلق ، فحولت ذهنه إلى الدين تحويلاً يعجز فيه التخليق الشديد والزام الطقوس والراسم ، فكان يتجسّد نفسه في أيام الجمعة من الصوم الكبير ومعه بقية الرهبان يحرم قوى يبلغ حد استنزال اللسان .

وكان من أثر هذه الممارسات ومحا تقويم أن انطلق في نفس شارل عوامل تعصب ديني ، كانت تصبده فيها حتى ذلك الحين الاحتمالات السياسية . فاستثار حسه إلى أقصى حد ظهور الصالح البروتستانتي في المنطقة المجاورة لبلد الوليد . و « مر » رئيس محاكم التفتيش ومجلسه قفلاً حتى بأن ينزلوا أعمالهم وأن يعملوا الناس في جنود للشر قبل أن يضل وعبر عن شكه في أن لا يكون من المنصهر في مثل هذه المسألة القناعة ، أن يستغنى عن محاكم العدالة العادية ، وأن يبطل استعمال الشفقة « لكيلا تكون أمام المجرم إذا حتى عنه فرصة لتكرار جرمه » . وضرب للخل بشياً بطريقة تصره في الأراضي المنخفضة ، « حيث أحرق حياً كل من تمسك بمنطقه متاداً » وقطعت رأس كل من قبلت توهمه .

واهتمام شارل بالحنازات يكاد يكون رمزاً إلى مكانه ودوره في التاريخ . وكان به كان يشعر بالحاجة إلى كتابة كلمة « انتهى » إلى ما لا نهاية . فإنه لم يكف قط بحضور كل جنازة طلبة تقام في يوست ، بل كان يأمر بإقامة الصلاة على الموتى القادحين وكان يقيم صلاة جنازة كاملة في يوم الذكرى السنوية لزوجته ، وانتهى به الأمر أن أقيم حفلة جنازته .

وفجأت حوالم الكنيسة بالأسطر السوداء ، ولم يكده وهدج مئات الشموع يكنى لازمة دياجير الظلمات التي أطبقت على المكان ، واجتمع الرهبان في ثيابهم

الديرية ، وكل أنراج الإمبراطور ، برندون ثاب الحداد القائمة ، حول نفس
 نسيم ، وقد كسى حر أيضاً بالسواد ، ورفع في وسط الكنيسة . ثم أقيمت صلاة
 دهن للوق ، وارتفعت بين ولولة الرهبان الحزينة أصوات الصلوات لأجل الروح
 الراحلة ، ابتهاجا إلى اللات الإلهية أن تنزها منازل الأبرار . وقابت نفوس الحضور
 الحزائي أسى ودموعاً ، إذ طاف بهم خيال ممات سليم ، أو قل إن ألقدهم ربما
 مستها رحمة لهذا المظهر المؤسف الضعيف واللومن ، وكان شارل وهو ملتف بجلباب
 أسود ، جاملا في يده شمعة مضاءة ، يشارك أفراد حاشيته ، ويشهد جنازته ومآتمه ،
 وانتهى الاحتفال الحزين بوضعه الشمعة في يد القسيس ، رمزاً إلى تسليمه روحه إلى
 ثنوى القادر .

وتحس بعض الروايات شارل يرتدى كفناً ويرقد في الثابوت ، ثم يبقى فيه وحيداً .
 حتى يفادر الكنيسة تخبر للشيعة .

ومات شارل في مدى شهرين من مهزلة حله . وماتت بموته عظمة الإمبراطورية
 الرومانية المقدسة . حقاً إن الإمبراطورية الرومانية المقدسة واصلت بعده حينها بحسر
 كبير حتى أيام نابليون ، ولكن بوصفها شيئاً حليلاً على فرائس الموت . وما تزال
 تقاليدنا غير المنقوطة تسم إلى يومنا هذا جونا للسياسي .

١٣ - (ب) بروستانت إذا رغب الأمير في ذلك

حل فرديناند شقيق شارل الخامس نواة الوحدة التي تمثل عنه لشوهه والتي
 بالأمراء الألمان أو أوجزبرج (١٥٥٥) . وهناك حلفت محاولة أخرى لإقامة سلام
 ديني . ولا أدل على روح تلك التسوية ، وعماية الأمراء ورجل السياسة القائمين بها
 من أحداث ذلك الزمان الأكثر حفاً . ماها التسوية .
 . للقرآن يرجع الاختلاف إلى شارل وليس إلى أفراد المواطنين .
 . الرحمة تسين بدين الملك *caput regio ejus saluato* .

١٣ - (ح) التيار الفكري السفلى المضاد

لقد وجهنا ما وجهنا من الانتقادات للكبير إلى كتابات ماكياڤلي ولدى الشخصية شارل الخامس ، لما بلغنا من فيض الضياء على خصومات الفترة التالية من تاريخنا ، وقد تحدث هذا الفصل بقصة الاتساع الضخم في الآفاق الإنسانية ، والزيادة العظيمة والانتشار الكبير للمعرفة ، قرأنا ضمير عامة الناس يستيقظ وشهدا بوادر تشير إلى ظهور عقلية اجتماعية جديدة أشد عمقا تنتشر بصورة عامة في كل أرجاء الحضارة الغربية . ولكن إشاعة النور والتفكير هاته كانت تغادر البلاط وحياة العالم السياسية دون أن تحسبها بأي تغيير . وكل إن يوجد بين كتابات ماكياڤلي شيء لم يكن ليصطحب أن يكتبه أحد مهرة الورداء في بلاط كسرى الأول أو شي هوانج في أوشى سرجون الأول أو بيني فرعون مصر . فهل حين كان العالم يتقدم إلى الأمام كل شيء آخر ، فإنه كان يقف جامدا لا يتحرك من حيث المفكرات السلبية ، والمفكرات المتعلقة بعلاقة الدولة بالدولة وعلاقة الملك بالمواطن ، بل الواقع أنه كان يرجع القهقري ، ذلك أن الفكرة العظيمة القائلة بحمل الكنيسة الكاثوليكية مدينة لرب السماوية ، قد دمرتها الكنيسة نفسها في أعنان الناس ، واتخذ العلم بالسيادة الإمبراطورية العالمية مثقالا شخص شارل الخامس ، شكل ضحية ، وممر من خلال أوروبا كلها ثم هوى إلى متواه الأخير . وبنا على العالم من الناحية السياسية دلائل الرجوع إلى الملكية للشخصية المسببة ذات الطراز الآشوري أو المكدوني

وليس معنى هذا أن الطاقات الفكرية الحديثة التيقت في شعوب أوروبا الغربية ، كانت من الانهياك في إعادة الشئون اللاهوتية إلى نصائها ، وفي إجراء البحوث العلمية ، وفي الأتياد الاستكشافي والتطور التجارى ، بحيث جعلت تقوم لا يستطيعون أن يلتوا بالآل مدحيات الحكام وصنوايهم . إذ لم يقتصر حامة الرجال فقط على أن يتلوا من الكتابات القديمة ، التي أصبح في متناول الأدي ، أفكروا من نظم الحكم قد تكون كهنوتية (تيوقراطية) أو جمهورية أو شيوعية الطبع على ترتيب حل قووة إلى حركة الأنجليق الإتحادية الكلاسيكية ، أن طغت روح الأنطون الخلافة العنيفة في الفكر في العقل الغربي .

فأصبح السبع قوامس مور بحاكمة غربية « جمهورية » ، أنلاطون هي كتابه « الليونيا » ، الذى جعل الأساس فيه نوعاً من الشيوعية الاستبدادية . وبعد ذلك يقرون من الزمان أظهر وأعب اسمه كاتمانلا في نابولي ، مثل ما أظهر مور من البحارة بكتابه « مدينة الشمس » . ولكن لم يكن مثل ماتة الأبحاث أى تأثير مباشر في التعليم السياسية البحرية : ولو قورن هذا الكتابان بنفسامة للعمل المرجو منهما ، ليدت فيهما خلبة النزعات الشاعرية والنظرية والخرال . (ومع هذا فقد قدّر « ليوونيا » أن تؤتى ثمارها فيما بعد في « قوانين الفقراء » (الإنجليزية) .

وظل التطور الفكرى والخلقى لثقل القرن وهذا الاتجاه صوب الملكية الملكية الكسبائية في أوروبا ، يسيران روحاً من الزمان جنباً إلى جنب في نفس العالم ، ولكنهما كانا يقسيران مستقلين تقريباً . وظل رجال السياسة يدبرون الخطط ويقومون بالمداورات (المداورات) ، كأنما ليس هناك شىء ينمو إلا قوة الملوك الملوك المخططين .

ولم يحدث إلا في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، أن حلون الثيودين من للنزعات — تيارا المفكرات العامة وحركة الدبلوماسية الملكية التنفيذية الألمانية — تدخلتا في بعضهما في بعض واشتجر بينهما النزاع .

ثم الكتاب السابع

وبليه الثامن

في

التأريخ الحديث

عصر الفول العظيم

فهرس أجدى الكتاب

(13)

[illegible]

٧٤٥ ألمانيا
 ٧٦٨ أجنحة
 ٦٩٤ إبراهيم (البراني)
 ١٠٠٧ : ٩٩٥ : ٨٩٤ : ٨٣٠ ابن رشد القرطبي
 ٨٢٠ ابن سينا
 ٢ : ٧٨٨ : ٧٩٥ : ٨٠٠ : ٨٠٢ : ٨٠٤ : ٨٠٥ : ٨٠٦ : ٨٠٧ : ٨٠٨ : ٨٠٩ : ٨١٠ : ٨١١ : ٨١٢ : ٨١٣ : ٨١٤ : ٨١٥ : ٨١٦ : ٨١٧ : ٨١٨ : ٨١٩ : ٨٢٠ : ٨٢١ : ٨٢٢ : ٨٢٣ : ٨٢٤ : ٨٢٥ : ٨٢٦ : ٨٢٧ : ٨٢٨ : ٨٢٩ : ٨٣٠ : ٨٣١ : ٨٣٢ : ٨٣٣ : ٨٣٤ : ٨٣٥ : ٨٣٦ : ٨٣٧ : ٨٣٨ : ٨٣٩ : ٨٤٠ : ٨٤١ : ٨٤٢ : ٨٤٣ : ٨٤٤ : ٨٤٥ : ٨٤٦ : ٨٤٧ : ٨٤٨ : ٨٤٩ : ٨٥٠ : ٨٥١ : ٨٥٢ : ٨٥٣ : ٨٥٤ : ٨٥٥ : ٨٥٦ : ٨٥٧ : ٨٥٨ : ٨٥٩ : ٨٦٠ : ٨٦١ : ٨٦٢ : ٨٦٣ : ٨٦٤ : ٨٦٥ : ٨٦٦ : ٨٦٧ : ٨٦٨ : ٨٦٩ : ٨٧٠ : ٨٧١ : ٨٧٢ : ٨٧٣ : ٨٧٤ : ٨٧٥ : ٨٧٦ : ٨٧٧ : ٨٧٨ : ٨٧٩ : ٨٨٠ : ٨٨١ : ٨٨٢ : ٨٨٣ : ٨٨٤ : ٨٨٥ : ٨٨٦ : ٨٨٧ : ٨٨٨ : ٨٨٩ : ٨٩٠ : ٨٩١ : ٨٩٢ : ٨٩٣ : ٨٩٤ : ٨٩٥ : ٨٩٦ : ٨٩٧ : ٨٩٨ : ٨٩٩ : ٩٠٠ : ٩٠١ : ٩٠٢ : ٩٠٣ : ٩٠٤ : ٩٠٥ : ٩٠٦ : ٩٠٧ : ٩٠٨ : ٩٠٩ : ٩١٠ : ٩١١ : ٩١٢ : ٩١٣ : ٩١٤ : ٩١٥ : ٩١٦ : ٩١٧ : ٩١٨ : ٩١٩ : ٩٢٠ : ٩٢١ : ٩٢٢ : ٩٢٣ : ٩٢٤ : ٩٢٥ : ٩٢٦ : ٩٢٧ : ٩٢٨ : ٩٢٩ : ٩٣٠ : ٩٣١ : ٩٣٢ : ٩٣٣ : ٩٣٤ : ٩٣٥ : ٩٣٦ : ٩٣٧ : ٩٣٨ : ٩٣٩ : ٩٤٠ : ٩٤١ : ٩٤٢ : ٩٤٣ : ٩٤٤ : ٩٤٥ : ٩٤٦ : ٩٤٧ : ٩٤٨ : ٩٤٩ : ٩٥٠ : ٩٥١ : ٩٥٢ : ٩٥٣ : ٩٥٤ : ٩٥٥ : ٩٥٦ : ٩٥٧ : ٩٥٨ : ٩٥٩ : ٩٦٠ : ٩٦١ : ٩٦٢ : ٩٦٣ : ٩٦٤ : ٩٦٥ : ٩٦٦ : ٩٦٧ : ٩٦٨ : ٩٦٩ : ٩٧٠ : ٩٧١ : ٩٧٢ : ٩٧٣ : ٩٧٤ : ٩٧٥ : ٩٧٦ : ٩٧٧ : ٩٧٨ : ٩٧٩ : ٩٨٠ : ٩٨١ : ٩٨٢ : ٩٨٣ : ٩٨٤ : ٩٨٥ : ٩٨٦ : ٩٨٧ : ٩٨٨ : ٩٨٩ : ٩٩٠ : ٩٩١ : ٩٩٢ : ٩٩٣ : ٩٩٤ : ٩٩٥ : ٩٩٦ : ٩٩٧ : ٩٩٨ : ٩٩٩ : ١٠٠٠ : ١٠٠١ : ١٠٠٢ : ١٠٠٣ : ١٠٠٤ : ١٠٠٥ : ١٠٠٦ : ١٠٠٧ : ١٠٠٨ : ١٠٠٩ : ١٠١٠ : ١٠١١ : ١٠١٢ : ١٠١٣ : ١٠١٤ : ١٠١٥ : ١٠١٦ : ١٠١٧ : ١٠١٨ : ١٠١٩ : ١٠٢٠ : ١٠٢١ : ١٠٢٢ : ١٠٢٣ : ١٠٢٤ : ١٠٢٥ : ١٠٢٦ : ١٠٢٧ : ١٠٢٨ : ١٠٢٩ : ١٠٣٠ : ١٠٣١ : ١٠٣٢ : ١٠٣٣ : ١٠٣٤ : ١٠٣٥ : ١٠٣٦ : ١٠٣٧ : ١٠٣٨ : ١٠٣٩ : ١٠٤٠ : ١٠٤١ : ١٠٤٢ : ١٠٤٣ : ١٠٤٤ : ١٠٤٥ : ١٠٤٦ : ١٠٤٧ : ١٠٤٨ : ١٠٤٩ : ١٠٥٠ : ١٠٥١ : ١٠٥٢ : ١٠٥٣ : ١٠٥٤ : ١٠٥٥ : ١٠٥٦ : ١٠٥٧ : ١٠٥٨ : ١٠٥٩ : ١٠٦٠ : ١٠٦١ : ١٠٦٢ : ١٠٦٣ : ١٠٦٤ : ١٠٦٥ : ١٠٦٦ : ١٠٦٧ : ١٠٦٨ : ١٠٦٩ : ١٠٧٠ : ١٠٧١ : ١٠٧٢ : ١٠٧٣ : ١٠٧٤ : ١٠٧٥ : ١٠٧٦ : ١٠٧٧ : ١٠٧٨ : ١٠٧٩ : ١٠٨٠ : ١٠٨١ : ١٠٨٢ : ١٠٨٣ : ١٠٨٤ : ١٠٨٥ : ١٠٨٦ : ١٠٨٧ : ١٠٨٨ : ١٠٨٩ : ١٠٩٠ : ١٠٩١ : ١٠٩٢ : ١٠٩٣ : ١٠٩٤ : ١٠٩٥ : ١٠٩٦ : ١٠٩٧ : ١٠٩٨ : ١٠٩٩ : ١١٠٠ : ١١٠١ : ١١٠٢ : ١١٠٣ : ١١٠٤ : ١١٠٥ : ١١٠٦ : ١١٠٧ : ١١٠٨ : ١١٠٩ : ١١١٠ : ١١١١ : ١١١٢ : ١١١٣ : ١١١٤ : ١١١٥ : ١١١٦ : ١١١٧ : ١١١٨ : ١١١٩ : ١١٢٠ : ١١٢١ : ١١٢٢ : ١١٢٣ : ١١٢٤ : ١١٢٥ : ١١٢٦ : ١١٢٧ : ١١٢٨ : ١١٢٩ : ١١٣٠ : ١١٣١ : ١١٣٢ : ١١٣٣ : ١١٣٤ : ١١٣٥ : ١١٣٦ : ١١٣٧ : ١١٣٨ : ١١٣٩ : ١١٤٠ : ١١٤١ : ١١٤٢ : ١١٤٣ : ١١٤٤ : ١١٤٥ : ١١٤٦ : ١١٤٧ : ١١٤٨ : ١١٤٩ : ١١٥٠ : ١١٥١ : ١١٥٢ : ١١٥٣ : ١١٥٤ : ١١٥٥ : ١١٥٦ : ١١٥٧ : ١١٥٨ : ١١٥٩ : ١١٦٠ : ١١٦١ : ١١٦٢ : ١١٦٣ : ١١٦٤ : ١١٦٥ : ١١٦٦ : ١١٦٧ : ١١٦٨ : ١١٦٩ : ١١٧٠ : ١١٧١ : ١١٧٢ : ١١٧٣ : ١١٧٤ : ١١٧٥ : ١١٧٦ : ١١٧٧ : ١١٧٨ : ١١٧٩ : ١١٨٠ : ١١٨١ : ١١٨٢ : ١١٨٣ : ١١٨٤ : ١١٨٥ : ١١٨٦ : ١١٨٧ : ١١٨٨ : ١١٨٩ : ١١٩٠ : ١١٩١ : ١١٩٢ : ١١٩٣ : ١١٩٤ : ١١٩٥ : ١١٩٦ : ١١٩٧ : ١١٩٨ : ١١٩٩ : ١٢٠٠ : ١٢٠١ : ١٢٠٢ : ١٢٠٣ : ١٢٠٤ : ١٢٠٥ : ١٢٠٦ : ١٢٠٧ : ١٢٠٨ : ١٢٠٩ : ١٢١٠ : ١٢١١ : ١٢١٢ : ١٢١٣ : ١٢١٤ : ١٢١٥ : ١٢١٦ : ١٢١٧ : ١٢١٨ : ١٢١٩ : ١٢٢٠ : ١٢٢١ : ١٢٢٢ : ١٢٢٣ : ١٢٢٤ : ١٢٢٥ : ١٢٢٦ : ١٢٢٧ : ١٢٢٨ : ١٢٢٩ : ١٢٣٠ : ١٢٣١ : ١٢٣٢ : ١٢٣٣ : ١٢٣٤ : ١٢٣٥ : ١٢٣٦ : ١٢٣٧ : ١٢٣

[illegible]

لكنور ١٠٢٤
توتيل ٧٢٢
توماس أكونغاس ١٠٠٢
توماس مور ١٠٥٧
توماس جراكوس ٧٢٩
تودوس ١٨٨
توشيرامير ١٠٠٧
تيمور ٦٥٥
تيمورلنك ٩٥٤ : ٩٦٢ : ٩٦٢ : ٩٥٢
التوتون ٧٢٥
تودوس الروس ٨٤٨

(ث)

ثالث ٦٩٢
الثانوية ٧١١
الثانويين ٧١٢
ثقلان العربية ٨٢٨
الثورة الفرنسية ٩٨٥
ثورة القلايين ٩٨٥
ثومورا ٧٢٩
ثومورلك الأول ٧٢٩ : ٨٣٠
ثومورس الأكبر ٧٢٩
ثومورس الأول ٧٢٢
ثومورقيا ٧٠٦ : ٧٥١

(ج)

الجاكوب ٩٨٤
جاليورس ٧٤٥
جاليور جالي ١٠٠٧ : ١٠٠٨ : ١٠١٠
جاسانت ٧٣٤ : ٨٢٩
جاسنة سالور ٨٩٩
جان دارك ٩٠٩٦ : ١٠١٢
جان فان أولك ١٠٢٢
جبال القبراقس ٨١٩
جبال مودوس ٨١٨

بزنقة ٨٢٣
بوز ١٠٣٤
بوزجوشو ١٠٢٣
بوزلر ١٠٣٤
بكين ٩٥٧
بيلوس البيلي ٧٠٢ : ٧٠٣

(ت)

تلج عل ٩٦٢
تامول ٩٧٩
تاكيل ٧٧٧
تاليج ٧٥٧ : ٧٦١ : ٧٦٢ : ٧٦٣ : ٧٦٤
٧٧٢ : ٩٢٢
تافكوك ٨٨٧
تاك تسنج ٧٦١ : ٧٦٢ : ٧٧٤ : ٧٧٩ : ٩٢٣
٩٦٠
تايور ١٠٠٣
تايان ١٠٢٤
تاجريج ١٠٠٦ : ١٠٠٨
تاجريج ١٠٤٥
تاجور ٧٤١ : ٧٤٤ : ٧٤٥ : ٧٨٢
تراچاك ٧٤٠ : ٧٤٨ : ٧٨٢
تاجل ٩٢٢ : ٩٦٧ : ٩٦٩
تاك ٧٧٩ : ٨٢٦ : ٨٢٢ : ٩٢٢ : ٩٦٥
تاركان ٧٢٢ : ٧٥٦
تاركاندية (القبة) ٨٧٥
تاركاندور ٩٢٠ : ١٠١٧
تاجيا ١٠٢٢
تاس ان ٧٧١
التكامل الصل ٩١٨
تاجو (أسرة) ٧٧٧
التامور ٧٣٥ : ١٠٢٧ : ١٠٢٥
الشفادى ٩١٨
التامورين ٩٨٤ : ٩٩١
التامورين ٨٧٩
تاجيل الطيبة (فن) ٩١٩

جون ٨٩٠ + ١٠٢٨
 جون آديتوتون سيوليس ١٠١٨
 جون هال ٩٨٢ + ٩٨٤
 جون القوراسي ٩٢٠
 جون الهادي ٩٨٥
 جون صي ٩٦٨ + ٩٧٩
 جويستكار ٨٨٢
 جيون ٧١٥ + ٧١٨ + ٧٢٩ + ٧١٣ + ٢٨
 ٨٦١ + ٨٦٦ + ٨٧٤ + ٨٨٤ + ٨٦١
 جيريوم الجراحي ٩٧٩
 جيس الاول ١٠٠٨
 جولي الخلاص ٩٩٩
 جيبان (شاه) ٩٦٧
 جيبان جير ٩٥٦
 جيدرور ١٠٢٢

(ح)

الحبر العظيم ٧٢١
 الحفلة ٧٢٢
 الحرب الصليبية (انظر حلة) ٨٨٢ + ٩٧٩
 الحرب الصليبية الأول ٨٨٩
 ح ٠ الحافة ٨٨٩
 ح ٠ كساية ٨٩٣
 الحروب الصليبية ٨٨٥ + ٨٩٣ + ١٠١٢
 حروب اللاسين ٩٨٣
 حروب القوراسيون ١٠١٢ + ١٠٢٠
 الحركة الاقتصادية ٩٨٦
 الحسن بن علي ٨١٦
 الحسين ٨١٦
 الحقد القلبي ٩٥١ + ٩٥٢ + ٩٥٧
 الحفارة (النظر صليبية) ٧٦٦
 حفارة نيزور ١٠٢٣
 حكمة دالية ٨٧٨
 ح ٠ حافة ٧٢٨ + ٩٠١
 الحكم البرماني ١٠٢٨

حسين ٧٠٣
 جيراكوس ٩٧٤
 جيراكوس ١٠٢٥
 جرجوري ٧٢٢ + ٧٢٥ + ٧٢٨ + ٧٧٤ + ٨١٨
 جرجوري (ر .) ٧٢٢ + ١٠٠٨
 جرجوري الأول العظيم ٩١٠
 جرجوري التاسع ٨٩٢ + ٨٩٥ + ٩٩٥ + ٩٧٥
 ح ٠ الحافة ستر ٩١٤ + ٩٤٨
 ح ٠ السابع ٨٧٧ + ٨٢٩ + ٨٩٥ + ٨٩٥
 ٩٩٧ + ٩١٢

الحزب ٩١٨ + ٩٩٦
 جستان ٧٧٧ + ٧٧٤ + ٧٣٥ + ٧٢٨ + ٨٢٩
 ٧١٢ + ٧٢١ + ٨٤٧ + ٨٥٤ + ٨٥٦ + ٩٤٤

جفري فوسر ١٠٢٠
 جفري ١٠٥٨
 جلف ٧٠٢
 الجليل ٧٠٤ + ٧٠٩
 الجمعية الملكية ١٠٠٩
 حية يسوع (اليهوديون) ٩٩٤
 الحضورية الرومانية ٧٥٦ + ٩٠٧ + ٩١٦

جفري ١٠٢٤
 جفري ٩٦٢
 جفري خات ٩٢٣ + ٩٢٥ + ٩٢٨ + ٩٢٩ + ٩٢٩
 ٩٢٣ + ٩٢٥ + ٩٢٨ + ٩٢٥ + ٩٢٣
 ٩٥٤ + ٩٥٧ + ٩٦٣
 ح ٠ ١٠١٢ + ١٠١٦ + ١٠٢٣
 جوفراج ٨٥٢
 الجوفرا ٧٥٤ + ٩٦٢
 الجوفرا ٧٧٥
 جوفرا ٧٠٣ + ٧٠٩ + ٧٠٩ + ٩٠٦
 جوفرا ٩٨٧
 جوفرا البروني ٨٨١
 الجوفرا ١٠١٦

حصص ٧٤٥

حالة صلحة ٨٨٨

الحق الصلحية الأولى ٨٨٨ + ٨٨٥

٨٩٠ = الرأية =

٨٩١ = الخلفة =

٨٩٦ = الخلفة =

٨٨٣ = الخلفة =

حالة صلحية للأفكار ٨٩٠

(نخ)

حالة ٨٠٥ = ٨٠٥

عمية ٧٩٩

الجزر ٨٧٥

الجزر ٧٧٣ = ٩٥٠

الجزر الخلفية ٨٩٦

الخلفون ٧٣١

الخلفون ٩٢٤ = ٩٢٧

(د)

الخلفون ٨٠٧ = ٩٢٤

الخلفون ٧٢٦

الخلفون الخلفون ١٠١٧

الخلفون ٩٠٧

الخلفون ١٠١٦

الخلفون ٩١٠

الخلفون الخلفون ٧١٣ ، ٧١٤ ، ٧١٧ ، ٨١٨ ، ٧٢١

٧٢١ = ٧١٩

خلفي ٩٥٥

خلفي ٨١٩

خلفي ٨٩١

خلفون الخلفون ١٠٠٧ = ٩٠٣

خلفون الخلفون (الخلفون الخلفون) ٩٠٣

خلفون ٨٧٧

خلفون ١٠٥٦

خلفون الخلفون الخلفون ٩٧٤

خلفون الخلفون الخلفون ٧٤٣

خلفون الخلفون الخلفون ١٠٤٣

خلفون الخلفون الخلفون ٩٧٣

خلفون الخلفون الخلفون ٩٧١ = ٩٧٧

خلفون الخلفون الخلفون (خلفون) ٩٨٠

خلفون الخلفون الخلفون ٩٠٩ = ٩١٨ = ٩٠٧

خلفون الخلفون الخلفون ٩٠٨ = ٩٠٩

خلفون الخلفون الخلفون ١٠٧٢ = ٩٩٥

خلفون الخلفون ٧١٣

خلفون الخلفون ٩٧٣

(ج)

خلفون الخلفون ٧٧٣

خلفون الخلفون ٩٩٨

(د)

خلفون الخلفون ١٠٧١

خلفون الخلفون ١٠٧٠

خلفون الخلفون ١٠٧١ = ١٠٧٠

خلفون الخلفون ١٠٥٦

خلفون الخلفون ٩٨٨

خلفون الخلفون ٧١٣

خلفون الخلفون ٨٠٧ = ٨٠٩

خلفون الخلفون ٩٢٥ = ٩٢٨

خلفون الخلفون ٧٠٧

خلفون الخلفون الخلفون ١٠٧٠

خلفون الخلفون الخلفون ٩٩٣

خلفون الخلفون الخلفون ١٠٣٦

خلفون الخلفون ٧٣٠

خلفون الخلفون ١٠١١

خلفون الخلفون الخلفون ٩٩٣ = ٩٩١

خلفون الخلفون ١٠٢١

خلفون الخلفون ٨٩٧

خلفون الخلفون الخلفون ١٠١١ = ١٠١٠ = ١٠٢١

خلفون الخلفون ٧٢٣

روبرت الماسجى ١٠١٣ + ٩١٣

رويك ٨٧٣

رولف ٨٥٧

رولف البقاء ٨٧١

روما ٦٨٨

الرومان ٦٨٧

الرومانس ٩٤٠

الرومانسكى (الفن) ٨٦١

الرومانشى (اللغة) ٨٤٤

ريشارد ٨٨٩

ريشارد الثالث ٩٨٤

(ز)

زادشت ٧٥٩ + ٧٥٠ + ٧٥١

الزادشتية ٧٥٠ + ٧٥١ + ٨٠١ + ٨٣٠

الزراعة ٨٣٦

زدهشت (انظر زادشت) ٧٥٠

الزله افسا ٧٥٠

زوسوس ٧٦٧

زيكا ٩٧٩

(س)

سايور الاول ٧٤٩ + ٨٤١

السامانية ٧٤٠ + ٨٧٧

السامانيون ٧٤٠

سالتو ٧٥٠

السامانية (الأسرة) ٨٦٣

السامية ٧٨٦

الساميون ٩٣٣

سلسر ١٠٧٠

السيلية ٧١١

سرجون الاول ٧١٧ + ١٠٥٦

سرفاتيل ٩٦٦ + ١٠٧١

السكسون ٧٧٥ + ٨٥٥

السكونية (الأسرة) ٨٦٧

سكوتيون ٨٤٦

السكونية (الأسرة) ٨٧٦

السكونية — ستيون ٨٣٦ + ٨٨٧

٩٤١ + ٨٨٤

السلاف (انظر صلافية) ٧٤٠

السلي (الملعب) ٧١٣

السلطون ٦٨٧

سليم ٩٢٩ + ٩٤٧

سليمان (ابن عبد الملك) ٨١٣

سليمان بن الوليد ٨١٩

سليمان الثاني ٩٤٧ + ١٠٤٥ + ١٠٥٠

سمرقند ٩٤١ + ٩٥٥

سمرقندى ١٠٧٣

السبون ٨٦٥

سولون ٨٤٥

سولونى ٣٠

سولونوس ٧١٧

سولونى ٩١٣٩ + ١٠٤١

سوليا ٦٨٧

سولوى ١٠٣٣

سولوى ٩٤٣ + ٩٤٣

السورية (الثقافة) ٩٠٣

سوى (أسرة) ٧٦٠

سولس ١٠٤٣

السورى (الاتحاد) ١٠٤٣

السوى ٧٢٦

سولس ٧٧٩

سولس ٧٠٨ + ٧١٩ + ٧٧١ + ٧٧٢

سولس ٦٠٣٩ + ١٠٤٠ + ١٠٤٠

سولس ١٠٤٣

(ش)

شاول الطرسوسى ٧٠٤

كوستر ٩٨٧
كوشان ٢٥٥
كركاني تقيي ٧٧٢
الكولونيل دوم ٧٣٠
كوايس (عمر سويح) ١٠٧٨ : ١٠٣٠ : ١٠٤٤
كوماجين ٧١٥
كورااد الثالث ٨٨٨
كورااد الثاني ٨٦٧
كولطاس ٩١٠ : ٩١٥
كولفوشويس ٧٩٩ : ٧٨٢ : ٧٨٥
الكيماديرين ٩٠٠ : ٩٠٣
كيف ٩٢٨ : ٩٢٩

(ك)

اللاتين ان ٨٥٩ : ٨٧٩ : ٩٥٩ : ٩١١ : ٩١٢
لاس كاساس ١٠٣٨
لاهورتي ٩٩٩ : ٩٦٥ : ٩٨٠ : ٩٢٤
اللدات الأولى ٨٤٣
اللدات السفلية ٨٧٦
التركونفنديه ٨٧٥
لندن ١٠١٣ : ١٠١٦
لوتز ٩٨٠
لوتز ١٠٦٠ : ١٠٤٧ : ١٠٤٨
الفرحة المصودة ٩١٨
الطوبى ١٠٧١
لوتز ١٠٥١
القميارد ٧٧٧ : ٧٣٣ : ٧٣٩
لوفس ٨٦٠ : ٨٦١ : ٨٨٨ : ٩٣٥
لوفس الحادي عشر ١٠١١
لوفس (مركبة) ٩٦٢ : ١٠٣٧
لوفس (مركبة) ٩٢٩ : ٩٣١
لوكيا ٨١٨
لوفس الإحدى عشر ٨١٩
لوفس الثالث ٨٥٦ : ٨٥٧ : ٨٥٩ : ٩١٠
لوفس الخامس ١٠٤٥ : ١٠٤٧ : ١٠٤٨

كاموس ١٠٢١
كانتوري ٨١٨
كانوسا ٩١٠
كانوت الأجر ٨٧١
كانيلسكا ٧٥٥ : ٨٧٨
الكان ٩٦٨
كانر ١٠٥٧
الكتابة ٧٦٧ : ٧٦٩ : ٧٧٢
كراسوس ٧٤٠ : ٨٠٢
كرام ٨٨٧ : ٨٧٤
كرومبول ١٠٤١
كرويس ١٠٢١
كرويس ٧١٧
كسرى الأول ٧١٢ : ١٠٥٦
كسرى الثاني ٧٩٢ : ٨٨٢ : ٨٠٨ : ٨٩١
الكتب ٧٨٣
الكتب ٨٤٦
الكتلانيون ٧٨٢
كلنت انحاس ٩١٤
كلنت الساج ٩١٤
كليرمونت ٨٨٧
الكن ٩٢١
الكن ٩٢٦ : ٩٢٨
الكنيسة ٧٧٢ : ٨٩٥ : ٨٩٩ : ٩٠٧ : ٩٠٩
٩٠٩ : ٩١٥ : ٩١٦ : ٩١٢ : ٩١٦ : ٩١٦
٩٧٥ : ٩٨٩ : ٩٩٠ : ٩٩٧ : ٩٩٩
٩٩٧ : ١٠٣٨
الكنيسة الأولى كنيسة ٧٢٢
الإلهية ٩٩١
القرية ٧٢٣
الكنائس ٨٥٣ : ١٠٥٦
كنيسة ٧٢٠
كوبريكوس ١٠٠٧
كوزيل ١٠٣٤ : ١٠٣٥

المذهب الاحتشائي (الخصي) ٨٣٠ ٩٠٣ ٤

١٠٠٥ ١٠٠٨ ٤

إلخسب قرائس ١٠٠٥

مراد ٩١٢

موتس ٩٩٠

مورم ٧٠٩

المزكية ٧٥٢ ٨٠٣ ٤

مسيا ٧١٥

المسح ٧١٥

المسبية ٧١٧ ٧١٩ ٤ ٧٢١ ٤ ٧٢٣ ٤ ٧٢٣ ٤

٧٢٤ ٧٢٧ ٤ ٨٠٣ ٤ ٨٥٧ ٤ ٨٤٦ ٤

٨٥١ ٨٥٢ ٤ ٩٦٥ ٤ ٩٧٢ ٤

المسجون ٨٢٠

مصر ٩٨٧

معاوية ٨٦٨

معركة الإيمن ٨٤٥

المعول ٩٢٣ ٩٢٦ ٤

المقنع ٨٧٣

مكايون ٩٨٨

مكة ٧٨٢ ٨١٤ ٤ ٨٢٠ ٤

مكسليان ١٠٤٤

مقرون ١٠٧٠

ملكنا ٩٢٨

الملك ٩٠٤

ملكة كليل ٩٩٣ ٩٩٤ ٤

منج (أسرة) ٧٦٤ ٧٦٩ ٤ ٩٣٥ ٤ ٩٦٨ ٤

٩٨١ ٩٨١ ٤

أمنصور ٨٢٣

حوالي أرميد ٧١٩ ٩٥١ ٤ ٩٨٢ ٤ ٩٨٥ ٤

لوروت الأسوة ٩٨١

موسى (معدة) ٩٧٩

الموسى ٧٣٦ ٩١٩ ٤

موتروما ١٠٣٤

موتين ١٠١٩

موتني كليمير ٣٣١

موراكس ٩٤٧

ميتاليل بالدرجوس ٩١١

المنابع ٨٧٧

ميتاليل ميكوت ٨٩٩

ميتاليل ١٠١٧ ١٠٣٩ ٤

الميزون ٨٤٦

الميزون ٩٩٧

ميتاليل ١٠٣٩ ١٠٣٩ ٤ ١٠٣٩ ٤

ميتاليل ٨٥٢

ميتاليل ٧٥٥

(٥)

أهلين الأول ٩٠٠ ١٠٥٥ ٤

الناصرين (الناصرين) ٣٠٩

نالا ٧٧٧

النيط ٧٨٦

النمت (الظرف) ١٠٧٥

النار ١٠٢٧

الناسرة ٨٧٨ ٩٣١ ٤

النسوية ٧١١ ٩٢٤ ٤

النسويين ٧٦٧ ٩٣٨ ٤

نظام الإقطاع ٨٢٩

نظام الإقطاع ٧٦٩

نظام تلمس ٩٦١

نظام الخرافات ٧٦٩

نظور ٨٥٩

نظور ٧٥٩

نوبل ٩١٣

النوبل ١٠٢٨

النوبل ٨٧٢ ٨٧٢ ٤ ٨٨٦ ٤

نوبل ٢٠٤١

النبة ١٠٢١

نوبل ٨٨٣ ٨١٥ ٤

نوبل ٨٧٢ ٨٧٢ ٤ ٩٠١٢ ٤

١٠١٦

نوبل ٧٣١ ٧٣١ ٤

نوبل ٧١٩

نوبل ٧١٤ ٧١٨ ٤ ٧١٩ ٤

نوبل (ألفر) ٧١٤ ٧١٤ ٤

نوبل ٧١٤ ٧١٤ ٤

(٤)

اليهودية ٨٢٨	
اليهودية (في أرضي أو بلاد اليهودية)	
إيران ٩٢٢ : ٩٢٩ : ٩٤٨ : ٩٤٩	يافج نهر ٩٢٩
إيران طبرستان ٩٢٤ : ٩٢٧	يافج ٧٨٢ : ٧٨٩
إيران خوارزم ٩٧٥ : ٩٧٥ : ٩٧٧ : ٩٧٩	اليهودية ٨٠٧
إيران ٩٣٨	إسراج (عيسى) القاسري ٦٥٨ : ٦٨٦ : ٦٩٤
إيران الخاقان حكر ٨٦٦ : ٨٧٨ : ٩١٥	٧٠٤ : ٨٥٢
إيران الخاقان حكر ٩٦٥ : ٩٦٧	كوسميون ٩٣٥ : ٩٨٦ : ١٠٢٦ : ٩٩١ : ٩٩٢
إيران القاسري ٨٦٨	أوليف ١٠٥٧
إيران ٧١٩	بابوشتر ٩٢٨
إيران ٩٧٦	كابل ٧٩٢
إيران ٧٤٠	جود ٧٩٤ : ٨٢٠ : ٩٧٢
إيران ٩٢٦	جود السبائية ٨٢٧
إيران الثلاث ١٠٨٢	جود القسطنطينية ٦٨٨
إيران قيسر ٨٤٩	

التعريف بالمرجع

هو عبد العزيز محمد توفيق عزيز جويده .

ولد بالقاهرة سنة ١٩٠٧ - وحصل على ليسانس في الآداب من المعلمين العليا (١٩٢٩) ، واشتغل بالتدريس ، حتى رقى وكيلا لمدرسة مصر الجديدة الثانوية (١٩٥١) ، فديراً للمركز الرئيسي لتدريب بوزارة التربية والتعليم (١٩٦٣) . وشغل منذ ذلك الحين بالثقافة وآداب العربية والإنجليزية والفرنسية . وأهتم بتجميع مخطوطات بالترجمة ، فنقل الكتب النادرة إلى العربية :

(أولاً) في التاريخ وفلسفة التاريخ :

- ١ - « معالم تاريخ الإنسانية » . ج . ٥ ج . ٥ - (مكتبة المؤلف)
- ٢ - « موجز تاريخ العالم » [الألف كتاب] ج . ٥ . ج . ٥ - (مكتبة النهضة)
- ٣ - « أحلام وفكر » للمؤرخ المولندي هوريزما (الهيئة المصرية العامة)
- ٤ - « التاريخ وكيف يفسرونه » ألبان وديجرى (الهيئة المصرية العامة)

(ثانياً) في تاريخ الحضارات :

- ٥ - « حضارة الإسلام » [الألف كتاب] بلومستاف لون جرونيوم . (مكتبة مصر)
- ٦ - « الحضارة البيزنطية » [الألف كتاب] رنسيان . (مكتبة النهضة)
- ٧ - « الحضارة الماياكية » [الألف كتاب] ترون (مكتبة الأجيال)
- ٨ - « ميلاد المصور الوسطى » [الألف كتاب] مومس (عالم الكتب)
- ٩ - « انتمسحلال المصور الوسطى » هوريزما (المجلس الأعلى)

(ثالثاً) في علم النفس والتربية :

- ١٠ - « مدخل إلى علم النفس الحديث » [الألف كتاب] زانجويل (مكتبة الآداب)
- ١١ - « الحنين والطفل في ثلاثة أيام » : [الألف كتاب] جزل (الكرنتك)
- ١٢ - « الطفل من الخامسة إلى العاشرة » : جزل (مكتبة المؤلف)

١٣- «الشباب» [الألف كتاب] جزل (الأنجلو)

ومى [للاية أرولد جزل فى تربية الأطفال وميكولوجيتهم

١٤- «الطقولة وما بعدها» : تحت الطبع سوزان لافاكس

١٥- «سلوك الأطفال» : تحت الطبع الدكتور فرانسيس لافاج .

(رابعاً) كتب فى السياسة والثقافة العامة والفنون :

١٦- «آسيا والسيطرة الغربية» : السردار باليكر الهندى (الهيئة المصرية العامة)

١٧- «حول منع الحرب» . . . جون ستراتشى (الهيئة المصرية العامة)

١٨- «الطوبى فى الفنون» . . . توماس مونرو (الهيئة المصرية العامة)

١٩- «التربية عن طريق الفن» : [الألف كتاب] هيربرت ويد (لجنة

الأجهزة العلمية)

٢٠- «أليس فى أرض العجائب» . . . لويس كارول (لجنة الرواد)

٢١- «أهل كنوز الأكدمين» . (قصص للأطفال تحت الطبع)

٢٢- «مدينة الملاهى» (قصص خالصة) أرولد بينيت

وذلك هذا ترجمة مقالات فى كتاب «تاريخ العالم لعمرون» «مكتبة النهضة»

ونشر أبحاث فى بعض المجالات الأدبية .

مطبع الهيئة المصرية العامة للكتاب

عام الإصدار يناير ١٩٩٦/٢٠٠٦

LS.B.N 977-01-3993-9

هذه الكتاب - ولما كان عليه اسم - موسوعة تاريخية سائلة
 موجزة للحضارة الإنسانية عبر عصورها ويروى قصتها الإديب الإنجليزي
 الشهير ج. هـ. ويلز. والملحة العربية من هذا الكتاب سوف تصدر في
 أربعة أجزاء يتناول الجزء الأول منها نشأة الحوق والتطورات العلمية
 المختلفة التي تفسر تطورها ثم يظهر الإنسان والجناس القديس
 المنحرفة. ويعرض لفكر الإنسان البدائي ومعتقداته الدينية ونشأة
 اللغة وتقسيماتها ثم لقديم الحضارات في مصر والعراق والهند. أما
 الجزء الثاني فيعرض للحضارة الإغريقية والهلينسية والرومانية، واجدة
 من تاريخ العبرانيين. أما الجزء الثالث فيضم بهنارات العصور الوسطى
 والجزء الرابع يتناول التاريخ الحديث.

